

هارب من الإعدام

ذاكرة شيوعي بين الموصل وموسكو

الدكتور خليل عبد العزيز

اسم الكتاب: «هارب من الإعدام» ذاكرة شيوعي بين الموصل وموسكو

اسم الكاتب: الدكتور خليل عبد العزيز

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

الطبعة الأولى - بيروت 2023

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: 2022 /

ISBN:

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الراء المنشورة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.



مكتبة النهضة العربية



مكتبة النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - بغداد - ساحة التحرير - مدخل شارع السعدون - عمارة فاطمة

✉ alnhtha_co@yahoo.com

P.O-Box: 6555
AL- Rasheed post office - Baghdad - Iraq

+964 (0) 771 3000 191
+964 (0) 790 1378 602

الدكتور خليل عبد العزيز

هارب من الإعدام

ذاكرة شيوعي بين الموصل وموسكو



مكتبة النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

الإهداء

والدتي ووالدي، لكما اهدي كتابي هذا. اعتزازا
وعرفانا بجميلكما وعدم وقوفكما ضد
توجهاتي السياسية منذ كنت في المدرسة
الابتدائية.. كل الاعتزاز والتقدير والحب لكما.

دكتور خليل عبد العزيز

هه و النامه كتيب

المحتويات

١١	«المقدمة» سيرة ذاتية ديناميكية بين الموصل - بغداد - موسكو - عدن - ستوكهولم - الدكتور كاظم حبيب
٢٣	الفصل الأول «محطات / تحرير الكاتب والصحفي فرات المحسن»
٢٥	١ - تمهيد
٢٦	٢ - كيف ارتبط الدكتور خليل عبد العزيز بالحركة الوطنية؟
٣٤	٣ - الخروج من سجن بعقوبة
٤٦	٤ - تجدد العلاقة باتحاد الطلبة العراقي العام في الموصل
٥٩	٥ - القبول في كلية الصحافة / جامعة موسكو
٧٤	٦ - في معهد الاستشراق السوفيتي
٨٢	٧ - زيارة مرتقبة إلى السعودية لم تتحقق
٨٨	٨ - رفض الجنسية السوفيتية
٩٠	٩ - طبع اطروحة الدكتوراه بكتاب
٩٥	الفصل الثاني «شخصيات التقيتها»
٩٧	١ - يفغيني بريماكوف / رجل يعرف من اين تؤكل الكتف
١١٠	٢ - الرئيس جمال عبد الناصر
١١٤	٣ - علي صبري والموقف من الشيوعيين

- ٤ - محمد حسنين هيكل كما عرفته ١١٥
- ٥ - جمهورية اليمن الديمقراطي والرئيس عبد الفتاح إسماعيل ١٣٢
- ٦ - الملك حسين ابن طلال ١٤٥
- ٧ - الرئيس حافظ أسد ١٤٩
- ٨ - كوامي نكروما والمثال الغاني للأشتركية ١٥٣
- ٩ - الرئيس الصومالي محمد زياد بري ١٥٦
- ١٠ - فصيل شيوعي صومالي ١٦٢
- ١١ - الجنرال مصطفى البرزاني ١٦٥
- ١٢ - فاضل البراك ١٦٧
- ١٣ - صالح مهدي عماش سفيراً للعراق في موسكو ١٨٠
- ١٤ - آما آتا المحطة الأولى لمهرجان الفارابي ١٩١
- ١٥ - مفتاح سحري ينعش آمالي برؤية الوطن ١٩٧
- ١٦ - السفر إلى بغداد ومقابلة الرئيس أحمد حسن البكر ٢٠١
- ١٧ - محاولات اغتيال عبد الحليم خدام ٢١١
- ١٨ - اللقاء بوزير الثقافة طارق عزيز ٢١٣
- ١٩ - مقتل صالح مهدي عماش ٢٢٤
- الفصل الثالث «حوارات حررها فرات المحسن» ٢٢٧
- ١ - السياسة السوفيتية والاحزاب الشيوعية العربية ٢٢٩
- ٢ - الدراسة في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية ٢٤٧
- ٣ - شعار الصداقة بين الشعوب بين النظرية والمأل ٢٥٩
- ٤ - الإعلام الشمولي في الاتحاد السوفيتي ٢٨٠
- ٥ - زلزال هز العالم/ أسباب سقوط الاتحاد السوفيتي ٢٨٨
- حوارات أجراها الصحفي محمد الكحط ٣٠٣
- ١ - توضيحات الحزب الشيوعي العراقي لن تذهب هباء ٣٠٣
- ٢ - حركة الشواف من جديد ٣٠٩
- ٣ - اليمن السعيد بين الأمس واليوم ٣٢٤
- ٤ - تكريم الدكتور خليل عبد العزيز من قبل عمادة كلية الصحافة في جامعة موسكو ٣٣٠

٣٣٣	الفصل الرابع «مقالات بقلم الدكتور خليل عبد العزيز»
٣٣٥	١ - ذكريات مع الصحافة الشيوعية في العراق
٣٣٧	٢ - الموصل دماء ودموع
٣٣٩	٣ - حول العملية الإرهابية في ستوكهولم
٣٤٢	٤ - سر الطائرة السوفيتية
٣٤٦	٥ - بعد ٦٢ عاما تتكشف الحقائق
٣٤٩	٦ - في ألمانيا الديمقراطية
٣٥٢	٧ - الوجهة الجديدة السويد
٣٥٩	الفصل الخامس «شهادات»
٣٦١	١ - عن بعض العراقيين الذين مروا بموسكو / أ.د ضياء نافع
٢٦٩	٢ - قراءة في كتاب - محطات من حياتي / أ.د ضياء نافع
٣٧٣	٣ - خمس ساعات في موسكو مع دكتور خليل عبد العزيز / أ.د ضياء نافع
٢٧٦	٤ - غفوروف و خليل عبد العزيز في طاجكستان / أ.د ضياء نافع
٣٧٩	٥ - كتاب نصف قرن / أ.د ضياء نافع
٣٨٢	٦ - أ محطات من حياة الدكتور خليل عبد العزيز / الدكتور إبراهيم خليل العلاف
٣٨٦	ب - رد الدكتور خليل عبد العزيز على الدكتور إبراهيم العلاف
٣٨٩	ج - مرة أخرى خليل إبراهيم العلاف في رد على دكتور خليل عبد العزيز
٣٩٣	د - رد وتوضيح من الدكتور خليل عبد العزيز إلى الدكتور إبراهيم خليل العلاف ..
٤٠٠	٧ - خلاف بين خليل وإبراهيم ثم حوار فوئام
٤٠٦	٨ - شيء عن الموسيقى خاشاتوريان / أ.د ضياء نافع
٤٢١	ملحق الصور

هه و النامه كتيب

المقدمة

سيرة ذاتية ديناميكية

بين الموصل - بغداد - موسكو - عدن - ستوكهولم

الدكتور كاظم حبيب

هه و النامه كتيب

تناولت شخصيتان أدبيتان وصحفتان معروفتان، هما الكاتب والصحفي فرات المحسن، والكاتب والصحفي الدكتور محمد الكحط، سيرة حياة المناضل الوطني الشيوعي العراقي الدكتور خليل عبد العزيز عبر لقاءات مكثفة، فتوقفا معه عند محطات وصفحات مهمة من حياته التي تميزت بالحركة والتنوع والجرأة في ولوج المخاطر وعبورها بسلام. وتمكنا من إبراز هذا الطابع الحركي وتلك الحيوية في النشاط والتأثير الملموس في المجالات والمواقع التي وجد وعمل فيها وتفاعل مع أحداثها ولم يقف متفرجاً فيها، بل كان وما زال مساهماً ومؤثراً ومستفيداً من ظروف مناسبة وفرت له إمكانية التحرك والنشاط الملموس والمفيد. لا شك في وجود معلومات وأسرار أخرى كثيرة يحتفظ بها الصديق أبا نادية ربما ستظهر في كتاب آخر يتحدث فيه ما لم يرغب بطرحه اليوم وفي هذا الكتاب، أو ربما ستجد طريقها عبر مقالات أخرى مع الصديقين فرات المحسن ود. محمد الكحط.

فالكتاب الذي يضعه الصديق والرفيق خليل عبد العزيز بين أيدي القارئات والقراء الكرام يتضمن صفحات ومحطات مهمة من تاريخ حياته السياسية والصحفية والعلمية بالعراق والاتحاد السوفيتي والسويد، صفحات من النضال الديمقراطي والعمل الجاد والجهد الدؤوب، الذي لم يخل من متاعب كبيرة وعقبات غير قليلة، تجاوزها بحيويته المعهودة، التي عرفتها فيه منذ أن عشنا سوياً في دارين متجاورين بمدينة بكرة، المنفى الحدودي للشيوعيين العراقيين في فترة العهد الملكي، ولا سيما في فترة الخمسينيات من القرن الماضي.

لقد بدأ نضاله الطلابي ومن ثم السياسي في الحزب الشيوعي العراقي مبكراً، كما هو حال الكثير من صبيان وشباب سنوات الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي. فالحركة الديمقراطية والشيوعية بالعراق قد بدأت في فترة مبكرة بممارسة عملية التوعية والتنوير وشحن الهمم للنضال ضد الاستعمار البريطاني وأحلافه العسكرية، ومن

أجل الحريات والحقوق الديمقراطية، وبناء الاقتصاد العراقي وتجاوز حالة التخلف والتبعية. كما ساهم في نشر الوعي بين طلاب وطالبات المدارس الثانوية والمعاهد والكليات، وبين المعلمين وأساتذة الكليات، وكذلك بين عمال الموانئ والسكك الحديدية ومشاريع شركات النفط الأجنبية، إضافة إلى المشاريع الصناعية الحديثة وعمال البناء، وبين فلاحي ومزارعي العراق. ولم يقتصر نشاطه على المنطقة العربية من العراق بل امتد إلى كردستان إلى الشعب الكردي وإلى أبناء وبنات القوميات الأخرى التي أكد حقوقها وبرّز مصالحها والدفاع عنها في برامجها السياسية منذ بداية وجود الحزب الشيوعي حتى يومنا هذا. ومبكراً أيضاً دخل خليل عبد العزيز السجن والإبعاد، وهو ما يزال في أوائل العشرينات من عمره، فتصلب عوده واكتسب خبرة في العمل السياسي السري وفي مواجهة المصاعب والمتاعب والتغلب عليها، مما ساعدته على امتلاك سمة التفكير المستقل واتخاذ القرار المناسب حتى لو أجبر، ولكنه اقتنع بضرورة رفض تنفيذ قرار أو موقف خاطئ من مسؤوله الحزبي أو من الحزب عموماً. لقد حكم عليه بالإعدام في أعقاب حركة الشواف التأميرية في العام ١٩٥٩ التي نفذتها ثلاث قوى وأحزاب سياسية: هي البعثيون والقوميون العرب، والمحافظون والإسلاميون السياسيون وكبار ملاك الأراضي والرجعيون وبدعم كبير من الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا)، بالموصل مع مجموعة من رفاق الحزب الشيوعي، والذين تم إنقاذهم وتسفيرهم إلى بلدان اشتراكية بأسماء وهويات مستعارة. لقد كانت مرحلة معقدة من حياة الشعب العراقي. فحكومة عبد الكريم قاسم وطنية ونفذت سياسات وإجراءات وطنية، ولكن قائد الثورة، رغم وطنيته ونزاهته الشخصية، مارس في الوقت ذاته سياسات داخلية وخارجية فردية، انتهت عملياً إلى مصادرة الكثير من الحريات العامة والحقوق الأساسية، بما في ذلك امتنع عن وضع دستور دائم وانتخاب برلمان ديمقراطي نزيه، أو دخوله الحرب ضد الشعب الكردي، أو مطالبته بالكويت، باعتباره قضاء تابعاً للواء البصرة منذ العهود السابقة، واستخدامه سياسة فرق تسد

بين الأحزاب والقوى السياسية العراقية، مما فسح في المجال لنجاح التآمر على الحكم الوطني وإسقاطه في شباط/ فبراير ١٩٦٣ من جانب ذات القوى التي تأمرت ضده بالموصل، ولكن بالتعاون مع قوى محلية وعربية وإقليمية ودولية جديدة.

لقد عاش خليل عبد العزيز ما يقرب من نيف وعقدين من السنين بمدينة موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي، درس وعمل فيها طالباً وباحثاً وصحفيّاً ووسيطاً وعضواً ضمن الوفود المهمة، مما وفر له ذلك إمكانية التعرف على الكثير من الشخصيات السياسية والعلمية والاجتماعية المهمة بالاتحاد السوفيتي وبالذول العربية وغيرها من الدول الذين كانوا يزورون الاتحاد السوفيتي، أو مرافقا للشخصيات والوفود التي كانت تزور تلك البلدان، وكذلك الاطلاع على الكثير من الأسرار، التي ما يزال لم يبح بها، فهو شاهدٌ حيٌّ على الكثير من المباحثات والنقاشات والتصورات التي كانت تجري وتطرح في تلك اللقاءات والمؤتمرات والاجتماعات بين السياسيين السوفيت والعراقيين أو المصريين أو اليمنيين أو غيرهم. كما أنه كان قريباً جداً من تلك الخلاقات والاختلافات والصراعات التي كانت تبرز بين الشخصيات العلمية ومعاهد البحث العلمي ومراكز القوة السياسية بالاتحاد السوفيتي، أو بين السياسة والسياسيين السوفيت والعلماء والمعاهد العلمية السوفيتية، وبين من هم كانوا مخلصين فيما يطرحونه من سياسات ومواقف، وبين شخصيات انتهازية كان همها الحصول على المراكز والأموال بغض النظر عن النتائج أو العواقب. ومع إن التشخيصات الواردة في الكتاب تعبر عن وجهة نظر د. خليل عبد العزيز وعن رؤيته للأمور، إلا إن من يعرف الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الأخرى يدرك صحة تقديراته وصواب استنتاجاته.

لقد تمكنت ظواهر البيروقراطية والفساد والمحابة والروح الانتهازية ونسيان المبادئ، التي تبناها الحزب الشيوعي السوفيتي وأكدها الدولة السوفيتية في

دستورها/ من اختراق النظام السوفييتي برمته، وساعد على ذلك غياب كامل للفصل بين الحزب والدولة بسلطاتها الثلاث وخضوعها التام لقرارات ومواقف الحزب، وبين الحزب ومنظمات المجتمع المدني والنقابات، وبين الحزب وأجهزة أمن الدولة (KGB) State Security Committee، وهيمنة هذا الجهاز السياسي والأمني في آن واحد على الحياة العامة وحياة الفرد السوفييتي. وقادت هذه الظواهر السلبية إلى الكثير من صور الفساد اليومي التي تحدث عن بعضها الصارخ الدكتور خليل عبد العزيز. وفي جوابه عن السؤال التالي: - ألم يكن هناك من يعترض أو يصحح تلك السياسات؟ قال الدكتور خليل ما يلي:

«هذا السؤال حيوي لذا يمكنني القول، لم تكن هناك في الاتحاد السوفييتي ديمقراطية وكان نظام الحكم قمعياً وكابحاً للحريات، وكل ذلك يجري تحت شعار دكتاتورية البروليتاريا، ووفق ذات الشعار يصنف أي معترض أو معارض، وحول أية قضية كانت، بأنه معادي للدولة الاشتراكية ومروج للأفكار الرأسمالية. وكانت جميع قوائم الانتخابات داخل الحزب تعد سلفاً ولا يقبل أي صوت معارض لها. فمقولة الحزب الأوحده لا تعطي أي مجال للتعبير عن الرأي. ولكن قولي هذا لا يعني خلو الساحة من العقلاء والحكماء والعلماء والمفكرين ولكن جميع هؤلاء لا يجدون مجالاً للإفصاح عن آرائهم وبالذات في المسائل الحيوية التي تهم المجتمع والحزب والدولة، ودائماً ما تقمع تلك الآراء لصالح سيادة ووحدة الحزب، وخلال الاجتماعات الحزبية لا توجد هناك آراء مخالفة يسمح بمناقشتها، وبشكل حاسم يصوت على التوصيات والقرارات بنعم، ودائماً ما تظهر النتائج للعلن وكأن الحزب كتلة متجانسة تحافظ على وحدتها وإيمانها الراسخ بالاشتراكية العلمية، ولكن تلك الوحدة تتصدع لتغير العبارات خارج الاجتماع وأثناء أوقات الاستراحة، وبشكل سري وهامس يبدأ حديث مخالف كلياً لما طرح في الاجتماع وما قاله الحزب وسلطة الطبقة العاملة.»

هنا تكمن واحدة من أكثر المشكلات حساسية، وأعني بذلك «النقد والنقد الذاتي»، الذي يفترض أن يمارس بوعي ومسؤولية وحرص تام على مصالح الشعب قبل الحزب، ولكن هذا المبدأ انتهك بفظاظة وقاد ذلك إلى عواقب وخيمة جداً. فالظواهر السلبية الحادة والمميتة كانت معروفة للجميع، سواء أكان داخل الاتحاد السوفيتي أم بين شيوعيين وتقدميين العالم، ومنهم شيوعيو وتقدميو العراق، وكان لا بد من التعرض لها ونقدها، ولكن لم يحصل ذلك لا من الأفراد ولا من الأحزاب بشكل عام. والسؤال: لماذا لم يمارس هؤلاء النقد المناسب والرفاعي للمشاركة في معالجة الأوضاع في هذا البلد الاشتراكي الأول الذي انبثق لينشر السلام والحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، فتغيب عنه هذه المبادئ والقيم بالذات وإلى حدود بعيدة. إنها محنة الشيوعيين والتقدميين في البلدان الأخرى التي واجهتهم دوماً، فهم يخشون ممارسة النقد فيتهمون بالتحريفية ومعاداة السوفييت، أو أنهم يخشون من أن يستفيد منها أعداء الاشتراكية في العالم، أي الدول الرأسمالية الكبرى، ضد هذه الدولة وبقية الدول الاشتراكية، أن أنهم انتهازيون يخشون على المكاسب التي كانت توفرها الدولة الاشتراكية لهم أثناء زيارتهم لهذه الدولة العملاقة والهشة في داخلها بسبب الأخطاء التي رافقت تكوينها ومسيرتها النضالية المديدة. ولم يكن هذا الموقف سليماً وقاد إلى العواقب المعروفة بالزلزال الذي هز العالم حين انهار الاتحاد السوفيتي وبقية بلدان أوروبا الشرقية ومنغوليا وأجرى تغييراً في موازين القوى على الصعيد العالمي لصالح الدول الرأسمالية، وأعطى الانطباع الخاطئ وكأن الرأسمالية قد انتصرت وإلى الأبد، كما جاء في كتاب فرنسيس فوكوياما، الموسوم نهاية التاريخ وخاتم البشر مثلاً. وقد تراجع فيما بعد عن هذه الرأي المتحيز وغير الموضوعي. (قارن: فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، طبعة أولى، ١٩٩٣). لم يكن العيب في المبادئ الاشتراكية بل في فهمها وتطبيقاتها الخاطئة أولاً، وفي القصور الكبير في استيعاب ووعي حركة وفعل

القوانين الاقتصادية والاجتماعية الموضوعية وفي التعامل معها والتجاوز الفظ عليها ثانياً، وكذلك في تفاقم البيروقراطية والنرجسية المرضية والسادية والروح الانتهازية لدى أبرز القيادات، والتي تجلت بشكل صارخ واستثنائي في نشاط وممارسات يوسف ستالين.

يضع الدكتور خليل عبد العزيز اصبعه على جرح كبير يمس العلاقة بين قيادات وكوادر الحزب الشيوعي السوفيتي ومعاهده البحثية من جهة، والأحزاب الشيوعية والعمالية، ضمن حركة أو أحزاب الأمية الثالثة، من جهة أخرى. ويشير بوضوح إلى جانبين من هذه المسألة:

١. طلب الأحزاب الشيوعية بالدول العربية تدخل السوفييت في حل مشكلات داخلية لأحزابهم، سواء أكانت سياسية أم تنظيمية، وهو أمر كان يساعد على التدخل في شؤون هذه الأحزاب. ويورد الحزب الشيوعي اللبناني نموذجاً صارخاً في هذا المجال، وأضيف عليه طلب الشيوعيين السوريين تدخل الحزب الشيوعي السوفيتي في معالجة الخلافات فيما بين قياديي الحزب.

٢. تدخل الحزب الشيوعي السوفيتي في شؤون الأحزاب الشيوعية من خلال تقديم النصيح أو المشورة أو حتى أكثر من ذلك. ويشير بهذا إلى موقف الحزب الشيوعي من الوضع بالعراق في فترة قاسم، كما يمكن إضافة الوضع بالعراق في فترة حكم البعث الثانية.

ولا بد من القول بأن المسؤولية في ذلك تقع بالأساس على الأحزاب الشيوعية التي تمارس ذلك، أو تسمح بالتدخل في شؤونها، إذ إن الاتحاد السوفيتي يحاول دفع المسارات بما يخدم قضاياها الدولية أو صراعاته على الصعيدين الإقليمي والدولي. وبهذا الصدد يذكر خليل عبد العزيز في كتابه ما يلي:

«وفي واحدة من تلك المهازل نستطيع أن نعود لتاريخ العلاقة بين العراق والاتحاد

السوفيتي وبالذات على عهد الزعيم عبد الكريم قاسم، حيث طلب من الحزب الشيوعي أن يتخذ موقف المساندة الدائم للزعيم والامتناع عن إثارة الخلافات معه، لا بل ضرورة الاصطفاف معه وتأييده في مجمل سياساته، وقد وقفت القيادة السوفيتية موقفاً قامعا لجميع الأصوات داخل الحزب الشيوعي العراقي والتي كانت تندد بسياسة الزعيم عبد الكريم أو تشير لبعض أخطائه. ويعود السبب الرئيس لهذا الموقف، لضمان وقوف الزعيم عبد الكريم والدولة العراقية مع الاتحاد السوفيتي في المحافل الدولية.»

لا شك في أن الحزب الشيوعي بالاتحاد السوفيتي أو الدولة السوفيتية، وكذلك الأحزاب والدول الاشتراكية الأخرى، قد قدمت دعماً وتأييداً واسعاً للدول العربية ولحركة التحرر الوطني وقواها السياسية الديمقراطية وللأحزاب الشيوعية أيضاً. ولكنها في ذات الوقت قد ساهمت وبمستويات مختلفة في إقامة تحالفات مع نظم سياسية غير ديمقراطية واستبدادية بالدول العربية، أو اعطتها «شهادة زور» حين اعتبرتها دولاً تسير على طريق التطور «اللا رأسمالي» نحو الاشتراكية، إذ لم يكن الأمر كذلك بأي حال. وقد شخص الدكتور خليل عبد العزيز هذه التجاوزات والأخطاء بوضوح كبير وطرح أمثلة واقعية وملموسية بوعي ومسؤولية كبيرين، ومنها جمهورية مصر العربية.

ويتطرق خليل عبد العزيز في كتابه إلى نضال وتضحيات الحزب الشيوعي العراقي في سبيل بناء «وطن حر وشعب سعيد» فيؤكد: «كانت أفكار ونشاطات الحزب تعتبر العامل الرئيسي في زج الجماهير الشعبية بالنضال السياسي والاجتماعي والاقتصادي ومن أجل حقوقها العادلة والإطاحة بالسلطة الحاكمة، وكان الثمن غالياً تمثل في الإعدامات وزج المئات بل الآلاف في المعتقلات والسجون والإبعاد القسري.» لا شك في أن هذا التقدير له الكثير من الصحة، ولكن كان للقوى والأحزاب

الديمقراطية العراقية الأخرى دورها في التوعية الفكرية والسياسية أيضاً وفي زج الجماهير في المعارك السياسية التي عاشها العراق في ظل الحكم الملكي، ومنها وثبة كانون وانتفاضة تشرين وانتفاضة ١٩٥٦ على سبيل المثال لا الحصر، كالحزب الوطني الديمقراطي والحزب الديمقراطي الكردي (الكردستاني فيما بعد) والأحزاب التي برزت في أعقاب الحرب العالمية الثانية ومنها جماعة «وحدة النضال»، التي كان يقودها الشخصية الوطنية والديمقراطية الكبيرة عزيز شريف، كما كان للقوميين دورهم في تلك الفترة أيضاً، ومنهم حزب الاستقلال، وفيما بعد حزب البعث أيضاً، رغم العداء الواضح الذي كان لدى الكثير من قادة وأعضاء هذين الحزبين وفي أيديولوجيتهما القومية اليمينية إزاء الحزب الشيوعي العراقي والقوى اليسارية عموماً، إذ اتسمت مواقفهما بشوفينية قوية أثرت في الكثير من الأحيان على تحقيق وحدة القوى المناضلة، ولا سيما موقفهما المتشنج من الحزب الديمقراطي الكردستاني ومن القضية الكردية عموماً، والتي قادت فيما بعد إلى عواقب وخيمة على العراق بسبب ممارستها من جانب القوى القومية اليمينية والبعثية بالعراق، ومنها انقلاب شباط/ فبراير ١٩٦٣ أو النظم السياسية والحكومات القومية والبعثية التي حكمت العراق طيلة الفترة الواقعة بين ١٩٦٣-٢٠٠٣.

ومن الجدير بالذكر إن الحزب الشيوعي العراقي، ورغم تضحياته الكبيرة والمستمرة والعنت والقمع الذي تعرض له منذ يوم ولادته، قد تميز بسمة نضالية كبيرة وأساسية، فنضاله العنيد والصبور في سبيل الحياة الحرة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، ومن أجل تحقيق الاستقلال والسيادة الوطنية، وسعيه الحثيث لنشر التنوير والتوعية الفكرية والسياسية والاجتماعية في صفوف المجتمع العراقي والدفاع عن حقوق الإنسان وحقوق القوميات، لم يتوقف على مدى نيف وثمانية عقود، أي منذ تأسيسه في العام ١٩٣٤، بل وقبل ذلك منذ أن برزت أولى الخلايا الشيوعية ببغداد والبصرة والناصرية، حتى الآن وسيستمر دون أدنى ريب لتحقيق النصر الفعلي للشعب في

العيش في ظل دولة ديمقراطية تفصل بين السلطات الثلاث وتحترم استقلال القضاء والسلطة الرابعة (الإعلام) وتفصل بين الدين والدولة وتحترم كل الأديان والمذاهب وتضمن الأمن والاستقرار والتقدم والحياة الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتآخي والتضامن بين جميع القوميات وأتباع الديانات والمذاهب بالعراق وضمان حقوقها العادلة والمشروعة.

ويتطرق الكاتب أخيراً وليس آخراً إلى واقع العراق الراهن وما حصل فيه من تجاوز على الإنسان وحقوقه وحرياته، والذي يعتبر امتداداً لمآسي وكوارث وحروب الفترات السابقة، لا سيما ما حصل للشعب العراقي بكل قومياته وأتباع دياناته ومذاهبه بعد إسقاط الدكتاتورية واحتلال العراق وإقامة نظام سياسي طائفي يعتمد المحاصصة الطائفية في الحكم، والتي تعتبر تجاوزاً فظاً على الإنسان وهوية المواطنة الحرة والمتساوية وعلى حقوق الإنسان ومدمراً لاقتصاده وحياته الاجتماعية. ثم يشير بدموع الحزن لما حصل بالموصل الحذباء وبقية قرى وأرياف ومدن محافظة نينوى في ظل هذا النظام وفي ظل الاستبداد والفساد والإرهاب. وكل الدلائل تشير إلى أن الموصل قد سُلمت تسليم اليد لعصابات داعش الإرهابية التي مارست ليس الإرهاب والقمع والقتل والنهب والسلب والتخريب والتدمير الحضاري فحسب، بل مارست الاستباحة والسبي والاعتصاب وبيع النساء الإيزيديات، اخواتنا الكريمات، في سوق النخاسة الإسلامي، واعتصاب البنات القاصرات بذريعة الزواج الإسلامي ابتداءً من تسع سنوات.. إنها جرائم بشعة، جرائم إبادة جماعية، لم يكشف عن المتورطين بها ومن يقف خلفها وتقديم ملفاتهم للقضاء لإصدار الأحكام العادل بحق من فرط بالشعب وارض وحضارة الوطن. ويتمنى على العراق أن يخرج من هذا المستنقع لا بتحرير الأرض من رجس العصابات الإرهابية، الذي يقترب الآن من نهايته، بل والخلاص من النظام السياسي الطائفي وإقامة نظام مدني ديمقراطي حديث يحترم الإنسان وحرية وكرامته ويبجل هوية المواطنة ويتخلى عن الهويات الفرعية القاتلة كأساس في

الحكم، ولكن يحترمها، ويتخلص من التدخل الخارجي في الشأن الداخلي العراقي. إنه الطريق الشاق والطويل، ولكنه المطلوب لصالح الشعر والوطن.

إن هذه المقدمة لا يجوز لها أن تطرح كل القضايا المهمة التي وردت في هذا الكتاب، بل لها أن تشير إلى بعضها لتجلب انتباه القارئ والقراء الكرام إلى أهمية ما ورد فيه وأهمية الاطلاع عليه. فالكتاب يقدم للقارئ والقراء الكرام بالعراق والدول العربية وقراء العربية شهادة حية وصادقة عن أحداث مرَّ بها الشعب العراقي واثرت إيجاباً أو سلباً على حياته الراهنة ومستقبل أجياله القادمة، إنه إغناء للمكتبة العربية.

ههوالنامهى كئئب

الفصل الأول

محطات

تحرير الكاتب والصحفي «فرات المحسن»

هه و النامه كتيب



تمهيد:

وُلِدَ الدكتور خليل عبد العزيز في مدينة الموصل من أسرة متوسطة الحال، أسهم في الحركة الوطنية منذ أعوام الخمسينات، حيث بادر بتشكيل اتحاد الطلبة العراقي العام في مدينة الموصل وأصبح رئيساً له، وشارك في تظاهرات انتفاضة العام ١٩٥٢.

في العام ١٩٥٤ أصبح ممثلاً للطلبة في لجنة الجبهة الوطنية، التي شكلت آنذاك وخاضت الانتخابات النيابية، وعلى إثر قيام حكومة نوري السعيد بحل المجلس النيابي، شارك في التظاهرات الاحتجاجية وعندها صدر أمرٌ بإلقاء القبض عليه، لذا تقرر انتقاله إلى بغداد، حيث أصبح عضواً في اللجنة العليا لاتحاد الطلبة العراقي العام. كما عمل في تنظيمات الطلبة التابعة للحزب الشيوعي العراقي.

في عام ١٩٥٦ أُلقيَ القبض عليه في بغداد وصدر قرار بالحكم عليه بالحبس لمدة عام واحد، قضاهما في سجن بعقوبة، وبعد انتهاء فترة الحكم، أبعِدَ إلى مدينة بكرة الحدودية التابعة للواء الكوت، بعد ذلك سُيِّقَ إلى معسكر الشعبية جنوب العراق لأداء الخدمة العسكرية، بعد أن فُصل من الدراسة وزوال أعذار تأجيله من أداء الخدمة العسكرية. وكان معسكر الشعبية يضم أكثر من ١٥٠ مناضلاً وطنياً من جميع أنحاء العراق. وأثناء خدمته في ذلك المعسكر قامت ثورة الرابع عشر من تموز العام ١٩٥٨.

عاد إلى الموصل بدها، وتقلد مركز رئيس اتحاد الطلبة العراقي العام هناك، أعتقل ليلة مؤامرة الشواف وأودع في الثكنة الحجرية، أطلق ضباط وجنود كتيبة الهندسة المواليون للجمهورية سراحه مع بقية المعتقلين، أسهم بنشاط في عمليات قمع حركة الشواف.

في عام ١٩٥٩ صدرت بحقه عدة أحكام بالإعدام بتهمة المساهمة في القتل وقمع الحركة، هُربَ إلى موسكو من قبل الحزب الشيوعي، ليبدأ صفحة أخرى من حياته، أنهى فيها الكلية التحضيرية للغة الروسية، ثم درس وحصل على الماجستير عن رسالته حول الحزب الوطني الديمقراطي العراقي.

نال بعدها شهادة الدكتوراه في الإعلام، وعمل باحثاً علمياً في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية في موسكو، يعيش حالياً في العاصمة السويدية ستوكهولم.

كيف ارتبط الدكتور خليل عبد العزيز بالحركة الوطنية؟

منذ صغر سني وفي المدرسة الابتدائية كانت عندي هواية القراءة والاطلاع، لذا كنت أقتني الصحف والمجلات مثل جريدة الزمان لصاحبها توفيق السمعاني وجريدة الحوادث لصاحبها عادل عوني وجريدة اليقظة. وكانت هذه الصحف وغيرها تصل الموصل صباح كل يوم، وأيضاً هناك بعض الصحف تصدر في الموصل منها فتى العراق.

عند قيام وثبة كانون ضد معاهدة بورتسموث عام ١٩٤٨ شاركت في التظاهرات التي خرجت في الموصل وهتفت بحماس بسقوط نوري السعيد وحكومة صالح جبر، وكان عمري حينذاك بين ١٤ أو ١٥ عام وكنت حينها في المدرسة الابتدائية والسبب في وضعي الدراسي هذا هو حدوث تغير في مواليدي، فأنا من مواليد عام ١٩٣٤ ولكن

سجلت في دفتر النفوس من مواليد عام ١٩٣٦. كان سبب مشاركتي في التظاهرات، المشاعر الوطنية التي ألهبت العديد من أهالي الموصل، ولم تكن لدي معلومة كافية عن المعاهدة أو طبيعة سلطة نوري السعيد والوزير صالح جبر، بقدر شعوري بواجب المشاركة مع أبناء بلدي.

واصلت دراستي في المدرسة المتوسطة ووجدتني في وسط مجموعة تشاركني العواطف الوطنية وكنا ندخل في نقاشات عن الأوضاع في العراق وسياسات الحكومة الفاشلة والجائرة. كان ذلك بداية أعوام الخمسينات من القرن العشرين. كنا نسمع عن وجود تنظيم طلابي في العراق باسم اتحاد الطلبة العراقي العام، وبعد نقاشات وتساؤلات اقتنعنا نحن مجموعة صغيرة من الطلبة بتشكيل هذا الاتحاد في مدينتنا. كان بيننا عدد قليل ممن ينتمون لتنظيمات الحزب الشيوعي العراقي تنظيم الموصل، لذا طرح هؤلاء على الحزب فكرة تشكيل فرع للاتحاد العام للطلبة، وبدوره رحب الحزب بالفكرة، عندها قمنا بتوجيه رسالة إلى اللجنة العليا لاتحاد الطلبة شرحنا فيها وضعنا ورغبتنا في العمل ضمن الاتحاد فأجابنا المقر العام مرحبا ومؤيدا خطوتنا، عندها قمت أنا وحازم جميل وصلاح إسماعيل وسعد يحيى قاف بتشكيل اتحاد الطلبة فرع الموصل. منذ بداية عام ١٩٥١ أصبحت لدي علاقة بالحزب الشيوعي العراقي من خلال بعض رفاق منظمة الحزب، وكنت خلال فترات سابقة أستلم نشرات ومطبوعات الحزب وأشارك بتوزيعها، بعد ذلك رشحت بداية عام ١٩٥٢ لعضوية الحزب الشيوعي العراقي.

عام ١٩٥٢ كانت هناك انتفاضة جماهيرية وتظاهرات مستمرة وإضراب عام في بغداد بالصد من القوانين الجائرة فيما يخص التعليم وأيضا قانون الانتخابات، عندها قررنا التضامن والمشاركة في التظاهرات. كان لقرارنا هذا وبسبب قلة عددنا وضعف خبرتنا ردة فعل غير مشجعة من اتحاد الطلبة المقر العام، فجواب الاتحاد كان يومها

الطلب منا دراسة معمقة وواعية لطبيعة وغاية ونتائج الإضراب والتروي في اتخاذ القرار، كون الإخفاق وانتكاسة العمل ستؤد الفكرة من أساسها وتكون ردة الفعل سلبية على اتحادنا الناشئ، أما جواب اتحاد الطلبة فكان من خلال إرسالهم مندوب عرفت أنه طالب في دار المعلمين العالية ومن أهالي البصرة لا أتذكر اسمه، وقد أسكناه في فندق بسيط، كون جميع قادة الاتحاد من صغار السن وأنا واحد منهم ولا يمكننا مفاخرة أهالينا بالأمر وإسكان ضيوف غرباء أكبر منا سناً.

سألنا مندوب الاتحاد عن فكرة الإضراب والغاية منها، فبيننا له طبيعة المهمة، حيث سنقوم أولاً بتوزيع بيانات يتم استنساخها يدوياً ندعو فيها إلى إضراب عام في مدارس الموصل وفي يوم محدد، عندها سأل المندوب عن قوانا العددية، وكان عددنا في ذلك الوقت لا يتجاوز التسعة طلاب تتوزع بين مدارس الموصل المتوسطة والثانوية، فسأل عن أعداد الطلبة المنتمين للاتحاد فأجبتنا بأن لا وجود لخلايا أو قواعد للاتحادنا ولكننا على يقين بأن هناك أعداداً كبيرة من الطلبة تؤيدنا. عندها قال مندوب الاتحاد، كيف يتسنى لكم التفكير بالإضراب وعددكم الكلي لا يتجاوز التسعة أشخاص، واستخف المندوب بما نوبنا عليه وراح يشرح لنا مساوئ ما ستوف نقوم به وما سوف نواجهه لاحقاً من قمع السلطة، وطلب منا الابتعاد عن مثل هذا التفكير. وبعد أن وجدنا الإصرار والتعنت بالمواقف، أعلن مندوب اتحاد الطلبة العام موقفه الحاسم بالضد من توجهنا وترك اللقاء وعاد إلى بغداد.

قمنا بكتابة واستنساخ نداء موجه إلى طلبة مدارس الموصل ندعوهم للإضراب في يوم محدد. جرى استنساخ ما بين ثلاثين إلى أربعين نسخة من النداء ووزعت في المدارس المتوسطة والثانوية بشكل سري، وقمنا وبشكل فردي موزعين على المدارس للتحريض والدعوة للإضراب. يوم الإضراب وعند قيامنا بالتحريض كان أول من واجهنا محسن توحله الذي كان مديراً للثانوية الشرقية، فراح يوجه لنا شتائم ويندد بها

نقوم به، قائلا ما الذي تفعلونه أيها العجاي (أطفال) أدخلوا إلى صفوفكم أفضل لكم. بدورنا بدأنا نهتف ضد سلطة نوري السعيد، عندها أجمع حولنا الطلبة يشاركونا الهتافات، وقد امتدت التظاهرات والإضراب ليشمل ثلاث مدارس توقفت فيها الدراسة تماما واستمر الإضراب لما بعد الثالثة عصرا.

كان هذا الإضراب عاملا حاسما في إثارة المشاعر الوطنية بعد أن كانت قد رفعت فيه شعارات ضد الاستعمار والرجعية العميلة وبالذات حكومة نوري السعيد، وبعد نجاح هذا الإضراب وجدنا البعض من الطلبة يطلبون الانتماء لاتحادنا. ومن أهم ردود الفعل التي ظهرت بعد الإضراب كان الاعتقاد الذي ساد الشارع الموصل بأن اتحادنا الطلابي يضم المئات من الطلبة في صفوفه، رغم إن الحقيقة غير ذلك على الإطلاق، لا بل أن طلبات الانتماء التي قدمت للاتحاد كانت قليلة.

بعد نجاح الإضراب نلت الترشيح إلى الحزب الشيوعي وقد حصلت عليه عبر شخص أسمه أسامة جلميران جاء ليخبرني بذلك، عندها انتظمت في خلية حزبية للمرشحين، لم يمض على وجودي فيها غير ثلاثة أو أربعة أشهر حين استلمت ورقة عضويتي للحزب ولم يكن عمري عندها قد بلغ الثامنة عشرة وكنت وقتها نشطا مثابرا وجديا ومشاركا فعلا في العديد من نشاطات وأعمال اتحاد الطلبة العام والحزب الشيوعي. ومن رسالة الحزب جاء ما يلي.

(رفيقنا العزيز بدر تقرر قبولك ومنحك العضوية في الحزب الشيوعي العراقي بشكل استثنائي رغم صغر سنك وذلك لحيويتك ونشاطك الملحوظين ونتمنى لك النجاح وإلى أمام تحت راية حزبنا المقدم بقيادة الرفيق باسم) التوقيع الرفيق باسم وهو السيد بهاء الدين نوري سكرتير الحزب الشيوعي العراقي آنذاك.

بعد انتهاء الإضراب عقدت قيادة اتحاد الطلبة العام منظمة الموصل اجتماعا تم فيه انتخابي رئيسا للاتحاد في لواء الموصل.

عام ١٩٥٤ تم تشكيل الجبهة الوطنية في الموصل على غرار ما شكل في باقي ألوية العراق. تم انتخابي عضوا في هذه الجبهة ممثلا عن الطلبة وقد شكلت من كل من الأحزاب التالية، حزب الاستقلال، الجبهة الشعبية، الحزب الوطني الديمقراطي والمنظمات الجماهيرية مثل الطلبة والشبيبة والعمال والفلاحين، ولم يكن لحزب البعث وقتذاك تنظيما في الموصل وإنما هناك قوميون عرب وإسلاميون ونشاط هؤلاء كان محدودا جدا. في ذلك العام قدمت الجبهة مرشحين من أهالي الموصل لخوض الانتخابات البرلمانية لعموم العراق وقد فاز لعضوية البرلمان محمد صديق شنشل، عبد الجبار الجومرد، ممتاز بيثون وعبد الله ليون عن الطائفة المسيحية وذنون أيوب وكان هؤلاء من مجموع الأحد عشر عضوا من الذين فازوا في الانتخابات البرلمانية عن قائمة الجبهة الوطنية في العراق.

طيلة وجودي كعضو في تلك الجبهة لم أجد أن هناك جدية في العمل ولم تكن الاجتماعات واللقاءات معمقة وذات تأثير فعال، وأهم ما كانت تقوم به الجبهة هو عقد اجتماعات ولقاءات جماهيرية في الساحات العامة وكنا نستأجر سيارات نتجول بها ونناشد الجماهير ونحثهم عبر الميكروفونات لانتخاب مرشحين. وهذه الأعمال أدت دورا حسنا جدا في حث الجماهير وكانت سببا واضحا في المآل الذي دفع أبناء الموصل لحصول خمسة من أبنائهم على مقاعد في البرلمان العراقي، ولم يكن من بين هؤلاء شيوعيا وأتى ذلك وفق قرار الحزب بدفع الوجوه الوطنية من حلفائه وأصدقائه إلى المقدمة لكيلا تكون هناك حجج بالضد من مشاركة الجبهة الوطنية في الانتخابات.

بعد فوز هذه المجموعة في الانتخابات دعونا إلى التظاهر حيث رفعت الشعارات الوطنية وصدحت الحناجر بالهتافات تحية للجبهة الوطنية وتنادي باستقلال العراق الناجز وسقوط الأحلاف. بعد انتهاء التظاهر صدرت بحقي وبحق مجموعة من رفاقي مذكرات اعتقال، عندها أمرني الحزب بالاختفاء فرحت أتهرب مختفيا في عدة

بيوت لزملاء ورفاق ومعارف، كانت فترة اختفائي قصيرة لا تتعدى الثلاثة أسابيع في نهايتها بلغت من الحزب بضرورة انتقالني إلى العاصمة بغداد. ذهبت متخفياً إلى بغداد وهناك استقبلت من قبل السيد مهدي عبد الكريم الذي كان وقتذاك رئيساً للجنة العليا لاتحاد الطلبة العراقي العام والتقيت أيضاً بصاحب مرزة وخلق أمين زكي وشاب أسمه رضا الشوك وآخر أسمه طاهر، وقد تقرر ضمي إلى اللجنة العليا لاتحاد الطلبة العراقي العام وأصبحت عضواً في اللجنة المسؤولة عن المدارس الثانوية في العاصمة بغداد، وهناك تعرفت على باسم مشتاق وعدنان حبه وعصام القاضي وحمدي العاني. بعد فترة تطور عملي ونشاطي وأيضاً مسؤولياتي لأنقل للعمل ضمن اللجنة المسؤولة عن الكليات وكان معي في هذه اللجنة ثابت حبيب العاني وفريد هرمز دلو وآخرين وقد استلمت مهام ومسؤولية كليتين أحدها كلية الهندسة، وكنت أيضاً نشط في العمل الحزبي لذا سلمت خليتين حزبيتين واستلمت مسؤوليات في مناطق عديدة من العاصمة بغداد، منها الكاظمية والأعظمية وقد عملت على ترشيح وضم العديد من الزملاء في اتحاد الطلبة إلى تنظيمات الحزب الشيوعي.

في أحد الأيام كنت على موعد مع أحد الرفاق من طلاب كلية الحقوق لتسليمه مجموعة من النشرات الحزبية. حين اقتربت من مكان اللقاء وفجأة طوقتني مجموعة من رجال الأمن بملابس مدنية، قال أحدهم وأخيراً استطعنا الإمساك بك سيد خليل عبد العزيز المصلاوي بحركة سريعة قمت برمي كيس الأوراق إلى الأرض، فالتفت أحد الرجال نحو المارة الذين توقفوا لمشاهدة ما يحدث وسأل القرييين منهم

- من رمى هذا الكيس ولمن عائدته؟

فأجابه المارة بعائدته لي وأنا من رماه إلى الأرض. عندها اقتادوني وطلبوا من بعض المارة مرافقتهم ليكونوا شهوداً ضدي، وصلنا إلى مديرية الأمن العامة وكان مديرها ذلك الوقت المدعو نائل عيسى الذي بادرنى وبشيء من الاستخفاف بأنهم كانوا على

خلاف مع مديرية أمن الموصل، فهم يصرون على وجودك في بغداد ونحن بدورنا ننفي ذلك. واليوم انتهى هذا الأمر لتقع بأيدينا، أخبرني من أين لك هذه الأوراق فأجبتة بعدم عائديتها لي فأرسل بطلب الشهود وهم من كان هناك وحضر الواقعة ووجه لهم السؤال عن الذي شاهدوه وعائديه هذا الكيس والأوراق، فشهدوا ضدي مؤكدين الواقعة.

وضعوني في موقف التحقيقات الجنائية وراحوا يمارسون التعذيب الجسدي والنفسي معي كمحاولة لمعرفة وضعي وعلاقتي ومسؤولياتي بالحزب الشيوعي واتحاد الطلبة، قررت الصمود واستطعت ذلك وأنكرت كل شيء. بقيت في سجن التحقيقات هذا أكثر من شهر ونصف بعدها قدمت إلى محكمة جزاء بغداد حيث صدر بحقي حكم بالسجن لمدة سنة واحدة وسنة أخرى إبعاد، إثر ذلك أرسلت إلى سجن بغداد أولاً وهناك حلقوا شعر رأسي وأدخلوني زنزانة التقيت فيها بكازم حبيب، وكان معه معلم من كربلاء وعازف كمان أسمه عبد الأمير صالح الصراف. كان كازم حبيب مقيداً بسلاسل حديدية مثبتة إلى الأرض بكلاب في غرفة الإعدام. وضعوني قرب الرجلين، وبدون مقدمات شعرت أنهما يتوجسان خيفة مني، لذا كانا حذرين وشعرت بأنهما يشكان بي، وبدوري كنت أبادلهما الشك والريبة، وقد سألوني عن سبب اعتقالي وشخصيتي وعملي، وبعد مضي ساعات وتواصل الحديث بدأ الاطمئنان يتسرب إلى أرواحنا وبدأت الشكوك تبتعد لتعرف جيداً إلى بعضنا. لم يستمر لقاءنا طويلاً فقد نقلت إلى السجن الانفرادي في بعقوبة، قضيت ما يقارب الثلاثة أشهر ونصف فيه داخل زنزانة انفرادية وبالقيود الحديدية. كان جاري في الزنزانة المجاورة القيادي هادي هاشم الأعظمي، لم نكن لنستطيع التحدث مع بعض، ولكنني سبق أن تعلمت في موقف التحقيقات طريقة المخاطبة بالشفرة من خلال الطرق على الجدار حيث أضرب وأنقر على الحائط الحروف الأبجدية لأتوقف عند الحرف الذي على المقابل أن يضعه مع ما قبله لتكوين الكلمة وكانت تلك العملية مثل طريقة الإرسال بشفرة

مورس. بعد ذلك نقلت إلى غرفة أخرى مع رفاق سجناء مثلي.

بعد ترحيلي إلى سجن بعقوبة تلقيت من رفاقي وهم بعض قيادات الحزب تحذيرا بعدم الاختلاط بمجموعة من الشيوعيين كان قد تم عزلهم وأطلقت عليهم تسمية (المستنقع) وحين سألت عنهم وأسباب أبعادهم وعن هذه التسمية الغريبة والسيئة أخبرت بأن هؤلاء مجموعة طردت من الحزب بسبب معارضتهم أو اختلافهم مع سياسة الحزب وبعض مواقفه، وحسب ما أذكر كان عددهم بين عشرة أو خمسة عشر سجينا شيوعيا.

قبل اعتقالي ودخولي السجن كنت قد أطلعت على موسوعة التحقيقات الجنائية التي أصدرتها مديرية الأمن العامة سنة ١٩٤٩، وقرأت فيها ما احتوته من اعترافات لبعض رفاق الحزب ومنهم عزيز الحاج، عندها أصبح عندي فضول طاغ ورغبة جامحة للتعرف عليه، فاعترافاته شملت العديد من الرفاق والأوكار الحزبية وأوضاع الحزب، ولكنه وبشكل غريب يختم اعترافاته بالإشادة والتهاتف باسم الحزب. ومن شغفي لمعرفة هذا الشخص وذلك التناقض في تصرفه هذا، كنت أود أن أنقل من سجن بعقوبة إلى سجن نقرة السلطان بعد أن عرفت بأن عزيز الحاج مسجون هناك مع بعض كواد الحزب المتقدمة، ولكن وبصورة مفاجأة صدر أمر من السلطات بإغلاق سجن نقرة السلطان ونقل السجناء منه إلى سجن بعقوبة وكان منهم آرا خاجادور وعمر الشيخ وعزيز محمد ونافع يونس وعدنان عبد القادر ومعهم أيضا عزيز الحاج.

لم يمض وقت طويل حتى ذهبت لتنفيذ رغبتي فاتجهت إلى عزيز الحاج مباشرة وألقيت عليه السلام وعرفته بنفسني وجلسنا على الأرض جوار بعض ودون مقدمات أخبرته بأني تعرفت عليه من خلال موسوعة التحقيقات الجنائية، تلك اللحظة تغيرت سحنته وبدا التذمر واضحا عليه ولكن الحديث استمر بيننا في أمور عديدة وكانت تبدو مشاركته على مضض. وقد استمرت علاقتي به داخل السجن وكنت وإياه نستدعي في

بعض الأحيان للعمل في مخبز السجن فتدور بيننا أحداث متشعبة.

الخروج من سجن بعقوبة:

كان قد حكم عليّ بسنة سجن وسنة إبعاد، سنة السجن قضيتها في سجن بعقوبة وكانت لي هناك لقاءات بالعديد من قادة الحزب الشيوعي وتعرفت على طبيعة العمل الحزبي وكذلك اطلعت على نوع الخلافات والصراعات التنظيمية، وكنت أحرص أن أكون بعيداً عن الخوض فيها، أو أن أحشر عنوة في إرباكاتها. فمنذ انتمائي للحزب الشيوعي ولحد اللحظة لم يدر في خلدي ولو للحظة قصيرة أن أنشق عن الحزب أو أتركه. فقد كنت ولا زلت مقتنعا بأن أي إشكال أو خلاف فكري أو تنظيمي ممكن، أو بالضرورة، يجب أن يحل داخل التنظيم.

بعد انتهاء فترة اعتقالي لعام واحد، نقلت مخفورا بداية عام ١٩٥٧ من سجن بعقوبة إلى مديرية التحقيقات الجنائية في بغداد، والواقعة في شارع النهر. وهناك أجري معي تحقيق روتيني وأخذت لي صوراً شخصية وطبعات أصابع، وعملوا لي صفحة أعمال جديدة. بت هناك ليلة واحدة أرسلوني بعدها مخفورا إلى مدينة الكوت، ومن هناك رحلت إلى مدينة بكرة القريبة من الحدود الإيرانية. كانت هذه المدينة تعتبر المنفى القسري للعديد من المعارضين للسلطة الملكية، وبالذات الشيوعيين منهم.

مدينة بكرة تقع شرق مدينة الكوت، وهي مدينة صغيرة قريبة من الحدود الإيرانية تسكنها غالبية كردية. المدينة جميلة بطبيعتها ونقاء هوائها، وتمتد على أطرافها بعض المرتفعات المخضرة. أسكنت في دار من الدور الحكومية العائدة للموظفين، والتي تمتد متراسة مع بعضها، لأكثر من عشرة بيوت. شاركت السكن مع ما يقارب العشرة أشخاص أغلبهم من المبعدين الشيوعيين، كان من بينهم الشهيد ستار خضير وجعفر فيلي وإبراهيم وهو شيوعي من أهل العمارة. وفي البيوت المجاورة سكن شيوعيون وغيرهم من الوطنيين المبعدين. أذكر منهم كاظم فرهود، وحسن عوينه، كاظم حبيب،

عدنان الديو، ماجد عبد الرضا، عادل سليم، عاصم الحيدري وغيرهم، وفي الجهة المقابلة سكنت بعض العوائل منها عائلة كريم أحمد أبو سليم وعبد علوان الطائي أبو بشرى.

كنا في منفى بدرة نشارك في أجواء وانشغالات واحدة، بالرغم من عدم وجود صلات تنظيمية حزبية للبعض منا. أيضا كان هناك خلاف تنظيمي كان له الأثر الفاعل على الكثير من المبعدين، فقد كان كاظم حبيب ومعه عاصم الحيدري ومسؤولهم المحامي عادل سليم يمثلون جماعة راية الشغيلة، وهي مجموعة كانت بقيادة عزيز محمد وجمال الحيدري وتضم كثيرا من الكوادر الحزبية، مثل نافع يونس وعامر عبد الله وحمزة سلمان، أما قيادة الحزب أي اللجنة المركزية، فكانت حينذاك بقيادة بهاء الدين نوري (باسم) وكنت والبعض من المبعدين ومنهم كريم أحمد وعبد علوان تمثل اللجنة المركزية في ذلك المنفى.

وبالرغم من كون جماعة راية الشغيلة يمثلون كتلة مغايرة لمجموعتنا وعلى خلاف نظري مع الحزب، ولكن ذلك لم يكن عائقا ولم يمنعنا من التعاون في الكثير من مشاغلنا وأعمالنا اليومية في ذلك المنفى القسري، لذا كنا وبشكل طبيعي نقترّب من بعضنا البعض، واستطعنا أن نؤلف فريقا واحدا في منفانا البصري، لغرض العمل بروح رفاقية كان يحتاجها وضعنا الاضطراري. حدث ذلك قبل أن تحل راية الشغيلة نفسها وتندمج في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وكانت مجموعة بدرة لراية الشغيلة آخر من عاد إلى الحزب.

وقتذاك كنت اتهم جماعة راية الشغيلة بالانشقاق، وأوجه لهم اللوم والاتهامات فيما حدث. فأنا دائما ما كنت متوافقا مع نفسي وانتمائي الحزبي، ولذا أطلق علي في مسيرتي الحزبية تسمية تتوافق كليا مع مبادئ وطبائعي وقناعاتي (خليل الحزب)، وهي تعني لي الكثير. فرغم الكثير من الملاحظات التي أحملها عن الحزب وتطور في ذهني، وأفصح

عنها أو أضمرها، لكنني لم أفكر يوماً بترك الحزب أو الانشقاق عنه، وبرأيي أن أي انشقاق عن الحزب، يعني في تفكيري خيانة لا تغتفر، وهذا المفهوم نابع من صلب أيماني بالفلسفة الماركسية اللينينية.

ظروف الإبعاد القسري ووجودنا سوية بشكل دائم، جعلنا نقر بضرورة العمل مع بعضنا وبأجواء من الرفقة والصدقات الحميمة، فكنا نتبادل الأفكار ونجلس جوار بعضنا لفترات طويلة، ونخوض نقاشات عديدة حول المشاغل والأوضاع السياسية الخاصة والعامة وحتى الحزبية، وبسبب تلك العلاقات ولإنضاج طابعها الرفاقي وتوطيدها، اتخذنا مجتمعين قراراً بتشكيل لجنة أسميناها منظمة المبعدين إلى بدرية. على أن تضم اللجنة الجميع، بمن فيهم أولئك الذين أبعدها بتهمة الانتماء للشيوعية دون أن تكون لهم صلات حزبية، وإنما اتهامات وجهت لهم بسبب علاقات صداقة ببعض الرفاق الشيوعيين.

في أحد الأيام دعينا كمجموعة من الكوادر الحزبية، لاجتماع ليلي في أحد البيوت التي كنا نسكنها كمنفيين، وفي ذلك الاجتماع قررنا تشكيل لجنة قوامها ثلاثة أعضاء وهم كريم أحمد وعبد علوان الطائي وشخص آخر من مدينة الكاظمية لا يحضرني أسمه، وكلفوا بوضع نظام داخلي لمنظمة ديمقراطية عامة، سميت بلجنة المبعدين، تحوي بين عضويتها جميع المبعدين في بدرية، والذين بلغ عددهم وقتذاك ما يقارب المائة والخمسون شخصاً، وكانوا بغالبيتهم من الشيوعيين والوطنيين. وأتفق على أن يحتوي ذلك النظام أسس ومنهج التكافل في العمل اليومي وأطر العلاقات بين المبعدين، على أن تنجز اللجنة عملها خلال ثلاثة أيام.

بعد مضي الثلاثة أيام دعينا لعقد اجتماع آخر، الغرض منه دراسة ومناقشة ورقة النظام الداخلي التي أعدت. كانت اجتماعاتنا دائماً ما تعقد مساءً بسبب منعنا من الحركة ليلاً أي بعد الساعة العاشرة، وكان يفرض علينا التوقيع اليومي بالحضور صباحاً في

مركز شرطة المدينة.

عقد الاجتماع في واحد من تلك البيوت، بحضور مجموعة كبيرة من المبعدين، وطرحت عليهم ورقة النظام الداخلي المتكونة من أربع صفحات بخط اليد، وبثلاث نسخ وزعت على الحضور، وقرأ الرفيق كريم أحمد الورقة على الاجتماع. بعد ذلك دار نقاش حول الورقة، أخذ منا وقتاً طويلاً، قدمت خلاله اعتراضات جدية بشأن بعض الفقرات، وتواترت حولها ردود الفعل، لتظهر عندها خلافات حادة، ليس فقط بين المدعويين، وإنما بين لجنة صياغة الورقة ذاتها، وتصاعدت حدة النقاشات لتصل حد الخصومة، عندها قرر المجتمعون أخذ استراحة لمدة نصف ساعة لترطيب الجو وجسر الخلافات، ثم العودة لمناقشة الورقة بهدوء، وفعلاً عدنا مرة أخرى للمناقشة، وتم تدارك الخلافات بتغيير بعض المحتوى غير الملائم في الورقة، ليتم بعدها التصويت والمصادقة عليها، وكان أهم ما جاء في النظام الداخلي ووقع عليه، التكافل والتعاون الرفاقي والتزام الجميع ببنود الورقة.

كانت تلك اللجنة باكورة عملنا الفكري وحافز مهم وفعال لتناول مواضيع ثقافية اجتماعية بالإضافة للسياسية. إثر ذلك، ومع استمرار نقاشاتنا السياسية والثقافية شعرنا بضرورة إيجاد متنفس ثقافي فكري لمجموعتنا التي ضمت العديد من المثقفين.

الشفق مجلة المبعدين:

كنا نعاني من شح وصعوبة الحصول على المجلات والصحف، ومثلها الكتب التي تكون مؤثلاً ثقافياً وروحياً في منفانا البدري. لذا بادرت واقترحت على الرفاق فكرة الحصول على كتب البحوث والتاريخ وجميع ما يتعلق بالمعارف البحثية الأدبية والعلمية، وقد شخّصت منها كتب السيدين عباس العزاوي وعبد الرزاق الحسيني لغناها البحثي والمعرفي. وفي أحد لقاءاتنا اليومية وبعد أن عرضت على الرفاق بعض الأفكار للحصول على تلك المصادر، كلفت شخصياً بمخاطبة السيد عبد الرزاق

الحسني برسالة مفصلة ترسل له عبر البريد، نطلب فيها مؤلفاته البحثية. بعد كتابة الرسالة، أرسلتها على عنوانه في المجمع العلمي العراقي، وكنت قد وجدت العنوان مطبوعاً على أحد الكتب. جلست وبعناية فائقة ودونت رسالة وجهتها له مباشرة، قلت فيها بعد التحية (نحن مجموعة من المبعدين إلى مدينة بدر، نود أن نتابع نتاجكم البحثي الفكري، ولكننا نفتقد الكيفية التي تمكننا من الحصول عليه، لذا نحن مستعدون أن ندفع أي مبلغ تطلبه، إن استطعت تزويدنا بمجموعة من كتبك القيمة).

لم يمض غير أسبوع، حين عاد الجواب إلينا من السيد الحسني شاكرًا اهتمامنا، وأرفق بالرسالة قائمة بالكتب وأسعارها، ومنها كتابه القيم عن ثورة العشرين. كانت فرحتنا كبيرة لحصولنا على هذا الجواب، الذي يدل على تفاعل السيد الحسني مع رغباتنا. مباشرة وافقت مجموعتنا على ما جرى بيني وبين السيد عبد الرزاق الحسني من مراسلات. ولم تمض غير فترة قصيرة حين وصلت من السيد الحسني رزمة تحتوي جميع الكتب التي طلبناها، وأرفق معها قائمة بمبالغها، كانت أقل ثمنًا بكثير مما يباع في الأسواق، عندها قمنا بجمع المبلغ وتحويله لصالح السيد الحسني. وللحقيقة كانت ردود السيد عبد الرزاق الحسني على رسائلنا كيسة ولطيفة، وتظهر تعاطفه الشديد معنا، فمثلاً عدا كلماته التشجيعية، كان يرسل خمسة كتب ليحتسبها ثلاثة.

لم يتوقف جهدنا عند هذا، بل طلبنا من جميع الرفاق، وعرضنا عليهم مقترح الطلب من أهاليهم حين يأتون للمقابلة، أن يجلبوا معهم كتباً، وما كانت الشرطة لتمانع ذلك، لذا أصبحت لدينا مكتبة عامرة بشتى أنواع الكتب، ويسمح باستعارتها من قبل الجميع.

كانت هذه الكتب نافذة جديدة فتحت لنا عالماً ثقافياً غنياً، أمدنا بالكثير من المعرفة في عالم النفي والإبعاد، وكان الإقبال على تلك المجموعة القيمة من الكتب شديداً من قبل الرفاق. في ذات الفترة وثمره من ثمار العمل التضامني التكافلي للمبعدين،

وخلال نقاشنا اليومي، قررنا إصدار نشرة تكتب باليد، وانصبت فكرتنا في البداية على نشرة جدارية، ولكن المقترح لم ينل رضا الغالية، لذا قررنا أن تكتب باليد وتستنسخ بعدد محدود، وتوزع على المبعدين للتداول، عندها بحثنا عن الذين يمتلكون خطاً جميلاً وواضحاً ليتكفلوا بإعادة كتابة المواد المرسلة إلى المجلة.

باشرنا باستنساخ النشرة بخط اليد وبعدد قليل من النسخ. وظهر العدد الأول منها وبالعنوان يعلو صفحاتها باسم (الشفق). كان عدداً زائداً بالمواد والمعلومة. كتب فيه كاظم حبيب وماجد عبد الرضا وكاظم فرهود وأنا وآخرون، وكانت النشرة غنية بمواضيعها الفكرية. وهي أول مطبوع ينشر فيه دكتور كاظم حبيب مقالاً باسمه الصريح وكان بعنوان «قراءة في كتاب أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث» لستيفن همسلي لونكريك. وقد تذكر المرحوم الدكتور كاظم حبيب ذلك قبل وفاته في ألمانيا بفترة، متأثراً بمرضه العضال. وحسب ما جاء في الورقة التي أرفقها مع بعض كتبه التي أصدرها حديثاً وأرسلها لي بتاريخ ١٥ / ١ / ٢٠١٢ حيث قال فيها ((إلى الصديق العزيز ورفيق النضال الطويل، مقرونة بذكريات بدرة وحياة الإبعاد وأول مقال كتبت في حياتي السياسية، نشر في مجلة الإبعاد التي كنت تشرف على إنجازها، ملاحظات {أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث} مع خالص الود والاعتزاز للعزيز د خليل عبد العزيز)).

أصدرنا من النشرة خمسة إلى ستة أعداد كان يتم تداولها بين الجميع بشغف ولهفة كبيرين، وتطورت لتكون بأكثر من عشر صفحات بورق كبير فليسكوب. لذا كان القراء يحثون بعضهم البعض على الانتهاء من قراءتها، لكي تكون القراءة من حصة شخص آخر. وفي ذلك الوقت اجتمعت هيئة التحرير المكونة مني وكاظم فرهود وماجد عبد الرضا واختارتني مسؤولاً عن النشرة. وبعد ورود كتاب عبد الرزاق الحسني عن ثورة العشرين، استعاره كاظم حبيب بلهفة، مؤكداً أهميته وغناه المعرفي، وبعد أن قرأ

الكتاب، قدم مقاله الموسوم (نظرات في كتاب ثورة العشرين) لينشر في مجلة الشفق. كنا وقتها ننشر أسماء الكتاب المشاركين في النشرة التي بات عددها يحوي أكثر من عشر صفحات زاخرة بالمواضيع الفكرية والبحثية. ونالت النشرة استحسان الكثيرين، ودار حول مواضيعها الكثير من النقاشات الفكرية، ووجهت لنا بعض النقود، ولكننا حافظنا على موقفنا بمنع نشر الردود، التي تصل إلى النشرة من بعض قرائها، ولكوننا في مجتمع محدود، وحرصا على محدودية صفحات وطابع النشرة، لذا اقترحنا على القراء، إن رغبوا، التوجه مباشرة إلى كاتب المقال ومناقشته حول موضوعه المنشور دون الرجوع إلينا.

في إحدى الأمسيات فوجئنا بغارة من مفرزة رجال الأمن والشرطة، تم فيها كبس أعداد من النشرة وأيضا المكتبة، بعد أن فتشوا الدار قطعة قطعة، ومثلها فعلوا مع باقي البيوت، وقبض على البعض، كنت واحدا منهم، وكنا جميعا من الذين وردت أسماؤهم في النشرة، وبعد هذه الغارة دار بيننا التساؤل الحارق، من هو الذي وشى بنا؟

في مركز شرطة بدرية احتجزنا لبضعة أيام ليحقق معنا واحدا إثر الآخر، ثم أحييت أوراقنا إلى حاكم التحقيق الذي قرر إطلاق سراحنا، حين موعد إجراء المحاكمة. وكان وجودنا في بيوت المنفى، يعني كفالة حضورنا اليومي لمركز الشرطة. ثم أرسلت أوراقنا إلى المحاكم. في تلك الأيام انتهت فترة إبعادي لمنفى بدرية، ومعني بعض من المبعدين أيضا، أذكر منهم عبدول سوران وهو كردي من الحزب الديمقراطي الكردستاني، كان مبعدا لمدة ثلاثة أشهر، وكذلك حلمي شريف. ولكون مدة إبعادهم قد انتهت أيضا، لذا رافقاني بالترحيل، حيث أرسلنا سوية إلى التحقيقات الجنائية في بغداد مرة أخرى. في مديرية التحقيقات الجنائية تعرضنا للشتائم والسباب منذ أول وصولنا، ولم يكتفوا بذلك بالنسبة لعبدول سوران، فقد نادوا عليه وأشبعوه ضربا وتعذيبا، أما نحن فقد وجهت لنا فقط شتائم وكلام قبيح.

في اليوم التالي أرسلت مخفورا إلى مدينة الموصل كونها مسقط رأسي، وهناك حقق معي في مخفر الشرطة، وعذبت تعذبا قاسيا في محاولة لثني عن مبادئي، وأخبروني بفصلي من الدراسة بسبب انتمائي للحزب الشيوعي العراقي، وكان هذا مدونا في دفتر الخدمة العسكرية، الذي أحتفظ به لحد الآن. حيث جاء فيه «يفصل من المدرسة لكونه شيوعيا حسب كتاب مديرية الشعبة الخاصة في مدينة الموصل، ويساق إلى الخدمة العسكرية بعد زوال أعذاره».

وعلى وفق هذا القرار سافرت تحت الحراسة إلى مدينة البصرة، وسلمت مخفورا إلى أمرية موقع معسكر الشعبية، وهناك وجدت العديد من الشيوعيين المساقين إلى الخدمة العسكرية وفق قرارات مديريات الأمن في مدنها.

كان معسكر الشعبية حسب ما أذكر معسكرا تقع قاعاته تحت الأرض ويسمى سوبير أي الملجأ. كان المكان صحراويا رطبا وحارا جدا وكانت تمارس علينا طرق تعذيب قاسية، فعلينا أن نستيقظ منذ طلوع الفجر ثم نقف لساعات طوال تحت أشعة الشمس الحارقة. كان عددنا يبلغ ١٥٠ جنديا وأغلبننا من الشيوعيين المفصولين من المدارس المتوسطة والثانوية، فكان من يفصل من طلبة الكليات يرسل إلى معسكر السعدية في بعقوبة وطلاب المتوسطة والثانويات إلى الشعبية.

بعد فترة ليست بالقصيرة استطعنا وبعد ضغط المطالبات بأن نعامل بإنسانية وأن نحصل على رخصة الذهاب إلى البصرة كل أسبوعين أو ثلاثة للتسوق وكان حصولنا على هذا المكسب بارقة أمل لإعادة الاتصال بالحزب، وكانت لنا فرصة مناسبة لتتصل بتنظيم الحزب في البصرة وأصبح لنا صلة مباشرة بحزبنا من خلال سلطان ملا علي، وكنت أنا صلة الوصل معه وأصبح هو المسؤول المباشر عن تنظيم الحزب في أمرية موقع الشعبية. بعد هذا استطعنا أن نعيد ترتيب أوضاع الحزب داخل المعسكر وكونا خلايانا التنظيمية وأصبحنا نستلم النشرات وصحيفة الحزب بانتظام ويتم توزيعها

داخل المعسكر.

في أحد أيام شهر تموز من عام ١٩٥٨ استيقظنا على أصوات محركات السيارات وهدير حركة القطعات العسكرية، كانت حركة غير عادية ومرتبكة فرحنا نتساءل عن طبيعة تلك التحركات، بدأنا بسؤال الحراس فلم يقدموا لنا جواباً، وكنا نشعر من نظراتهم أنهم يخفون عنا شيئاً ما. ازداد إلحاحنا بطلب معرفة ما يحدث حين حصلنا جواباً من أحد الحراس حيث أخبرنا بوقوع ثورة ضد الملكية، وكان ذلك يوماً مجيداً هو الرابع عشر من تموز. رحنا نتابع الأخبار وبعد أن تأكدنا من قيام الثورة ونجاحها خرجنا من القاعات وتجمهرنا أمام غرفة آمر المعسكر نهتف بسقوط الملكية ونوري السعيد وعبد الإله ونحيي الثورة المباركة. كان عددنا يقارب ١٥٠ جندياً ضج بنا وبهتافاتنا المعسكر. استمرت هتافاتنا فخرج آمر المعسكر من غرفته ووقف في مواجهتنا ليسألنا عن سبب تظاهرنّا ووقوفنا أمام بابه فأخبرناه بحدوث الثورة وسقوط الملكية، فأجابنا بمعرفته بالحدث، وأخبرنا بأن قائد الثورة هو الزعيم عبد الكريم قاسم. استمرت هتافاتنا وتصاعد الحماس بيننا فأردنا اقتحام غرفته عندها سحب مسدسه ووجهه نحونا قائلاً سوف اصرع أي واحد يتجرأ ويدخل الغرفة، ماذا تريدون؟ فأخبرناه برغبتنا الحصول على صورة الملك المعلقة على الجدار داخل الغرفة لITEM تمزيقها من قبلنا، عند ذلك دخل الأمر غرفته ثم خرج ومعه صورة الملك دون الإطار وقال أن الإطار والزجاج لا أستطيع تركها لكم كونها محسوبين علي وبذمتي. استلمنا صورة الملك وأخذنا بتمزيقها ودهسها بالأقدام. ذلك الوقت أخبرنا الأمر بأن الثورة لم تكتمل فنوري السعيد لازال مطلق السراح وهذا لوحده مشكلة وربما يعمل على إجهاض الثورة. رجعنا إلى قاعاتنا نهتف بحياة الثورة ونطالب بإعطائنا السلاح للدفاع عنها.

بعد انقضاء يومين أخبرنا الأمر رغبتنا كتابة لائحة مطالبات توجه لمجلس السيادة

نطالب فيها إطلاق سراحنا وتسريحنا من العسكرية وإعادتنا إلى مدارسنا. فأبلغنا الأمر أنه تم تعيين أمر جديد لموقع البصرة العسكري الذي يضم من بين الوحدات العائدة له معسكرنا أي معسكر الشعيبة، وهذا الأمر الجديد هو العقيد عبد المجيد وهو من أخوتنا الأكراد من أهالي السليمانية. وحسب قول أمر معسكرنا فأن العقيد عبد المجيد سوف يستلم مهامه غدا، وأرشدنا لضرورة كتابة العريضة وتوجيهها أولا إلى الأمر الجديد وقبلها طلب مقابلته.

ومثلما توقعنا فبعد أيام قليلة جمعنا أمر المعسكر وتحدث معنا عن المطالب التي نرغب إيصالها إلى الجهات العليا، فأخبرناه بأنها تتلخص بتسريحنا وإلغاء فصلنا السياسي وإعادتنا إلى مدارسنا، عندها وعدنا الأمر بإيصال طلباتنا إلى أمر معسكر البصرة، وفعلا أخبرنا في اليوم التالي بأن العقيد أمر موقع البصرة قد وافق على مقابلة وفد منا صباح يوم غد، ألفنا الوفد وكنت أحد أعضائه وأتذكر محمد غضبان كان أحد أعضاء الوفد أيضا وأتذكره لكونه أصبح لاحقا رئيسا لنقابة عمال السجائر، وكان معنا ثلاثة آخرين لا تحضرني أسماؤهم. اصطحبنا الأمر إلى موقع معسكر البصرة وهناك قابلنا العقيد عبد المجيد الذي قدم لنا التهانى بقيام الثورة، وأشاد بنا قائلا بأنكم من مهد لقيام هذه الثورة المجيدة وكانت كلماته تدل على تعاطفه الكبير مع الثورة وقادتها، بعد ذلك قال أن أمر تسريحكم من الخدمة العسكرية وأنصافكم ليس بيدي وإنما يحتاج إلى قرار سياسي يرجع إلى السلطات العليا، وسوف يأتي إلى البصرة أحد قادة الثورة وهو الشخص الثاني فيها العقيد عبد السلام عارف ويمكن لي أن أقدمكم له وتعرضون عليه مطالبكم.

بعد مضي أيام قليلة جاء إلى البصرة العقيد عبد السلام عارف وقوبل بترحاب شديد من قبل الجيش والأهالي. الذين راحوا يهتفون بحياة الثورة ويمجدون قادتها. طلب منا بتوجيه من العقيد عبد المجيد، أن نتهيا لمقابلة عبد السلام عارف، عندها

اصطحب أمر معسكر الشعيبة وفدنا معه حيث موقع معسكر البصرة وهناك أدخلونا غرفة قريبة من غرفة العقيد عبد المجيد وأخبرونا بأن العقيد عبد المجيد سوف يحدث العقيد عارف عنا ويطلب منه مقابلتنا. بقينا ننتظر أكثر من ساعة ثم فتح باب الغرفة فكان يقف العقيد عبد المجيد بنفسه وطلب منا النهوض والتهيؤ عسكريا لمقابلة العقيد عبد السلام لذا وقفنا بالنسق العسكري وتقدمنا مع الإيعاز بالمسير العسكري حتى دخولنا الغرفة حيث كان يجلس وراء المنضدة العقيد عبد السلام عارف.

بادر العقيد عارف بسؤالنا، من نحن وما هي مطالبنا. فبادرت أنا بالرد عليه وأخبرته بأننا جنود سبق أن فصلنا من مدارسنا بسبب انتمائنا إلى الحزب الشيوعي العراقي وسجنا وعذبنا بعد أن ناضلنا ضد الطغمة الملكية الفاسدة والاستعمار، ونحن نطالب بإرجاع حقوقنا وإطلاق سراحنا وتسريحنا من العسكرية وإعادةتنا إلى المدارس، وكذلك تدريبنا على السلاح للدفاع عن ثورة الشعب العظيمة.

نظر العقيد عبد السلام إلينا متفحصا أشكالنا ووضعياتنا ثم نهض من وراء المنضدة ووقف بمواجهتنا وصرخ بأعلى صوته، الله يطيح حظه النوري السعيد ثم راح يكيل الشتائم والسباب والكلام المقذع بحق نوري السعيد وقد انتابتنا موجة من الفرح ونحن نستمتع لهذه الشتائم معتقدين بأن عبد السلام سوف ينصفنا بعد هجومه هذا، ولكنه توقف ثم قال، لماذا حكم عليكم بالسجن، كان المفترض أن يحكم عليكم جميعا ودون تردد بالإعدام، ثم راح يطلق كلماته النابية والشتائم القاسية بحقنا، عندها أمرنا العقيد عبد المجيد بأخذ حالة الاستعداد ثم الاستدارة والخروج من الغرفة تلاحقنا شتائم عبد السلام عارف. خارج الغرفة راح العقيد عبد المجيد يطيب خواطرننا ويهدأ من روعنا وقال، أبنائي لا تهتموا لهذا الأمر عودوا الآن لو حدثكم وحتما سوف تكون هناك حلول لمشاكلكم. عدنا مكسوري الخاطر نجتر خيبتنا مع هذا العبد السلام المعتوه.

كانت التحضيرات تجري للتهيؤ لحشد جماهيري في ملعب الميناء في البصرة لاستقبال عبد السلام عارف ليلقي خطابه على الجماهير المحتشدة، لذا أخبرنا من قبل الحزب بضرورة الحضور قبل الجميع لتتخذ من أمام منصة الخطابة مكانا لنا، وهذا ما فعلناه وقد وقفنا بالضبط تحت المنصة ورحنا نطلق الشعارات التي كلفنا الحزب بها ومنها اتحاد فدرالي صداقة سوفيتية ونكرر ذلك بصوت عالي. كان تحشدنا كبيرا لذا طغت أصواتنا وشعاراتنا على باقي الأصوات والشعارات، ف شعر عبد السلام بالإحراج فطلب من المرافق أن يأمرنا بالسكوت، فخطبنا المرافق دون جدوى، عندها انفجر عبد السلام بالصراخ وراح بموجة من شتائم وسباب وصلت حد الفشار الواضح والصريح في محاولة لإسكاتنا، وكنا في موقفنا ذلك نحاول بكل قوة حناجرنا إثارته واستمر بخطابه رغم الضجيج الذي أثير في الملعب وكان خطابا بائسا يدل على ضحالة تفكير هذا القائد، وبالذات حين قال لتحية أهل البصرة، يا أهل البصرة يا من صنعتم نومي البصرة فضجت الجماهير بالضحك منه.

لم يستمع أحد أو يؤخذ بمطالبنا فبقينا في معسكر الشعية ولكن اختلفت طبيعة تدريبنا فما عادت تنفذ مسألة وقوفنا لساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة وعمولنا بشكل حسن وأفضل من السابق بكثير. وفي أحد الأيام طلب آمر الموقع حضوري عنده فذهبت إليه حيث استقبلني بوجه باش وترحاب شديد، وقال بأن أهلي قد دفعوا عني البدل النقدي وقد أُجريت معاملة تسريحي، وتستطيع أن تأخذ الآن كتاب التسريح وتسلم ملابسك العسكرية وتذهب إلى أهلك، فعلت كل ما طلبه مني وذهبت إلى البصرة حيث التقيت بالرفيق سلطان ملا علي الذي أخبرني بضرورة الالتحاق سريعا بتنظيمات بغداد. وكانت تعليمات الحزب هي أن ألتحق بتنظيمات بغداد وضرورة الاتصال بالرفيق جمال الحيدري بالذات. توجهت إلى بغداد وذهبت إلى مقر الجريدة المركزية للحزب وكان المكان مقرا للحزب أيضا ويقع في منطقة باب الشيخ من بغداد وهناك عرفت أن الحزب هو من دفع عني البدل النقدي بعد أن جمع

المبلغ من الرفاق.

قابلت هناك الرفيق جمال الحيدري، الذي أخبرني بضرورة ذهابي إلى مدينة الموصل، لتسلم قيادة اتحاد الطلبة العراقي العام هناك، والذي كنت في الأساس المؤسس الفعلي له عام ١٩٥٢، إلى أن تقرر منظمة الحزب الشيوعي في الموصل مستقبلاً مركزاً عملياً داخل الحزب. عند مقابلتي للرفيق جمال الحيدري أخبرني بضرورة الذهاب إلى مكتبة السيد يعرب البراك والتي تقع في ساحة الأمين، وهناك سوف يقابلني الرفيق عزيز الحاج ويسلمني التعليمات وأجور السفر، عندها ذكرت الرفيق جمال الحيدري بحادثة سابقة وقعت في سجن بعقوبة عام ١٩٥٦ حيث التقانا مسؤول التنظيم الحزبي آنذاك الرفيق كريم أحمد، وقابلني والرفاق نافع يونس وعدنان عبد القادر، وأخبرنا بضرورة الانتباه للرفيق عزيز الحاج والاعتناء به، وقال إن الرفيق الحاج على وشك الانهيار، ويجب علينا مراقبته وأيضاً رفع معنوياته، لذا سألت الرفيق جمال الحيدري عن الذي تغير اليوم ليطلب مني تسلم التعليمات من عزيز الحاج، فأجابني الرفيق الحيدري بأن ذلك أصبح من الماضي، وعليّ أن أنسى ذلك الموضوع وأبعده عن ذهني كلياً، فعزیز اليوم أحد قادة الحزب، والمهمة الملقاة على عاتقي هي الذهاب لمقابلة عزيز الحاج وأخذ التعليمات منه، وفعلاً ذهبت إلى هناك ووجدت الرفيق عزيز الحاج، فسألته عن التعليمات فأخبرني بعدم وجود تعليمات محددة، وأعطاني نصف دينار وطلب مني شراء بطاقة سفر للذهاب إلى الموصل وهناك سوف تحدد طبيعة عملي.

تجدد العلاقة باتحاد الطلبة العراقي العام في الموصل؛

بعد عودتي إلى الموصل عقد اتحاد الطلبة العراقي العام اجتماعاً أُنتُخبت خلاله رئيساً لهيئته القيادية. كانت الأجواء السياسية في مدينة الموصل عند نهاية عام ٥٨ وبداية عام ١٩٥٩ متوترة ومشحونة بالضغينة ومعاداة ثورة ١٤ تموز وكانت الأوضاع مرتبكة وحساسة جداً. كنت قد وصلت الموصل في أيلول عام ١٩٥٨ وكان أعضاء اتحاد

الطلبة العراقي العام ومثلهم الشيوعيون شجعانا وصداميين، رغم قتلهم، لا يتهيبون أعدائهم من القوميين والأخوان المسلمين وقوى الرجعية والمؤسسة الدينية وكذلك أغلب ضباط الجيش في المواقع العسكرية داخل المدينة.

وفي محاولة لجس النبض، أو هي محاولة للإحاطة بالحدث وكشف بعض خيوطه قبل حدوثه، قررنا في قيادة اتحاد الطلبة العراقي العام تشكيل وفد للذهاب ومقابلة أمر موقع الموصل العسكري العقيد عبد الوهاب الشواف، وكان موقعه العسكري يجعله أعلى سلطة إدارية وسياسية في المدينة. وبعد طلبنا المقابلة جاءنا بعد أيام الجواب بالموافقة، فذهبنا لمقابلته. في المقابلة طلبنا من العقيد الشواف المساعدة لإيجاد مقر ثابت للاتحاد، فكان رده هادئا وكيسا، حيث قال:

— أبنائي.. يقال عنكم أنكم شيوعيون، وأنتم دائما تلتقون في مقهى عبد هبراية. فأكرنا ذلك وأخبرناه بأننا اتحاد للطلبة ولا علاقة لنا بالحزب الشيوعي، ونحن منظمة مفتوحة لجميع طلبة العراق، أما جلوسنا في ذلك المقهى، فنحن نضطر أن نتخذها مقرا لنا لعدم امتلاكنا مقرا حقيقيا.

بعد هذا الحديث تعهد العقيد الشواف بإيجاد مقر لاتحادنا مؤكدا على أن الغرض من تعهده هذا هو أبعادنا عن المشاغبين والمخربين. وبارك جهودنا كمجموعة طلابية ثم دعانا للركوب معه بسيارته العسكرية وتوجه بنا إلى مكان قريب من مطار الموصل، وهناك أشار وحدد لنا قطعة أرض قال إنها سوف تكون ناديا ومقرا لكم وأنا أمنحكم إياها، فأخبرناه بأننا لا نملك ما يساعدنا على بنائها، فقال لن تتكفلوا أنتم بنائها وإنما سوف أوجه أمرا لآمرية الهندسة العسكرية للمباشرة بالبناء. وعندما كان يعرض علينا قطعة الأرض وموقعها كان هاجسنا وظننا إن الشواف يريد أن يضع الاتحاد وقيادته تحت المراقبة والسيطرة.

أثناء وقوفنا مع العقيد الشواف عند قطعة الأرض، جاء مقدم اللواء في معسكر

الموصل المدعو محمود عزيز، وكان مساعدا للعقيد الشواف في الكثير من المهام التي يكلفه بها. كان المقدم محمود عزيز وهو محسوب على القوميين العرب، ضابطا شرسا يحمل حقدا كبيرا على الحزب الشيوعي وقادة ثورة ١٤ تموز، ولعب دورا أساسيا في التحريض على قيام مؤامرة الشواف.

بعد أن أدى المقدم محمود عزيز التحية تفاجأ العقيد الشواف بحضوره وتساءل عن سبب مجيئه، فطلب المقدم محمود الانفراد بالعقيد الشواف ليخبره بشيء خاص. فسمعنا بعضا من حديثه الذي ركز على كوننا شيوعيين، فتساءل العقيد الشواف عن الذي يدعي هذا، فأجابه المقدم محمود بأن هذا الطالب خليل عبد العزيز شيوعيا وكان سجيناً في العهد الملكي، وإن اتحاد الطلبة العام واجهة من واجهات الحزب الشيوعي. وكان جواب الشواف بكلمة واحدة ميخالف... ميخالف. ثم عاد ألينا ليقول هذا هو مقركم وسوف يبنى لكم هنا ناديا. وعدنا أدراجنا برفقته إلى المدينة.

في تسارع للأحداث كانت مدينة الموصل تغلي والوضع يوحى بالكثير من التداعيات. جاء قرار إقامة مهرجان أنصار السلام في المدينة وبلغنا كاتحاد لطلبة العراق بالتهيو لتنظيم ما يليق باستقبال الوفود القادمة من مدن العراق للاحتفال في مدينة الموصل. ومع وصول خبر المهرجان هاجت مشاعر العداء بين القوميين العرب والأخوان المسلمين والكثير من الضباط المعادين للثورة وللحزب الشيوعي وحركة أنصار السلام، وبدورنا اكتشفنا أن جميع هؤلاء قد أعدوا العدة للانتفاض والعمل على تخريب احتفالات المهرجان وقبلها منعه من القيام بفعالياته في المدينة. وبدورنا فقد جهزنا كوادرنا للوقوف بوجه تلك النوايا الخبيثة. لقد بذلت جهوداً لتأجيل عقد مؤتمر السلام بالموصل، إلا إن الزعيم عبد الكريم قاسم رفض تلك الدعوات ورأى ضرورة عقده. وكان منطلق التأجيل يستند إلى واقع الغليان الاجتماعي واحتمال سعي القوى القومية والبعثية والإسلامية لتفجير الوضع كله، والذي ستكون له عواقب

وخيمة. إلا إن الأحداث تطورت بسرعة بالغة ونفذ العقيد الشواف حركته العسكرية التي تسببت بقتل الكثير من المناضلين الشيوعيين والوطنيين الديمقراطيين، كما وقعت حوادث مؤسفة لم يكن لأحد القدرة على تجنبها.

بعد انتهاء التمرد حصل تغيير في سياسة الزعيم عبد الكريم قاسم تجاه الحزب الشيوعي واقرن ذلك بالخشية أو الذعر الذي أصابه جراء نشاط الشيوعيين وتصاعد شعبيتهم، وفي محاولة منه لإيجاد نوع من التوازن بين مجموعة الشيوعيين وحلفائهم من الوطنيين في مواجهة العناصر القومية والإسلامية، أصدرت سلطة الزعيم عبد الكريم أحكاماً بالإعدام على مجموعة من أبناء الموصل، كنت واحدا منهم. حينذاك قرر الحزب الشيوعي تهريبنا خارج العراق، فكنّا مجموعة من شباب الموصل وزعنا على بلدان عديدة، ذهب قسم منا إلى ألمانيا الديمقراطية وقسم آخر إلى بلغاريا والبعض إلى جيکوسلوفاکیا وكنت أنا من المجموعة التي أرسلت إلى موسكو.

وقبل مغادرتي العراق كان عليّ أن أختفي عدة أسابيع بمدينة الموصل، حيث كنت أتنقل فيها بين بيوت عديدة، وكانت مخاطر وقوعي بيد أجهزة الأمن كبيرة، مما وجد الحزب ضرورة مغادرتي الموصل والسفر إلى بغداد. تركت الموصل على دراجة هوائية كان يقودها باسم جميل انطوان، أحد رفاق الحزب، الموجود حالياً ببغداد وأصبح اليوم خبيراً اقتصادياً معروفاً. ركب خلفه واستدردنا من خلف تل النبي يونس وعند آخر السيطرات الأمنية كان هناك تكسي ينتظرنی، أقلني وتوجه بي إلى بغداد وعاد رفيقي باسم إلى الموصل. كان الرفاق قد زودوني بعنوان في بغداد كان عليّ التوجه إليه وفعلاً وصلت وذهبت إلى هناك مباشرة. بقيت مختفياً في ذلك البيت لأيام قليلة، أبلغني الحزب بعدها بأن الأيام المقبلة سوف يتقرر مصيرك، فسألت عن معنى هذه الجملة، فاخبروني بأن الحزب قرر أن يرحلك وبعض الرفاق إلى خارج العراق، فقضيتنا أصبحت شاغل الحزب الكبير، فإلقاء القبض علينا وتنفيذ حكم الإعدام بنا سوف

يجعل أعداء، بل حتى أصدقاء الحزب، يحملونه الكثير ويتقولون عليه كونه لم يستطع أن يقدم لنا الحماية الكافية.

بقيت في بغداد أتقل من بيت إلى بيت وخلال الشهر الذي قضيته في بغداد كلفت بمهام حزبية وكانت مهام ثقافية وليست تنظيمية. في أحد الأيام جاءني رفيق طلب مني صورة شخصية، بعد أيام جاء ومعه جواز سفر فيه صورتي وكان أسم صاحب الجواز يوسف الياس يوسف وهو شخص حقيقي من أهالي تلكيف. أيضا قرر الحزب أن اخرج من مطار بغداد متوجها إلى بيروت حيث هناك طائرة سوف تكون قادمة من دلهي متوجهة إلى بيروت وتتوقف ليلا ولمدة ساعة في بغداد. كانت طريقة الخروج من مطار بغداد تعتمد على وجود طاقم أمن ممكن أن يغض النظر أو يتعاون، وأيضا لا يوجد من بينهم من أهالي الموصل أو من يتعرف علينا. كانت هناك قائمة أصدرتها الأمن العامة بأسمائنا وصورنا لذا كان الرفاق حذرين جدا في أن تكون وقائع وسير العملية وتوقيتاتها مؤمنة. حدد يوم السفر وهيأت كامل الاستعدادات للذهاب إلى المطار. ذهبنا بسيارتين إلى المطار سيارة أوصلتني وسيارة أخرى وقفت تنتظرني وتترقب خوفا من حدوث ما يفشل العملية، حينها عليهم سحبي من المطار وإعادةني إلى البيت الحزبي. لم يعترضني أحد حين قدمت جوازي وسارت الأمور بشكل جيد حيث ركب الطائرة ووصلت بيروت في الصباح الباكر، وكان الحزب قد زدوني برقم هاتف وعنوان الرفاق من الحزب الشيوعي اللبناني، فاتصلت بهم فجاءني أحد الرفاق وتحدث معي ثم سألني عن المبلغ الذي أحمله وجواز سفري فقدمته له. ذهبنا بعدها إلى أحد البيوت وهناك قدمت لهم المبلغ الذي كنت أحمله وهو مائة دينار كان الحزب قد سلمها لي في بغداد قبل سفري، كما أعطيتهم جواز سفري فاخبروني بأن رحلتي إلى موسكو ستكون عبر فينا وهم يقومون بحجز بطاقة السفر، بعد اقل من ساعة عادوا ومعهم بطاقة السفر والجواز والفيزا النمساوية وأعادوا لي باقي المبلغ بالدولار لكوني أحتاج له في فينا وأخبروني بأن هناك سيارة أجرة سوف تأتي صباحا لتقلني إلى

المطار وهذا ما حدث فعلا. في فينا ذهبنا إلى الفندق وهناك سألت عن موقع القنصلية السوفيتية فدلوني عليها فذهبت بسيارة أجرة إلى هناك ودخلت مبنى القنصلية، فقدمت نفسي لهم بوصفي شيوعي عراقي فذهب الموظف إلى الداخل ثم عاد ليقول لي أنهض، فنهضت فأمرني بشيء من الحدة أن أخرج من هنا قائلاً، نحن قنصلية دولة ولا علاقة لنا بالأحزاب الشيوعية، بدوري أخبرته بما أخبروني به في بغداد ومن ثم في بيروت، فصرخ في وجهي أن أخرج يا يوسف الياس وكان جواز سفري بيده. رفضت الخروج بعد أن طلبت منه أن يمنحني قليلاً من الوقت كي استريح، فوافق على خمس دقائق فقط. جلست أفكر بالسبب الذي يجعلهم يرفضون وجودي، كان أحدهم يقف بجواري كحارس فطلبت منه أن يدخل ويطلب من ذلك الموظف العودة لكي أحادثه فرفض ذلك. فكرت بمجريات الوقائع منذ خروجي من بغداد حتى وصولي فينا، عندها تذكرت بأن الموظف الذي طلب مني الخروج من القنصلية سماني يوسف الياس وهنا يكمن السبب، فطلبت من الرجل الواقف بجانب كحارس مرة أخرى أن ينادي الموظف الأول لكون عندي معلومة عليه أن يعرفها، فعلا جاء ذلك الموظف فأخبرته مباشرة بأن أسمى الحقيقي هو خليل عبد العزيز وليس يوسف الياس. عندها دهش الموظف وذهب إلى غرفته ثم عاد ليقدم اعتذاره بسبب ما حدث فالمعلومة التي عنده تعني خليل عبد العزيز وقال بأنك ربما لا تعرف أن مدينة فينا عالم للجاسوسية والصراعات الدولية. وكان التبليغ قد جاء من موسكو باسم خليل عبد العزيز. ثم سألني عن كيفية وصولي إلى هنا فأخبرته، بواسطة سيارة أجرة. عندها طلب مني العودة إلى الفندق ودفع أجور مبتي ثم علي أن أخذ طريقي بالعودة إلى القنصلية بواسطة قطار الضواحي من أمام الفندق وبعد خمسة محطات علي الترحل من القطار وتأجير سيارة توصلني حيث القنصلية. فعلت ما أمرت به. قبل وصولي إلى القنصلية بعدة أمتار كان ذات الموظف يقف خارج البناية وحين ترجلت من السيارة أخذ بيدي وكذلك الحقيبة ووضعها بسيارة واقفة خارج البناية وانطلقنا خارج المدينة حيث هناك

بيت عائد للسفارة السوفيتية، وأخبرني بالبقاء في هذا البيت لمدة يومين كون الطائرة السوفيتية تغادر النمسا بعد يومين. وعليّ ألا أخرج من هذا الدار. نفس الموظف جاء عصرًا ليخبرني بأن السفير قرر أن يخصص لي مبلغًا لشراء ملابس شتوية كون الطقس في شهر ديسمبر باردًا. ذهبنا إلى وسط المدينة ودخلنا أحد محلات الملابس الكبرى حيث بدأ الموظف ينتقي لي ما يناسبني من ملابس ثم اقترح عليّ شراء عشرة معاطف مشمع مطري فسألته، وما الذي افعل بكل تلك الكمية، فقال لي بأنك تستطيع أن تبيعها في موسكو فهنا بدولار واحد وهناك الواحد منها ببائة روبل، عندها شعرت بالفزع منه وخطر في بالي أنه عميل أمريكي مدسوس في السفارة. ثم اقترح عليّ أن أشتري عدة أزواج من الكفوف قائلًا تستطيع بيعها والاستفادة من مبالغها في موسكو. في ذلك الوقت أصبت بالصدمة ورحت أستعرض حال الرفاق في العراق وكيف يعملون بإخلاص ويقين ونقاء وحب للمبادئ، وأنا الآن أمام هذا الذي يغريني على ممارسة السوق الموازية أو السرقة.

بعد يومين أخذوني إلى المطار وأخبروني بأن أتجه نحو باب جانبي قيل لي أنه مدخل للموظفين والمضيفين حيث تنتظرن هناك فتاة لمساعدتي. فعلا دخلت من ذلك الباب لتستقبلني تلك المضييفة وتأخذ مني جواز سفري وطلبت مني أن أنتظرها في المكان، بعد قليل جاءت لترافقني نحو الطائرة. كانت الطائرة فارغة من الركاب فسألته عن رقم مقعدي فقالت أجلس حيث ترغب، فجلست. بعد فترة وجيزة جاء رجل ببشرة شرق أسيوية يرافقه ثلاثة رجال، جلس الرجل في المقدمة وجلس الرجال الثلاثة خلفه. جاءت المضييفة لتساعدني على ربط حزام الأمان فسألته عن الذي أشاهده فأخبرتني بأن هذا الرجل هو السفير الصيني ومرافقيه. كانت الطائرة الضخمة من نوع أليوشن ١٨ تحملني وأربعة رجال لا غير. وصلنا إلى مدينة كييف كاستراحة، ثم طرنا بعدها إلى موسكو حيث استقبلني في مطارها أحد الأشخاص أخبرني انه يعمل في العلاقات الخارجية للحزب الشيوعي السوفيتي، فقام باصطحابي من المطار إلى

فندق أوكرائنا، وأخبرني بأن وجودي في الفندق سيكون مؤقتا حين تلقي معلومات جديدة عن وضعي المستقبلي، بعدها طلب مني أن استحم وأرتب وضعي وسوف ينتظرنني في مطعم الفندق لتناول الطعام.

هبطت السلم وذهبت للقاء مرافقي في المطعم فاستقبلني هناك وجلسنا نتحدث الانكليزية وهو يتقن أيضا قليلا من اللغة العربية، فطلب لنا الطعام ثم سألني هل أتناول الكحول مثل الفودكا والكونياك فأخبرته نافيا تناولي الكحول طيلة حياتي، أستغرب ذلك وسألني عن السبب فأجبتة بأننا كشيوعيين عراقيين نستهن بهذا الفعل ونرفض تناول الكحول. فقال ضاحكا تستطيع أن تجرب اليوم قليلا منه فرفضت ذلك، فقال أسمح لي بحجز بعض قناني الشراب، فأجبتة بأن ذلك يعود لك وهي قضية تخصك ولا تتعلق بي وأنت مضيفي وأنا ضيفكم، عند ذلك أشار على النادل وطلب منه جلب قنيتي كونياك ومثلها فودكا ولكنه لم يشرب من هذه الزجاجات فنبهته لذلك، فقال بأنه لا يرغب بأن يشرب دون أن أشاركه الشراب، فرفضت، عندها أخبرني بأن لديه صديقه سوف يذهب ويحتفل معها بعيد ميلادها ولذا سوف يأخذ قناني الكحول. أنهينا تناول الطعام فطلبت الذهاب إلى غرفتي للاستراحة كوني أشعر ببعض التعب، عند ذلك أخرج مرافقي كيسا من جيب بنطاله ووضع فيه زجاجات الكحول وأشار للنادل وطلب منه جلب زجاجات كحول أخرى. ذهب النادل وجلب أخريات ومعه ورقة الحساب فقدمها مرافقي لي طالبا توقيع علي عليها فسألته عما تعنيه تلك الورقة فأجابني بأننا قد تناولنا الطعام وهناك من يطلب منه حزيا تلك القائمة، وقعت على الورقة كون الوضع لا يحتمل النقاش مع هذا وأنا الغريب الوافد حديثا دون معرفة ما سوف يكون عليه وضعي مستقبلا. نظرت إليه بدهشة وفكرت هل من المعقول أن هذا في الاتحاد السوفيتي العظيم، الدولة الشيوعية والاشتراكية الأولى، هل من المعقول هذا الذي يحدث، ما الذي فعله هذا السارق ليستغل الدولة الشيوعية باسمي، لماذا يفعل ذلك؟ وكان فعله ذاك مفاجأة صاعقة بالنسبة لي. وما كنت أستطيع أن أفعل أو أقول

شيئا في ذلك الوقت.

بعد مبيتني ليلة واحدة جاء يسال عني الرفيق هادي هاشم الأعظمي الذي اصطحبني إلى حيث ينتظرنا الرفيق سلام عادل. التقيت الرفيق سلام عادل، وفي تلك المقابلة أكد ضرورة الاحتفاظ بالاسم الموجود في جواز سفري المزور، والذي حملته حين عبرت الحدود متوجها إلى موسكو وكان باسم (يوسف الياس يوسف)، وأخبرني الرفيق سلام عادل بأن الرفاق السوفييت هم من طلبوا أن أحتفظ بهذا الاسم. وكان عليّ أن أنهى كلية اللغة وأذهب بعد ذلك إلى طاشقند حيث مدرسة أعداد الكوادر الحزبية.

كان وصولي موسكو في ديسمبر عام ١٩٦١. ووجدت إن الرفاق السوفييت قد قرروا أولاً أن أقوم بدراسة اللغة الروسية في موسكو، وبعد انتهاء دراسة اللغة عليّ الالتحاق بالمدرسة الحزبية العليا في طاشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان.



مع عطشان الزيرجاوي (يسار الصورة) في مدرسة الكوادر الحزبية الفلاحية/ طاشقند

بعد مضي شهر على وجودي في مدرسة تعلم اللغة علمت بقدم لجنة من وزارة التعليم العالي السوفيتية مهمتها مقابلة الطلبة. وفعلا جاءت اللجنة وقابلت الطلبة،

وحين جاء دوري وبعد أسئلة عديدة وجه لي سؤال عن المهنة التي سبق أن امتهنتها في العراق، فأخبرتهم بأني لم أكمل الدراسة الإعدادية ولكني مارست الصحافة، فأخبروني بعدم أهمية شهادتي الدراسية في العراق، ومن الضروري أن أعرف بأني سأكون طالباً في الكلية التحضيرية لدراسة اللغة وإنهاء دراستي الثانوية، عندها سوف أكون مستقبلاً وبعد موافقتي طالباً في كلية الصحافة بجامعة موسكو، وبعد تلك المقابلة ثبت لي ابتداءً مقعداً دراسياً هناك. وهذا ما حصل فعلاً.

بعد أن أنهيت فترة دراسة اللغة في الكلية التحضيرية ذهبت لمقابلة الرفيق سلام عادل الذي بادرنى القول، أن قيادة الحزب قد حجزت لي بطاقة سفر وعلي الذهاب إلى طاشقند. لم أعترض ولم أخبره بموضوع المقعد الدراسي في كلية الصحافة، وسافرت إلى طاشقند.

قابلني هناك نائب مدير المدرسة الحزبية وطلب مترجماً للحديث معي، فأخبرته بعدم الحاجة لمترجم فأنا أنهيت دراسة اللغة وأجيد الروسية، فاستغرب من ذلك فأخبرته بأني خريج المدرسة التحضيرية لتعلم اللغة في موسكو. فاجأني معاون المدير بسؤال غريب. أذن ما الذي جاء بك إلى هنا؟ فأجبته بأن الحزب الشيوعي العراقي قرر ذلك. فقال لي والدهشة ترتسم على وجهه، هذه المدرسة ليست لكم فهي مدرسة حزبية خاصة بالكوادر الفلاحية. فنبهته بوجود رفاقي من الذين سبقوني في هذه الدورة، فأجابني بأنه يعرف ذلك، وقال إن مدير المدرسة الحزبية سوف يأتي غداً ويقابلني، وفعلاً ففي اليوم التالي استقبلني مدير المدرسة وأخبرني بمعرفته لموضوعتي من خلال معاونه، ولكنهم ليس باصحاب القرار فيمن يدرس هنا، فالقرار يأتي من اللجنة المركزية وهي بالذات من قررت وضعكم الدراسي في هذه المدرسة الحزبية العليا للكوادر الفلاحية. أخبرت رفاقي في الدورة بما دار بيني وبين نائب المدير فقابلوني بالصدود وطلبوا مني نسيان الأمر، وكان ردهم صريحاً واضحاً بأن مجمل الأمر يتعلق بقرار حزبي، علينا

تنفيذه حرفياً. عندها وجهت سؤالاً إلى الرفيق عطشان الأذيرجاوي عن سبب وجوده في هذا المكان وهو أصلاً ضابط في الجيش، فرد عليّ بأنه ينفذ قرار الحزب، وليس لديه خيار في ذلك. أصر الرفاق على التمسك بقرار الحزب والبقاء في المدرسة الخاصة بالكوادر الفلاحية.

ولكنني لم أترك الأمر ليمر بسهولة، لذا اتصلت بالرفيق سلام عادل هاتفياً وأخبرته بحديث معاون المدير، فأعاد الرفيق سلام عادل جوابه السابق، بأن القضية تتعلق بقرار حزبي اتخذ بالاتفاق بين حزبنا الشيوعي والرفاق السوفييت، وهما الجهتان اللتان قررنا ذهابك وبقية الرفاق إلى طاشقند وعليك أن تبقى في الدورة وعدم إثارة المشاكل والاعتراضات.

بعد مدة، ومن حسن الحظ أخبرونا بأن اجتماع للكوادر الحزبية في جمهورية أوزبكستان سوف يعقد خلال الأيام القادمة، ونحن كمجموعة طلبة عراقيين في المدرسة الحزبية مدعوين لحضور الاجتماع كضيوف، والرفيق رشيد رشيدوف، وهو سكرتير اللجنة المركزية في أوزبكستان ومرشح لعضوية المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي، وضمن كلمته التي سوف يلقيها في ذلك الاجتماع، سيشتد بمجموعتنا، ومن الموجب علينا أن نتهياً بكلمة قصيرة لا تتعدى الخمس دقائق نشكر فيها رفاقنا الأوزبكيين على حسن الضيافة. وقد اتخذت مجموعتنا القرار بأن يقوم الرفيق عطشان الأذيرجاوي بكتابة وإلقاء الكلمة، وقد فوجئنا بأن الرفيق عطشان قد أعد الكلمة، وعند قراءتها، قرر الرفاق التصويت عليها فنالت موافقة الجميع وكنت أنا المتحفظ الوحيد عليها، وأخبرت الرفاق نيتي عرض مشكلة وجودنا في مدرسة الكوادر الفلاحية على الرفيق رشيد رشيدوف، فرفض الرفاق بشكل جماعي مثل هذا الأمر، واتخذ قرار بأن لا أحد يحق له الحديث عدا الرفيق عطشان الأذيرجاوي.

ذهبنا إلى الاجتماع وتحدث الرفيق رشيدوف ومدحنا في كلمته. وجاء دور الرفيق

عطشان فقدم كلمة المجموعة وبعد أن أنهى كلمته، رفعت يدي طالبا الكلمة، عندها حاول الرفاق منعي من ذلك، حينها أنبته السيد رشيدوف لما كان يجري في مجموعتنا، فقال ما الذي يحدث، وأشار لي قائلا ما الذي تريد قوله، فأجبته بأني أطلب مقابلتك، فقال حسنا، ثم استمرت وقائع الاجتماع. عند نهاية الاجتماع جاء نحوي رجلا وطلبا مني مرافقتهم، اعتقدت بادئ الأمر، أنهما من رجال الأمن، وأن هناك أمر قد دبر ضدي. ذهبت معهم وصعدت إلى سيارة كانت متوقفة عند الباب. سألتهم عن الجهة التي سوف ينقلوني إليها، فأخبراني بأنهما مكلفان بنقلي إلى مكان ما، وهذا كل ما يعرفانه. بعد فترة قصيرة وقفت السيارة أمام قصر ضخيم كان السيد رشيدوف يقف عند بابه الرئيسي. رحب بي ترحيبا طيبا وسألني عن اسمي ثم جلسنا على بسط مفروشة على الأرض حسب تقاليد وعادات أهالي أوزبكستان، عندها بادرنى رشيدوف بالسؤال عن المشكلة التي أريد عرضها عليه، فأخبرته بما نحن عليه في المدرسة الحزبية وأوضحته له بأننا كوادر عراقية حزبية متقدمة ومتعلمة ولا علاقة لنا جميعا بالحياة الفلاحية. أصيب السيد رشيدوف بالدهشة، وشاطرنى الرأي بأن هذه المدرسة الحزبية ليست لأمثالنا. بعدها اتصل السيد رشيدوف مباشرة بجهات حزبية عليا في موسكو وتحادث معهم في هذا الشأن، فأخبروه بأن هذا يتعلق بقرار أأخذ من قبل الحزب الشيوعي السوفيتي وبموافقة الحزب الشيوعي العراقي، وأن أريد تغيير المدرسة الحزبية فعلى الحزب الشيوعي العراقي تقديم طلب بذلك، عندها نقوم نحن، أي الجهات الحزبية السوفيتية، بنقلهم إلى دورات ودراسات أخرى تختار لهم الدراسة حسب الاختصاص، ونستطيع نقلهم إلى مدرسة غوركبي الحزبية والتي تعد مدرسة عليا لإعداد الكوادر المتقدمة، ولا مانع هناك من اتخاذ هذا الموقف لو جاءت الموافقة والطلب عبر الحزب الشيوعي العراقي. في نهاية اللقاء طلب مني الرفيق رشيدوف الاتصال بالرفيق سلام عادل، ليتخذ رسميا مثل هذا الإجراء. بعد ذلك أعادوني إلى السكن فاستقبلت بالأسئلة من قبل رفاقي عن اللقاء والمكان الذي نقلت إليه، فأخبرتهم بطبيعة اللقاء وما دار فيه من حديث ووقائع، فكانت

ردود فعلهم متباينة وكان بعضها مستنكرا محاولتي تلك. ذهبت بعد ذلك لأتصل هاتفيا بالرفيق سلام عادل وأخبرته بتفاصيل ما حدث في لقائي بالرفيق رشيدوف وحصوله على موافقة القيادة العليا للحزب الشيوعي السوفيتي. فأجابني الرفيق أبو أيمن بعدم التحرك أو فعل أي شيء، وعلينا البقاء في المدرسة الحزبية في مدينة طاشقند، وأن الحزب الشيوعي العراقي لن يفعل أي شيء ولن يخاطب أية جهة لتغيير موقعنا في المدرسة الحزبية في طاشقند. بدوري وبعد إلحاح طويل سألته عن سبب ممانعتهم في نقلنا إلى مكان آخر، فأجابني الرفيق سلام بأن حزبنا قد وقع اتفاقية مع الرفاق السوفيت وهذه الاتفاقية تعد نهائية ولا يمكن تغييرها، وأنتم جماعة الموصل بالذات، يجب بقائكم في طاشقند، وعلى الجميع تنفيذ هذا الأمر دون نقاش. وحين عودتي إلى موقع السكن في المدرسة الحزبية أخبرت الرفاق بمحادثتي والرفيق سلام عادل فأجابوني بصوت واحد، ألم نقل لك ذلك!

خلال فترة وجودي في طاشقند استطعت أن أقيم علاقة بسيطة مع مدير مزرعة للكلخوز تقع في ضواحي المدينة، وهي مزرعة للتعاونيات الفلاحية، وكان المدير مثلنا طالبا في المدرسة الحزبية ذاتها. وقد اتخذت قرارا منفردا كنت أعد له دون أن أخبر أحدا من رفاقي، وهو الخروج من هذه المدرسة والسفر إلى موسكو، لذا توجهت إلى الرفيق مدير التعاونية الزراعية وطلبت منه المساعدة في تنفيذ ما كان يدور في رأسي. فاتحته بحاجتي لمساعدته وطلبت منه أن يكلف سائقه بأخذ حقيبة ملابسي بسيارته ويخرجها خارج المدرسة الحزبية، فسألني مدير الكولخوز عن السبب في ذلك، فأخبرته عن وجود طلب خاص يدعوني لزيارة موسكو، وطلبوا مني ألا أخبر رفاقي عن هذه الزيارة، ولكوني لا أود أن أثير الأمر مع رفاقي فارتأيت أن أطلب مساعدتك لإخراج حقيبة سفري مع سائقك ونقلي إلى المطار. بروح رياضية وافق المدير على مساعدتي وكلف سائقه بذلك. ذهبت وابتعت بطاقة سفر إلى موسكو وركبت الطائرة متوجها إلى هناك مودعا طاشقند والمدرسة الحزبية للكوادر الفلاحية.



القبول في كلية الصحافة / جامعة موسكو:

بعد يوم من وصولي موسكو، ذهبت مباشرة إلى كلية الصحافة ودخلت إلى الإدارة وقدمت نفسي، فدهشوا وسألوني أين كنت طيلة تلك الفترة، وقد بحثنا عنك في القسم الداخلي، وتلقينا جواباً بأنك سافرت خارج موسكو، بدوري أخبرتهم بأنني كنت مريضا ودخلت أحد المستشفيات، بعد استفسارات عدة أخبروني بأن الدوام قد بدأ منذ فترة، ولكن لا

ضير في ذلك بالنسبة لي، وأن عليّ الذهاب إلى القسم التعليمي، كي يجهز لي أوراق الرسمية في الكلية ويعيدوا ترتيب وضعي بما يشير لبداي الدراسة في الكلية، لم أكذب الخبر وذهبت وأنا فرح جدا إلى القسم التعليمي، وهناك تمت الإجراءات بشكل سريع وأكملت من دون إبطاء، وأدرج اسمي في سجل الطلبة، وأعدت هناك أوراق تشير إلى كوني طالبا في كلية الصحافة بجامعة موسكو، ثم أصدرت لي هوية انتماء للكلية، وخصصت لي كطالب غرفة في الأقسام الداخلية التابعة للجامعة. دهشت حين أخبرت أيضا بأن عليّ الذهاب لتسلم رواتبي المتراكمة، وضعت النقود وهوية الكلية في جيبتي وبدأت المباشرة في كلية الصحافة جامعة موسكو، كطالب وليس كادرا حزبيا في مدرسة لإعداد الكوادر الفلاحية.

بعد أيام من مباشرتي في الكلية، اتصلت بالرفيق سلام عادل فسألني مباشرة أين أنت الآن، الرفاق أخبرونا بأنك تركت المدرسة الحزبية في طاشقند، من دون أن تخبر أحدا، فأخبرته بصحة ذلك، وأني الآن في موسكو، وأدرس في كلية الصحافة، فاستغرب الرفيق سلام، وقال لي، هل أن هذا الأمر هو برسم خيالك أم شيء آخر، فأجبت بآن هذا هو الواقع بعينه، وسبق لي أن أخبرتك بأن المدرسة الحزبية في طاشقند هي للكوادر الفلاحية، وهي لا تتواءم وطموحي وتطلعاتي، وهي في نهاية الأمر ليست

لأمثالنا، ظهرت بعض العصبية في ردود الرفيق سلام عادل وفي النهاية أخبرني بأن الرفيق عضو المكتب السياسي هادي هاشم الأعظمي سوف يأتي ليقابلني ويتفاهم معي حول الذي جرى، فأخبرته بأن الرفيق هادي هاشم يستطيع أن يلتقي بي جوار بلشوي تياتر (المسرح الكبير) وسط موسكو.

قابلت الرفيق هادي هاشم، الذي راح يوجه لي الأسئلة تلو الأخرى، ثم قال لي بشيء من الحدة بأنني قد خرقت التعاليم والتوجيهات الحزبية، وعليه وحسب توجيهات الرفيق سلام عادل، عليّ العودة إلى المدرسة الحزبية في طاشقند، ومن الموجب ترك كل تلك الأفكار، فأنت كادر حزبي والواجب عليك قبل غيرك الالتزام بجميع ما يصدر لك من توجيهات من دون جدال أو تردد، والحزب قد وقع اتفاقاً مع الرفاق السوفييت في مسألة إعداد كوادرنا الحزبية، عند ذلك أسرعت في عرض هوية كلية الصحافة عليه، وقلت له إن السوفييت في جامعة موسكو كلية الصحافة، هم من عمل لي هذه الهوية، ولن أتنازل عن هذا الأمر، بعد أن اصطدم بعنادي قال علينا الذهاب إلى الرفيق سلام عادل، عندها ذهبنا إلى هناك وقابلنا الرفيق أبو إيمان وتكرر معه ذات الحديث، وعرضت عليه هويتي فبدأ الاحمرار يغطي وجهه، وقال حسنا سوف نتخذ بحقق عقوبة حزبية، فقلت له بدلا من معاقبتي اعيدوني إلى العراق، فاستغرب موقفني هذا، وقال كيف نعيدك وأنت محكوم بالإعدام.

بعد ثلاثة أيام أخبرني الرفيق هادي هاشم بصدور قرار حزبي بحقي، وهو تجميدي من العمل الحزبي لمدة ثلاثة أشهر ولحين إعادة النظر في قضيتي وموقفني، بدوري شعرت بشيء من الراحة، بعد فترة اتصل بي رفاقي في المدرسة الحزبية في طاشقند ليسألوني عن الذي جرى معي فأخبرتهم بالذي حدث، واني الآن طالب في كلية الصحافة بشكل رسمي فأصيبوا بالدهشة.

بعد مضي عقوبة الثلاثة أشهر من التجميد، أخبرت من قبل الرفاق بأنني أعدت

إلى الحزب لأصبح مسؤول خلية، وإن موضوعه خرقى للتعاليم الحزبية ما زالت مطروحة داخل قيادة الحزب، وبعد فترة طويلة اتصل بي الرفيق سلام عادل وأخبرني رغبته في لقاءى فذهبت والتقيته، فأخبرني بأنه يريد العودة إلى العراق وطرح عليّ العودة معه إلى هناك، فأجبت من دون تردد بالموافقة، فأنا جئت إلى موسكو بطلب من الحزب وأعود إلى العراق إن قرر الحزب ذلك، وخلال اللقاء شعرت بشيء من الراحة، ودار بيننا حديث متشعب تطرقنا فيه لعدة أمور وبالذات حول طبيعة دراستي، وأخبرته بأنى أحد الطلبة المتقدمين في الكلية، وتطرق الرفيق سلام في حديثه عن العلاقة مع عبد الكريم قاسم، حيث أشار إلى رغبته بابتعاد الحزب عن الزعيم قاسم، وعدم تأييد سياسته، ولكن الرفاق السوفييت يمانعون في ذلك، وعلى اثر هذا الموقف تقرر تكليف الرفيق جورج تلو عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي، الذي كان متواجدا في موسكو للسفر إلى بغداد ونقل وجهة نظر الرفاق السوفييت.

أثناء دراستي في الكلية بدأت أنشط في مجالات مختلفة وبالذات عالم الصحافة وتوطدت علاقتي بوكالة نوفوستي للأنباء، حيث اتصلت بهم فطلبوا مني كتابة مقالات باللغة العربية، وقد زودتهم بذلك فكانت تنشر في أغلب مطبوعات الوكالة، مثل مجلة المدار، التي تصدر في بيروت وجريدة الأخبار في بغداد ومجلات أخرى في دمشق والقاهرة، حيث كتبت مواضيع عن حياة المرأة وأوضاعها في العراق. وكنت أيضا أعطي وأحرر مقالات حول طبيعة العلاقات السياسية والثقافية بين البلدان العربية والاتحاد السوفيتي، وغالبا ما كلفت من قبل وكالة نوفوستي بمقابلة الوفود والشخصيات العربية التي تأتي إلى موسكو، وكنت أجري مع تلك الشخصيات اللقاءات والحوارات الصحفية لصالح وكالة أنباء نوفوستي، وحافظت على نشر جميع كتاباتي باسم يوسف الياس يوسف، وكنت أجلس طوال ساعات وخاصة أثناء الليل لأحرر المقالات والتحقيقات الصحفية، ولغرض ذلك ابتعت طابعة خاصة، وقد

كتبت ما يقارب ٨٠٠ مقال لوكالة نوفوستي وحدها. ومن خلال نشاطي وتحركاتي كوني علاقات عديدة بمنظمات وشخصيات فاعلة في عالم الصحافة والسياسة.



مع ثمينة ناجي يوسف زوجة الشهيد سلام عادل في يوم افتتاح شارع سلام عادل وسط موسكو

الدراسة بعد إكمال البكالوريوس:

بسبب طموحي العلمي في البحث وخاصة في التاريخ المعاصر أي في واقعنا المعاصر، لذا عملت دراسة عن الحزب الوطني الديمقراطي في العراق بقيادة كامل الجادرجي، وأنجزت فيها رسالة الماجستير، التي نلتها من جامعة موسكو كلية الصحافة. وبعد أن رشحتني الكلية لمواصلة الدراسة على الدكتوراه، وأثناء اجتماع المجلس العلمي في الكلية معي، نشأت لديه قناعة واستقر الرأي على أن تتوسع دائرة بحثي لتتناول أطروحتي للدكتوراه وتكون أبعد من نطاق العراق، ولذا أستقر الرأي على أن أبحث في قانون الصحافة في مصر الصادر عام ١٩٦١، والسبب في ذلك يتعلق بكون الصحافة في مصر تمثل شكلاً متقدماً عن باقي الصحافة والإعلام العربي. وكان هذا القانون، وحسب رؤيتي وواقع الحال، ليس خاصاً بتنظيم الصحافة بقدر ما هو تأميم للصحافة المصرية ليصبح الإعلام معه خاضعاً للسلطة الحاكمة.

بعد أن تم اختيار وجهة البحث في أطروحة الدكتوراه، وجددني أوافق على جميع

مقترحات الكلية وكان ذلك عام ١٩٦٩ و١٩٧٠ وحصرت دراستي وبحثي لنيل شهادة الدكتوراه في «قانون تنظيم الصحافة في مصر».

ويبدو إن هذا الاختيار نشأ بسبب عدم وجود أي بحث أو دراسة أو تغطية ظهرت لهذا القانون منذ صدوره عام ٦١ ولغاية عام ١٩٦٩، إن كان ذلك في العالم أو من قبل باحثين مصريين أو عرب، ورغم وجود معهد للإعلام هناك، وبالرغم من إن القانون معني بأهم مرفق ثقافي سياسي في حياة الشعب المصري. كانت رغبة كلية الصحافة في موسكو واهتمامها في هذا الجانب تنصب في محاولة معرفة معمقة لواقع الإعلام والرأي العام العربي، وكان هذا يشكل واحداً من الاهتمامات في معرفة الحدث اليومي في الشارع المصري والمسيرة السياسية بقيادة جمال عبد الناصر.

لم تكن هناك معلومات وافية ومعمقة عن ذلك القانون في موسكو، لابل عن عموم الصحافة المصرية، لذا كان عليّ أن أغطي هذا الجانب من خلال اطلاعي المباشر والمعمق على طبيعة وسائل الإعلام المصرية ومنها الصحافة. ومثل هذا الأمر يتطلب ذهابي إلى القاهرة للحصول على المصادر. عند هذا الأمر ظهرت أولى المعوقات أو العراقيل، فأنا لست مواطناً سوفيتياً ليحق للكلية إرسال كطالب بعثة على حسابها إلى مصر، لهذا كان عليّ أخذ المسألة على عاتقي وعلى حسابي الخاص. بعد تفكير طويل لم أدع هذا العائق يقف بوجهي ويعيق طموحي وقررت أن أجد مخرجاً يحل هذه المعضلة.

من خلال عملي في وكالة نوفوستي للأنباء تعرفت على العديد من الشخصيات العامة والدبلوماسية وكذلك العاملين في مجال الإعلام وخاصة من الوطن العربي ومنهم مجموعة من المصريين. فقد كنت أغطي لصالح وكالة نوفوستي أغلب زيارات هؤلاء إلى موسكو، ومن خلال تلك العلاقات وبحكم الزمالة الصحفية تكونت عندي صداقات عديدة وجيدة مع البعض منهم، ومن هؤلاء محمد عودة وكان يعمل محرراً في جريدة الجمهورية المصرية.

أثناء فترة النقاش في كلية الصحافة عن طبيعة أطروحة الدكتوراه وظهور المعوقات حول ذهابي إلى القاهرة، كان الأستاذ محمد عودة موجودا في موسكو لذا خطر في بالي أن اذهب إليه وأشرح له موضوعي. فذهبت إلى مكان سكنه وعرضت عليه ما أنا واقع فيه من ورطة، وأخبرته بعدم تحمل السوفييت أي تكلفة تتطلبها حالتي لنيل الدكتوراه. كان الأستاذ محمد عودة ايجابيا جدا، وقال إنه سيبدل قسارى جهده لمساعدتي في إيجاد مخرج مناسب للحالة، وقال لي بالحرف الواحد (تعال أنت إلى القاهرة ونحن سوف نتكفل بتقديم ما يساعدك لنيل الدكتوراه فنحن أصدقاؤك وواجبنا توفير ما يساعد، وسوف أتكلم مع الأستاذ لطفي الخولي والأستاذ محمود أمين العالم حول أمرك). وهذا ما حدث فعلا، فحين عاد محمد عودة إلى القاهرة تحدث مع الأستاذ محمود أمين العالم بالأمر وقد وعد الأخير بأن يضمني لطاغم العمل الصحفي في جريدة الأخبار التي كان يرأس تحريرها وسوف يوفر لي راتبا وسكنا. وبناءً على ذلك أتصل بي السيد محمد عودة وأخبرني بذلك وطلب مني القدوم إلى القاهرة. عندها قمت بأخبار كلية الصحافة في موسكو بقرب سفري، في نفس الوقت أخبرتني الكلية باستطاعتي الحصول على تصريح بالعملة الصعبة بما يكفي مصرف جيبي لمدة شهر وذلك حسب القانون السوفييتي الخاص بالمقيمين في الاتحاد السوفييتي، فعلا تم صرف المبلغ بشيك مصدق يصرف في مصر.

ذهبت بالقطار إلى ميناء أوديسا ومن هناك ركبت الباخرة المتجهة إلى مصر. كنت عندها مستبشرا بما وعدني به السيد محمد عودة وعقد العمل الذي ينتظرني للعمل في المؤسسة الصحفية التي يديرها محمود أمين العلم. في إحدى استراحتي على ظهر الباخرة التقيت بصحفي أمريكي وهو مراسل صحيفة نيويورك تايمز الذي سبق وتعرفت عليه في أحد المؤتمرات الصحفية في موسكو، وكان يجيد اللغة الروسية، وقد تفاجأ حين شاهدني وسألني عن وجهة سفري فأخبرته عن ذلك وبدوره قال أنه متوجه إلى مصر أيضا، ودارت بيننا أحاديث كثيرة حول الصحافة والسياسة

والدراسة وما سوف أقوم به في مصر. في أحد أيام السفر الطويل في البحر جاني هذا الصحفي ليسألني عن الشخص الذي ذكرته له والذي أنا متوجهاً للقاءه في مصر، فأجبتة بأنه محمود أمين العالم، فقال لي بأن صديقك هذا قد اعتقلته السلطات المصرية. أصبت بالصدمة والحزن فأنا ذاهب لمقابلة الأستاذ العالم وهو من وعدني بالمساعدة فكيف تكون أموري دونه، كان ذلك الخبر صدمة كبيرة لي، فقد كنت أشعر بالكثير من الاطمئنان والسعادة كون وعد السيد العالم بالنسبة لي مضمونا جدا، فهو عضو التنظيم الطليعي للاتحاد العربي الاشتراكي ورئيس تحرير صحيفة الأخبار.

حين وصلت ميناء الإسكندرية وجدت في استقبالي مسؤول مكتب وكالة نوفوستي في القاهرة، وكانت الوكالة قد وعدتني بتهيئة مكان عمل في مكتبها بالقاهرة من خلال الترجمة وكتابة المقالات ليكون هذا وظيفة أكسب منها معاشا، وقد أعطي مسؤول مكتب القاهرة علما بذلك، لذا جاء لاستقبالي في الإسكندرية. ومثلما أخبرني الصحفي الأمريكي عن اعتقال محمود العالم كرر مسؤول مكتب نوفوستي ذلك، فسألته عن سبب الاعتقال فلم يجبني وأشار بما يعني علينا السكوت والترجل من العربية، وهذا ما فعلناه فأخبرني بأن من غير المناسب التحدث بالسياسة أو ما يخص الأحداث الداخلية في مصر داخل السيارة، كون جميع سيارات الوكالة والسفارة السوفيتية لغمت بأجهزة التجسس، حيث وضعت المخابرات المصرية المجسات في جميع المرافق التي يشغلها السوفييت، وهذا ما أكتشفته المخابرات السوفيتية حيث قامت بشحن إحدى سيارات السفارة في القاهرة إلى موسكو وهناك تم تفكيكها وفحصها حيث عثر على أجهزة التجسس التي وضعتها المخابرات المصرية، وحدثني مسؤول المكتب أيضا عن وجود خلافات سياسية في القيادة المصرية، ولم نتحدث في أي موضوع سياسي بعد عودتنا إلى السيارة.

في صباح اليوم الثاني اتصلت بالسيد محمد عودة فطلب مني الحضور إلى جريدة

الجمهورية وحين وصلت إلى هناك دار بيننا حديث طويل حول العديد من المواضيع ومنها اعتقال الأستاذ محمود العالم، فقال عليّ أن لا أقلق فقد أتصل بالسيد لطفي الخولي وبدوره فأن السيد الخولي قد تحدث حول موضوعي مع السيد ضياء الدين داوود سكرتير الاتحاد الاشتراكي العربي، وقد طلب السيد ضياء الدين داوود مقابلتي، بعد ذلك اصطحبني الأستاذ محمد عوده معه إلى حيث مقر عمل السيد لطفي الخولي الذي رحب بي ترحيبا حارا ودار بيننا حديث طويل عن طبيعة أطروحة الدكتوراه التي أريد إعدادها. ثم أستخدم سيارة لتقلني إلى حيث مقر عمل الأستاذ ضياء الدين داوود. ذهبت إلى هناك فوجدت الأجواء جميعها مهيأة لاستقبالي، ورغم قلقي فقد وجدت الترحاب كبيرا ويطمئن الحال، فقد رحب بي السيد ضياء الدين داوود ترحيبا حارا وراح يحدثني وكأنه يعرفني سابقا، بعدها أخبرني بأنه يتحدث مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر حول أمري وطبيعة المهمة التي قدمت من أجلها إلى مصر، وقد وجدنا لك حلا مناسباً وهو أن تكون ضيفاً على الحكومة المصرية طيلة وجودك في مصر ولغاية إكمال أطروحة الدكتوراه، وأنا الآن سوف أرسلك إلى وزارة الإعلام حيث ينتظرك هناك محمد فائق وزير الإعلام. لم يدم لقائي بالسيد ضياء داوود غير أقل من ربع الساعة، خرجت بعدها متوجهاً إلى وزارة الثقافة والإعلام حيث قابلت الوزير فأخبرني بالتعليمات التي لديه وهي أن أكون ضيفاً عندهم ويشمل ذلك السكن والطعام وتكفل الوزارة أيضاً بجميع تنقلاتي، أي أمنح سيارة لهذا الغرض. كنت على يقين بأن هذا الأمر وبقرار من الرئيس ناصر جاء لإرضاء الأستاذ محمود أمين العالم رغم وجوده في السجن.

أرسل الوزير على مدير الإعلام الخارجي وطلب منه العمل على تقديم كل ما يسهل أمر عملي، بعدها أخبرني المدير بأنهم وفرو لي غرفة جيدة في أحد الفنادق الراقية. بعد ذلك عرضت خطة البحث التي أعدتها بالاتفاق مع كلية الصحافة في

موسكو، على البعض من الإعلاميين المصريين ومنهم لطفي الخولي ورفعت السعيد ومحمد عودة وخليل صابات أستاذ كلية الإعلام المصرية، فوجدتهم يعترضون بشدة على الخطة وعدوها لا تتلاءم وواقع الحال للصحافة المصرية وقدموا لي العديد من الاقتراحات لتغيير خطة بحثي ابتداءً من مقدمتها وبعض فصولها ومحاورها، عند ذلك اضطررت للاتصال هاتفياً بعميد كلية الصحافة في موسكو السيد زاسورسكي وأعلمته بالذي جرى وطبيعة الاعتراضات التي طرحت من قبل رجال الإعلام المصري فكان رده ايجابياً وأكد على ضرورة الأخذ بالاعتراضات والآراء ولكن المهم أن تحافظ الأطروحة على منهجها العلمي التحليلي الخاص بقانون الصحافة المصري الصادر عام ١٩٦١.

استمرت متابعتي في مجال البحث ولكن ما كان يؤرقني هو الوضع المالي، فأنا بحاجة لكتب وكراسات وشراء ملابس وأيضاً طعام خارج الوجبات الحكومية ومثلها التنقلات أو حضور عروض سينمائية أو مسرحية وحفلات ترفيهية ومشاركات في بعض التجمعات الثقافية. سبق أن نلت في موسكو شيك باعتباره مصرفاً لبعض وقت لطالب أجنبي مقيم في الاتحاد السوفيتي، وكان الشيك بمقدار لا يتجاوز الخمسين جنيهاً مصرياً ولا يكفيني العيش لمدة شهر واحد، في الوقت الذي كان أعدادني الأطروحة يتطلب مني البقاء في مصر ما لا يقل عن الثلاثة أشهر.

من حسن الحظ أن قامت وكالة نفوستي السوفيتية بمساعدتي في هذا الشأن حيث عينت لديها رئيساً لتحرير صحيفة الشباب السوفيتي التي تصدر عن الوكالة، كذلك كنت أعمل ليلاً بالترجمة لصالح الوكالة. كان عملي هذا دون الإعلان عن أسمي بعيداً عن معرفة الحكومة المصرية التي سبق أن منحتني بكرم ضيافة كبير صفة ضيف دائم عليها حين إكمالي البحث في أطروحة الدكتوراه ووفروا لي السكن ووجبات طعام ثلاث يومياً وسيارة للتنقل.

لغرض أعداد خطة البحث جلست مع السيد لطفي الخولي والسيد محمد عودة والسيد رفعت السعيد وكل هؤلاء قدموا ليّ بسخاء كبير الكثير من المساعدة. ذهبت إلى السيد خليل صابات أستاذ كلية الصحافة المصرية وعرضت عليه الخطة فاستحسنها وأيد التغيير الذي أجرته عليها ووعدني بتقديم المساعدة التي أحتاجها مستقبلاً، وفعلاً قدم من خلال كلية الصحافة الكثير من المساعدة لإنجاز أطروحة الدكتوراه. وقد طلب مني أن أقدم لطلبة الكلية محاضرة عن الصحافة المصرية حسب رؤيتي لها وقد فعلت هذا، ونالت المحاضرة استحسان الجميع وأثارت الكثير من ردود الفعل الايجابية وبالذات حين تطرقت للصحافة في الاتحاد السوفيتي، فالبعض ما كانت تتوفر عنده معلومات حقيقية أو الأخرى تنعدم عندهم كلياً أي معلومة عن الصحافة في الاتحاد السوفيتي. ومن المفارقات أثناء المحاضرة، حين أشرت لكون جريدة برافدا السوفيتية تطبع وتوزع ثمانية ملايين نسخة يومياً عند تلك النقطة أثير لغط في القاعة فصاح أحد الحضور، ثمانية آلاف يا أستاذ؟ عندها أكدت قولي بأن العدد هو ثمانية ملايين وأوضحت لهم طبيعة الطبع والتوزيع للجريدة، حيث توزع وتباع بسعر بخس جداً وتعلق أيضاً على لوحات كبيرة في الشوارع وتباع في المدارس والمصانع ودوائر الدولة في عموم الاتحاد السوفيتي، وأشرت لوجود صحف ومجلات أخرى تطبع أيضاً بأعداد مليونية فمثلاً مجلة أكانيوك (الشعلة) تطبع بمعدل أربع ملايين ونصف أسبوعياً، وقد أيد كلامي السيد خليل صابات.

ترافق بحثي في الأطروحة مع عملي في مكتب وكالة نوفوستي في القاهرة وكان هناك العديد من المراسلين الصحفيين السوفييت وكان منهم السيد إيكر بلايف مندوباً عن جريدة الأزفيسيتيا وأيضاً السيد يفغيني بريماكوف عن جريدة البرافدا، وقد تعرفت على الاثنين خلال حضورهما إلى مكتب الوكالة. كانت طريقة بريماكوف باللقاء جيدة وودودة وبترحاب حار، لذا دارت بيننا أحاديث في شتى المواضيع رغم قصر وحدثة تعارفنا.

أما السيد إيكر بلايف فسبق لي أن التقيت به في مدينة الموصل أثناء أحداث حركة الشواف، لذا حين قابلته في مكتب وكالة نوفوستي في القاهرة كان ذلك مفاجأة ليّ وله. فسألني وهو يحدّق بتركيز في وجهي أن كنا قد التقينا سابقا، لم أتردد فقلت له أعتقد أنك تتذكر المسدس الذي حصلت عليه في الموصل، عندها تذكر بلايف ذلك وصرخ يا رفيق ورحنا في موجة من العناق والضحك وأخذ يتذكر ذلك اليوم العاصف، كانت حادثة لا تغيب عن البال كنا فيها شريكين.

أثناء حركة الشواف، وكنت في ذلك الوقت أجلس مع عبد الرحمن القصاب وهو أحد قادة المقاومة الشعبية في الموصل في مركز الشرطة للإشراف على تحركات المقاومة المضادة للحركة التأميرية للعقيد الشواف. وقتذاك كان السيد بلايف يعمل مراسلا لجريدة برافدا السوفيتية وجاء إلى الموصل لتغطية الأحداث لذا جلبه الجيش من المطار بتوصية من وزارة الدفاع وحين وصل إلى مركز الشرطة استقبلناه بترحاب حار وسألته عن دوافع مجيئه إلى الموصل وما الذي يبحث عنه في هذا الوقت الخطر فأخبرني برغبته الوصول إلى مواقع الاشتباك وتصوير بعض ما يجري هناك، فقلت له بأن هناك معركة حامية تدور رحاها الآن قرب بيت كشمولة في شارع الفاروق وسوف أرسلك إلى هناك للإطلاع مباشرة على الحدث، فقال بدهشة، أليس هذا بخطر؟ فاستغربت هذا وأجبته، أنت من طلب الذهاب إلى أرض الاشتباك. كان هناك مسدس موضوعا أمامي على الطاولة وهو من غنائم المعركة مع المتآمرين قلت لبلايف خذه أنه لك، فربما ينفعك هناك وتحتاج إلى استخدامه وقت الحاجة فأخذه، بعد ذلك طلبت من بعض رفاقنا في المقاومة بأخذ بلايف حيث شارع الفاروق عند بيت كشمولة. بعد مضي ساعات عاد من هناك وقد حصل على ما أراده. سألني بعد أن استقر داخل الغرفة عن رتبتي العسكرية فأخبرته بأني طالب دراسة متوسطة ولست بعسكري، فدهش من ذلك وقال كيف لطالب مدرسة متوسطة أن يدير معارك عسكرية وحركة مقاومة شعبية، فقلت له بثقة تامة بأن الأمر يتطلب ذلك ولم يكن هذا خيارا أو خيار

رفاقي في المقاومة الشعبية وقد دفعنا نحوه بسبب هؤلاء الخونة الذين أرادوا إسقاط الجمهورية الفتية. عاد بلاييف في اليوم التالي إلى بغداد يحمل معه المسدس الذي قدمته له.

بعد كل تلك السنوات وحين التقيته في القاهرة وكان يعمل مراسلا لجريدة أزيستيا سألته عن مصير المسدس فأخبرني أنه مازال يحتفظ به في بيته هناك في موسكو، فاستفسرت عن كيفية أخراجه وإيصاله إلى موسكو فروى لي كيف كلف وقتها صديقه سفير الاتحاد السوفيتي في بغداد بإيصال المسدس إليه في موسكو بواسطة البريد الدبلوماسي وقد أستلمه بعد حين دون أطلاقات. كانت شخصية إيكر بلاييف كيسة هادئة متأنية ومستمتع جيد ودقيق في عباراته.

في الأسابيع الأخيرة من بحثي وأعدادي للأطروحة قابلت العديد من الإعلاميين المصريين طالبا مساعدتهم ومشورتهم وكان جميع من ألتقيه يقدم لي يد العون ويزودني بالمعلومة والوثائق وبسخاء وطيبة. في إحدى المرات طلبت مقابلة السيد محمد حسنين هيكل لنفس الغرض وسبق أن ساعدني السيد هيكل في مواضع عديدة وقد شرع لي أبواب المؤسسة الصحفية التي يديرها وهي مؤسسة الأهرام حيث سمح لي أن أبحث عن المعلومة في أي قسم منها. وافق على مقابلتي عندها طلبت منه بعض الوثائق بعد أن سألتني عن المراحل التي وصلت بها مع أطروحة الدكتوراه، وتطارحنا بعض الأفكار حين أخبرني بوجود دراسة أعدت بالتعاون بين الجامعة الأمريكية ودار المعارف المصرية، وكانت عبارة عن دراسة بحثية موسعة عن الصحافة المصرية وقد كلفت تلك الدراسة الحكومة المصرية ما يقارب ٣٠ ألف دولار وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت، وقد استنسخت تلك الدراسة بعشر نسخ فقط وزعت ما بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء والاتحاد الاشتراكي ومؤسسة الأهرام ومؤسسات مصرية أخرى، وأخبرني بأنه يحتفظ عنده بنسخة المؤسسة، وأنه سوف يطلعني عليها. تتكون

الدراسة من ألفي ورقة فلوسكوب، وبعد أن شاهدها أخبرت السيد هيكل عن عدم قدرتي على قراءتها بمثل هذه العجالة وأنا اشعر بفضول يعتريني وأطمح بأن أحصل عليها أو حتى نسخة منها ليتسنى لي الاستفادة مما ورد فيها ولتكون أحد مصادري في الأطروحة. وافق السيد هيكل على طلبي وقدم لي خدمة جلييلة، فقد استدعى بعض العاملين في مؤسسة الأهرام من قسم الطباعة وكلفهن بطبع نسخة من هذه الدراسة وأن يقمن بذلك نهاية الدوام الرسمي ووعدهن بمكافئة مجزية، وفعلا قمن بالواجب بشكل متقن ومن جانبي فقد منحتهن أجورا سخية كمكافئة على عملهن وأبدن سعادتهن بإنجاز العمل وما تلقينه من مكافئة.

لم أخبر أحد بهذه اللقطة الثمينة وبعد أن درست محتواها، وقبل عودتي إلى موسكو ذهبت إلى السفير السوفيتي في القاهرة (فينوكرادوف) وأبلغته بما حصلت عليه من السيد محمد حسنين هيكل وقد تفاجأ السفير وأتفق معي على إرسالها إلى موسكو بالبريد الدبلوماسي لصالحني إلى وكالة نوفوستي وكجزء متمم لدراستي، وفعلا حصلت عليها حين عودتي إلى موسكو بعد نهاية بحثي للدكتوراه. وبعد استلامي الرسالة أطلعت مدير وكالة نوفوستي عليها ففرح بها ولكنه فاجأني في اليوم الثاني بطلب تقديم الدراسة المصرية لوكالة نوفوستي لكي يتم استنساخها ومن ثم إرجاعها لي، وقد فعلت ذلك بحسن نية ولكنه لم يعيدها لي أبدا رغم إلحاحي ومطالباتي العديدة وإبداء حاجتي للدراسة لتضمن بعض موادها في بحثي.

اطروحة الدكتوراه تثير توجس وقلق البعض :

تبنت رأيا واضحا وصریحا في واحدة من المسائل الشائكة المعقدة في العلاقات السياسية السوفيتية مع أطراف خارجية، ومفاد هذا الرأي وجود نظرة سلبية واستصغار يحمله بعض قادة الحزب الشيوعي السوفيتي إزاء الأحزاب الشيوعية في العالم الثالث. وكان على رأس هذه المجموعة يقف السيد بناماريوف، مسؤول مكتب

العلاقات الخارجية العضو المرشح للمكتب السياسي للحزب الشيوعي، وبطانته في معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية، ومنهم السيد يفغيني بريماكوف. كان جميع هؤلاء ينظرون للأحزاب البرجوازية الحاكمة في تلك البلدان بعين الرضا ويروجون لفكرة أن تلك الأحزاب قادرة على تبني طريق التطور اللا رأسمالي والوصول إلى الاشتراكية دون حاجة للشيوعيين وأحزابهم. وبسبب موقف غير الإيجابي من هذا الطرح وتلك الآراء والمعني بعدم قدرة الأحزاب البرجوازية على تبني الفكر الاشتراكي أو حقيقة ما تنطوي عليه علاقة تلك الأحزاب بالفكر الماركسي، وتزامن ذلك مع دراستي وطبيعة أطروحتي التي أكدت في جانبها السياسي على إن الوقائع في مصر العربية كمثال، ومن مجريات السياسة والعمل الحزبي والمؤسساتي هناك، أظهرت جميعها ألا علاقة لها بتبني التطور اللا رأسمالي أو البناء الاشتراكي لا بل العكس، وإن ما يتبناه مكتب العلاقات الخارجية السوفيتي هو على خطأ كبير وخداع بالسياسة. لذا سبب لي هذا الموقف الكثير من المتاعب التي واجهتني منذ اليوم الأول لوصولي القاهرة لإعداد أطروحة الدكتوراه في الصحافة.

بالصدفة التقيت السيد ميرسكي، وهو باحث يعمل في معهد الاقتصاد الدولي والعلاقات الدولية وسبق أن وضع كتاباً حول دور الجيوش في البلدان النامية وعد الكتاب وقتها أهم دراسة حول طبيعة العلاقات بين مؤسسات الدولة والحراك السياسي في العالم الثالث. كان السيد ميرسكي على النقيض من أفكار بريماكوف، رغم أنهما يعملان في ذات المعهد. ومن حسن حظي أن كلية الصحافة قد اختارت السيد ميرسكي ليكون المناقش الرئيسي لأطروحتي وقد أخبرني مباشرة وبعد لقائي الأول به، بأن بريماكوف وجماعته يقفون بالضد من الأفكار التي دونتها في أطروحتي. فسألته عن هؤلاء الذين ساءهم جماعة بريماكوف، فأخبرني بأنهم مجموعة من أعضاء في معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية وكذلك أعضاء في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في قسم العلاقات الدولية الذي يرأسه بناماريوف. لم أعر الأمر أهمية بقدر ما كنت أعطي

ثقتي بأكاديمية ومهنية عميد كلية الصحافة.

بعد أن أنهيت كتابة الأطروحة تمت الموافقة عليها في قسم الصحافة الأجنبية في كلية الصحافة ووضعت ملخصا لها ولم يبق سوى الإجراءات التنظيمية المتعلقة بالمناقشة والدفاع. بعد أيام أرسل بطلي عميد الكلية ليخبرني عن وجود إشكال سوف يسبب لنا إحراجا مع لجنة الحزب المركزية، وأنه شخصيا بغنى عن مثل هذا الأمر وغير مستعد للدخول بخصومة مع هؤلاء، وقطعا ليس له قدرة على ذلك. بدوري تساءلت عن العلاقة بين اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وما ورد في أطروحتي، وهل ما أقوم به من دراسة يأتي في باب السياسة أم في جانب البحث العلمي الخالص، فأجابني العميد أن الأطروحة تحوي السياسة والعلم على حد سواء، وإن فيها ما يخالف سياسة الحزب الشيوعي. فطلبت وقتها أن يرشدني لطريق ينقذ الموقف، فأجاب أنه حتما سوف يحاول إيجاد مخرجا لذلك خلال اليومين القادمين، وكانت مدة الدراسة التي منحت لي قاربت الانتهاء دون أن أحصل على الضوء الأخضر لمناقشة الأطروحة.

في اليوم الثاني أخبرني المدير بأنه تم تمديد مدة الدراسة والمناقشة للأطروحة لثلاثة أشهر أخرى، وخلال هذه الأشهر علينا إيجاد الحل. فسألته عن طبيعة الحل المقترح، فقال لي أن لا علم له في الوقت الراهن، ولكنه يعتقد أن الحل الصحيح يوجد عندي بالذات، فتساءلت كيف وما المطلوب مني؟ فقال أن علي رفع ما يتعارض ونهج قيادة الحزب من متن الأطروحة وكل ما يفند مسيرة المصريين نحو بناء الاشتراكية، فذكرته بما اتفقنا عليه قبل ذهابي إلى القاهرة، فكيف تطلب مني الآن أن أحذف كل ذلك، يا ترى هل المطلوب مني أن أكتب عن آلات الطباعة ونوعية الورق المستخدم والأحبار وكيفية توزيع الصحف وأعداد العاملين، وهل كانت الخطة التي وضعناها تتعلق بهذا الشيء دون غيره؟ لم نتفق على شيء وخرجت من عنده حائرا ضجرا لا أدري ما سوف يكون عليه الموقف في القادم من الأيام.

بعد مضي أسبوع أخبرني العميد بأن اتفاقا قد جرى على إرسال الأطروحة إلى معهد الماركسية اللينينية لدراستها وإيداء الرأي. لم أترك الأمر يمر دون أن أتابعه بحماس وأبحث عن أية طريقة تقربني من نيل حقي في الحصول على شهادة الدكتوراه لذا ذهبت دون موعد إلى معهد الماركسية اللينينية وقابلت اللجنة التي تقرر أن تدرس أطروحتي لنيل الدكتوراه وحاولت معرفة إذا كانت تتعارض مع سياسة الحزب حسب ما يقال.

استغربت اللجنة حضوري شخصيا دون موعد مسبق، ولكنهم وفي نهاية الأمر أخبروني بأن قرارهم سوف يصدر بعد الانتهاء من الاطلاع على الأطروحة ودراستها، وسيكون ذلك بعد أسبوع من الآن. وفعلا ذهبت إليهم بعد أسبوع فأعلموني بأن الأطروحة ومن الناحية العلمية صحيحة وسليمة وتتوافق مع متطلبات البحث، ولكن ما جاء فيها من آراء سياسية وبالاستناد لخطابات وتصريحات وأدبيات القادة المصريين، لا يتلاءم والاقتناع السائد بأن مصر تسير نحو الانتقال السلمي لبناء الاشتراكية، وهذا الاقتناع يؤمن فيه العاملون في العلاقات الخارجية للحزب الشيوعي السوفيتي، لذا تقرر قبولها ولكن بشروط كانت مجحفة بحقي ومنها مناقشة الأطروحة تتم بشكل غير علني.

في معهد الاستشراق



في مؤتمر صحفي آسيا وإفريقيا في أرمينيا

في أحد الأيام علمت بانعقاد مؤتمر لصحفيي آسيا وأفريقيا في يرفان عاصمة أرمينيا السوفيتية، وبلغت بأني سوف أكون عضواً باللجنة التحضيرية التي تهيئ للمؤتمر، ومهمتي فيه تتركز بمتابعة ولقاء ومرافقة الصحفيين العرب، الذين سوف يكونون ضمن وفود المؤتمر، ذهبت بحماس إلى يرفان وكنت خلال المؤتمر أبذل جهوداً ليست بالهينة وأحاول بذل ما أستطيع، لأني ما كلفت به حقه، ولذا لاحظ البعض نشاطي داخل المؤتمر. في اليوم الثالث من المؤتمر اقترب مني شخص، وقال لي أن ذلك الرجل وأشار بأصبعه إلى المنصة، يريد مقابلتك خلال الاستراحة، فسألته من يكون ذلك الرجل فأخبرني بأنه نائب رئيس منظمة التضامن الأفرو آسيوي ورئيس معهد الاستشراق الرفيق بابا جان غفوروف، ذهبت أثناء الاستراحة لمقابلته فسألني مباشرة هل أنت أوزبكي فقلت لا، إذاً من أين أنت؟ فقلت له أنا من العراق. فقال والدهشة بادية عليه، معقولة أنك من العراق. فقلت ولم لا؟. قال لأنك نشط وفعال، وتكلم اللغة الروسية باتقان. ثم راح يسألني عن طبيعة عملي في المؤتمر وما هي المهنة أو الموقع الوظيفي الذي أتبواه الآن، فأخبرته بوضعي الدراسي وأني بعد شهر من الآن سوف أدافع عن أطروحة الدكتوراه في كلية الصحافة بجامعة موسكو، وأطروحتي بالتحديد عن الصحافة المصرية وقانون تنظيم الصحافة هناك. استمر حديثنا لفترة ليست بالقصيرة وسألني في نهايته عن المشكلات والمعوقات التي أعانيها، فأخبرته ببعضها وكان منها بعض المشكلات العلمية والمنهجية مع السيد بريماكوف، تتعلق بطبيعة المعلومات التي قدمتها في أطروحتي. وأخبرت السيد بابا جان غفوروف بأن السيد بريماكوف كان عاملاً مساعداً في تجميد أطروحتي للدكتوراه لفترة بسبب خلاف سياسي وفكري، فأنا أعتقد بأن التوجه السياسي في مصر لا يعدو غير توجه وطني محلي، لا علاقة له بالاشتراكية، وليس في وارد تفكير القيادة المصرية بناء الاشتراكية حسب المفهوم الشيوعي، وقد تولدت عندي هذه القناعة خلال لقاءاتي بالرئيس جمال عبد الناصر وشعراوي جمعة وآخرين من القادة المصريين. وهذا الرأي قد ذكرته في أطروحتي، لذا

جمدت مناقشتها ومن ثم حولت إلى معهد الماركسية اللينينية لدراستها وتبيان الرأي، وقد أخبرت من بعض الرفاق بوجود ملاحظة تقول بأن ما جاء في الأطروحة فيه الكثير من الصحة، ولكنه يتعد بشكل وآخر عن توجهات ورؤية الحزب الشيوعي السوفييتي، حيث يعتقد البعض بأن القيادة في مصر تتخذ خطوات سياسية واقتصادية وتسير في الطريق الصحيح لبناء الاشتراكية، فقال لي السيد غفوروف، لا عليك في هذا الشأن، وأخبرني بأنه سوف يرسل وفدا من مؤسسته (معهد الاستشراق) لحضور مناقشة أطروحتي للدكتوراه وقد بر بوعده وحضر المعهد يوم المناقشة وفد من معهد الاستشراق وكنت أنا في كامل الاستعداد للدفاع عن أطروحتي ونيل الدكتوراه، لذا حاججت المشرفين على أطروحتي بشكل دقيق ومسهب، وفي نهاية المناقشة نلت درجة الدكتوراه، وبعد انتهاء دفاعي أخبرني وفد معهد الاستشراق بأن السيد غفوروف يريد حضوري غدا إلى المعهد، فذهبت في اليوم التالي إلى هناك وقابلت رئيس المعهد السيد بابا جان غفوروف الذي هنأني على النجاح، وبعد حديث طويل فاجأني برغبته أن أكون موظفا في المعهد وبدرجة باحث علمي أقدم بالوكالة، وليس باحثا علميا مبتدئا، فطلبت منه إيضاح ذلك ولماذا بالوكالة؟، فقال بأنه لا يستطيع تعييني بوظيفة باحث علمي أقدم، لأنه لم يمض عليّ بالوظيفة أكثر من عشر سنوات، وأنه ذهب إلى هذا الخيار ليكون لي راتب جيد، فالباحث العلمي يأخذ ١٥٠ روبلا في حين إن الباحث العلمي الأقدم يأخذ ١٨٠ روبلا في الشهر.

كانت المقابلة مع السيد غفوروف مليئة بالمفاجئات وذهلت من حديثه، ولم أجد أمامي سوى الموافقة مباشرة على ما طرح عليّ من موقع وظيفي، وهو في أحد أهم المؤسسات العلمية الرصينة في الاتحاد السوفييتي

صباح اليوم الثاني جئت مبكرا إلى المعهد فوجدت أمرا تحريريا قد صدر بتعييني بصفة باحث علمي أقدم في معهد الاستشراق. عندها فسررت هذه العجالة في تعييني

كباحث علمي في المعهد كانت قد جاءت وفق ما يظهر من خصومة مع السيد بريماكوف وجماعته وبالذات بعض أقطاب معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية، وأيضا مجموعة العلاقات الدولية في اللجنة المركزية بقيادة بناماريوف، فأراد السيد غفوروف أن أكون أداة لتصعيد التنافس والتناحر من خلال عرض ما يفند أو يقف بوجه أطروحات بناماريوف وبريماكوف عن الواقع السياسي وتطوراته خاصة في مصر، فالسيد غفوروف لم يكن ليعرف الأشياء الكثيرة عن حياتي وسيرتي الذاتية، ولكنه وجد نفسه يقف إلى جانبي بعد أن عرف موقف بريماكوف المتشنج والمعاند ومحاولاته العديدة لمنع مناقشة أطروحتي التي تفند العديد من آرائه.

قمت بأخبار الحزب الشيوعي العراقي بما جرى من وقائع مع السيد غفوروف، وكانت تلك الأحداث في أعوام السبعينات من القرن العشرين، كان الرفيق عزيز محمد فيها سكرتيرا للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي. فأخبروني الرفاق بأن هناك قرار قد اتخذ بشأن الرفاق الذين يحصلون على الشهادات الدراسية النهائية وحسب الشعار الذي وضعه الحزب وهو (التفوق العلمي والعودة إلى الوطن) وهذا الأمر يشملني وعليّ العودة إلى العراق. لم التزم بقرار الحزب وذهبت إلى معهد الاستشراق وحسب تعليمات السيد غفوروف استلمت هوية المعهد وسلموني شقة مؤثثة بالكامل وبأربع غرف وباشرت بعلمي هناك. ولكن الرفاق في الحزب كانوا يضغطون عليّ بشدة وأبلغوني بضرورة السفر إلى سوريا ومن ثم عبور الحدود السورية العراقية والدخول إلى كردستان العراق للعمل مع الأنصار في الجهاز الإعلامي للحزب. فأجبتهم أنني أرى العمل في معهد الاستشراق أفضل لي وأنفع للحزب، فأجابوني الرفاق، أن العمل في معهد الاستشراق يتطلب موافقة الحزب الشيوعي السوفيتي بعد تقديم طلب من الحزب الشيوعي العراقي، ومن المستحيل أن نخطو مثل هذه الخطوة، إذ أن هناك قرارا حزبيا بالعودة إلى الوطن يشمل كافة الرفاق. عندها أخبرت الرفاق ببدء عملي في معهد الاستشراق وعرضت عليهم هوية المعهد عندها أصيبوا بالذهول.

كان عملي في معهد الاستشراق فرصة ذهبية لي ولم تكن لتتوفر لغيري في ذلك الوقت، ولذا سعدت أيما سعادة ودخلت في لجة العمل بكل طاقة كنت أملكها. ولا أنكر بأنني استطعت من خلال المعهد بناء وتوطيد علاقاتي بشخصيات حزبية ودبلوماسية سوفيتية وكذلك شخصيات أخرى من مختلف البلدان. وقد سافرت وقابلت الكثير من رؤساء وملوك ورجال سياسة وحكام عرب وغيرهم. كذلك أتاح لي معهد الاستشراق الاطلاع على خبايا ومكنونات سياسية ودبلوماسية واسعة وكثيرة، كنت ومازلت أحملها في خاطري وكأنها حدثت البارحة. لذا أود أن أدونها ليطلع عليها الناس. وأجد في نفسي اليوم كشاهد حقيقي على تلك الوقائع ما يدفعني لوضعها أمام رفاقي وأصدقائي بكل دقة وصدق وأمانة في محاولة لأن ينصف التاريخ الجميع ومنهم أنا.

في اليوم الأول من مباشرتي الدوام في المعهد أطلعني السيد غفوروف على طبيعة عملي. ووضع لي قواعد عمل، قائلاً بأن لا علاقة لي بأي قسم من أقسام المعهد وإنما أرتبط به مباشرة دون سواها. ورغم وجود القسم العربي في المعهد والذي يديره السيد ليبديف فإن ليس لي علاقة بهذا القسم، ولكن يمكنني أن أتصل برئيس القسم عند الحاجة أو حين يطلب هو مقابلتي. كذلك أن أعمل كمساعد لغفوروف، ولن أتقيد بنظام المعهد الذي يتطلب حضور الباحثين وأغلب العاملين في أقسامه مرتين في الأسبوع، أما أنا فكان عليّ الحضور يومياً أو متى أراد السيد غفوروف ذلك مني.

في يومي الثالث طلب مني غفوروف أن أكتب تقريراً عن الوضع في اليمن الجنوبي وفسر لي ذلك باهتمام المعهد وأيضاً القيادة السوفيتية بالتحويلات الجارية هناك بعد أن أعلن قادة اليمن الجنوبي تبنيهم الاشتراكية العلمية كنهج لإدارة السلطة. قبل أن أكتب البحث ناقشت والسيد غفوروف موقف قيادة الاتحاد السوفيتي من تلك التغيرات وطبيعة العلاقة بين البلدين وسألني غفوروف إن كنت أملك معلومات عن اليمن

الجنوبي فأجبت بوجود علاقة لي بمنظمة الحزب الاشتراكي اليمني في موسكو، وبعض الطلبة اليمنيين الذين يدرسون في مختلف المعاهد والجامعات السوفيتية وأناي أعمل مراسل لصحيفة ١٤ أكتوبر اليمنية وهؤلاء الطلبة هم من سعى لعملي كمراسل. فرح غفوروف بذلك كثيرا وشجعني على تطوير علاقتي تلك.

كانت معلوماتي عن اليمن الجنوبي جيدة في واقع الأمر وقد اكتسبتها من خلال علاقاتي بالعديد من الطلبة اليمنيين الدارسين في موسكو ومنهم أعضاء الحزب الاشتراكي كذلك كانت قد تبلورت معلومات عن اليمن من خلال عملي في الصحافة السوفيتية وإطلاعي اليومي على الأخبار هناك. وكانت أول معلومة أدرجتها في التقرير تتعلق بطبيعة الحراك السياسي الجاري هناك وحول قادة هذا الحراك حيث أشرت لصغر سنهم وقلة خبرتهم السياسية وأيضا خلفياتهم السياسية التي تشير لعلاقتهم السابقة بحركة القومين العرب، كذلك وضحت صورة الصراع الذي ممكن أن ينفجر في أي وقت قادم على خلفية التنافس والخلافات القبلية، وضمنت التقرير استنتاج يشير إلى صعوبة بناء الاشتراكية بمثل هكذا قادة بخلفيات فقيرة ثقافيا.

في اليوم التالي قدمت تقريري فقال ضعه على المنضدة وسوف يستدعي السيد سعيد كاميلوف لترجمه إلى الروسية والسيد كاميلوف سبق أن كان مديرا للمركز الثقافي السوفيتي في المغرب وهو ضليع باللغة العربية، والآن يعمل كباحث علمي في المعهد، أيضا أشار لاستدعائه لفتاة تعمل في المعهد أيضا تجيد التحدث باللغة العربية ليعمل كلاهما على ترجمة تقريري وسوف يناقشني حوله بعد اكتمال الترجمة. بعد مضي يومين طلب مني الحضور وأخبرني بأنه قرأ التقرير جيدا وهو يؤيد ما جئت به من معلومة واستنتاج، مذكر بأن هناك في أوساط القيادة وبعض مؤسسات الدولة السوفيتية من لا يؤيد هذه المعلومات ولا يتوافق مع الاستنتاجات التي ذكرتها.

خلال شهر من عملي في المعهد تأكد لي بشكل ناجز وجود خلافات عميقة

وصراعات سياسية بين تلك المجاميع في مؤسسات الدولة السوفيتية وبالذات البحثية منها أو بالتحديد بين أوساط اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ولكن جميع تلك الخلافات تختفي تحت سقف واحد، عند الاجتماعات الحزبية الدورية والسنوية ليظهر بعدها خطاب أيديولوجي موحد في جميع النواحي ليدو الحزب وكأنه كيان مرصوص.

بعد مضي فترة سلمني غفوروف ملف عن أفغانستان. لم تكن وقتها تتوفر عندي معلومات كثيرة عن أفغانستان وكان حالي حال من يتابع الأخبار من وسائل الإعلام. كان الملف يحتوي تقارير الاستخبارات السوفيتية وكذلك تقارير السفارة السوفيتية ومقالات صحف والموقف الأمريكي ومثله البريطاني. كان الجيش السوفيتي يحتل أفغانستان وقتذاك، سألت غفوروف عن المطلوب مني عمله مع هذا الملف، إن كان كل شيء فيه يتحدث بالتفاصيل الدقيقة عن الوضع هناك. فقال غفوروف أنه لا يريد الحديث أو استعراض وجهات النظر أو متابعة الأخبار الموجودة في الملف، وإنما يتطلع أن يحصل على معلومة تؤكد أو تنفي وجود خلاف حول فهم المسألة الأفغانية، وبالذات بيننا وبين الآخرين. وطلب مني أن أكتب رأي بعد قراءة الملف ثم أجلس مع سعيد كميلوف لترجمته إلى الروسية. توقفت متمعنا بجملة (وجود خلاف بيننا وبين الآخرين) أدركت وقتها بأني أصبحت جزءاً من هذه الكتلة التي يقودها غفوروف.

كانت الأحداث تتسارع في مصر وتتجه نحو الأسوأ وتظهر فوق السطح خاصة بعد طرد الخبراء السوفيت والتقارب المصري الإسرائيلي. وفي ذلك الوقت كان غفوروف يطلب مني كتابة تصوراتي عن أحداث مصر ليقوم سعيدوف بترجمتها وترفق مع باقي التقرير العام الذي يعده المعهد ويرسل إلى المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي، وكان التقرير يخلو من ذكر اسمي. فجأة وفي أحد الأيام طلب غفوروف إدراج اسمي بين أسماء المشاركين في إعداد التقرير، عندها شعرت بحدوث

نوع من التغيير في سياق العمل، فسألت عن السبب في هذا، فأجابني غفوروف أن هناك قرار صدر من المكتب السياسي للحزب يؤكد على وجوب ذكر جميع من شارك في إعداد التقرير، شعرت وكأن هذا الأمر يعني بالذات وليس شخصا آخر، وأنه محاولة من بريماكوف وجماعته تمهيدا لمؤامرة جديدة تخصني. لم تمض على مشاركتي في إعداد التقارير غير فترة ليست بالطويلة ربما شملت أربعة أو خمسة تقارير فقط، حين أخبرني غفوروف بأن هناك من أتصل من لجنة العلاقات الخارجية في اللجنة المركزية للحزب وسأله من يكون هذا الدكتور خليل عبد العزيز، فأخبرهم بما يتعلق من معلومة عني مؤكدا كوني شيوعي عراقي سبق وأن حكم عليه بالإعدام في بغداد، كذلك سألوه عن الكيفية التي تم فيها توظيفه للعمل في المعهد. وأخبرني أيضا بأنه رد عليهم كون لديه صلاحيات للتعيين وفق خياره، وسألوه إن كان قد حصل على موافقة اللجنة المركزية فأجابهم بأنه غير محتاج لهذا وصلاحياته يستمدّها من المكتب السياسي للحزب.

أكثر من كان مهتما بأطروحة الدكتوراه هم زملائي في معهد الاستشراق وعلى رأسهم مدير المعهد السيد غفوروف وكذلك معهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية فقد كانوا سعداء ومؤيدين للأفكار التي طرحتها حول طبيعة قانون تأميم الصحافة والأفكار المتعلقة بالوضع السياسي في مصر لذا يجب توزيع ملخص الأطروحة على جميع المعاهد البحثية. ومنذ بداية عملي في معهد الاستشراق سألني السيد غفوروف إن كانت عندي نية لطبع الأطروحة، فأجبته بنعم وكانت تلك أميستي وسألته عن الجهة التي سوف تلتزم بطبعها فقال أن معهدنا سوف يتكفل ذلك ولكن لن نستطيع طبعها مثلما ناقشتها في الجامعة، فمن الجائز أنها سوف تثير لنا بعض المشاكل وبالذات مع بعض الأطراف التي تعرفها أنت وهم من أعترض سابقا على مناقشتها ولذا سوف أشكل لجنة لتلخيصها وبدلا من كونها بأربع مائة صفحة سوف تختصر إلى مائة وبضع صفحات وهذا ما حدث فعلا ولكن الملخص حافظ على جوهر الأفكار التي وردت

في الأطروحة، وكان ذلك مقنعا ومناسبا ومريحا لي جدا. وكنت وقتها متلهفا لرؤية أطروحتي في كتاب يصدر ويوزع على الجميع.

طبعت ألف نسخة من الكتاب وأثار صدوره ضجة ونفدت طبعته من الأسواق خلال يومين رغم أنه كتاب أكاديمي ويتعلق بشأن من شؤون الباحثين الأكاديميين من الصحفيين والسياسيين وليس كتاباً للعامة.

زيارة مرتقبة إلى السعودية لم تتحقق!!

كانت هناك اتصالات تجري بين غفوروف والبعض من سياسيي المملكة العربية السعودية، وبواسطة ورعاية شخصيات سياسية من دولة الكويت التي كانت لها علاقة دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي، تلك الاتصالات والحوارات كانت تجري ظاهريا ليس باسم الحكومة السوفيتية أو معهد الأستشراق، وإنما بحجة إحياء العلاقة مع مسلمي الاتحاد السوفيتي الذين يمثلهم الطاجيكي المسلم بياجان غفوروف، ولكن في غايتها الأساسية تذهب بعيدا كمحاولة لإعادة العلاقات الدبلوماسية والتخفيف من تحركات المملكة المضادة للسياسة السوفيتية وبالذات منها في المنطقة العربية وعلى وجه التحديد ضد جمهورية اليمن الديمقراطية.

نجحت تلك الاتصالات وتكللت بدعوة وجهت لغفوروف لزيارة المملكة العربية السعودية، الذي كان على رأس الحكم فيها، الملك فيصل آل سعود. ذلك الوقت طلب من مدير المعهد السيد غفوروف أن ينتهيا للسفر معه بزيارة إلى المملكة العربية السعودية ومن هناك نذهب لتلبية دعوة جمهورية اليمن الديمقراطية أيضا. كنت أنا والمترجم سعيد كميلوف تشكل الوفد المقترح للسفر مع غفوروف، وقد أخبرني غفوروف بأنه سوف يهيا هدية قيمة و ثمينة للعاهل السعودي تجعله سعيدا جدا وتكون بابا مناسبا لفتح الحوار بيننا وتحسين العلاقات.

كانت هناك نسخة لمجموعة أحاديث الأمام علي بن أبي طالب جمعها الشريف الرضي في كتاب سمي نهج البلاغة، ويقال بأن هذه النسخة أصلية موجودة في متحف لينين غراد (سان بطرس بورغ). وقد طلب منهم غفوروف تصوير نسخة كاملة للكتاب وبشكل جيد ووضعها في صندوق مذهب لتكون هدية للملك السعودي من مسلمي الاتحاد السوفيتي. بدوري قمت بأخبار السفارة اليمنية عن قدومنا إلى اليمن بعد انتهاء مهمتنا في العربية السعودية وقام السفير بإعلام حكومته وهذا ما جعل عبد الفتاح إسماعيل يفرح ويبارك هذه الرحلة أملاً أن تكون فاتحة خيراً ووضع حد للخلافات وبالذات منها بين اليمن الجنوبي والمملكة السعودية بعد أن عرف أن جزء من مهمة الوفد هو طرح ومناقشة مسألة علاقة المملكة باليمن ومحاولة للتخفيف من حدة العداء السعودي الموجه بالضد من اليمن الجنوبي، وهذا أيضاً ما قاله أمامنا السيد غفوروف.

سافرنا إلى الكويت لعدم وجود خط طيران مباشر إلى السعودية، حيث علينا أن نبقى هناك لليلة واحدة ثم نأخذ الطائرة إلى المملكة السعودية. وصلنا إلى مطار الكويت وكان في استقبالنا وكيل وزير الإعلام، وجاء هذا الاستقبال الرسمي وفق مراسيم دبلوماسية تتعلق بشخصية السيد غفوروف كونه أكاديمي ويترأس أحد أهم المراكز البحثية المؤثرة في السياسية وكذلك لطبيعة عمله الرسمي الطويل في مؤسسات الدولة السوفيتية، ولم يكن لدى الجانب الكويتي علماً بالمهمة الحقيقية للوفد، وإنما جاء فقط ليمثل مسلمي الاتحاد السوفيتي.

ذهبنا إلى فندق وسط مدينة الكويت وبعد فترة وجيزة جاء وزير الإعلام الكويتي ورحب بنا وجلس معنا ودارت بيننا أحاديث كانت بداياتها بروتوكولية ثم توسع الحديث ليسأل الوزير الكويتي عن طبيعة مهمة وفدنا الذاهب إلى السعودية، فأجابه غفوروف بأننا وفد يمثل مسلمي الاتحاد السوفيتي ونود أولاً أن نحیی مثل هذه

الروابط الإسلامية بين شعوبنا وأيضا لدينا من هذا الباب رغبة في إحياء العلاقات مع المملكة السعودية التي انقطعت منذ عهد بعيد، بعد أن كانت هناك علاقة بيننا في سنوات الثلاثينيات. فجأة سأل الوزير الكويتي السيد غفوروف عني بعد أن أستمع لحديثي بلغتي العربية الواضحة البعيدة عن لهجات المستعربين قائلًا، من أين هذا الأستاذ المتحدث؟ فأجابه غفوروف أنه من معهد الاستشراق السوفيتي، فقال الوزير، أني أعني من أي بلد في الاتحاد السوفيتي؟ فقال له غفوروف أنه من العراق وهو باحث علمي في المعهد. عندها وبعد فترة صمت قصيرة قال الوزير الكويتي موجهًا الكلام لغفوروف، ممكن لي أن أقدم لكم رأياً؟ فأشار غفوروف بالإيجاب، فقال الوزير، أني أفضل أن لا يرافقكم الأستاذ خليل في سفركم إلى السعودية، فدهشنا جميعاً ونحن نستمع لرأي الوزير، فسأله غفوروف عن السبب فيما ذهب إليه الوزير، فقال الوزير أن هناك عداً بين السعوديين والعراقيين والسبب يعود لخلاف متأصل عند بعض رجال السياسة، فالسعوديين يكونون كرها للعراقيين وذلك جاء على خلفية الخلاف بين السعوديين والهاشميين الذين هم بقايا عائلة الشريف حسين الذي حاربه السعوديون وأخرجوه بمساعدة بريطانيا من أرض نجد والحجاز وهي اليوم ما يسمى بالمملكة العربية السعودية، وبقي ذلك راسخاً في الدبلوماسية السعودية. لذا أقترح أن يبقى الأستاذ خليل عندنا حين انتهاء مهمتكم، فقال غفوروف حسناً ليبقي خليل هنا ونحن نسافر، وعليه أن يسافر مباشرة إلى عدن ليستقبلنا هناك، وبعد انتهاء اللقاء أنفرد بنا غفوروف ليستطلع رأينا في موضوع سفري معهم، فأخبرناه بعدم وجود رأي لدى كلينا أنا والمترجم سعيد كاميلوف، عندها قال بأنه سوف يأخذ رأي السفير السوفيتي في الكويت في هذا الشأن. من جانبي شعرت بخيبة أمل كبيرة، فقد كنت أملك رغبة شديدة لزيارة السعودية والاطلاع على معالمها ورؤية بعض الطقوس التي طالما سمعت عنها، ولم يكن يخطر على بالي تلك الخلافات العالقة بين البلدين. في اليوم الثاني تحدث غفوروف مع السفير السوفيتي، فأيد السفير ما جاء برأي وزير الإعلام الكويتي حول

عدم مصاحبتني للوفد الذاهب إلى السعودية. ودعت غفوروف وكاميلوف في المطار متوجهين إلى المملكة العربية السعودية وبدوري انتظرت هناك حيث كانت طائرة يمانية سوف تقلع بعد ساعتين عائدة إلى عدن، كنت قد حجزت عليها تذكرة السفر.

في مطار عدن استقبلني مدير مكتب السيد عبد الفتاح إسماعيل ومباشرة ذهبنا إلى دار الضيافة حيث قابلت عبد الفتاح إسماعيل الذي رحب بي ثم سألني عن باقي الوفد فأخبرته بما حدث فقال، للحقيقة أردت أن تكون هناك معهم فأنت تعرف جيدا المصاعب والأخطار التي تحيط بنا وأنت عربي لك القدرة على إيصال رغباتنا ورأينا بشكل مباشر وجيد، ولكنه في نهاية حديثه قال، أعتقد أن رأي الوزير الكويتي والسفير السوفيتي هناك كان صائبا في عدم مرافقتك للسيد غفوروف. فإن كنت حضرت اللقاء فسوف يتغير طابع الحديث الذي يدور في اللقاء أن عرف السعوديون أنك عراقي، فهم يتحسسون من ذلك وربما يعتقدون بأن المشاورات والأحاديث سوف تنقل مباشرة إلى الحكومة العراقية. بعد وقت ليس بالطويل حضر السيدان سالم ربيع علي وعلي ناصر محمد وجلسنا سوياً وكان مجمل حديثنا يتعلق بطبيعة العلاقات اليمنية السعودية وأيضا عن مهام معهد الاستشراق ووضع الطلبة اليمنيين في الاتحاد السوفيتي. كان رأي الثلاثة يعول ويأمل أن يحقق غفوروف ما يساعد في تخفيف الخطر السعودي وعودة العلاقات بين اليمن والمملكة العربية السعودية.

جاء غفوروف وسعيد كاميلوف وكنت أحد مستقبيهم في مطار عدن، وبعد وقت من الضيافة اليمنية والاستراحة سنحت لي الفرصة للحديث مع غفوروف فسألته عما دار وحدث هناك أثناء مقابلاته للملك السعودي فيصل فقال: قابلت الملك فيصل ورحب بنا فبادرت بتقديم هديتنا له وكانت موضوعة على منضدة أمامنا وغلفت بورق مذهب، فتقدمنا نحو المنضدة لتسليمه الهدية، فسألني ما طبيعة هذه الهدية، فأخبرته بأنها نهج البلاغة للأمام علي، فوجدت الملك قد ذهب بعيدا بنظره وقال شكرا

لك، فطلبت أن تفتح الهدية فقال الملك ليس هناك من داع لذلك فبقت الهدية مكانها وشعرت وكأن الملك لم يكن راضيا عن الهدية. ثم تحدثنا عن العلاقة بيننا كمسلمين، فبادر الملك بالقول بأنه على استعداد لقبول خمسة آلاف مسلم حقيقي من الاتحاد السوفيتي يأتون سنويا للحج على حسابه الخاص، وسيعمل على تقوية العلاقات بين مسلمي البلدين فسألته عن حاجة هذه الأمور لعلاقات دبلوماسية لتنظيمها وتنفيذها، فقال لا أظن أن مثل هذا يحتاج لعلاقات دبلوماسية، فقال الملك أنه على استعداد لتجهيزنا بآلاف النسخ من القرآن والأحاديث النبوية والتفاسير وتتم بيننا زيارات ذات طابع ديني ثم ننظر بعدها في وضع أسس لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين بلدينا.

وعن موضوع العلاقات مع اليمن الجنوبي قال غفوروف أنه تحدث طويلا مع الملك فيصل وكان الملك متشددا في موقفه ويتهم قادة اليمن بالكفر والشيوعية فأخبرته بأنهم مسلمون مثلكم فأصر على أنهم شيوعيون، ولكنني استطعت أخيرا أن أقنعه وآيين موقفه بالقول، مهما حدث بينكم ومهما كان وضع هؤلاء فهم جيرانكم الأبديون ومن الأفضل أن لا يكون هناك توترات بين البلدين وقد استطعت في مجرى الحديث التخفيف من اللهجة العدائية تجاه اليمن.

سبقت وكذلك ترافقت مع زيارة غفوروف للمملكة العربية السعودية بمباحثات سرية تقوم بها بعض البلدان العربية ومنها الكويت في مسعى حثيث لرأب الصدع وترطيب الأجواء بين السعودية وعدن ومحاولة لإيجاد صيغة لقاء ومن ثم بناء علاقة رسمية بينهما، ورغم الموقف المتعنت من بعض قادة اليمن الجنوبي ورفضهم لتلك الوساطات وتخوفهم من وجود سفارة للسعودية في عدن وقولهم بأن تلك السفارة سوف تعمل على تخريب بلدنا، ولا نملك الإمكانيات لمواجهة ما تريد فعله في بلدنا.

في هذه الزيارة استطاع غفوروف الضغط على قادة اليمن لقبول بناء علاقة رسمية

مع السعودية، ووعدهم بتوفير المستلزمات الضرورية لتأمين مراقبة سفارة السعودية ومنع أعمال التخريب أن أرادت القيام بها في اليمن الديمقراطي، وقد بر غفوروف بوعده وعلى إثرها أرسل الاتحاد السوفيتي وأيضاً ألمانيا الديمقراطية كادرا تعليميا لتدريب العديد من اليمنيين على العمل ألاسخباري ومراقبة السفارات. وقد وافق اليمنيون على المقترحات وأعيدت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. وبدورها فإن المملكة العربية السعودية افتتحت سفارتها ولكنها جعلت غالبية طاقم السفارة من اليمنيين اللاجئين سابقا عندها، وهم من المعادين للنظام الحاكم في اليمن، وكان هؤلاء يتكلمون اللهجات اليمنية ويرتدون ذات اللباس اليمني، لم تدع السفارة السعودية الوقت يمر سريعا حيث قام البعض من موظفي السفارة بالذهاب حيث التجمعات الجماهيرية والجلوس هناك وبث الإشاعات عن الوضع، مثل سوء الخدمات وشح المياه والكهرباء، انتبعت المخابرات اليمنية لهذا الفعل فأرسلت بعض مواطنيها ليتشاجروا مع هؤلاء وتكرر الأمر فاشتكت السعودية من تلك الحوادث التي أدت إلى إيذاء بعض موظفيها فكان رد اليمنيون بتساؤل عن طبيعة وسبب تواجد هؤلاء بين الجماهير وفي المناطق الشعبية وهم موظفون لسفارة.

كانت زيارة رئيس معهد الاستشراق إلى المملكة العربية السعودية مناسبة جيدة لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين فبعد أن طورت المبادرة إلى زيارات وقبول الدولة السوفيتية فتح باب الحج لبعض المسلمين وقيام المملكة السعودية بإرسال وفودها إلى جمهوريات الاتحاد السوفيتي المسلمة وتزويد بعض المؤسسات فيها بالكتب الدينية، عادت الأمور إلى مجاريها وظهرت الحاجة لتبادل العلاقة الرسمية بين البلدين.

في زيارتنا تلك إلى اليمن جرت بيني وبين الزعماء اليمنيون عدة لقاءات استطعت من خلالها الاطلاع على الكثير مما يدور في الساحة السياسية اليمنية وأيضاً طبيعة العلاقات بين أعضاء الحزب ورجال السلطة. كان جميع رجال السلطة شبابا ثوريين

بخلفيات مختلفة فمنهم من كان محسوباً على حركة القوميين العرب ومنهم من كان يرتبط بحركة الشيوعيين ثوار عدن الذين قارعوا الاستعمار البريطاني، ورغم أنهم أصبحوا تحت جناح حزب واحد ولكن الولاءات كانت تفرقهم، فينقسمون بولاءاتهم بين قادة الحزب وأيضا ينقسمون وفق الاصطفاف العشائري الذي كانت اليمن تعاني منه.

قبل مغادرتنا الاتحاد السوفيتي كان حديثي مع السيد غفوروف يتمحور حول اليمن والقيادة اليمانية، لذا طلب غفوروف وقتها مني أن ألتقي خلال وجودنا في اليمن بجميع هؤلاء وبالذات منهم عبد الفتاح إسماعيل وكذلك رئيس الدولة سالم ربيع علي ومحاولة معرفة الخلافات التي تقع بينهما والتي كانت في مجملها حول العلاقة بالاتحاد السوفيتي والصين الشعبية وأيضا في اتجاهات تشكيل الحزب القائد وفكرة الاشتراكية حيث كان عبد الفتاح يعمل على أن يكون الحزب الاشتراكي بدليل ماركسي لينيني في الوقت الذي يود رئيس الدولة سالم ربيع غير هذا ويرغب أن يكون الحزب اشتراكيا ديمقراطيا يضم جميع فئات الشعب اليمني وأن تكون لليمن علاقات متوازنة مع جميع شعوب العالم ومنها الصين والاتحاد السوفيتي. وأكد غفوروف على ضرورة معرفة العلاقة الحقيقية لسالم ربيع علي بالصين الشعبية وهل أنه فعلا ميال لتلك العلاقة ولديه صلات فكرية بالنموذج الصيني.

رفض الجنسية السوفيتية؛

من ضمن خطط المنافسة والصراع التي كنت أنا أحد محاورها، كانت تثار بين فترة وأخرى مسألة وجودي كأجنبي في معهد الاستشراق، ويصل ذلك حد الإلحاح، ولكن غفوروف دائما ما كان يواجهها بعناد وردع قوي.

في أحد الأيام أتصل بي رئيس دائرة الهجرة لعموم الاتحاد السوفيتي وطلب حضوري إلى دائرته مع جلب جميع الأوراق الثبوتية الخاصة لغرض إتمام معاملة

منحي الجنسية السوفيتية، في الوقت الذي شعرت بفرح غامر، توجست خيفة من هذا الأمر. فلم يتصل مدير دائرة الهجرة والإقامة مباشرة بي دون سابق معرفة أو مقدمات للطلب، لذا ذهبت إلى السيد غفوروف وأعلمته بالخبر وأنا منشرح الصدر مستعد لنيل الجنسية السوفيتية التي يتمناها الكثيرون. وقد اعتقدت بأن الجنسية السوفيتية سوف تساعدني وتغير نمط علاقتي في المعهد ومع مؤسسات الدولة الأخرى، وتقف أيضا بوجه محاولات إقصائي وتحجيمي. وعند مقابلي لغفوروف شرحت له ما حصل، ففاجأني بالقول عليك أن ترفض هذا العرض، فهم يسعون لتجميد عملك في المعهد أو أي مؤسسة أخرى. فتساءلت كيف؟

أجابني، أن الغاية من منحك الجنسية هو لتجميد عملك كليا، فحين تصبح مواطنا سوفيتيا سوف تفرض عليك قواعد وقوانين التعامل مع الأجانب فيمنع عليك مقابلة أي مسؤول أجنبي دون الحصول على موافقة أمن الدائرة، وهذا سوف يعيق عملنا سوية ويهيا الظرف للإطاحة بك كباحث علمي في المعهد، وإن خرقت التعليمات فسوف تواجه بها لا يحمد عقباه وعلى ابسط الأمور، وسوف تكون عملية إقالتك من وظيفتك سهلة جدا على صديقك اللدود بريماكوف.

منذ تلك الحادثة بدأت تظهر بحدة الخلافات بين المعهدين وكنت شخصا واحدة من تلك السجلات والمشاكل، وما عاد بريماكوف يخفي محاولاته الحثيثة لإقصائي عن العمل في المعهد، ولكن قوة شخصية وتأثير غفوروف السياسي كان يثلم ويمنع كل تلك المحاولات، ولكن بريماكوف ما كان ليستكين. وفي ذات الوقت وبموازاة أفكار بناماريوف كانت سياسة الاتحاد السوفيتي تتمسك بالنهج الفكري الذي تغذيه هذه المجموعة. وكانت أفكار بناماريوف تتساقق وأفكار بريماكوف وكل تلك تمثل حقيقة النهج السياسي للاتحاد السوفيتي وتعتمد في التعامل الدولي وبالذات مع بلدان ما سمي بتيار التحرر الوطني.

طبع الأطروحة بكتاب:

بعد فترة من حصولي على درجة الدكتوراه ونيلي الوظيفة في المعهد أصبحت لي علاقة طيبة بالعالم السوفيتي الأكاديمي ميرسكي الذي كان أحد المعارضين لبعض الأفكار السائدة حول طبيعة ومسيرة حركات التحرر الوطنية وبالذات منها الحركة السياسية المصرية وقد حضر مناقشتي لأطروحة الدكتوراه، لذا أُلح علي مدير معهد الاستشراق السيد غفوروف لطبع أطروحتي للدكتوراه، وكان معه أيضا مجموعة من العلماء السوفيت يفضلون طبع الأطروحة بكتاب، وأخبرني بهذا السيد غفوروف الذي كان متحمسا لذلك، وطلب موافقتي فوافقت، وكان عنوان الأطروحة (قانون الصحافة المصرية عام ١٩٧١) وعرضت فيها رأيي استنادا لوقائع ووثائق، بأن القانون ليس قانونا لتنظيم الصحافة وإنما هو قانون لتأميم الصحافة واحتوائها وإخضاعها للسلطات. أرسلت الأطروحة إلى مطبعة أكاديمية العلوم لتتولى طبعها على شكل كتاب، عند ذلك ظهر إشكال أعاق الطبع، فالأطروحة تتألف من أربعمئة صفحة وهذا الأمر مخالف للقوانين المتعارف عليها والتي لا تسمح بتجاوز الطبع أكثر من مائتي صفحة، عندها كلفت الأكاديمية لجنة لاختصار حجم الكتاب، وبعد أن أنهموا الاختزال والاختصار أرسلوا بطلي وعرضوا علي الكتاب فطلبت منهم السماح لي بقراءته فرفضوا ذلك وأخبروني بأن من حقي فقط أن أُلقي عليه نظرة تفحص وقالوا لي بأن ما فعلوه من اجتزاء كان لصالحني لا بل إنقاذي وإنقاذهم، فالاختصار أو الاجتزاء جاء حتى لا يكون هناك تضارب مع السياسة السوفيتية ورؤيتها حول مجريات ووقائع الأحداث في مصر، أيضا حتى لا يثار لغط حول الأكاديمية والقول بأنها طبعت كتابا فحواه يتعارض وسياسة الحزب والدولة، ولكنهم وضعوا الفحوى الحقيقي وصلب الأطروحة في هذا الكتاب. وقتذاك كنت أرغب أن يطبع الكتاب على أن يحمل ما هو أساسي، وهو رؤيتي الخاصة بقانون تنظيم الصحافة باعتباره تأميا للصحافة المصرية وليس قانونا لتنظيمها وأيضا عرض لطبيعة السياسة المصرية وحركة

التحرر الوطني فيها. وبدوره فقد طلب السيد غفوروف من السكرتير العلمي لمعهد الاستشراق السيد سريانيان، كتابة مقدمة للكتاب الذي سوف يصدر. وبناء على ذلك قابلت السيد سريانيان ودار بيننا حديث طويل عن مصر. كنت أعرف انه شخصية علمية اكااديمية، وعلى إطلاع واسع بأوضاع مصر رغم عدم ذهابه إلى هناك مثلما فعلت أنا. أخبرني السيد سريانيان بأنه قرأ الأطروحة حسب طلب السيد غفوروف وذهل حين أطلع على ما حوته من معلومات ووثائق، وشعر بأنها تقترب من المعلومة المخبراتية وقال بأن تحليلك للقانون كان علميا وصائبا، ثم طلب مني أن أحدثه عن نفسي مستدركا القول إنهم يملكون المعلومة الكاملة عني منذ تركي المدرسة الحزبية في طاشقند، وقال لي بالنص بأني (لو كنت بقيت في تلك المدرسة لتخرجت جحشا) ولكن حسنا فعلت. بعد ذلك أجبته بأنكم تمتلكون عني ملفا كاملا فلم تطلب مني الحديث عن سيرتي الذاتية، ورفضت أن أتحدث بذلك، فقال إنهم يملكون ملفا إيجابيا عني. ثم سألني عن رغبتني الاطلاع على مقدمة الكتاب التي أعدها فرفضت ذلك مبررا موقفني برغبتني الإطلاع عليها لاحقا بعد صدور الكتاب ليتسنى لي لاحقا الرد عليها إن وجدت فيها معلومة خاطئة.

يقول السيد سريانيان السكرتير العلمي لمعهد الاستشراق في المقدمة التي كتبها:

هذا الكتاب لعالم تقديمي وصحفي ساهم بنشاط في الحركة الوطنية التقدمية في بلده العراق، وهو مهم جدا لمعرفة وقائع حركة التحرر المصرية وواقع الصحافة هناك، فالمؤلف وخلال سنوات عمله تابع ودرس تطور الصحافة المصرية وكان على علاقة وطيدة ووثيقة بالكثير من الإعلاميين المصريين وغيرهم من بلدان أخرى ويمتلك الكثير من المعلومة عما يدور خلف الكواليس في مجالي السياسة والإعلام في تلك البلدان. واستعرضت مقدمة السيد سريانيان بشكل إيجابي جدا أطروحتي للدكتوراه.

قبل عدة سنوات مضت سافرت إلى موسكو وهناك ذهبت إلى المكتبة الرئيسية (مكتبة

لينين) التي تحتوي ما يقارب ٣٠ مليون كتاب، وهي تحوي كذلك جميع اطروحات الدكتوراه على مر الزمن، وكان غرضي من ذلك الإطلاع على أطروحتي للدكتوراه، والتأكد من وجودها وبقائها هناك. قدمت ورقة الطلب وانتظرت الجواب، بعد فترة وجيزة جاءني الموظف ليخبرني بأن الأطروحة مؤشر عليها بأن لا تخرج من المكتبة، وأن لا يطلع عليها أي كان دون طلب وموافقات رسمية، وعرفت بأن أطروحتي لازالت تخضع لذات القرارات والموانع التي وضعت على عهد بريجنيف، وإن الكثير من القيود والموانع لازالت تشكل عائقا كبيرا أمام انفتاح روسيا على العالم. وكدالة ومثال على بقاء تلك القيود رغم انتهاء الاتحاد السوفيتي كمنظومة أيديولوجية حكمت وفق قوانين ومعايير خاصة. ففي إحدى المرات توجهت إلى دائرة تسجيل الإقامة لتجديد أقامتي هناك فذهبت إلى إحدى الصديقات وهي موظفة دائما ما كانت تساعدني في ذلك فبادرت وطلبت منها المساعدة على تسجيل أقامتي، حيث اعتقدت بأن مثل هذا الأمر لن يكون على ذات النسق والسيقات التي كانت عليه في العهد السوفيتي، وإن البيروقراطية والروتين قد وليتا إلى الجحيم بعد أن كانتا قد أوجدت قيودا كثيرة. خرجت الموظفة من وراء منضدتها وصافحتني قائلة: تلك القواعد والقوانين سوف تستمر وتبقى إلى ما بعد مائة عام، فالروتين والبيروقراطية هذه لا علاقة لها بالاتحاد السوفيتي والنظام الأيدولوجيا وتغيير الحكم، فالأمر يتعلق بعقليتنا نحن. هنا أدركت أن الحكم تغير وانهارت الايدولوجيا ولكن العقلية ذاتها تبقى تتوارث ذات النمط البيروقراطي.

بعد مضي فترة وبعد أن قدم لي عرض منحي الجنسية السوفيتية، عرفت من السيد غفوروف أنه تحادث وبواسطة السفير اليمني في موسكو مع السيد عبد الفتاح إسماعيل وطلب منه أن يستضيفني في اليمن لمدة ستة أشهر على سبيل الإعارة، وقد فرح الرئيس عبد الفتاح بهذا الأمر ورحب بأن أكون مستشارا له. وافق السيد غفوروف ورتب كل شيء وصدر أمر بالإعارة وثبت في الأمر الصادر، كونه جاء بناءً على طلب اليمن

الجنوبي. عندها رتبت حقائبي وذهبت إلى هناك وباشرت عملي مستشارا للسيد الرئيس اليماني عبد الفتاح إسماعيل، وفرحت بانتهاء مطاردة بريماكوف غير المنصفة لابل غير الحكيمة على الإطلاق، ولكن وجدته في اليوم التالي أواجه من يلاحقني حتى وأنا البعيد في أقصى الجنوب، فقد طلب مني الرئيس عبد الفتاح طلبا غريبا فقال بأنه يطلب مني أن لا أتطرق في كتاباتي لما دار ويدور في الاتحاد السوفيتي وما يتعلق بسياسة الدولة والحزب هناك، فسألته عن سبب هذا؟ فأجابني أن هذا محظور وجاء بناء على طلب السفير السوفيتي في عدن الذي أخبره، أن خليل عبد العزيز يعرف أكثر من اللازم وعليه أن يلتزم بقواعد النشر والمعلومة والمصالح العليا للاتحاد السوفيتي. كنت وقتها أكتب الافتتاحية اليومية لصحيفة ١٤ أكتوبر اليمنية. وقد وافقت على مقترح الرئيس عبد الفتاح ولم أتطرق لا من بعيد ولا من قريب للاتحاد السوفيتي وما يدور هناك من صراعات كانت مخفية لابل تخفى تحت الرماد.

الفصل الثاني

شخصيات التقيتها وعرفتها

(١)

يفغيني بريماكوف رجل يعرف من أين تؤكل الكتف

بعد عملي الطويل ومشاركاتي العديدة في فعاليات وأبحاث معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية في السنوات الممتدة من ١٩٧٠ ولغاية ١٩٧٥. سنوات العمل تلك أعطتني تجربة ومعرفة غنية في مجالات عمل مختلفة وأيضاً في أمور الحياة ومتعلقاتها، وأهم ما في ذلك الإطلاع على طبيعة الوقائع ومجريات التعامل والصراع بين الأطراف والمؤسسات العلمية والسياسة السوفيتية، فتعرفت واطلعت على أسرار كثيرة زاهرة بالحوادث والوقائع الضخمة جداً والمرعبة في بعضها. وكنت في البعض منها أمثل صداعاً وقلقاً أو شخصاً غير مرغوب فيه لدى بعض الأوساط والنخب السياسية، لكوني أجنبياً وضعت وسط الحومة وداخل دائرة تلك الصراعات وحشرت فيها حشراً. وكان لي رأي واضح وصریح في واحدة من المسائل الشائكة المعقدة في العلاقات السياسية السوفيتية مع أطراف خارجية، ويمكن تحديد هذه الموضوعات، بالنظرة السلبية والاستصغار الذي يحمله بعض قادة الحزب الشيوعي السوفيتي للأحزاب الشيوعية في العالم الثالث. وكان على رأس هذه المجموعة يقف السيد بناماريوف مسؤول مكتب العلاقات الخارجية عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي وبطانته ومنهم السيد يفغيني بريماكوف. كان جميع هؤلاء ينظرون للأحزاب البرجوازية الحاكمة في تلك البلدان بعين الرضا ويروجون لفكرة، أن تلك الأحزاب قادرة على تبني طريق التطور اللا رأسمالي والوصول إلى الاشتراكية دون حاجة للشيوعيين وأحزابهم. وبسبب موقفني غير الإيجابي من هذا الطرح وتلك الآراء، وتزامن ذلك مع دراستي وطبيعة أطروحتي التي أكدت في جانبها السياسي على إن

الوقائع في مصر العربية كمثال، ومن مجريات السياسة والعمل الحزبي والمؤسساتي هناك، أظهرت جميعها أن لا علاقة لها بتبني التطور اللا رأسمالي أو البناء الاشتراكي لا بل العكس، وإن ما يتبناه مكتب العلاقات الخارجية السوفيتي والسيد بريماكوف هو على خطأ كبير وخداع بالسياسة. لذا سبب لي الموقف هذا الكثير من المشاق التي واجهتني منذ اليوم الأول لوصولي القاهرة لإعداد أطروحة الدكتوراه في الصحافة.

ملاحقة بريماكوف

كنت دائماً أحاول أن أجد رابط بين اختلافنا الفكري أنا وبريماكوف، وطبيعة التنافس بين الصحفيين، ولكن أجدني أبتعد عن هذا التفكير وأضعه في خانة العداء الشخصي بعيداً عن التنافس الصحفي. هكذا كنت أشعر بالوقائع بسبب الإلحاح الغريب وغير العقلاني لبريماكوف واستمراره بملاحقتي فيما يخص أطروحة الدكتوراه التي أعدها.

تمتد معرفتي وعلاقتي بالسيد بريماكوف إلى الأيام الأولى من عام إعدادي لأطروحة الدكتوراه في القاهرة. فقد ترافق بحثي في الأطروحة خلال فترة تعاوني مع مكتب وكالة نوفوستي في القاهرة، وكان يتواجد هناك في الكثير من الأحيان السيد إيكر بلاييف مندوباً عن جريدة الأزفيستيا وكذلك يفغيني بريماكوف عن جريدة برافدا، وقد تعرفت على الاثنين خلال حضورهما إلى الوكالة. كانت طريقة بريماكوف باللقاء جيدة وودودة وبترحاب حار في العديد من اللقاءات، وكانت بيننا أحاديث في مختلف المواضيع. إحدى المرات وقبل خروجه من الوكالة عرض علي الذهاب معه إلى بيته فوافقتة وذهبنا حيث استقبلتنا السيدة زوجته وهي امرأة طيبة كريمة من أصل جيورجي. جلسنا في غرفة الاستقبال نتناول الشراب، وبعد حديث قصير سألتني عن طبيعة ومحتوى أطروحة الدكتوراه التي أعدها، فأخبرته عنها وكنت أحمل صفحتي ورق طبعت عليها خطة البحث لذا قدمتها إليه فراح يطالعها، وكنت أشرح له كيف

تم تغيير خطة البحث والمساعدة والعون الذي قدم لي من قبل الإخوة المصريين، بعدها طلبت رأيي بخطة البحث وعموم موضوعة الأطروحة. فقال أني أنبهك لمسألة حساسة يجب أن تأخذها بالحسبان وهي الواقع السياسي المصري الذي يجب أن يأخذ حيزا كبيرا وواضحا في الأطروحة فأكدت له أن هذا موجود بشكل واضح في مقدمة الأطروحة وسوف يأتي في المتن أيضا. فقال برد سريع وواضح، إن ما أعنيه أن تذكر في أطروحتك مصر كمثال لطريقة الانتقال نحو الاشتراكية وإن التوجه السياسي للسلطة في مصر يتخذ مسار الانتقال السلمي نحو بناء الاشتراكية، فأجبت به بأن ما يتوفر من معلومات ومن واقع الحال يشير لعكس ذلك، فرد بسرعة بأن علي الأخذ بما أخبرني به دون الأخذ بغيره وهذا ما ينفع العلاقات السياسية مع بلدنا الاتحاد السوفيتي. وكان من الصفات التي يتصف بها يفغيني بريماكوف شخصيته المتعنتة المغرورة، وفي الغالب لا يود الاستماع لغير ما يعتقد ويفكر به لذا تراه يطلق الأحكام المتسرفة.

كان هناك ما لا يقل عن أربعين مراسلا للصحف والمجلات السوفيتية في القاهرة من مثل كمسمولسكيا، تروود، برافدا، أزيستيا وغيرها. وأغلب هؤلاء المراسلون لهم علاقات مع بعض ويعقدون حفلات وتجمعات في العديد من المناسبات. في أحد المرات قدمت لي دعوة لحضور حفل يحضره أغلب هؤلاء المراسلون، لم أمانع وقررت الذهاب إلى الحفل وشاركت الجميع الطعام والشراب والأحاديث العامة والسياسية خاصة، ودارت أحاديث كان بعضها انتقادا للسياسة المصرية ومثلها لبعض السياسة السوفيتية. فجأة دار لغط بين الحضور وهمسات بأخذ الحذر والصمت لقدوم السيد يفغيني بريماكوف فسألت البعض من القريبين مني وهم من العاملين معي في الوكالة عن سبب هذا الهمس، فأخبروني أن السيد بريماكوف قد حضر وهو واحد من عملاء المخابرات السوفيتية، ورجلهم في القاهرة، ورغم حصولي على هذه المعلومة، فلم يؤثر ذلك على علاقتي الشخصية بريماكوف وقد دعاني إلى بيته عدة مرات وكالعادة كانت تدور بيننا أحاديث كثيرة نختلف في كثير منها ونتوافق ببعض. كان من عادة

بريماكوف في البيت أن يجلس في صالة الضيوف مرتدياً فقط ملابسه الداخلية وأمامه منضدة كبيرة وضعت عليها مجموعة الصحف المصرية ومثلها السوفيتية. في إحدى المرات سألني عن الذي جلب انتباهي في الصحافة المصرية هذا الصباح، فحدثته عن بعض المقالات والمانشيتات التي حوتها الصحافة وأخبرته بأني أقرأ صباح كل يوم جميع الصحف المصرية، فسألني إن كنت قرأت هذا الذي حدثني عنه الآن، فأجبتُه بنعم، فأخبرني بأنه يعمل يومياً ومنذ الصباح الباكر على كتابة تقرير عما يعرض ويكتب في الصحافة المصرية ثم يرسله إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ووكالة تاس السوفيتية وجريدة البرافدا، طلبت أن أطلع على محتوى ذلك التقرير فقدم لي نسخة مطبوعة منه وكان معنونا (ماذا قالت الصحافة المصرية اليوم).

في إحدى المرات ذهبت لمقابلة مدير دائرة الإعلام في وزارة الإعلام المصرية ودار بيننا حديث عن الصحافة فأخبرته بأن السيد بريماكوف يجهد يومياً ليعد تقريراً مفصلاً عن الصحافة المصرية ويرسله إلى مراكز القرار في الاتحاد السوفيتي، فقال المدير بأنهم يقومون وبشكل يومي بأعداد تقرير عن الصحافة المصرية ويرسل عند الساعة الثامنة صباحاً إلى عدة جهات وأشخاص ومنهم السيد بريماكوف. دهشت من هذه المعلومة وذهب تفكيري بعيداً خاصة في تحديد وقت أعداد التقرير وإرسال بريماكوف تقريره الصباحي إلى موسكو. في مرة أخرى زرت مبكراً بيت بريماكوف وخلال الحديث طلبت منه التقرير اليومي الذي يعده كي استفاد من كيفية إعدادهِ. عندها قدم لي نسخة مطبوعة، بعدها ذهبت إلى مكتب مدير دائرة الإعلام في وزارة الإعلام المصرية وطلبت التقرير اليومي عن الصحافة المصرية الذي تعدّه الوزارة فوجدت تقرير بريماكوف نسخة طبق الأصل من تقرير الوزارة المصرية، لا يختلف عنه بحرف واحد سوى بعنوان التقرير، ودائماً ما كان تقرير وزارة الإعلام المصرية لا يتطرق لأي نوع من السلبيات في عموم الوقائع التي تحتويها الصحف المصرية وتشير لها، لذا يمكن القول أن موسكو كانت تحصل على معلومات مخادعة أو غير حقيقية بسبب نسخة

مراسل البرافدا السيد بريماكوف من التقرير.

كانت المرة الأولى التي أكتشف فيها واحدة من أكثر مساوئ بريماكوف بالنسبة للسياسة بعموم توجهاتها، وقد أصبت بخيبة أمل وعدم ثقة بواحد كان يعتبر من أنجح الصحفيين السوفييت آنذاك، على الأقل بالنسبة لي. ورغم هذا كنت ألتقيه بين فترة وأخرى ويدور بيننا حديث طويل وبالذات حول موضوع علاقة السلطات المصرية بمسمى التحول نحو الاشتراكية أو طريق التطور اللارأسمالي، وكان رأيي واضحاً ولم أكن لأخفيه عنه، رغم يقيني بأنه يرتبط رسمياً بجهة مخابراتية سوفيتية ما، وربما يسبب لي بعض الأذى.

أما مي كانت تتضح يومياً الكثير من الحقائق والوقائع التي تشير إلى ما يؤكد توجه القيادة المصرية نحو القومية والتدين، وأن ليس هناك علاقة لها بالاشتراكية حتى ولو بقدر الإدعاء الذي يثار عن ذلك، ولكن بريماكوف كان يستفزه هذا الرأي ويصف آرائي واستنتاجاتي بالخاطئة وغير الواقعية وأن مصر في نهاية المطاف سائرة بالطريق الصحيح لبناء الاشتراكية، ويؤكد بأن ناصر والقيادة المصرية متوجهة بشكل حثيث وواقعي وممنهج في خطها السياسي ووفق تصور القيادة السوفيتية لمسيرتها. ودائماً ما شكل هذا الموقف نقطة خصومة وخلاف بيننا، وقد حدثته كثيراً عن وقائع تجري في مصر يومياً تشكل ظاهراً خلاف رأيه، وفي أحد المرات حدثته عن صديق من مجموعة الخبراء السوفييت الذين يخدمون في مصر، وهو عنصر مخابراتي سوفيتي أسمه كينيا كان طالباً معي في نفس الكلية التحق بالمخابرات السوفيتية بعد التخرج، والذي حدثني عن معاناتهم من المراقبة اللصيقة والمضجرة للمخابرات المصرية وباتت تسبب لهم الكثير من المشاكل والمعاناة وكأن الخبراء السوفييت أعداء لمصر وليس عملهم خدمة لصالح مصر والمصريين.

بعد عودتي إلى موسكو بفترة ليست بالطويلة بدأت كتابة أطروحة الدكتوراه وفي

ذلك الوقت عاد يفغيني بريماكوف أيضا ليعمل في أقسام جريدة البرافدا ثم نقل ليعمل في معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية، وهذا المعهد وغيره من معاهد الأبحاث يعد الدراسات والبحوث ويقدم خدماته وخبراته للسلطات السوفيتية العليا.

كنت وقتها أحاول تجنب اللقاء ببريماكوف رغم كوني أتقصى أخباره عن بعد، وقد عرفت من خلال بعض الأصدقاء بأنه يتابع أخباري وأخبار بحثي وإعدادي لأطروحتي، وكان يحاول أن يجد فرصة مناسبة للالتقاء بي. بعد انتهائي من كتابة الأطروحة وقد سمع بريماكوف بذلك، أرسل بطلبي وحين ألتقيته أبدى امتعاضه مما أنا فاعله ومن الأفكار والرؤية التي أبدتها في أطروحتي، وقال إنه ينصحني بالتخلي عن هذا، وأن ما أطرحه يخالف كلياً سياسة الحزب الشيوعي السوفيتي ورؤاه عما يحدث في مصر، وبعد نقاش طويل ومتشنج قال بالحرف الواحد ودون مواربة. يوسف الياس (وكان هذا أسمى وقتذاك) لن تجري المرافعة ولن تحصل على نتيجة إلا من خلال المرور على جثتي. خرجت من عنده منزعجا كلياً رغم قناعاتي بأن من يقف ورائي وبجانبي هو عميد كلية الصحافة الذي قدم لي الكثير من المساعدة في إنجاز الأطروحة.

حين التقيت صدفة بالسيد ميرسكي، وهو الباحث الذي يعمل في معهد الاقتصاد الدولي والعلاقات الدولية وسوف يكون المناقش الرئيسي لأطروحتي حسب اختيار الكلية، وهو من أخبرني مباشرة وبعد لقائي الأول به، بأن بريماكوف وجماعته يقفون بالضد من الأفكار التي دونتها في أطروحتي. فسألته عن هؤلاء الذين سبهم جماعة بريماكوف، فقال بأنهم مجموعة من العاملين في معهد الاقتصاد الدولي والعلاقات الدولية وأيضا أعضاء في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في قسم العلاقات الدولية الذي يرأسه بناماريوف

بعد أن أنهيت كتابة الأطروحة تم طباعتها ووضع ملخص لها وبعد أن مددت لي مدة الدراسة والمناقشة لثلاثة أشهر أخرى أرسل بريماكوف بطلبي مرة ثانية فقابلته،

عندها وجه لي لوما حادا وكرر مرة أخرى بأني لن أستطيع نيل النجاح في سعيي للحصول على الدكتوراه، وكان ردي جازما وبثقة متناهية بأني سوف أنال ذلك ولن يعيقني أحد. وهذا ما حصل فعلا، حيث جاءت التوصية بشكل جيد ولصالحني سوى شرط اللجنة أن تتم المناقشة بشكل سري ودون الإعلان عن ذلك في وسائل الإعلام. ونالت الأطروحة استحسان الأستاذة الذين ناقشوني عدا واحد منهم، والمهم في الأمر أنها نالت استحسان وموافقة السيد ميرسكي.

كان مركز يفغيني بريماكوف وبمرور الوقت يتعزز وبدأت الخصومة بين معهد الاستشراق الذي عملت فيه ومعهد الاقتصاد والعلاقات الدولية تطفو فوق السطح وكانت الأحداث تتسارع في مصر وتتجه نحو الأسوأ. في ذلك الوقت كان غفوروف يطلب مني كتابة تصوراتي عن أحداث مصر ليقوم سعيدوف بترجمتها وترفق مع باقي التقرير العام الذي يعده المعهد ويرسل إلى المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي.

ورغم صعود نجم بريماكوف وارتفاع وتأثير تأثيره في السياسة العامة وعلى مصادر القرار فإنه لم يكن ليتركني وشأني ويشير دائما كوني معارض لسياسة الحزب الشيوعي السوفيتي وبالذات لرؤيته حول الأحداث والقوى السياسية وقياداتها في العالم الثالث، وكنت جزء مهم من خطته للصراع مع مدير معهد الاستشراق. وفي نهاية المطاف كان هذا الصراع الخفي أحيانا والعلني في أحيان أخرى هو السبب الرئيسي الذي عمل على أبعادي عن وظيفتي في معهد الاستشراق.

كانت نقاشاتي مع بريماكوف دائما ما تأخذ طابع التشنج فهو يحاول استفزازي ويختار المواضيع التي تشيرني وترعجي، ففي واحدة من تلك المرات طعن أمامي بالحزب الشيوعي العراقي وسألني سؤالا استفزازيا عما فعله الحزب الشيوعي العراقي لوطنه العراق. فأخذت أشرح له مواقف الحزب ونضاله منذ ثلاثينيات القرن العشرين

وتقديمه القرايين على مذبح الدفاع عن الحريات المدنية والحياة الحرة الكريمة للشعب ومن أجل وطن حر وشعب سعيد وقدم حزبنا سكرتيه الأول فهد ثم سكرتيه الآخر سلام عادل وآلاف الشهداء لهذا الهدف السامي، فأجابني بأنه يتفق معي في ما ذهبت إليه، ولكن أجبني ما الذي قدمتموه للناس فأجبته، بأننا حفرنا في ضمائر أبناء الشعب حب الوطن والحرية وحرصناهم للمطالبة بحقوقهم وبناء وطنهم بعيدا عن الاستلاب والخوف والخضوع لسطوة الأجنبي وعملنا على تثقيف الجماهير وتوعيتهم بالحقوق المدنية، فقال وماذا يعني هذا، فيمكن لأي شخص ومن خلال برنامج إذاعي واحد القيام بكل ما تحدثت عنه، وأنا أرى بأنكم وبعد كل هذا المدة الطويلة التي مضت على تأسيس حزبكم، لم تستطيعوا أن تقدموا شيئا لشعبكم وقد كنتم في فترة ما تؤيدون عبد الكريم قاسم رغم أنه لم يكن ليمنحكم منصبا في سلطته، ثم ختم حديثه بالقول، أنا لا أثق بسياسة أي حزب شيوعي عربي ولا أو من بأدوار لها في بلدانها، وأعتقد بأنها غير قادرة على فعل شيء ما، أيضا على المرء أن ينظر لتجربة حزب البعث الذي استطاع السيطرة على السلطة في سوريا وكذلك العراق رغم قصر عمره في عالم السياسة بالنسبة لعمر حزبكم، أيضا أنا أنظر بعين الرضا والتقدير للتجربة الناصرية.

تدرج بريماكوف بالوظائف

كان أغلب الصحفيين من العاملين في وسائل الإعلام السوفيتية لهم رأي جازم بكون السيد يفغيني بريماكوف يعمل في لجنة أمن الدولة المسماة كي جي بي، وحتى المصريين كانت قناعاتهم تصب في هذا الاتجاه، ولكنه وعلى المستوى الشخصي دائما ما كان ينفي هذه العلاقة ويعلن بشكل متكرر بأنه يتحدى أي شخص يستطيع أن يثبت وجود مثل هذه العلاقة أو عمله في ذلك الجهاز. ولكون السيد بريماكوف كان مسرفا في تناول الكحول ويتعاطى الشراب يوميا، لذا في إحدى المرات وتحت سطوة الكحول وأمام جمع من أصدقاءه قال إن ليس لديه علاقة بالكي جي بي فهو يعمل في دائرة

أخرى يطلق عليها المنظمة العسكرية المضادة للاستخبارات والجانوسية. بدوري فقد حصلت على تأكيد لهذه المعلومة من شخصيات ذات نفوذ في السياسة السوفيتية ولهم علاقة بريماكوف شخصيا.

كانت شخصية ومكانة السيد بريماكوف تتعزز مع مرور الوقت بسبب علاقته بعضو المكتب السياسي للحزب السيد بنماريوف لتقارب أفكارهم ورؤيتهم التي تنم عن عدااء مستحكم للأحزاب الشيوعية في البلدان النامية ومنها الأحزاب الشيوعية العربية، وتأكيدهم الدائم على عدم قدرة تلك الأحزاب على قيادة المجتمع أو إحداث تغيير في طبيعة الحكم في بلدانها لصالح الطبقات الفقيرة.

تخرج بريماكوف من معهد الدراسات الشرقية وتخصص باللغة العربية، فعمل في القسم العربي من الإذاعة في موسكو، ثم عمل في جريدة البرافدا وأرسل إلى القاهرة كمراسل للجريدة وكان يقوم يوميا بإرسال تقارير إلى موسكو تتحدث عن الوضع في مصر والتطورات اللاحقة لهذا الحراك. ثم بعد قضائه فترة طويلة في القاهرة لعب فيها دورا حيويا في العلاقة بين البلدين وعزز مكانته بين المراسلين الصحفيين القادمين من الاتحاد السوفيتي وبات له مركزا مميزا هناك، ثم إرجاعه إلى موسكو ليعاود العمل في أقسام صحيفة البرافدا ولكن بعد فترة قصيرة عين باحثا في معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية، ثم صعد نجمه ليصبح مديرا للمعهد الأستشراق بعد خلو المركز الوظيفي إثر وفاة السيد غفوروف. ودائما ما كانت تثار التساؤلات حول صعوده السريع وتسلقه للمناصب. ولكن مثل هذا الاستغراب والدهشة ببطلان لو عرفنا بوجود لوبي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي والمكتب السياسي كان يدعم توجهات وأفكار بريماكوف لا بل يتبنى أطروحاته لذا تسهل له المهام وتدفع به للصعود في سلم المناصب. ويمكن القول بأن هناك كتلة قوية داخل السلطة والحزب الشيوعي تدير من الداخل وترسم سياسة الحزب وبعدها الدولة الروسية، يمكننا توصيفها بالدولة العميقة.

فحين توفي السيد غفوروف مدير معهد الاستشراق بقي مكانه فارغاً، وكان موته خبراً سعيداً لتلك الكتلة وبالذات الموجودة في معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية. قدمت أسماء عديدة لتحل محل غفوروف ومنهم بروفيسور من أصل كوري اسمه كيم. كان هذا جديراً باحتلال الموقع ولكن هذا الطرح واجه اعتراضاً شديداً من قبل أعضاء في اللجنة المركزية للحزب وقرروا أن يملأ الموقع الوظيفي بشكل مؤقت لحين تهيئة البديل، ولكن لم تمض غير فترة قصيرة حين عين بريماكوف مديراً للمعهد الاستشراق رغم بعده المهني والعلمي عن طبيعة المعهد ومهامه. ولم يدع بريماكوف الوقت يمضي فسرعان ما عمل على تسريح وإزالة جميع من كانوا يقفون في طريقه وعلى علاقة بغفوروف.

عند فتح أرشيف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي أمام الباحثين في شهر آب (أغسطس) من عام ١٩٩١ أثار ذلك الكثير من الشبهة للإطلاع على خفايا السياسة السوفيتية، وقد صدر عن ذلك كتاب ظهرت فيه مجموعة رسائل لعلماء سوفيت مرموقين كانت موجهة إلى قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي، يطالبون فيها باتخاذ إجراءات عقابية بحق يفغيني بريماكوف الذي كان في ذلك الوقت مديراً للمعهد الاستشراق السوفيتي وجاء في نص أحد الرسائل ما يلي:

* الشيوعيون في معهد الاستشراق لأكاديمية العلوم السوفيتية يطلبون منكم اتخاذ الإجراءات القاسية بحق الأكاديمي بريماكوف والذي لقبه الحقيقي (كير شنبلات)، نظراً لما يقوم به من أعمال تعسفية وغير قانونية كالارتشاء وسوء استخدام مركزه الوظيفي واستغلاله لمصالحه الشخصية والذي دائماً ما يفرض أعماله تلك على معهدنا. إن قائد المافيا الصهيونية هذا دائماً ما ينتهز ويسخر موقعة الوظيفي لمنافعه الشخصية، وهو وطوال عام العمل يقضي أوقاته في مهمات أيفاديه خارج الاتحاد السوفيتي، كذلك يجمع الرشوة من زملائه في العمل وبالذات منهم من الذين يعملون ويعيشون

في الخارج. وقام ببناء قصره الريفي الفخم الواقع في منطقة (ماليازيملي) من تلك الأموال.

يفغيني بريماكوف كيرشنبالات لا يهتم أي شيء فيما يخص موارد الدولة ولذا يبذرها على مصالحه الشخصية الطامعة في الكسب غير المشروع. لقد دمر بريماكوف المعهد بأكمله وقام بتقسيم المهام وكذلك زملاء العمل، على مجموعة من المواليين والمقربين له من اليهود، أما من هم خارج هذه التقسيمات من العلماء فيعدهم بريماكوف غير مفيدین أو غير مؤهلين.

كان بريماكوف ذكيا جدا ويعرف جيدا من أين تؤكل الكتف، فهو يتمتع بحدس كبير وبقدرة سياسية واجتماعية فائقة قادرة على التأقلم مع الوضع والتغيرات، وحتى العلاقة بالأشخاص خاصة من الدرجات الحزبية والإدارية العليا. ففي عهد برينجيف كان السيد بريماكوف ملتصقا بالقيادة ويلبي ويساير مختلف السياسات السوفيتية، ويبدو وكأنه داخل طاقم السلطة وقريب من قرارها، ثم كان من حاشية غرباشوف حين وصل الأخير إلى سدة الحكم وكان يساعده على ذلك السيد ياكفليف عضو المكتب السياسي للحزب والذي سبق وأن عمل سفيرا لموسكو في كندا، وخلال تلك الفترة صعد نجم بريماكوف ليصبح عضوا في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي. وحين أطيح بغرباشوف وأعتلي سدة الحكم الرئيس يلتسين عين بدوره بريماكوف مديرا للمخابرات العامة ثم أصبح وزيرا للخارجية وارتفع نجمه ليصبح بعدها رئيسا للوزراء رغم وجود رأي عام ضده في عموم الاتحاد السوفيتي ثم في روسيا.

في فترة من الفترات حين كان يعمل بريماكوف في الصحافة كلفته القيادة السوفيتية الذهاب إلى العراق لمحاولة نزع فتيل الأزمة بين الحكومة العراقية والحركة الكردية بقيادة الملا مصطفى البرزاني، وكان هاجس القيادة السوفيتية هذا ينظر بعين الريبة إلى علاقة الأكراد بسلطة شاه إيران والخوف من إن يستغل الشاه تلك العلاقة

لمصالحه في المنطقة. لذا كلف بريماكوف للذهاب إلى هناك ومحاولة جسر الخلاف بين الحكومة العراقية والحركة الكردية. كانت اتصالات الاتحاد السوفيتي بأكراد العراق تتخذ طريق طهران للوصول إلى كردستان العراقية، ولكن هذه المرة أصر بريماكوف الذهاب مباشرة إلى بغداد ومن ثم الانتقال منها إلى كردستان، معللاً السبب في طلبه هذا، بعلاقته الطيبة بصدام حسين وقدرته التحاور مع القائد العراقي بشكل صريح ومنفتح.

دخل بريماكوف العراق بصفة مراسل لوكالة أنباء تاس السوفيتية وتحدث مع القيادة العراقية وبالذات صدام حسين وطلب منهم تسهيل مهمته وتوفير وسيلة لتنقلاته بين الطرفين، وفر له الجانب العراقي ما أراد من تسهيلات فراح يتنقل بثقة بين طرفي النزاع. ورغم أنه جاء بتكليف من قادة الاتحاد السوفيتي وبمهمة محددة فإنه دائماً ما كان يعلن بأن مهمته تتعلق بإجراء تغطية صحفية خاصة للأحداث.

كان بريماكوف يحضر لمقر وكالة تاس في العاصمة العراقية كلما عاد من مهمته في كردستان. وكان يعمل في مقر تاس رجل عراقي يعمل مترجم هناك أسمه فاضل فرج وهو خريج الاتحاد السوفيتي ومن الشخصيات الديمقراطية التقدمية. كانت طلبات بريماكوف من السيد فاضل فرج تتعلق بما يرد من أخبار يومية في الصحافة العراقية وكذلك كان يتحدث حول مهمته المتعلقة بالصلح بين طرفي النزاع، ولقد أخبر بريماكوف السيد فاضل فرج بأنه منح الضوء الأخضر من صدام حسين وصلاحيات واسعة للتفاوض مع الملا مصطفى لغرض إنهاء الاقتتال ووضع حد للمشاكل والعلاقات المتشنجة. فقدم السيد فاضل فرج نصيحة لبريماكوف قائلاً له بأن عليه أن لا يثق بصدام حسين وبسياسات حزب البعث فأجابه بريماكوف بأن هذا الكلام كلام الشيوعيين وأنه يثق ثقة كبيرة بصدام وسوف تكون هناك في القريب العاجل نتائج إيجابية.

كان بريماكوف وفي كل مرة يعود بها إلى بغداد يذهب إلى الغرفة التي يعمل فيها السيد فاضل فرج في وكالة تاس ويحدثه عن وقائع لقاءاته مع قادة الأكراد وأين وصلت المباحثات فلا يجد من السيد فاضل غير الموقف السلبي والمضاد لحزب البعث وصادام حسين، وحين وصل الاتفاق إلى مراحلته النهائية قال بريماكوف، أريد أن أحمل لك البشرى بأن الأيام القليلة القادمة سوف تفرج عن اتفاق يعقد بين الطرفين يوقف القتال ويمنح الأكراد حكماً ذاتياً، عندها أخبره السيد فاضل فرج بأن حزب البعث وصادام من المستحيل أن يكونوا صادقين في نواياهم وسوف لن يطول الوقت ليتخلوا عن أي اتفاق كان، وأنت ولكونك توفيقى، لا تشاهد ما خلف اللوحة، وعليك أن تفهم بأن هؤلاء فاشيون ولن يتخلوا عن فاشيتهم تحت أي ظرف كان. عندها أبدى بريماكوف انزعاجه وأكد أن الأطراف جميعها اتفقت وسوف توقع الاتفاق، وأنت حالك حال جميع الشيوعيين العراقيين. فلم يتردد السيد فاضل فرج بوصف بريماكوف بالتوفيقى مرة أخرى.

بعد ذلك أصبح مدير وكالة تاس السيد ماتيو شيك يعامل السيد فاضل فرج معاملة غير جيدة وفي نهاية المطاف أخبره بأنهم استغنوا عنه كمرّجّم في الوكالة، وحين سأله عن سبب ذلك أخبره المدير بأن بريماكوف قد اتصل به هاتفياً من موسكو وطلب منه طرد السيد فاضل من العمل في وكالة تاس، وبعدها تم تعيين السيد كاميران قره داغى مترجماً في وكالة تاس بدلاً عن السيد فاضل فرج.

(٢)

الرئيس جمال عبد الناصر



طيلة فترة أعدادي لأطروحة الدكتوراه ووجودي في مصر لم تسنح لي الفرصة للقاء الرئيس جمال عبد الناصر رغم التقائي بالكثير من الوزراء ورجال السياسة هناك، وتحقق لقائي الأول بالرئيس جمال عبد الناصر بعد رجوعي إلى موسكو وحدث اللقاء أثناء حضوره وافتتاحه مع المسؤولين السوفييت معرض المنتجات الصناعية الزراعية المصرية في موسكو عام (١٩٧٠) وقد حضرت شخصيا المعرض كصحفي. كان المعروف عن الرئيس ناصر رفضه الإدلاء بحديث صحفي للصحفيين السوفييت، مبرر ذلك كون أسئلتهم أي السوفييت غير واقعية ويطلبون منذ بداية المقابلة مدح الاتحاد السوفيتي.

كان عزيز صدقي وهو وزير الصناعة حاضرا أيضا ويقف جوار الرئيس ناصر ولكوني على معرفة وصداقة بالوزير صدقي فقد طلبت منه تقديمي إلى الرئيس عبد الناصر فاقتربنا من الرئيس وأخبره الوزير بوجودي وبأني أحد أصدقاء الشعب المصري فرحب الرئيس بي وصافحني فبادرت لسؤاله فأشار لي بكلمة واحدة بعدين يا أستاذ بعدين. وبدوري وحسب فضولي الصحفي قلت للرئيس بأن الحديث مع سيادتك الآن يكون أفضل، فقال الرئيس أؤكد لك وأعدك بأن نلتقي، عند هذا سحبني عزيز

صدقي من يدي جانبا وأشار لي أن أنهي الكلام مع الرئيس.

إذ كان يقف جوار الرئيس ناصر نائب رئيس الوزراء السوفيتي ووزير التجارة السوفيتي. والوزير عزيز صدقي يقدم للوزيرين شرحا عن موجودات المعرض وكذلك الرئيس ناصر يشارك بالشرح، كانت الترجمة سيئة جدا فالترجم مرتبك ومتلكئ ويطلب من الوزير صدقي إعادة الحديث. أدرك الرئيس ناصر ذلك لذا حادث الرئيس ناصر الوزير صدقي على انفراد، عندها سألني الوزير: بعد موافقة الرئيس هل تستطيع أن تساعدنا وتقوم بالترجمة، فأجبتة بنعم، وبدوري أخبرت الوزيرين السوفيتيين بالأمر فوافقا على ذلك. لم يمض إلا وقت قليل وأنا أقوم بالترجمة لشرح حديث الرئيس وكذلك الوزير صدقي، حين بادرنى الرئيس عبد الناصر مازحا وبانتشاء شوف يا أستاذ يقولون بأنهم يقدمون موديلات مصرية ولكنهم جلبوا نساء شقراوات بعيون زرق يرتدين الملابس المصرية معقولة نحن عندنا في مصر مثل هذه النساء. استمرت مرافقتي لهم حتى النهاية، عندها أمسك الرئيس ناصر يدي وقال أنا وعدتك بلقاء صحفي أليس كذلك؟ فأجبتة نعم، أنا منتظر، فقال مبتسما كان هذا لقاءنا ونكتفي بهذا، وأنا أشكرك جدا على مساهمتك بالترجمة، وسبق لي أن سمعت عنك من عزيز صدقي ومحمد فائق الشيء الايجابي الكثير وعن جهودك في مصر، على أية حال أشكرك جزيل الشكر وأتمنى لك التوفيق في عملك وأن تخدم بتلك الجهود العلاقات المصرية السوفيتية.

عرفت عن سبب امتناع الرئيس الإدلاء بحديث صحفي لوسائل الإعلام السوفيتية من خلال رواية لوزير الإعلام المصري محمد فايق وكذلك من رئيس الوزراء عزيز صدقي الذي سبق أن كان وزيرا للصناعة وأيضا الاقتصاد، فقد قدم لي الوزير محمد فايق دليلا لتأكيد مثل ذلك وكيف تعرض الصحافة السوفيتية تلك المقابلات لنتيحتها فقط بعرض مانشيت بمديح المتحدث للاتحاد السوفيتي. ففي إحدى المرات طلب

الصحفي يفغيني بريماكوف حيث كان مندوبا عن صحيفة البرافدا أن يجري معه لقاء صحفي فوافق الوزير وجرت المقابلة وكانت حديث موسع عن الكثير من المسائل وفي مقدمتها المساعدات السوفيتية وبناء السد العالي، لم تمض سوى أيام حين عرف الوزير بظهور تلك المقابلة ولكن مختصرة ومقتصرة على مانشيتات عريضة تختزل بإشادة الوزير بالمساعدات السوفيتية.

على ذات المنوال تحدث لي الوزير عزيز صدقي عند زيارته إلى موسكو حيث رفض أن يقدم أي حديث للصحافة السوفيتية مشيرا إلى ذات الموضوع التي أشار لها الوزير محمد فايق، وأكد بشيء من التذمر بأن السوفييت يعاملوننا وكأننا من صنف الأغبياء. وحادثة أخرى للدلالة عن ذات الموضوع قال، أثناء تأميم قناة السويس كانت دول كثير قد وقفت بالضد من موقف الرئيس المصري، وكان التوتر على أشده في المنطقة بعد إعلان تأميم القناة. ولتوضيح الموقف المصري إلى العالم، دعا الرئيس ناصر شخصيا المؤتمر صحفي يحضره صحفيون من جميع وكالات الأنباء الدولية، وقد حضره فعلا جمهرة كبيرة من صحفي جميع وكالات الأنباء العالمية. وحضر عن الصحافة السوفيتية يفغيني بريماكوف مندوبا عن صحيفة برافدا وبيلايف عن صحيفة أزيستيا، وكانا يقيمان في القاهرة لذا حضرا قبل الموعد المحدد رغبة في الحصول على مقاعد في مقدمة القاعة وقريب من المنصة التي سيقف عليها جمال عبد الناصر. بدأ المؤتمر وتكلم الرئيس ناصر عن أهمية القناة وكونها داخل أراضي مصر وعائديتها للشعب المصري ومن حقه التصرف بها وما اتخذته من قرار التأميم فهو حق مشروع ونابع من طبيعة السلطة الوطنية وسيطرتها على أرضها ومقدراتها وشكر موقف البلدان التي ساندت مصر باتخاذها قرار التأميم ومنها الاتحاد السوفيتي الصديق. ثم فتح باب الأسئلة للصحفيين.

عند تلك اللحظة رفع بريماكوف وزميله أياديهم ولكن كان جمال عبد الناصر

يتجاهلهم ويحيب على أسئلة الآخرين وفي النهاية أضطر الرئيس ناصر للقول أنتم السوفييت سوف أنهي المؤتمر بأسئلتكم عندها وقف بريماكوف وقدم سؤاله. ما هو رأيكم بموقف الاتحاد السوفيتي من أزمة تأمين قناة السويس؟ كان السؤال سمجاً وغير ذكياً على الإطلاق، فالرئيس وفي أكثر من مكان في كلامه أشار وأشاد بموقف الاتحاد السوفيتي وباقي الدول التي تساند مصر، والغريب إن بيلايف وجه ذات السؤال ولكن بصيغة مختلفة. فتلک كانت طبيعة تعامل الصحافة السوفيتية مع أصدقاء الاتحاد السوفيتي وبالذات منهم من يعتمد على بعض المساعدات.

(٣)

علي صبري والموقف من الشيوعيين

أثناء إعدادي لأطروحة الدكتوراه ووجودي في القاهرة التقيت في إحدى المرات بالسيد علي صبري الذي كان نائبا لرئيس الجمهورية على عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وقد تحدثنا كثيرا عن الأوضاع السياسية والعامة في مصر. أثناء الحديث أعلمته بأن لي ملاحظة تتعلق بشخصيته، فالكثير من الأخبار تتحدث عن كونه شخصية يسارية، لا بل له علاقة بالشيوعيين المصريين، عند ذلك رد بحدة نافيا بالمطلق مثل تلك الإشاعات، ثم تحدث بشيء من السوء والغرابة عن الشيوعيين المصريين حيث قال، لو أتيح له الأمر لعلق جميع الشيوعيين المصريين على أعمدة الكهرباء، فسألته لماذا وأنت صديق الاتحاد السوفيتي وتنادي بتعزيز وتطوير تلك الصداقة. أجابني، لو أردت معرفة ذلك عليك النظر لما يفعله هؤلاء الشيوعيون، فالشيوعي في موسكو يعمل من أجل وطنه ويجود بالكثير لتطوير بناءه وحياة شعبه، في ذات الوقت لو نظرت إلى الشيوعي المصري لوجدته يعمل على تخريب وتهديم منجزات بلده ويناضل ضد استقرار الوضع ولأجل خلخلة النظام. ثم خرجنا إلى الحديقة ليحدثني السيد علي صبري عن تصوراتهِ ورؤاه حول الشيوعية والشيوعيين وكانت جميعها وبالمطلق سلبية جدا.

(٤)

محمد حسنين هيكل كما عرفته



محمد حسنين هيكل

بعد حصولي على شهادة الماجستير بموضوعة الحزب الوطني الديمقراطي في العراق، قررت اللجنة العلمية في كلية الصحافة بجامعة موسكو ترشيحي للدراسة والبحث العلمي للحصول على درجة الدكتوراه وقد تم اختيار موضوع الدراسة حول قانون الصحافة في مصر. لم يكن أمامي سوى الموافقة فقد كانت رغبتني جامحة ليس فقط لنيل الدكتوراه وإنما دراسة طبيعة الحراك السياسي والقوانين المتعلقة بالصحافة والحريات المدنية في مصر

رافقت السيد لطفي الخولي رئيس تحرير مجلة الطليعة وذهبنا إلى مكتب السيد محمد حسنين هيكل الذي كان مديراً لمؤسسة الأهرام وفي نفس الوقت يرأس تحرير جريدة الأهرام. كانت المرة الأولى التي ألتقيتها شخصياً بعد أن كنت أتابع نشاطه الإعلامي ومقالاته المثيرة عن بعد. كان السيد محمد حسنين هيكل ودوداً جداً ومبتسماً وأخبرني بأنه سمع بما حدث معي وبرغبتني في إعداد رسالتي للدكتوراه، وقال بأنه يرغب في معرفة موضوع الرسالة بالتحديد، فأخبرته بأن موضوع رسالتي يتعلق بقانون تنظيم الصحافة المصرية الذي صدر عام ١٩٦١ فقال هيكل لماذا تم اختيارك لهذا القانون؟

ولماذا في جامعة موسكو بالتحديد. فأخبرته بأني لم أقرأ أي دراسة أو بحث وتحليل من الباحثين والصحفيين المصريين عن هذا القانون، رغم كونهم فطاحل في الدراسات والبحوث العلمية ورغم مضي ما يقارب العشر سنوات على صدور القانون، لم يصدر أي شيء من هذا القبيل. عندها أبتسم السيد هيكل وقال: نفس السؤال أوجه لك، وأرجو أن تجيبني حسب قناعتك وتحليلك للأسباب، فقلت إن الموضوع صعب جداً، وعند الإجابة يجب أن يعرف المرء السبب الذي دفع القيادة المصرية لإصداره وعندها تتولد القناعة بأن المسؤولين كانوا في حقيقة الأمر يهدفون إلى تأميم الصحافة والسيطرة عليها، وبالطبع فأن مثل هذا الرأي غير مقبول عندكم، وسوف يزوج بالسجن كل من يتجرأ ويتناول الموضوع من هذا الجانب وخاصة في هذه الفترة التاريخية التي تمر فيها مصر. أبتسم هيكل وقال عندي اقتراح أن تقوم بإعداد دراستك في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، وسوف تتولى صحيفة الأهرام تسجيلك في الجامعة وتحمل كافة المصاريف المطلوبة بشرط واحد وهو أن يكون لمؤسسة الأهرام الحق الكامل في ملكية الرسالة بعد إنجازها والتصرف بها من حيث الطبع أو نشرها من عدمه. عندها رفضت بدوري مبرراً ذلك كوني مرتبط بجامعة موسكو واللجنة العلمية فيها عندها قال محمد حسنين هيكل بأنه سوف يقدم لي الدعم الكامل في مراحل إعداد الرسالة وسوف يوفر لي جميع المعلومات التي أحتاجها وعليه سوف يصدر التعليمات والأوامر للمسؤولين في مؤسسة الأهرام بتقديم كامل الأرشيف الصحفي لي والإجابة على كافة تساؤلاتي فيما يخص الصحافة المصرية ليتسنى لي إكمال مراحل إعداد رسالة الدكتوراه.

كان ذلك الوعد بالنسبة لي شيئاً رائعاً لم أكن أتوقعه واستجابة قيمة لما كنت أسعى إليه فبادرت بالقول بأن أول بحث علمي سوف يكون بإجراء لقاء علمي وبحثي معك بالذات، فأجابني: ضع هذا الأمر جانبا الآن، فأمامك العشرات من رجال الصحافة والبحث وأساتذة كلية الإعلام تستطيع مقابلتهم والحصول منهم على ما تريد. وبدوري بادرته القول هل من الممكن البحث والكتابة عن الصحافة المصرية

دون سماع وجهة نظرك وآرائك. أجبني فوراً هذا صحيح، ولكن هناك سؤال: أزاى حكتكتب أنت عن هيكل؟ ثم أضاف، تصرف حسب ما تريد وأي مشكلة تواجهك في مؤسسة الأهرام أتصل بي على الفور وأنا أقدم لك الضمان بحلها وتذليلها. عند هذا الحد انتهى لقائي بالسيد محمد حسنين هيكل. ثم بدأت مقابلاتي مع العاملين في مؤسسة الأهرام وكان أولهم مدير التحرير علي الجمال، بعدها تطورت اللقاءات لتشمل بطرس غالي رئيس تحرير مجلة السياسة الدولية الصادرة عن مؤسسة الأهرام وكذلك كان لي لقاء مع ميشيل كامل مدير تحرير مجلة الطليعة ورفعت السعيد. ومن الأمور الأساسية التي يجب ذكرها مبادرة محمد حسنين هيكل وموافقته على إصدار مجلة الطليعة من داخل مؤسسة الأهرام فتلك الخطوة كانت هامة جداً لفسح المجال للقوى اليسارية المصرية للتعبير عن آرائها وأفكارها لتصبح مجلة الطليعة بإدارة رئيس تحريرها السيد لطفي الخولي تجمعاً للشخصيات المثقفة اليسارية، ولعبت المجلة دوراً فعالاً في كفاح الشعب المصري لفترات طويلة، وكان يعمل فيها السيد غالي شكري والسيد خيرى عزيز والسيد حسين شعلان وغيرهم. وأصبح السيد أبو سيف يوسف وإسماعيل صبري وسعد الدين إبراهيم مستشارين في المجلة. ولا بد من القول إن خطوة هيكل هذه لا تعني القول بوجود ميول يسارية لديه أو تأييداً منه لقوى اليسار بل كان يعمل لأجل جمع كافة الآراء والتوجهات السياسية تحت قبة مؤسسة الأهرام، ويمكن القول بأن هيكل كان قد حقق نجاحاً ظاهراً في ذلك، وبالتالي نستطيع القول بأن هيكل لم يكن يسارياً أو يمينياً في الحساب النهائي، ولا يمكن حتى القول بعمالته للغرب والقوى الرجعية العربية مثلما يتهمة البعض، بل كان رجلاً وطنياً يعمل بإخلاص من أجل مصر، وفي نفس الوقت يحاول جاهداً الحفاظ على سلطته ونفوذه وعلاقته مع قادة مصر خاصة بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢.

الشيء الذي جلب اهتمامي حرص هيكل على التواجد اليومي في مؤسسة الأهرام، فغالبا ما كان يزورها مساءً ويراجع ويطلع على كافة المواد المعدة للنشر ويعطي موافقته

أو عدمها لما سوف ينشر. كان يتعامل برحابة صدر وطيبة ظاهرة، محتفظا بمسؤوليته وواجبه كرئيس تحرير ومدير لمؤسسة عريقة مثل الأهرام. لقد جعل من المؤسسة صرحا صحفيا كبيرا من حيث المهنة الإعلامية وأيضا البناء الذي شيد على شكل بناية ضخمة تتوفر فيها أحدث الأجهزة الطباعية والفنية وبمستويات راقية وبآخر ما توصل له العلم من تقنيات حديثة.

أستطاع هيكل بخبرته وشخصيته أن يجمع مختلف الاتجاهات السياسية والفكرية والشخصيات الأدبية المرموقة في مؤسسة الأهرام. في تلك المؤسسة تعرفت والتقيت بالكاتب نجيب محفوظ والكاتب محمد توفيق الحكيم والكاتبة عائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ والعشرات ممن كانوا يتواجدون في الأهرام.

أراد هيكل أن يجمع داخل مؤسسته كتاب وفنانين وصحفيين وشخصيات فكرية وسياسية مصرية لتكون مؤسسة الأهرام الخيمة الكبيرة التي تمثل مصر بكل مشاربها الفكرية والأدبية والفنية. لم يكن لأغلب هؤلاء مساهمات تذكر لا بل ليس للبعض منهم علاقة بالصحافة والنشر ولكن كان وجودهم هناك رمزيا وقوة معنوية للمؤسسة رغم كونهم يتلقون مكافئات مالية مقبولة. وعندها أصبحت الأهرام قبلة السياسيين والصحفيين وكذلك رؤساء ووزراء العديد من دول العالم. وقد اقتنع الكثير من هؤلاء بأن الطريق إلى جمال عبد الناصر يمر عبر العلاقة مع هيكل أولا، وبالفعل كان ذلك صحيحا جدا. فقد أصبح محمد حسنين هيكل النافذة التي يطل منها الرئيس ناصر على العالم وبالذات بلدان أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. فوزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر أصبح ضيفا كثير التردد على الأهرام، فكان في زيارته للقاهرة يأتي إلى الأهرام ليقضي وقتا طويلا مع هيكل ويخوض معه في نقاشات مطولة وتبادل آراء تتناول بشكل خاص الموقف الأمريكي من قضية الصراع العربي الإسرائيلي وعموم الأوضاع في الشرق الأوسط، وبعد ذلك يذهب لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر، يمكن القول أن

مؤسسة الأهرام أصبحت مطبخاً حقيقياً لوضع أسس السياسة الخارجية لمصر. كان محمد حسنين هيكل يملك قدرات كبيرة للوصول إلى منابع الحدث وذلك عن طريق شبكة واسعة من العلاقات التي أقامها مع رؤساء ومسؤولي دول العالم وبضمن هؤلاء ملوك ورؤساء دول عربية، فأصبحت لديه قدرة للتحليل واستخلاص النتائج والآراء والمواقف، مما عزز ورسخ موقعه عند الرئيس ناصر وأصبح ذي حظوة عنده، وجراء تلك العلاقة المميزة أصبح هيكل موضع حسد وحقد من غالبية المستشارين والوزراء المصريين.

لاحظت بأن هيكل لم يكن ميالاً أو من مؤيدي سياسة الاتحاد السوفيتي وخاصة فيما يتعلق بالشرق الأوسط، ولكنه في نفس الوقت كان مقتنعاً بأن مصلحة بلاده العليا تتطلب بناء علاقات سياسية وعسكرية واقتصادية مع السوفييت، وأيضاً الاستفادة القصوى من مواقفهم ومواقف البلدان الاشتراكية في المحافل الدولية. وكان القادة السوفييت بدورهم يدركون ذلك الموقف جيداً، لذا كان القادة والمسؤولون السوفييت يمتنعون عن إجراء لقاءات صحفية مع الجانب المصري وبالذات مع محمد حسنين هيكل. ففي إحدى زيارات الرئيس جمال عبد الناصر إلى موسكو كان يرافقه السيد هيكل، وهناك طلب هيكل شخصياً إجراء لقاء صحفي مع رئيس الوزراء الكسبي كوسيجين فقبل طلبه ذلك بالرفض، لذا طلب وساطة الرئيس جمال عبد الناصر في الموضوع، وكان الرد السوفيتي سلبياً وبرر ذلك، بأن إجراء مثل هذه اللقاءات الصحفية ليست أسلوباً سوفيتياً متعارف عليه. ولكن هيكل لم يتخل عن طلبه وراح يصر على إجراء اللقاء ولكنه جوبه بعناد وامتناع الجانب السوفيتي، ولم ينل هيكل مراده. ولكن حين تقرر زيارة الزعيم السوفيتي نيكيتا خروشوف إلى مصر قدم دعوة شخصية إلى محمد حسنين هيكل لمرافقته في السفرة، وفعلاً جاء هيكل ورافق الزعيم السوفيتي على ظهر الباخرة العملاقة يرفان التي انطلقت من ميناء أوديسا السوفيتي إلى الإسكندرية.

وكان الرئيس خروشوف قد علم سابقا بالعلاقات الجيدة التي تربط الرئيس جمال عبد الناصر بالسيد محمد حسنين هيكل، ومن خلال ذلك اللقاء أراد الرئيس السوفيتي أن يتعرف شخصيا على آراء وتوجهات القيادة المصرية، ودار حديث طويل وموسع بين هيكل والقائد السوفيتي تطرقا فيه للعديد من المسائل التي تهم البلدين، وقد قام السيد هيكل لاحقا بعكس بعض تلك الأحاديث على صفحات صحيفة الأهرام.

خلال العهد السوفيتي ظهرت هناك بعض الآراء والتوجهات لدى بعض الأحزاب الشيوعية الأوروبية مما لا يتفق وبعض من المبادئ التي ينتهجها الحزب الشيوعي السوفيتي، والتي سميت وقتذاك بالشيوعية الأوروبية. هذه الموضوعة جلبت انتباه السيد هيكل لذا طلب أجراء لقاء مع زعيم الحزب الشيوعي الايطالي بالميرو تولياتي باعتباره أحد مؤسسي تلك النزعة الاستقلالية وقائدا لأكبر حزب شيوعي في أوروبا.

جرى اللقاء في العاصمة الإيطالية روما وفي مقر الحزب الشيوعي الايطالي وبحضور مترجم واحد فقط بناءً على طلب السيد هيكل. على إثر ذلك اللقاء نشرت صحيفة الأهرام مقالا طويلا لهيكل تحدث فيه عن لقائه مع تولياتي والآراء والأفكار التي يتبناها الحزب الشيوعي الايطالي وكذلك تناول طبيعة علاقتهم برفاقهم في الحزب الشيوعي السوفيتي، والاختلافات في النهج بين الحزبين. قام الشيوعيون الايطاليون بترجمة ما نشر في صحيفة الأهرام، ففوجئ تولياتي بما ورد في سياق النشر من أفكار وتحليلات تتناقض كليا وما يؤمن ويفكر فيه، لذا بادر بنشر تكذيب لما ورد عن لسانه في مقال هيكل وأرسله إلى الأهرام. قامت الأهرام بنشر تكذيب تولياتي مع تعليق للسيد محمد حسنين هيكل قال فيه: أنني أنشر ما أرسله تولياتي والذي يكذب وينفي ما نشرته عن لقائي معه. وهذا رأيي، بينما أنا نشرت ما قاله لي.. وهذا رأيي

كان معلوما أن هيكل بعد كل لقاء يجريه مع رؤساء ومسؤولي بلدان كثيرة يقوم بنشر نصوص أحاديث يقول إنها صادرة عن هؤلاء، ولكن أغلب هؤلاء المسؤولين

كانوا يبادرون لتكذيب ما يتم نشره على لسانهم. وكثيرا ما كان السيد هيكل ينشر آراء وأحاديث جاءت على لسان قادة ومسؤولين كانوا قد فارقوا الحياة ولا يوجد من يؤكد أو ينفي تلك الأحاديث أو الآراء.

خلال وجودي في القاهرة تلقيت دعوة من السيد محمد حسنين هيكل لحضور ندوة للفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي الذي كان عضوا قياديا في الحزب الشيوعي الفرنسي ولكن الأموال الطائلة والإغراءات الكبيرة من حكام المملكة العربية السعودية ودول الخليج جعلته يتخلى عن شيوعيته وراح يبشر بمبادئ الإسلام.

حضرت الندوة وكانت في إحدى قاعات مؤسسة الأهرام وفوجئت بأن هيكل كان يقوم شخصا بالتأكد من هويات المدعويين الذين كان أغلبهم من القيادات المصرية ورجال الفكر والعلم. أرشدني هيكل إلى مائدة وطلب مني الجلوس عندها بجانب مدعويين من السفارة السوفيتية في مصر. بعد انتهاء المحاضرة قام هيكل بمرافقة غارودي لتعريفه على المدعويين، وعند وصولهما إلى مائدتنا قال هيكل لغارودي إن هؤلاء هم من السوفييت، فاعترضت أنا على ذلك وقلت أنا عراقي ولكن هيكل أبتسم وقال: معليش أنه سوفيتي!

كانت هناك علاقة سابقة أي قبل مجيئي إلى القاهرة بين منظمة الشباب المصري واتحاد الشبيبة السوفيتي (الكومسمول) وكان مسؤول تنظيم الشباب المصري هو الدكتور مفيد شهاب الذي أصبح عميدا لجامعة القاهرة ثم وزيرا، وكان لي معه لقاء جرى في موسكو أثناء زيارته حيث قمت بالتغطية الصحفية لصالح وكالة نوفوستي وحصلت على حديث صحفي من الدكتور مفيد شهاب ومنذ ذلك اللقاء أصبحت بيننا علاقة طيبة وهناك أخبرته برغبتي الذهاب إلى القاهرة فقال لي بان علي الاتصال به حين وجودي في مصر ولذا فكرت بذلك واتصلت به بعد فترة من وصولي هناك، ثم قابلته في مكتبه في بناية منظمة الشباب المصري واستقبلني بترحاب شديد، ورحنا

في حديث متشعب عن الشباب والعلاقات المصرية السوفيتية عرضت على دكتور مفيد فكرة إصدار نشرة بالعربي عن الشباب السوفيتي تعرض حياة الشباب السوفيتي وفعاليتهم وإنجازاتهم، وكانت تلك الفكرة قد تم تداولها داخل وكالة نوفوستي السوفيتية، ويعود سببها لشح ما ينشره الأعلام المصري عن الشباب السوفيتي. رحب الدكتور مفيد بالفكرة وقال بأنها جيدة وسوف يتعاون معي في أنجاز الفكرة ويقدم ما يستطيع من مساعدة لأجل ظهور تلك الصحيفة، وأقترح تسميتها صحيفة الشباب السوفيتي. بدوري بادرت بتنفيذ الفكرة مع وكالة نوفوستي واستطعت أن أحصل على الضوء الأخضر بطباعتها في مؤسسة الأهرام، وكانت جميع محتويات الصحيفة تأتي من خلال ترجمة المقالات والبحوث والفعاليات التي تصدر في الاتحاد السوفيتي والخاصة بالشباب. ولحاجة المجلة إلى رئيس تحرير فقد اختارتني الوكالة أن أراس تحريرها، فوافقت بشرط عدم وضع أسمى، فعدت مرة أخرى وأخبرت الدكتور مفيد بجميع التطورات ففرح كثيرا وأعتبر ذلك فاتحة جيدة لتوطيد التعاون بين الشباب المصري ومنظمة الشبيبة السوفيتية. عندها استلمت رئاسة تحرير أول صحيفة سوفيتية تصدر باللغة العربية في مصر وتحت أسم الشباب السوفيتي.

استمر وجودي في القاهرة بين عامي ١٩٦٩ و١٩٧٠ وبحوالي الأربعة أشهر. وواصلت لقاءاتي وزياراتي اليومية للصحف المصرية، الأهرام، الأخبار والجمهورية والتقيت هناك بالعشرات من الكتاب والصحفيين ووجدت بأن المستوى المهني والتعليمي كان بارزا لديهم، ومن هنا أقول بأن الصحافة المصرية كانت تعد من أفضل الصحف العربية رغم كونها كانت تحت رقابة شديدة من قبل المسؤولين السياسيين، لكنها كانت رقابة غير معلنة. وتعرفت أيضا على الكثير من الفنانين والممثلين وشخصيات ثقافية وعلمية وأدبية ووجدت فيهم كل الطيبة. أما المواطنين والمواطنين فكانوا رغم صعوبة العيش والكفاف ومشاكل الحياة اليومية كالمواصلات والسكن وغيرها، فأنهم كانوا يتقبلون واقعهم ويتعاملون معه ببساطة شديدة.

بعد انتهائي من إعداد رسالة الدكتوراه في القاهرة وحصولي على مجموعة كبيرة من الوثائق والمعلومات والدراسات في جامعة القاهرة وزارة الثقافة وأيضاً من دار الأهرام وباقي الصحف المصرية، عدت إلى موسكو دون أن أتمكن من الحديث والاستماع لأراء محمد حسنين هيكل ولا حتى توديعه.

بعد مضي شهر تقريباً على عودتي إلى موسكو وصل الرئيس جمال عبد الناصر بزيارة إلى موسكو لغرض افتتاح أول معرض صناعي تجاري هناك. وكلفت وقتها بتغطية حفل الافتتاح، وقبل وصول الرئيس عبد الناصر بفترة قصيرة وصل الوفد المرافق له وكان في طليعتهم وزير الاقتصاد المصري عزيز صدقي ووزير الدفاع محمد فوزي والخارجية محمود رياض. وقف الجميع في انتظار قدوم عبد الناصر وأنضم إليهم وزير التجارة الخارجية السوفيتي. سبق لي أن تعرفت على الوزير عزيز صدقي لذا وقفت جواره ودخلنا مع الباقيين في حديث ودي عن المعرض، وفي تلك الأثناء أنضم إلينا محمد حسنين هيكل، فانتهزت الفرصة وقلت له بأننا لم نجر حديثاً في القاهرة، والآن أعتقد أنه حان الوقت لإجراء هذا اللقاء والحديث حول قانون تنظيم الصحافة المصرية وأوضاع الإعلام بشكل عام فوافق فوراً وتم تحديد موعداً لذلك في يوم غد. في اليوم الثاني ذهبت إلى دار الضيافة وقدمت نفسي للاستعلامات وسألت عن محمد حسنين هيكل فأخبروني بأنه غير موجود في قائمة الضيوف. استغربت هذا الأمر وفي هذه الأثناء شاهدت نائب الرئيس السيد علي صبري فذهبت إليه وأخبرته بأنني على موعد مع السيد هيكل، فأجابني بأن هيكل غادر موسكو إلى القاهرة منذ الصباح الباكر بمهمة كلفه بها الرئيس ناصر، وأضاف بصوت خافت بأنها كانت رغبة الجانب السوفيتي في عدم تواجده مع الوفد

بعد أسبوع سافرت إلى برلين وهناك سألني أحد الأصدقاء، من هو الطالب العراقي المحكوم بالإعدام والذي يعد رسالة دكتوراه في جامعة موسكو، عندها استفسرت عن

السبب في مثل هذا السؤال فأخبرني بأن محمد حسنين هيكل نشر مقالاً مطولاً في باب بصراحة من صحيفة الأهرام، وقد أطلعت لاحقاً على المقال حيث تحدث فيه هيكل بإسهاب عن لقائه مع هذا الطالب وكانت المقالة بعنوان بين الدفاع والهجوم وجاء فيه:

((جاءني في موسكو أحد أيام الأسبوع الماضي، شاب عربي يعيش من على بعد قضايا أمته، عقله كله يهيم حول آفاقها، محلقة بالفكر ودقات قلبه كلها مضبوطة على إيقاع الحوادث فيها. وقد لمحني واقفاً أمام باب المعرض الممتاز الذي أقامته الصناعة المصرية في قلب المدينة الرياضية في موسكو لتعريف الشعب السوفيتي بنواحي التقدم في مصر، وأقترب مني معرفاً بنفسه في رقة واستحياء، سائلاً ما إذا كنا نستطيع أن نتحدث معاً لدقائق خصوصاً وأن لديه سؤالاً يقلقه ويؤرقه، لم يقتصر حديثنا على دقائق وإنما طال إلى أكثر من ساعة رحنا خلالها نمشي في الشوارع الهادئة الجميلة لمدينة الرياضة في موسكو، كان السؤال الذي يقلقه ويؤرقه، والذي فتح به الحديث وظل بعده مستمعاً لأكثر من ساعة هو: أنني كما تنبئك لهجتي لست من أبناء النيل، وإنما من أبناء دجلة. العراق موطني ولكن أرض الأمة العربية كلها موطني، ومصر بالذات، ولست أريد بهذا أن أجاملك، فمصر أملي، ذلك أنني أعتقد أن مصير أمتنا سوف يتقرر بمصر، وأريد أن أسألك لكي أطمئن. هل لدينا في مصر أسلحة هجومية؟ ومتى نتحول من الدفاع إلى الهجوم؟ أو لست ترى أن هدفنا الرسمي المعلن في المعركة، هدف إزالة آثار العدوان هدفاً دفاعياً ويجب تخطيه إلى هدف آخر هجومي.

وقلت لسائلي العراقي الشاب الذي يعد رسالة للدكتوراه في جامعة موسكو، قلت ضاحكاً: هذا سؤال هجومي وبطريقة الحرب الخاطفة ومن أول لحظة ومع ذلك سوف أحاول الرد عليه ولعلك في النهاية لا تعتبر ردي دفاعياً ومضى الحديث بنا... استمرت مقالة هيكل بالشعب واللف والدوران لتفسير الفرق بين السلاح الدفاعي والهجومي وطبيعة المعركة بين العرب وإسرائيل وجبهات القتال فيها والحاجة للسلاح وأي الأماكن

الساخنة في المعركة التي تحتاج قوة السلاح والجنود إن حدثت المعركة، وفي الأخير وضع خاتمة ما يرغب بأن يقوله وهي رسالة معنية بعرض مجريات ووقائع حدثت في مؤتمر مصغر لبعض القادة العرب عقد في مدينة طرابلس الليبية عام ١٩٦٩ حضره الرئيس العراقي احمد حسن البكر والرئيس جمال عبد الناصر حيث حدث هناك خلاف بين الرئيسين حول طبيعة المعركة وتواجد القوات في جبهات المواجهة مع إسرائيل ففي ذلك المؤتمر طلب الرئيس العراقي من الجانب المصري بإرسال قوات مصرية لتربط على جبهة القتال في الأردن ورفض هذا الطلب بشدة من قبل الرئيس المصري كون الأمر يعني في النهاية أضعاف الجبهة المصرية، فكتب هيكل عن هذا الأمر في مقاله:

((دعني أقول لك أنك لست أول من سمعت منه هذا السؤال. فقد سمعته من غيرك أيضا. من ساسة كبار ومسؤولين في العالم العربي يعرفون أو لابد أنهم يعرفون بحكم مواقعهم في المسؤولية حقائق صراعات القوة. والسؤال منك ومن جميع أجيال الشباب العربي مقبول وأما من ساسة كبار ومسؤولين في العالم العربي فهو غير مقبول، لأنه يعد قصف بالكلية في وقت لا يحتمل غير القصف بالطلقات. وهذا القصف لا يوجه إلى العدو بل يوجه إلى أخوتهم المشتبكين مع العدو بقصف الطلقات. أنهم يعرفون أنه ليس هناك خط فاصل مع الوسائل المتقدمة، خط فاصل بين السلاح الهجومي والسلاح الدفاعي وإن مهمة الحرب لا يمكن أن تكون محدودة وهدفها في النهاية هجوما أم دفاعا هو تدمير القوات المسلحة للعدو وأنه بذلك وليس بغيره يتحقق النصر))

عند عودتي إلى موسكو حدث أمر غريب فقد أُخبرت بأن السفير العراقي السيد شاذل طاقة يبحث عني فاتصلت به، عندها طلب مني المجيء فوراً إلى السفارة العراقية، وللعلم فإن السيد شاذل طاقة كان معلمي حين كنت تلميذا في بلدي الموصل. حين قابلته سألتني مباشرة عن طبيعة علاقتي بالسيد محمد حسين هيكل وعن الحديث الذي دار بيني وبينه عندما جاء إلى موسكو برفقة الرئيس جمال عبد الناصر، فأخبرته

بعد إجراء أي حديث لي مع هيكمل، ولكن السيد شاذل طاقة أصر بأن هناك حديث، وهذا ما نشر في صحيفة الأهرام عن لقاء وحديث مطول بيني وبين السيد هيكمل، وأضاف بأن لديه دليل على ذلك، فقد شاهدني بنفسه وأنا أتحدث مع بعض المسؤولين السوفييت والمصريين وأنضم إلينا هيكمل عند زيارة الرئيس جمال عبد الناصر وكان محمد حسنين هيكمل ضمن الوفد المرافق. وأنا أي السيد طاقة، قد تسلمت رسالة مستعجلة من نائب الرئيس العراقي صدام حسين يطالب فيها معرفة الشخص الذي تحدث معه هيكمل، ويعرض أي مبلغ من المال يطلبه هذا الشخص لقاء نشره تكذيب عن كل ما جاء في مقال هيكمل والحديث الذي جرى بينهما، وإن هذا التكذيب سينشر في الصحف الموالية للعراق في بيروت والبلدان الأخرى.

دون مقدمات عرفت بأن الشخص المعني هو أنا بالذات لذا مباشرة رفضت إصدار أي تكذيب، حتى وأن كان فيه ضرراً، فأنا كنت من المعارضين والمعادين للنظام الدموي الإرهابي في بغداد. عند ذلك انتهى لقائي بالسفير العراقي السيد شاذل طاقة، وكان آخر ما قاله لي السفير، أرجوك أن تفكر في هذا الأمر جيداً.

خرجت من عند السفير العراقي وتوجهت إلى السفارة المصرية في موسكو والتقيت بالسفير الدكتور مراد غالب الذي استقبلني بترحاب شديد ومودة. عرضت عليه ما دار في لقائي بالسفير العراقي، وكيف أن السيد هيكمل قام باختلاق حديث مزعوم بيني وبينه. فأجابني السفير المصري مباشرة: هذه عادة محمد حسنين هيكمل، وخلاصة الأمر أنه أستغل كونك من العراق ليقوم بفضح وكشف أسرار ما جرى في المؤتمر المصغر لبعض القادة العرب الذي عقد في طرابلس غرب ليبيا حيث طلب الرئيس العراقي أحمد حسن البكر نقل وحدات عسكرية مصرية إلى الضفة الغربية من فلسطين لتكون إسناداً في حالة تصدي القوات العراقية والأردنية ومواجهتها لأي عدوان إسرائيلي، وقد رفض الرئيس ناصر ذلك قائلاً هل تريد أن تبقى الجبهة المصرية مكشوفة بشكل

كامل أمام إسرائيل بعد أن نرسل قواتنا المسلحة خارج الحدود، وأضاف دكتور مراد غالب بأنه سينقل شكواي من هيكل وسوف يخبرني بالنتيجة وعلي أن أعرف مسبقاً أساليب عمل هيكل.

في اليوم التالي أتصل بي السفير المصري دكتور مراد غالب وطلب حضوري، وخلال لقائنا أخبرني بأن الرئيس عبد الناصر قد أطلع على ما حدث، وأنه يؤيد رفضك إصدار تكذيب لما تم نشره، كون هذا التكذيب في حالة ظهوره سيصب في مصلحة النظام العراقي فقط. وبدوري وافقته القول فأضاف قائلاً: هذا يحدث دائماً مع أغلب ما ينشره هيكل، وذكر لي حادثة تدل على نزعة هيكل في تلفيق المقالات والأحداث، قائلاً: في إحدى زيارات الرئيس عبد الناصر لموسكو التقيت مع القائد السوفيتي ليونيد بريجنيف وقلت له بأن محمد حسنين هيكل شخصية مقربة جداً من رئيسنا ناصر وله منزلة خاصة عنده، وفوراً أخذني بريجنيف من يدي وذهبنا نحو هيكل وسأله بريجنيف هل أنت مسرور من نتائج الزيارة فأجابه هيكل نعم كل شيء جيد.

بعد عودة هيكل إلى القاهرة نشر مقال قال فيه إن الزعيم السوفيتي سعى للقاءه في موسكو وطلب رأيه فيما جرى التوصل إليه في المفاوضات السوفيتية المصرية، بالطبع لم يحدث مثل ذلك على الإطلاق، ولكن هيكل صنع من تلك الكلمة القصيرة حكاية ومقال مطول أستعرض فيه آراءه في مجمل الزيارة والعلاقة بالسوفييت.



هيكل والرئيس عبد الناصر

كان محمد حسنين هيكل مقرباً جداً من الرئيس جمال عبد الناصر وبدأت معرفتهما ببعض منذ عام ١٩٤٨ خلال الحرب العربية الإسرائيلية، وتوطدت بعد الثورة المصرية عام ١٩٥٢. وخلال انعقاد مؤتمر دول عدم الانحياز في باندونغ في إندونيسيا عام ١٩٥٩ كان محمد حسنين هيكل يلعب دور المستشار الصحفي لجمال عبد الناصر، لذا يقول ناصر عنه، أنه كان مكلفاً أي ناصر بلقاء ممثلي الإعلام العالميين بعد كل جلسة لنقل ما حدث في المؤتمر وآراء الرؤساء المشاركين فيه مثل الزعيم الصيني شو إن لاي والزعيم الإندونيسي سوكارنو والزعيم اليوغسلافي تيتو ورئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو وغيرهم، فكان هيكل يأتي ليقدم لي خلفية الأحداث والتصرّيات ومواقف الزعماء وينقل جميع ما كان يدور وراء الكواليس، وهذا ما كان يعطيني إمكانية الإمام بكل ما يجري داخل وخارج جلسات المؤتمر، وهذا ساعدني على نقل الصورة كاملة للإعلام عن وقائع المؤتمر والنتائج التي تمخضت عنه.

نتيجة لهذه العلاقات بين الرجلين فأنت الرئيس عبد الناصر وبعد نجاحات عدة برفقة هيكل ابتدأت تظهر ثمارها بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ مباشرة، فقد دار حديث مطول بين الشخصين حول قيم الثورة وأهدافها وتحدث ناصر عن الأسس الفكرية التي تستند إليها الثورة وأستعرض الخطوط العامة لطبيعة الثورة وغاياتها وأهدافها، فقام محمد حسنين هيكل بإصدار كتاب فلسفة الثورة مستنداً على كلام عبد الناصر وبتفصيلات ضافية، وقد أحدث هذا الكتاب ضجة وقبولا لدى المواطنين والمواطنين في مصر وكافة الأوساط العربية والعالمية، وترجم إلى العديد من اللغات الأجنبية.

وواصل هيكل تعاونه مع عبد الناصر وكان يلتقيه يومياً، لذا كانت تظهر في كل يوم جمعة من الأسبوع مقالة في صحيفة الأهرام تحت عنوان بصراحة، تتضمن في الكثير من الأحيان الخطوط العامة لتوجيهات وآراء القيادة المصرية في مجمل الأحداث المصرية والعربية وكذلك العالمية، ويقوم الإعلام المصري بترجمتها لعدة لغات وتذاع

من الإذاعة، وكان الناس يعتبرون تلك المقالة الرأي الرسمي للحكومة، وعندما لا تتوافق في محتواها مع المزاج الشعبي ولا حتى الرسمي، كان يقال بأن المقالة تعبر عن آراء هيكل الشخصية.

كان هيكل وفي الكثير من الأحيان يورد أخبار ومعلومات خاطئة أو ملفقة وغير صحيحة وبعيدة عن المنطق. فعلى سبيل المثال عندما كتب مقالا عن الحوادث الدامية التي وقعت في مدينة كركوك العراقية عام ١٩٥٩ وصف هيكل مدينة كركوك بكونها عاصمة الموصل!!، وإن الآلاف من القوميين العرب قد قتلوا في تلك الأحداث، في الوقت الذي يعرف الجميع بأن سكان كركوك هم من الأكراد والتركمان وهناك عدد قليل من العرب لم تكن لهم أية أدوار في الحياة السياسية والصراعات في المدينة.

كانت مقالات هيكل متخمة بالتفاصيل والمعلومات التي لا طائل منها، وكان من الممكن اختصار المقال إلى بضع أسطر لا غير، وتلك الأسطر هي كامل الفكرة وهدف الموضوع، ولكن رؤية هيكل في هذا الأمر تقول بأن العرب يعشقون قصص ألف ليلة وليلة ويحبون الإسهاب والإطالة والتشويق، وهو يسير على هذا النهج، مستغلا السذاجة والتخلف التي تسود أوساط واسعة من المجتمعات العربية.

استمرت العلاقة بين هيكل والرئيس جمال عبد الناصر حتى وفاة الأخير، وقد لعب هيكل دورا كبيرا في انتخاب أنور السادات رئيسا لمصر، ومارس هيكل في بداية عهد السادات دوره السابق بالعلاقة مع الرئاسة المصرية، ولكن أنو السادات كان يختلف عن عبد الناصر بالكثير من الأشياء ويتصف بروح المؤامرة والحقد المبيت والثرات، وابتدأ عهده بالمؤامرات والمكائد والتلفيق وعدم الثقة والتعالي والغرور، وقطع شوطا كبيرا في القبض على مصادر القوة والقرار في مصر لذا اعتبر أن خطط وتوجهات السياسة المصرية والقرارات يجب أن تصدر عنه دون غيره، لذا بدأت العلاقة بين الرجلين تسوء تدريجياً، حتى وصلت بالسادات للقول أمام المسؤولين المقربين منه : أنا

لا أريد أحدا ينصب نفسه ملقنا على خشبة المسرح. في الوقت الذي كان السادات لا يكن الود ولا يرتاح للعديد من الشخصيات والقادة الذين كانوا قريبين من جمال عبد الناصر وبالذات منهم من كان يرغب باستمرار سياسة مصر بذات النهج وأسلوب القيادة التي سارت عليها إدارة الدولة على عهد ناصر.

وصلت الأمور إلى الحد الذي قرر فيه السادات وضع الكثير من أنصار الرئيس ناصر في السجون ومنهم محمد حسنين هيكل. وبعد مقتل الرئيس السادات أصبح هيكل من جديد قريبا من الرئيس محمد حسني مبارك ولكن ذلك التقارب لم يستمر طويلا، حيث تم أبعاد هيكل من قبل جوقة المستشارين المقربين من الرئيس مبارك، عندها لجأ هيكل للكتابة في الصحافة العربية ومن ضمنها جريدة السفير الصادرة في بيروت ثم أخذ يظهر في برامج تلفزيونية خاصة في قناة الجزيرة القطرية المشبوهة، وكان يعرض آرائه وأفكاره التي يعتبرها الأساس في تحليل السياسة العربية وما يجب انتهاجه والأخذ به. ولم تدم أيضا علاقة هيكل بقناة الجزيرة، لكنه استمر في إجراء اللقاءات مع وسائل الإعلام

بعد أن تمكن الإخوان المسلمون من السيطرة على الحكم في مصر وأصبح محمد مرسي رئيسا للجمهورية، اتخذ هيكل موقفا مناهضا لحكم الإسلاميين الذين أرادوا العودة بالبلاد إلى فترة القرون الوسطى. لقد واجه الحكم الجدد مواقف هيكل بالتهديد والعنف ووصلت الأمور حد إحراق مكتبته والفيلة التي يمتلكها. لم يدم حكم مرسي والإخوان طويلا فقد وقفت الملايين من جماهير مصر ضد سياساتهم وأساليبهم في الحكم.

وبعد الإطاحة بالرئيس محمد مرسي ومجيء الرئيس عبد الفتاح السيسي وانتخابه رئيسا لجمهورية مصر، ظهر من جديد محمد حسنين هيكل بالقرب من السيسي، مؤيدا لسياسته وأفكاره وتوجهاته وأراد هيكل أن يلعب ذات الدور الذي كان يقوم به في

عهد الرئيس جمال عبد الناصر إلا أنه لم يفلح في ذلك.

ب وفاة محمد حسين هيكل لم تنتهِ الفترة التي كانت فيها الصحافة المصرية تلعب دوراً أساسياً في تمرير وتنفيذ الدعوة إلى الأفكار السياسية التي كانت تؤمن بها القيادات السياسية المصرية، إذ ما تزال الصحافة المصرية تمارس نفس الدور وبشكل أسوأ، مع وجود من يتصدى لذلك

(٥)

جمهورية اليمن الديمقراطي والرئيس عبد الفتاح إسماعيل

سفرة بمهمة إلى اليمن

بعد عملي الطويل ومشاركاتي العديدة في فعاليات وأبحاث معهد الاستشراق، وكانت تلك سنوات عمل أعطتني تجربة ومعرفة غنية، في العديد من أمور الحياة ومتعلقاتها، وأهم ما في ذلك طبيعة الوقائع ومجريات التعامل بين الأطراف والمؤسسات العلمية والسياسة السوفيتية. وتعرفت على أسرار كثيرة زاهرة بالحوادث والوقائع الضخمة جدا والمرعبة في بعضها. وكنت في البعض منها أمثل قلقاً أو شخصاً غير مرغوب فيه لدى بعض الأوساط والنخب السياسية، لكوني داخل دائرة تلك الصراعات وحشرت فيها. كذلك كان رأيي واضحاً وصريحاً في واحدة من المسائل الشائكة في العلاقات السياسية السوفيتية مع أطراف خارجية، ويمكن تحديد هذه الموضوعات، بالنظرة السلبية والاستصغار، لا بل يصل في بعضه للاحتقار والتبخيس، الذي يحمله بعض قادة الحزب الشيوعي السوفيتي للأحزاب الشيوعية في العالم الثالث. وكان على رأس هؤلاء القادة السيد بناماريوف مسؤول مكتب العلاقات الخارجية مرشح المكتب السياسي للحزب الشيوعي وبطانته ومنهم السيد يفغيني بريماكوف، وكان جميع هؤلاء ينظرون للأحزاب البرجوازية في تلك البلدان على أنها قادرة على تبني طريق التطور اللا رأسمالي والوصول إلى الاشتراكية دون الحاجة للشيوعيين ولذا وبسبب موقعي غير الإيجابي من هذا التوجه، والمبني على قناعاتي بأن الأحزاب البرجوازية الحاكمة لن تكون غاياتها بناء الاشتراكية حسب المفهوم الماركسي اللينيني، وهذا ما وضعته في أطروحتي التي أكدت فيها على أن الوقائع في

مصر العربية، ومجريات السياسة والعمل الحزبي والمؤسساتي، جميعها لا علاقة لها بتبني التطور اللا رأسمالي أو البناء الاشتراكي. لذا سبب لي هذا الموقف الكثير من المصاعب التي واجهتني منذ اليوم الأول لوصولي القاهرة. ولذا ناداني مدير معهد الاستشراق السيد غفوروف وأخبرني بأنه قرر إعارتي إلى اليمن لمدة ستة أشهر كمستشار للسيد عبد الفتاح إسماعيل.

كان ذهابي إلى اليمن تطورا جديدا في علاقتي مع القيادات اليمنية، وأيضا كان لها الأثر الكبير في حياتي العملية والسياسية، ولكن في ذات الوقت لم أكن قد عرفت الشيء الكثير عما يدور في داخل أروقة الحكم هناك، رغم كوني ملما بتطورات كثيرة جرت في اليمن الديمقراطي. فسبق وأن تطورت معرفتي بالشعب اليمني بشكل سريع من خلال عملي في معهد الاستشراق. فقد كلفت من قبل مدير المعهد أن أعمل لقاءات مع السفراء العرب وأيضا رجال الصحافة والسياسة الذين يفدون إلى موسكو وكذلك مع الطلبة العرب الدارسين هناك. ولحيوية وضع اليمن بالنسبة للاتحاد السوفيتي وبالذات لأكاديمية العلوم السوفيتية ومعهد الاستشراق، خاصة بعد إعلان الحزب الاشتراكي اليمني تبنيه للماركسية اللينينية، يضاف لذلك كون قادة الحزب جميعهم كانوا من الشباب قليلي الخبرة بالنظرية العلمية والمعرفة المفوضية لبناء الاشتراكية العلمية، لذا كان علينا أن نركز اهتمامنا على هؤلاء، مع الانتباه لجانب مهم يضغط على الأوضاع هناك، وهو علاقتهم مع جمهورية الصين الشعبية، لهذا كان علينا العمل على تطوير العلاقة مع الجانب اليمني الجنوبي، بدءا من العلاقة بالطلبة ثم السفارة في موسكو.

كنت على علاقات جيدة مع مجموعة من طلبة اليمن، ومنهم أعضاء في الحزب الاشتراكي الحاكم، وسبق وعملت معهم على تنظيم لقاءات وحوارات حول النظرية العلمية، وبسبب خبرتي في موسكو وشيوعيتي، فقد كنت أمد لهم يد المساعدة في بعض مجالات التعليم وأقدم لهم بعض الإرشادات في العمل التنظيمي.

بعد أن نبهني السيد غفوروف لأهمية اليمن وضرورة تطوير العلاقات والاطلاع أكثر على واقع الحال في اليمن الديمقراطي، استطعت بواسطة المسؤول الأول لتنظيم الطلبة اليمنيون، أن أتعرف على سفير اليمن في موسكو، وكان السفير في ذلك الوقت هو السيد مصطفى عبد الخالق، الذي أصبح لاحقاً وزيراً في حكومة جمهورية اليمن الديمقراطية.

في تكليفي بهذه المهام قدم لي السيد باباجان غفوروف فكرة عن كيفية التعامل حين اللقاء بالسفراء العرب وغيرهم من السياسيين والدبلوماسيين مركزاً على ضرورة مراعاة جانبين في تقديم نفسي لهؤلاء، وهذا يتعلق بطبيعة وأهمية السفارة والسفير أو الوفد، فإن رأيت الطرف الآخر يتمتع بدبلوماسية رصينة وعالية فقدم نفسك له كباحث علمي في معهد الاستشراق وإن واجهتك مع الشخص أو الوفد بعض الإشكالات، فقدم نفسك كصحفي في وكالة نوفوستي للصحافة. وكنت فعلاً أعمل في الوكالة ولكن بالقطعة وليس صحفياً ثابتاً. كانت مثل تلك التعليمات مهمة لي واتبعتها في العديد من المواقف. وقدمت لي فكرة جيدة عن كيفية الدخول في عالم رجال الدبلوماسية.

كان السفير اليمني بسيطاً وطيباً لذا دخلت معه في حديث طويل دون تكلف وأصبحنا أصدقاء وقد دعوته لزيارة المعهد واللقاء بالمدير السيد باباجان غفوروف، وقد لبى طلبي وزار المعهد والتقى بالمدير بحضور المترجم كاميلوف. ودار هناك حديث طويل حول الأوضاع في اليمن الديمقراطي وقادة اليمن ومستقبل التحولات السياسية فيه. في ذلك اللقاء ركز السيد غفوروف بشكل واضح على شخصية الرئيس عبد الفتاح إسماعيل باعتباره أكثر قادة اليمن قرباً من الاتحاد السوفيتي وتبني الأفكار الاشتراكية العلمية، كذلك كانت المعلومات تشير عن ابتعاده عن الطائفية والقبلية وهو يختلف مذهبياً عن باقي قادة اليمن، فهو زيدي المذهب ومن الشمال اليمني.

وبدوره بين السفير كونه من جماعة عبد الفتاح إسماعيل، وعرفنا من خلاله أن هناك في القيادة اليمنية تكتلات وتخدق طائفي وقبلي. وقد طورت علاقتي بالسفير وتبادلنا الزيارات العائلية.

كانت علاقتي بالسفير اليمني ومثلها مع الطلبة وخاصة أعضاء منظمة الحزب الاشتراكي في موسكو في أوج فعلها، فقد بت أمثل المستشار السياسي لكل هؤلاء، وكنت لهم الصديق الحميم والقريب. وبعد أن أخبرني السفير مصطفى عبد الخالق بنقله الأخبار الحسنة عني إلى الرئيس عبد الفتاح، طلب مني أن أكتب رسالة إلى الرئيس عبد الفتاح إسماعيل، ليست للتعارف وإنما لبيان وجهة نظر المعهد ورؤيته لمسيرة الحدث وصيرورته بما يخص البناء الاشتراكي في اليمن. لم أتردد وقمت بكتابة رسالة مطولة عرضتها على السيد غفوروف قبل دفعها إلى السفير. كانت رسالتي عبارة عن مجموعة أفكار تحوي إشادة برغباتهم لتبني الفكر العلمي وشرح لطبيعة المرحلة التي يمر بها اليمن والظروف المحيطة به، والتمنيات بالتقدم والنجاح، وافقني عليها السيد غفوروف فسلمتها للسفير الذي أرسلها بدوره من خلال بريد السفارة. لم يطل الوقت حين حصلت على جواب ودي جدا يشكرني فيه عبد الفتاح ويشني على اهتمامي ومواقفي الطيبة من اليمن وشعبه وما أقدمه من خدمات للطلبة اليمنيين في موسكو، وتمنى أن أكون أول من يلتقي به حين قدومه إلى موسكو. ذهبت بجواب الرئيس عبد الفتاح وسلمته للسيد غفوروف ففرح جدا لتطور العلاقة حيث تحقق الهدف الأول من حملتنا مثلما قال.

اللقاء بعبد الفتاح إسماعيل

بعد فترة جاء عبد الفتاح إسماعيل على رأس وفد رسمي يمني إلى موسكو، بدعوة من القيادة السوفيتية وقد رافقت السفير حين ذهب لاستقباله في مطار موسكو، وكانت مرافقتي بناءً على طلب عبد الفتاح نفسه في رسالة إلى السفير، عندها التقيت

بعد الفتح إسماعيل، وسرت معه تبادل الحديث بحرارة وود. كان بسيطاً طيباً ودوداً قريباً إلى القلب دون تكلف. كنت قبل هذا قد كلمته تلفونيا في حديث طويل وعند نهايته، طلب مني أن أكون حاضراً في المطار حين وصوله موسكو. وقد أخبرت السيد غفوروف بطلب الرئيس اليمني فأيد وجودي في استقباله ومرافقته وعد الأمر فاتحة خير لتطور العلاقات.

بعد الاستقبال الرسمي همس لي الرئيس اليمني طالباً أن أكون مرافقاً له طيلة وجوده في موسكو وفي جميع الأماكن التي سوف يذهب إليها، فأخبرته بأن هناك بروتوكولات خاصة بالزيارة وفي أماكن محددة لا يسمح لي فيها مرافقتك، ولكنه بادرني بشتيمة البروتوكولات وأصر على أن أرافقه في جميع تحركاته.

كان في استقباله الرئيس بدغورني الذي أثار فضوله وجودي جوار عبد الفتاح، حيث كنت أقف جوار السفير اليمني، فسأل بدغورني إن كنت أنا السفير اليمني فأخبروه بأني صحفي، فوجه لي سؤالاً مفاجئاً، أنت تتكلم العربية، من أي جمهورية أنت؟ وكان يظنني من إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي الجنوبية. فأجبت بأني عراقي فزادت دهشته، قائلاً وما علاقتك باليمن، وما سبب وجودك ووظيفتك، فأخبرته بأني أعمل صحفي في وكالة نوفوستي وصديق للأخ عبد الفتاح إسماعيل والشعب اليمني.

ذهبنا إلى منطقة هضاب لينين حيث يقع دار الضيافة، وقد أُلح عبد الفتاح على مرافقتي لهم، فاعترضت على ذلك وأخبرته بأن قضايا بروتوكولية سوف تجري بينكم، لا يصح تواجدي خلالها، فقال عبد الفتاح يا أخي لا تهول الأمر وأصعد مع السفير ورافقنا بكل تلك الأعمال رجاءاً، عندها صعدت السيارة جوار السفير اليمني وذهبنا حيث دار الضيافة فعمدت جلسة بروتوكول لم تستغرق سوى العشر دقائق غادر بعدها الرئيس بدغورني. لم تمض سوى دقائق على انتهاء اللقاء ومغادرة الرئيس بدغورني، عندها أشار الرئيس اليمني على وزير خارجيته محمد صالح مطيع وقال له هات البيان

المشترك، والتفت نحوي قائلاً أرجو أن تجلس مع الأخ محمد صالح لمراجعته وإبداء الملاحظات، فبادرته بالسؤال، أي بيان مشترك هذا؟ فقال البيان الذي سلمنا إياه سفير الاتحاد السوفيتي في عدن، حيث أعد هذا سابقاً من قبل السوفييت وكان علينا دراسته. لاحظت امتعاض محمد مطيع لهذا التكليف ولكنه أطاع الأمر وذهبت معه وجلسنا نقرأ البيان فلم أجد فيه غير عبارات رسمية أغلبها إشادة وتمجيد بالاتحاد السوفيتي وبنجاح الزيارة. وكان هذا البيان قد أعد قبل أسبوعين من زيارة الوفد.

في تلك الزيارة توطدت علاقتي بالأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني السيد عبد الفتاح إسماعيل، وقد التقيت معه ومجموعة من الطلبة والمقيمين اليمنيين في جلسة خاصة ودار بيننا حديث طويل ومتشعب لنصبح قريين جداً من بعض. بدوري فقد هيأت له زيارة إلى معهد الاستشراق وقابل مدير المعهد ودامت المقابلة أكثر من ساعتين، كان جل الحديث فيها يدور عن اليمن. استغل السيد غفوروف الوقت ليس فقط في الاستفسار عن أوضاع اليمن والخط السياسي الذي تسير عليه السلطة هناك، وإنما كان يود الوصول إلى ما يفصح عن طبيعة إدارة السلطة وحراك قادتها وعلاقتهم مع بعض. وقدم للرئيس اليمني نصائح ومعلومات كثيرة عن موجبات العمل السياسي والكيفية الناجحة للسير في طريق البناء الاشتراكي وتشكيل الحزب القائد لتلك المسيرة.

لذا كنت مطمئناً وأنا متجه في سفرتي من العراق ثم الكويت إلى عدن لأستلم وظيفتي الجديدة التي كلفني بها مدير معهد الاستشراق السيد بابا جان غفوروف.

وصلت إلى اليمن، وبدأت العمل مستشاراً لعبد الفتاح إسماعيل. كنت ومنذ البداية قد قررت أن لا أنال أجراً عن عملي معه، لذا رفضت الراتب الذي عرضه علي ولم أكن راغباً بالحصول على مكافئة أو أي أجر حكومي. ولكنني رتبت أمري بشكل مناسب وجيد من خلال اتصالي منذ البداية بمكتب وكالة نوفوستي في عدن، حيث قابلت مديرها وقد أبدى رغبته بإشراكي في عمل الوكالة، ومساعدتهم في أعمال الترجمة حيث

أبدولي تدمرهم من سوء الترجمة التي يقوم بها البعض من المترجمين اليمانيين، وبناء على ذلك بدأت العمل معهم، حيث تأتيني المواد إلى السكن لأقوم بترجمتها وفي نفس الوقت أعد الافتتاحية اليومية لصحيفة ١٤ أكتوبر. كنت أسهر حتى ساعات الفجر لأنفذ تلك الأعمال، ولذا كان ضوء غرفتي يبقى منيرا حتى ذلك الوقت وبسبب هذا وجه لي السيد عبد الفتاح إسماعيل في أحد الأيام سؤالاً حول هذا الأمر قائلاً: هل تشكو من مرض ما؟ استغربت سؤاله وطلبت معرفة دوافعه فأخبرني بأن المخبرات قد ابلغوه بأني أسهر حتى الساعة الرابعة صباحاً، فما السبب في ذلك، فأجبت بآني أقوم بأعمال الترجمة لوكالة نوفوستي ليلاً، فقال لماذا تفعل هذا فقلت لكي أحصل على نقود، فدهش من جوابي وقال لقد سبق أن خيرتك بين راتب شهري أو مكافئة حكومية فرفضت فأجبت بآني ما أحصل عليه من أعمال الترجمة يكفيني وزيادة ويفوق مبلغ الراتب لو أرادت الحكومة أن تمنحني إياه.

في أحد الأيام حدثني عبد الفتاح إسماعيل عن شكوك يثيرها الرئيس سالم ربيع علي حولي، وهو يشير أي الرئيس إلى كوني جئت بتكليف من الاتحاد السوفيتي وبطلب عبد الفتاح نفسه، للعمل على مساعدته في قضايا النشر والدعاية، وأن عبد الفتاح هو من يعطي الصلاحيات والتوجيهات لما يكتب في افتتاحية جريدة ١٤ أكتوبر وبالذات في مسألة الترويج لفكرة بناء الحزب الطليعي الاشتراكي. وكان دائماً هناك من يرى في كتاباتي ودعوتي لبناء الحزب الطليعي، ما بات يشكل خطراً على اليمن لذا جهد أحدهم على الرد وبشكل يومي على مقالاتي الافتتاحية في صحيفة ١٤ أكتوبر.

لم يقف الرئيس سالم ربيع علي عند أخبار عبد الفتاح بذلك، بل واجهني مباشرة بذات الاتهام، وقد نفيتة جملة وتفصيلاً، وأخبرته بآني قدمت اليمن بخياري ولغرض الوقوف مع ثورة اليمن ولا دوافع أخرى عندي، ولكن قناعة الرئيس لم تكن لتترشح وكان يصير على تلك الظنون. وأعلن الرئيس سالم ربيع (سالمين) موقفه الصريح

والواضح أمامي عن طبيعة الحزب الذي يرغب بتكوينه، وعن العلاقة مع الجانب السوفيتي، فهو لا يرغب بتشكيل حزب طليعي اشتراكي على غرار الأحزاب الشيوعية، وإنما يريده حزب وطني يمني، يضم جميع أبناء اليمن الجنوبي، وبعيدا عن التخندق والأيدولوجيات، ومنها الماركسية والترويج للبناء الاشتراكي، كان هناك خلاف ظاهر بين عبد الفتاح إسماعيل والرئيس اليمني سالم ربيع علي، فالأخير لا يرغب في الذهاب بعيدا في علاقة اليمن الديمقراطي بالاتحاد السوفيتي، ويفضل أن يكون موقف اليمن متوازنا مع علاقته بالصين الشعبية، وعلى أن يتلقى المساعدة من كلا الطرفين دون الحاجة لمحاباة طرف على حساب الآخر، وهذا الموقف كان بالعكس من رغبات عبد الفتاح إسماعيل الميال إلى توطيد العلاقة مع السوفييت بأقصى الدرجات.

حصلت لي لقاءات عديدة بالسيد سالم ربيع علي وتحادثنا كثيرا في هذا الأمر وكان يوضح موقفه بالقول، بأنه سبق وزار الصين الشعبية وحصل منهم على مساعدات مالية، ولكنه أوضح بشكل جلي بأنه ليس ميالا للصين ولا للاتحاد السوفيتي، وتهمة بلاده اليمن أكثر من أي شيء آخر، كذلك فإنه لا يمانع في الحصول على المساعدات من أي طرف منهم، وهذا ما يهيمه في الأمر. ويكرر القول بأن الاتحاد السوفيتي منح اليمن ١٢ مليون دولار، ولكن حين ذهبت إلى الصين وبعد لقاءات ومباحثات سياسية وشرح لأوضاع اليمن الجنوبي، فاجئني الصينيون بمنح اليمن الجنوبي ٣٠ مليون دولار، عندها رحت أقارن بين طريقة وطبيعة المساعدات، ورحت أتحدث بهذا كثيرا، لذا أطلق عليَّ بعدها تسمية الصيني، رغم أني لا أملك أية خلفية سياسية صينية أو غيرها، بقدر ما يعنيني أمر بلادي اليمن.

كانت خلفيات القادة اليمنيين السياسية غائمة، لا بل تخلوا كلياً من المنهجية، مع قلة الخبرة لا بل انعدامها، وبالذات فيما يخص الطرق والكيفية التي يتم فيها التوجه لبناء الاشتراكية العلمية في اليمن الجنوبي، وبسبب هذا ارتأت السفارة السوفيتية

في اليمن الطلب من القيادة السوفيتية، العمل على تخصيص مدرسين خصوصيين لتدريس الاشتراكية العلمية لبعض قادة اليمن، وعلى رأسهم سالم ربيع علي وعلي ناصر محمد، وفعلا خصصت القيادة مدرسين من المدرسة الحزبية في عدن، يقومون لمرتين في الأسبوع بإعطاء هؤلاء القادة دروسا في أسس الماركسية اللينينية ومبادئ الاشتراكية العلمية وطرق الانتقال إلى الاشتراكية. وقد حدثت لعبة سمجة بين هؤلاء القادة وأساتذتهم، فمن أجل أن يقدم الأستاذ تقريرا جيدا عن مستوى فهم واستيعاب التلميذ للمعلومات التي ترد في الدروس، كان القادة اليمانيون يمنحون الأساتذة أنواع من زجاجات الكحول، لنيل تلك الدرجات وتحسين صورتهم أمام القيادة السوفيتية. والحق يقال كان عبد الفتاح إسماعيل يتميز عن الباقين بمعلوماته الجيدة وقدرته على ترتيب أفكاره وقراءته المستمرة والكثيرة

في ذلك الوقت كنت وعبر افتتاحية الصحيفة أروج وبطلب وبتوجيه من سكرتير الحزب عبد الفتاح إسماعيل لتلك الرؤية والأفكار حول الحزب الطليعي. وكان الرئيس سالم ربيع يتخوف من هذا ويتساءل دائما، هل أنتم، وهو يعني في ذلك عبد الفتاح إسماعيل ومجموعته، تريدون بناء حزب شيوعي، وكان هذا التصور يرعبه ويؤكد بأن حاجة اليمن ليس لحزب شيوعي بل لحزب وطني جامع. والرئيس اليماني سالم ربيع كان يملك حضوة جماهيرية كبيرة في الشارع ومحبة كثيرا ويطلق عليه تسمية (سالمين)

في هذا الخلاف وغيره كانت تتباعد الشقة بين الرئيسين، سكرتير الحزب عبد الفتاح إسماعيل ومجموعته في المكتب السياسي، والرئيس سالم ربيع علي ومجموعته، وبات الخلاف السياسي ظاهرا للعيان. وفي أحد الأيام أرسل عبد الفتاح إسماعيل بطليبي ليخبرني بضرورة السفر إلى براغ، فسألته عن السبب في قراره هذا فقال: عليك الذهاب خارج اليمن فإن حدث قتال بيننا فأنك سوف تكون أول ضحاياه، أذهب إلى هناك

وسوف أرسل بطلبك حين تنتهي المعركة، دهشت من كلامه وسألته عن أي قتال ومعركة يتحدث، فأجابني أن هناك أعمال واستعدادات وترتيبات يقوم بها سالم ربيع علي لحسم الخلاف بواسطة الجيش أي هناك معركة قادمة بيننا.

سافرت إلى براغ وبعد فترة قصيرة حدثت المعركة التي توقعها عبد الفتاح، حين تحركت قطعات الجيش الموالية للرئيس سالمين لضرب القوات الموالية لعبد الفتاح، ودارت عندها معارك طاحنة راح ضحيتها المئات من الجانبين ومن المدنيين العزل أيضاً، وقد حسم المعركة سلاح الجو اليمني بقيادة الطيارون السوفييت، والذي تدخل لصالح عبد الفتاح إسماعيل. بعدها تم اعتقال سالم ربيع علي وجماعته، وقد حدثني عبد الفتاح عن الذي حدث في تلك الساعات، وكيف تم ألقاء القبض على سالم ربيع علي وجيء به ومجموعته إلى بيت كبير يسمى قصر المعاشيق يقع في منطقة جبلية تسمى المعاشيق أيضاً، وكان المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اليمني مجتمعاً، وراح الجميع يوجهون الاتهامات واللوم لسالمين على ما فعله، وحملوه دم الضحايا الذين وقعوا في المعركة، واتهموه بالخيانة، وبدوره كان يرد عليهم بالمثل ويدافع عن نفسه ويقول إن ما حدث كان بسبب نواياكم المبيتة، وأن ما قام به كان دفاعاً عن الشعب اليمني. بعد هذا الجدل العنيف قرر المكتب السياسي إعدامه، لذا سحب خارج القصر وإعدم في الحديقة الأمامية.

بقيت في براغ ما يقارب الشهرين. وحين استتبت الأمور لصالح عبد الفتاح إسماعيل أرسل بطلبي فعدت إلى عدن عن طريق موسكو، فوجدت بأن صاحبي أصبح الرجل الأول في قيادة اليمن كسكرتير عام للحزب القائد. فبدأت أواصل عملي في صحيفة ١٤ أكتوبر. لم يمض على عودتي إلا أشهر قليلة حين طلب مني عبد الفتاح إسماعيل السفر إلى برلين والعمل في سفارة اليمن هناك كمستشار صحفي. فسألته عن السبب فأخبرني بأنه يتوقع حدوث معركة أخرى لتفارق الخلافات داخل قيادة الحزب، وكان

السيد علي ناصر محمد حينها رئيسا للوزراء. فسألته مع من ستكون المعركة المقبلة، فقال مع علي ناصر وجماعته، وبدوري فقد حدثت بأن المعركة القادمة ستكون على الزعامه، وليس على شيء آخر، فالرئيس علي ناصر وجماعته لا يريدون عبد الفتاح أن يكون زعيما، وهم غير مبالون لأفكاره، والسبب الحقيقي في هذا هو عبد الفتاح إسماعيل نفسه، فهو ليس من ذات عشائريهم، فهو زيدي من اليمن الشمالي، وتلك النزعات القبلية كانت دائما وتبقى المحرك الرئيسي للكثير من النزاعات والخصومة.

بعد ذهابي إلى برلين بفترة ليست طويلة قدم عبد الفتاح إسماعيل إلى موسكو مبعدا من قبل المكتب السياسي وقيادة علي ناصر محمد، وكان ذلك حلا من بعض الحلول لنزع فتيل الأزمة المستعصية على خلفية الصراع العشائري والطائفي المحتدم داخل القيادة اليمنية. بعد وصوله إلى موسكو اتصل بي هاتفيا وطلب مجيئي إلى موسكو وأخبرني بأنه أتفق مع القيادة السوفيتية حول أمر وجودي معه هناك. وصلت موسكو وذهبت إليه مباشرة واستفسرت منه عن الذي حدث هناك، فروى لي ما حدث من خلاف لحين قرر علي ناصر ومجموعته إبعاده إلى موسكو. ثم طلبت منه شرح المهمة التي يكلفني بها، فقال إنه يريدني أن أعمل جهدي في نصرته والدعاية له من خلال الإعلام، لكوني صاحب علاقات بالصحافة والصحفيين فيكون دوري الترويج إعلاميا وعرض موقفه في السياسة اليمنية ووجهة نظره في مستقبل اليمن الجنوبي سياسيا واقتصاديا. بادرت بالسؤال عن موقف القيادة السوفيتية حول ما وقع من أحداث وأيضا بالذات منه، فوجه شتيمة قاسية للسوفييت، وقال بأنهم يحاولون تجاهلي وإهمالي، وأشار لوضعه الآن حيث وضع في دار ضيافة خارج العاصمة موسكو، عندها كلمته عن وضعي وعلاقتي بالسوفييت خاصة بعد موت غفوروف وإنهاء عملي في موسكو ومن ثم ذهابي بعيدا عن الاتحاد السوفيتي. أخبرني بأنه تحدث مع السوفييت حول موضوعي، فأجابوه بأن ليس هناك من مشكلة مع خليل عبد العزيز خاصة وأنه أنهى علاقته بوظيفته في معهد الاستشراق، وما عادت له متعلقات هنا، لذا يستطيع الحضور

إلى موسكو وليس هناك من موانع حوله.

ناقشت معه أمر المساعدة والترويج الإعلامي، فقال أني أحبذها أن تكون من خارج الاتحاد السوفيتي كي لا يكون هناك ضغط سياسي لتحجيم العمل أو كبحه ثم تجميده، وأضاف، مثلما يفعلونه معي الآن، وعند هذا لا يمكنك تقديم خدمة لي. اتفقت معه حول الكثير من التفاصيل، وبعد الاتفاق رجعت منه وعدت بالطائرة إلى برلين.

* رحت أراقب الأحداث في اليمن الجنوبي من خلال عملي كمستشار صحفي في سفارة اليمن وأحاول أن أعرض مهمتي بتسريب أخبار عن البناء الاشتراكي وأفكار عبد الفتاح وقدرته القيادية وكان بدوره يتصل بي كثيرا. في أحد الأيام فاجأني بالقول إنه عائد إلى اليمن فقد استجدت أمور كثيرة وإن رئيس الجمهورية علي ناصر محمد أتصل به وطلب حضوره لحاجته الماسة له ولكي يقف بجانبه بسبب خلاف نشأ داخل المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اليمني. عندها طلبت منه تبيان موقفه من هذا الحدث فأخبرني بأنه سوف يرسل بطليبي حين تستقر الأمور كي أعود مستشارا له وأستمر في عملي أترجم وأكتب افتتاحية صحيفة ١٤ أكتوبر.

لم تمض إلا فترة قصيرة على عودة عبد الفتاح إسماعيل كسكرتير للحزب الاشتراكي اليمني أستطاع خلالها أن يستقطب لجانبه أغلبية أعضاء المكتب السياسي، وكان السبب الأول في ذلك السلوك غير الحكيم للرئيس علي ناصر محمد الذي راح يستقطب أبناء عشيرته ويفرض آراءه ويعمل على صنع تكتلات أضرت كثيرا بالحزب. وبالرغم من إن السيد علي شايح وزير الداخلية كان من ذات عشيرة الرئيس ولكنه دائما ما كان يشتمه وقد أسرنى مرة وهو يشتم علي ناصر بأقذع الشتائم، بأنه أي الرئيس يريدني وعبد الفتاح وعلي عنتر أن نكون توابعا له وطوع يديه في كل شيء يرغبه أو يقرره رغم سياساته الخاطئة.

في أحد اجتماعات المكتب السياسي للحزب دارت نقاشات مطولة لقضايا يمانية

ساخنة ثم قرر إخضاع الأمر للتصويت، وبعد أن جرى التصويت أظهرت النتائج غلبة جناح عبد الفتاح وخسارة الرئيس علي ناصر. بعد فترة ليست بالطويلة أرسل عبد الفتاح إسماعيل بطلبي حيث أخبرني بضرورة عودتي للعمل كمسؤول إعلامي في السفارة اليمنية في برلين، والسبب في ذلك عودة الخلافات المستعصية بين أقطاب السلطة وتوقعه حدوث معركة جديدة، حتما ستكون أحد ضحاياها هكذا قال لي عبد الفتاح إسماعيل.

ذهبت إلى برلين ولم تمض فترة طويلة حين حدثت فعلا معركة بين أقطاب الحكم في اليمن كان أول ضحاياها عبد الفتاح إسماعيل وعلي عنتر وعلي شايح.

ومن خلال استطلاعي وعلاقتي عرفت عن الحادث، حيث كان هناك اجتماع للمكتب السياسي للحزب الاشتراكي حضره جميع الأعضاء، وكان الرئيس علي ناصر في مقره وهياً الفوج الرئاسي للتحرك باتجاه مقر اجتماع المكتب السياسي، وخرجت سيارات الفوج نحو هدفها تتقدمها سيارة الرئيس، ولكن علي ناصر لم يكن فيها وبقي من مكتبه يدير المعركة. بشكل مفاجئ دخل القاعة الفوج الرئاسي ودون مقدمات شهبوا أسلحتهم وفتحوا النار على الجميع فوق صريع الرصاص وزير الداخلية علي شايح وكذلك علي عنتر واستطاع عبد الفتاح إسماعيل الاختباء وراء إحدى المناضد ولكن الحرس الجمهوري ألقى القبض عليه ونقل خارج القصر ووضع في دبابة ثم نقل إلى مكان مجهول. وفبركت سلطة علي ناصر قصة إحراق الدبابة التي كان فيها عبد الفتاح، الذي أعدم رميا بالرصاص، ولم يعلن عن مقتله بادئ الأمر، وإنما أذيع خبر قصف الدبابة التي كان فيها وأنه أصيب وأرسل للعلاج خارج اليمن وكان سبب هذا خوف الانقلابيين من أتباع عبد الفتاح وهم ليسوا بقليل.

(٦)

الملك الحسين بن طلال



الملك الحسين بن طلال

كانت المملكة الأردنية الهاشمية تمتلك سفارة جيدة وفاعلة في موسكو، وكان الجانب السوفيتي دائما ما يوجه الدعوات لرجال الحكم الأردنيين وفي مقدمتهم الملك الأردني الحسين بن طلال ولكن لم تكن استجابة الطرف الأردني لتلك الدعوات إيجابية. في إحدى المرات وافق الملك الأردني على تلبية الدعوة وحضر إلى موسكو، حين علم السيد غفوروف بتلك الزيارة استدعاني وأخبرني بضرورة لقائي بالملك، فتساءلت وقتها كيف يتسنى لي مقابله، فأخبرني غفوروف حاول عن طريق وكالة نوفوستي، فقد قدمت الوكالة طلبا عن طريق وزارة الخارجية السوفيتية، تطلب فيه إجراء لقاء صحفي مع الملك الأردني، ولكن جواب السفارة الأردنية جاء سلبيا، بأن الملك حسين بن طلال يرفض إجراء أي مقابلة صحفية ويقتصر برنامجه زيارته على لقاء المسؤولين السوفيت.

كنت سابقا قد تعرفت على السفير الأردني والتقيته في العديد من المناسبات الدبلوماسية التي تقيمها السفارة الأردنية وباقي السفارات العربية، لذا قررت الاتصال به عبر السفارة، قمت بذلك وطلبت الحديث مع السفير فقبل بأنه خارج السفارة الآن لذا سوف نخبره عند عودته.

بعد مضي ساعات قليلة حصلت موافقة السفير على حضوري ومقابلته، عندها جهزت نفسي وذهبت إلى هناك فاستقبلني السفير بترحاب حار واسترسلنا بحديث طويل عن العراق وموسكو وغير ذلك، ثم سألني السفير عن حاجتي وسبب زيارتي فأخبرته رغبتني بمقابلة الملك الحسين، فقال السفير بأن جلالته يرفض المقابلات الصحفية، فأجبت أنه رغبتني هذه لا تتعلق بلقاء صحفي وإنما أنا عربي عراقي أكن لجلالة الملك وللأردن كل الاحترام والتقدير ومن هذا أود ويسعدني أن ألتقي جلالته، وأنا اليوم أعيّل على صداقتنا لإيجاد صيغة ما تسمح لي بمقابلة الملك حسين. ورجوت السفير أن يبذل جهده ويسعى لأجل الغرض هذا، فوعدني السفير خيراً. وخرجت بشعور مطمئن بأنني سوف أحظى بتلك المقابلة.

في اليوم الثاني اتصل بي السفير الأردني وأخبرني بأنه تحدث مع جلالته الملك (المعظم) وقد وافق على مقابلتي، وعلي أن أحضر إلى السفارة الأردنية لنذهب سوياً إلى منطقة (فيدنخا) حيث يقع هناك المعرض الزراعي الصناعي.

ذهبت مع السفير إلى هناك حيث يجلس الملك الحسين في الحديقة الغناء الواسعة ليتناول والوفد المرافق له الطعام. وصلت إلى هناك وتقدمت للسلام عليه فرحب بي ترحاباً حاراً وأجلسني بقربه وراح ينظر في وجهي ويسألني عن وضعي في مدينة موسكو وعن عملي وطبيعة علاقاتي مع الناس هنا، كان يتكلم بلغة عربية فصحة سليمة جداً وبصوت رخم يشدد على مخارج الكلمات، فشعرت بأن أمامي رجلاً معتداً بنفسه ويتمتع بثقة عالية تمنح المقابل راحة نفسية، أجبته بأنني أدرس الصحافة وأسكن في شقة، لم أرغب أخباره بعملي وسكني الصحيح لكي لا تتغير طبيعة الزيارة ومن ثم يهتمها برفض وجودي. سألني كيف جئت إلى موسكو من العراق، فقلت أن جوابي ربما سيسغرق وقتاً طويلاً أن أردت الحديث لك عنه، وأختصر لك الموضوع بالقول أنني جئت موسكو هارباً من بلدي، عندها سألني لماذا؟ فقلت بسبب السياسة،

عند ذلك تبسم وقال فهمت. فهمت كل شيء.

تلفت حوله وسألني عن المكان الذي نجلس فيه، فأجبتته بأن المنطقة تسمى (فيدنخا) والمنطقة تحوي أضخم معرض زراعي صناعي ورحت أشرح له طبيعة المنطقة، ثم خطر في بالي أن أباشر مهمتي الصحفية، فبادرته بالسؤال عن سبب تلبيته دعوة القيادة السوفيتية بعد فترة طويلة من الممانعة عن زيارة موسكو. وما هي انطباعاته الأولية عن هذه الزيارة، فقال أن هذا السؤال مهم جداً. ومن المهم أن أجيبك عليه وحسب. ما أخبرني السفير فأن جميع ما يدور بيننا من حديث لن يخرج إلى العلن، فأجبتته بنعم. فقال:

المعروف عنا نحن العائلة المالكة الهاشمية أننا عملاء للإنكليز وتلك إشارة مهمة للكثيرين، والمعروف عندنا عن الاتحاد السوفيتي أنها دولة شيوعيين كفار وأن وضعهم كشعب مزر جداً وبائس، فالشعب فقير فقر مدقع والناس حفاة عراة لا يجدون ما يستر أجسادهم، هذا كان انطباعنا عن الشعب السوفيتي، لذا كنت أتردد في قبول دعوات القيادة السوفيتية.

حين قدمت إلى موسكو وجدت المطار بناية حديثة وتنظيم دقيق ورقابة عالية الجودة، صعدت السيارة جوار الرئيس بودغورني وخرجنا من المطار، كان الرئيس بودغورني يحدثنني طيلة الطريق والمترجم الجالس في مقدمة السيارة يوجه الكلام لي، لم افهم من حديث الرئيس أي شيء لا بل لم ارغب بأن أتحدث إليه، فقد كنت مشغولاً بمراقبة الشارع ومنظر البنايات العالية والناس والحدائق، فالشوارع عريضة منظمة والأبنية عالية مبهرة، الناس في الشوارع يرتدون أزياء وأحذية جميلة وحديثة ولم أر أحداً حافياً وإنما رأيت الأناقة وجمال الشباب وذهلت حين وصلنا دار الضيافة في منطقة هضاب لينين البديعة الرائعة، كنت أحمل انطباعاً سيئاً جداً عن الاتحاد السوفيتي وشعبه الذي كنت أظن أنه شعب يعاني شظف العيش ومدنه عبارة عن خرائب وقرى متناثرة.

في اليوم الثاني من زيارتي وبعد خروجنا من جولة المفاوضات، اصطحبني الرئيس بودغورني معه في جولة بالسيارة وسط العاصمة، كنت مبهورا بطابع البنايات الفخمة وطرزها المعماري. منتصف الجولة لمحت واجهة بناية شددني إليها فسألت الرئيس عنها فاخبرني بأنها مخزن للتبضع، فطلبت منه أن نترجل وندخل هذا السوق فاعترض الرئيس قائلاً بأن الوقت غير مناسب ونحن لم نتخذ تحوطاتنا لمثل هذا الأمر، فسألته بشكل استفزازي أتوجد عندكم عصابات أو ما شابه ذلك، حسب ما أعتقد أن بلدكم آمن جداً، وطلبت مرة أخرى الذهاب إلى هذا المخزن، إلحاحي أخرج الرئيس بودغورني فأمر السائق بالذهاب إلى ذلك السوق، توقفنا أمام السوق ثم دخلنا، كنت أنظر بدهشة وفرح إلى البضائع المعروضة وطريقة عرضها وأناقة البائعات الموحدة وكيف يتعاملن مع الزبائن، بقينا هناك نتجول لأكثر من ربع الساعة، بعد ذلك خرجنا وكنت طيلة الطريق وفي السكن أيضاً أفكر بالسبب الذي دعانا نصدق بسذاجة الدعايات حول جوع وعري وتخلف الشعب السوفيتي.

بادرت قائلاً جلالة الملك أن الموضوع برمته يخضع للسياسة وحروب المحاور، فأيد الملك قولي، وقال أن زيارتي هذه أحدثت تغيراً كبيراً في معلوماتي وأفكاري وأبعدت الصورة السوداوية التي كنت أحملها عن الاتحاد السوفيتي، والتي أعتقد بأن سببها يعود لارتباطنا بإنكلترا، فالإنكليز ليس فقط من صيرنا ملوكاً، وإنما أملوا علينا أفكارهم. بعد هذا أكد الملك الحسين مرة أخرى بأن يكون هذا الحديث بيننا ولا يخرج للآخرين.

(٧)

الرئيس حافظ الأسد



من ضمن منهاج عملي في معهد الاستشراق كان يترتب عليّ أن أقيم علاقات مع السفارات العربية لأحصل على مقابلات وتقارير عن الأوضاع في تلك البلدان وأن أنال أيضا صداقات يمكن من خلالها الوصول إلى مصادر القرار في تلك البلدان، لذا عملت للحصول على صفة مراسل لأحدى الصحف العربية، ولكون علاقتي كانت وطيدة بالجانب اليمني الديمقراطي فقد حصلت على تلك الوظيفة في صحيفة ١٤ أكتوبر اليمنية الصادرة في عدن، ونلت هويتها، وقد شجعني على ذلك السيد مدير معهد الاستشراق غفوروف.

سمحت لي هوية المراسل الصحفي في الوصول إلى أغلب السفارات العربية العاملة في موسكو، وأحضر احتفالاتها وفعالياتها، ومن خلال تلك الفسحة من العمل والعلاقات عرفت واطلعت على الكثير من الأحداث الساخنة في العالم العربي. أيضا كانت المهمة تتعلق بالمعلومة التي يهتم بها معهد الاستشراق عن العلاقات السوفيتية بالعالم العربي.

واحدة من السفارات التي لم تكن متحمسة للعلاقة مع معهد الاستشراق وتمتنع عن رفع درجاتها، كانت السفارة السورية، وربما كان أهم اتصال حصل بين المعهد

والسفارة السورية جاء على عهد أطروحة الدكتوراه التي دافع عنها أخ الرئيس حافظ الأسد، رفعت الأسد وكانت في مجال الاقتصاد، وهو بالذات من رغب الدفاع عنها من خلال معهد الاستشراق، كلفني في وقتها رئيس المعهد بمتابعة أعداده للأطروحة إدارياً، وكنت أقدم ملاحظاتٍ عنها لرئيس المعهد، ومن تلك الملاحظات، أن موضوعه الأطروحة جيدة جداً لكنني أجد فرقاً بين مستواه العلمي الحقيقي ومستوى ما تقدمه الأطروحة وهذا ما أشار له تقييم الأساتذة والمشرّفون عليها، حين أكدوا بأنها أعدت وكتبت له وليس من إعدادهِ.

كما راسل لصحيفة ١٤ أكتوبر وليس موظفاً في معهد الاستشراق. اتصلت بالسفارة السورية في موسكو وطلبت مقابلة السفير فوافقوا على ذلك وجرّت الأمور بشكل جيد لذا عقدت عدة لقاءات بالسفير وكان رجلاً كيساً ونبيلاً فطلبت منه حديثاً صحفياً لصالح وكالة نوفوستي نشر حينها في الصحافة. في إحدى جلسائنا في أحد المطاعم، إثر تلبّتي لدعوة من السفير، تحدّثنا عن الأوضاع العربية، وفي سياق الحديث، أخبرني بأن وزير الدفاع (آنذاك) حافظ الأسد سوف يقوم قريباً بزيارة لموسكو، فطلبت من السفير السوري تهيئة لقاء لي مع الأسد فوعدني بمثل هذا، إن اتفق اللقاء وبروتوكولات زيارة الوزير. حدثت السيد مدير المعهد غفوروف عن الأمر ففرح بذلك وأشار لضرورة أن أوجه للوزير الأسد حين ألتقيه سؤالاً محدداً عن طبيعة التغيير الذي جرى بعد حرب حزيران ١٩٦٧ وخاصة في المؤسسة العسكرية وهل تم تغيير أو إقالة بعض كبار الضباط.

استطعت مقابلة وزير الدفاع السوري وقتذاك السيد حافظ الأسد ووجهت له السؤال الذي اتفقت عليه مع مدير معهد الاستشراق حول التغيير الذي طرأ على هيكله القوات المسلحة في سوريا بعد نهاية حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧ وبدأت السؤال بالتالي (دائماً ما يحدث تقييم ومراجعة نهاية المعارك، فيكرم فيها العسكري

الناجح والمخلص والمضحى ويعاقب المسيء والمتخاذل، فهل عملتم بهذا المبدأ وبدأتم بغربة وتنقية المؤسسة العسكرية، وبالتحديد مثلا، هل أقلتم بعض القادة والضباط وكم كانت أعدادهم؟).

وجه الوزير الأسد لي سؤالاً حاداً وبتهكم، هل أنت عربي؟ فأجبته نعم عربي، فرد يظهر أنك لست عربياً، قلت كلا سيدي العزيز أنا عربي ومن العراق، فابتسم قائلاً لو كنت عربياً لفهمت وعرفت طبيعة العلاقات داخل مؤسسات الدولة في العالم العربي ومجريات الوقائع، نحن مجتمع عشائري وأنا من هذا المجتمع وأعمل في الكثير من وجودي وسلطتي على مؤازرة تلك العشائر فكيف أستطيع أن أقبل أبناء العشائر وجلهم ضباط المؤسسة العسكرية. عليك أن تعرف ذلك جيداً وتقيمه، فنحن مجتمعات تختلف كلياً عن المجتمعات الأوروبية التي لا تقيم وزناً واعتباراً للمثل تلك العلاقات لا بل لا وجود لتلك الأعراف في هذه المجتمعات.

وفي زيارة السيد حافظ الأسد الثانية لموسكو وبعد أن أصبح رئيساً للجمهورية العربية السورية، دعيت لحضور مؤتمر صحفي أقيم له. فسألته عن الذي يدور في الخليج العربي وقيام بريطانيا ببناء قاعدة عسكرية هناك، فقال أن موقف سوريا واضح جداً وهي تقف دائماً بالضد من وجود القواعد العسكرية والتغلغل الأجنبي في البلاد العربية وهذا الموقف متخذ ومقر في مؤتمرات حزب البعث وكذلك من قبل الحكومة التقيته مرة أخرى حين كنت أعمل مستشاراً صحفياً في السفارة الألمانية في ألمانيا الديمقراطية وحضرت مؤتمراً للرئيس الأسد عقده في إحدى قاعات قصر المؤتمرات في برلين الشرقية. في ذلك الوقت كانت تدور معارك طاحنة بين شطري اليمن وكان سؤال يلح في خاطري وددت أن أوجهه للرئيس الأسد، رفعت يدي لعدة مرات فكان يتجاهلني وأخيراً أشار لي فوجهت له سؤالاً عن موقف سوريا من الحرب الدائرة في اليمن، ومن المتسبب في رأيكم بهذه الحرب، ومع أي طرف تقف سوريا؟

نظر لي بعمق ثم قال، كل شيء سوف ينتهي حتما ولنؤجل الحديث عن هذه الحرب. كنت عندها أجلس في طرف القاعة القريب من الباب الخارجي فحين انتهى المؤتمر الصحفي وهم الرئيس الأسد بالمغادرة وقفت لأودعه مع باقي الصحفيين فمد يده وأمسك برسغ يدي فخرجت معه، عندها قال، عزيزي هؤلاء اليمانيون سوف يحلون مشاكلهم بينهم وليس من المناسب أن نتدخل، عند ذلك تركني وذهب. فألتف حولي باقي الصحفيين يسألوني عن الذي قاله لي الرئيس الأسد، فامتنعت عن أخبارهم.

وقد قابلته مرة أخرى في مؤتمر صحفي في برلين وكررت عليه سؤاله السابق وكنت أرغب انتزاع موقف محدد منه، فلم يعطني جوابا مختلفا عن موقفه السابق.

(٨)

ما عرفته عن كوامي نكروما والمثال الغاني للاشتراكية



نستطيع القول أن كوامي نكروما مناضل من طراز خاص ولكنه في منعطف تاريخي فقد الحظوة عند حلفائه السوفييت وما كان ليستحق هذه الجفوة.

كان الزعيم الغاني كوامي نكروما شخصية وطنية ومن المناضلين الأفارقة الأوائل ضد الاستعمار وتحرر أفريقيا ودعاة وحدتها. عام ١٩٥٢ أصبح رئيسا للوزراء ثم أعلن عام ١٩٥٧ استقلال غانا وأصبح رئيسا لها وأختار طريق البناء الاشتراكي.

كانت في ذلك الوقت نظرية التطور اللا رأسمالي أو تحقيق الاشتراكية عن طريق البناء السياسي بقيادة أحزاب البرجوازية الوطنية الشغل الشاغل للقيادة السوفيتية وكان بناماريوف المرشح لعضوية المكتب السياسي ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في الحزب الشيوعي السوفيتي، هو عراب تلك التوجهات والراعي والمنظر لتلك الفلسفة.

وجدت القيادة السوفيتية ضالتها المنشودة في كوامي نكروما الذي كان وقتذاك أحد أقطاب حركة عدم الانحياز وصديقا مقربا من جمال عبد الناصر وتيتو ونهرو. فعند

إعلان نكروما تبنيه الاشتراكية عام ١٩٥٧ جعل الاتحاد السوفيتي يقف بجانبه ويضع ثقله وراءه، ووجدوا في شخصية نكروما ووطنه غانا ما يوفر لهم قاعدة لوجستية وسط أفريقيا لتكون منطلقا لتغلغلهم مستقبلا في القارة السوداء. عندها عملوا على فتح العديد من المدارس الحزبية لتدريس الماركسية اللينينية وأرسلوا عشرات الألوف من الكتب الفلسفية النظرية لإنجاح التجربة وتعبيد طريق البناء الاشتراكي. وانتشرت في طول البلاد وعرضها صور ماركس ولينين بجانب صور كوامي نكروما.

كانت هناك معارضة قوية داخل غانا لمثل هذا التوجه ترفض ليس فقط فكرة البناء الاشتراكي وإنما تعارض حكم كوامي نكروما، أيضا المحيط الأفريقي لغانا كان يقف بالمرصاد وبالضد من حكم نكروما، وكانت فرنسا التي تعتبر أفريقيا مجالها السياسي الحيوي، تغذي هذا العداء وتثير النزعات العدوانية ضد نكروما.

كانت غانا من بلدان أفريقيا الفقيرة جدا. فظهور أي نظام جديد فأن العامل الاقتصادي وتوفير المعيشة ورفاه الناس كل ذلك يتصدر المهام الرئيسية للسلطة وتلك المسائل تكون بالذات موضع اختبار سياسات الحكومة ومن ثم رسم العلاقة مع شعبها. كانت حكومة نكروما تعتمد في اقتصادها على المساعدات المقدمة من الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية. وكانت الصين لها طموحها للدخول في العالم الأفريقي وإيجاد موطئ قدم لها هناك، لذا دخلت على الخط وقدمت المساعدات المادية لغانا فكان هذا تصعيد جديد للصراع بين الدولتين الشيوعيتين.

كانت طريقة الصين تعتمد على شراء ذمم القادة وإغرائهم بالنقود، فأن دفع الاتحاد السوفيتي كذا مبلغ من الدولارات قدمت الصين ضعف ذلك لتلك البلدان، وبالرغم من هذا فأن السوفييت كانت لديهم قناعة تامة بأن نكروما وحزبه وقادة غانا كانوا من الحلفاء المخلصين والمؤتمنين وأن المدارس الحزبية المنتشرة في البلاد سوف تخلق قاعدة سياسية اجتماعية تربط غانا كلياً بالنهج السوفيتي.

في منتصف سبعينات القرن العشرين قدم نكروما إلى موسكو بزيارة رسمية إثر دعوة قدمتها له القيادة السوفيتية. حين وصل المطار كان في استقباله أغلب القادة السوفييت وعلى رأسهم بريجنيف بحفاوة منقطعة النظر.

في ليلة وصوله موسكو حدث الانقلاب العسكري في غانا وأطيح بالرئيس نكروما وسلطته ونجحت قوى المعارضة بالسيطرة على مقاليد الحكم.

كان المتفق بروتوكوليا أن يلتقي الرئيس نكروما بالرئيس بريجنيف صباح اليوم التالي في الساعة الحادية عشر. حضر نكروما إلى الموعد فأخبروه بأن اللقاء قد تأجل، وأن له موعداً آخر عليه أن يذهب به إلى الصين. وفعلاً هيأت له طائرة خاصة لتقله إلى هناك، فطلب أن يقابل أحد القادة السوفييت وقال أن مراسيم زيارته لموسكو لم تنته، فلم يتلق جواباً سوى التأكيد على وجود الطائرة وضرورة ذهابه إلى الصين دون إبطاء. في ذلك الوقت لم يقابله غير رجال دار الضيافة، وحين اتصل السفير الغاني بوزارة الخارجية السوفيتية لمعرفة ما يحدث لم تقدم له الوزارة أي جواب واعتذرت لعدم علمها بالأمر. كان نكروما في ذلك الوقت يكرر بأنه سوف يعود إلى بلاده للقضاء على هذا التمرد.

لم تدع القيادة السوفيتية الوقت ليمر، فتوجهوا به ومرافقيه إلى المطار ووضع في طائرة أقلته إلى الصين، ولم يودعه في مطار موسكو أي شخص من قيادة السلطة أو الحزب الشيوعي السوفيتي. ذهب إلى الصين واستقبل رسمياً هناك وبقي فترة كان خلالها يطلق التصريحات الجارحة بحق الاتحاد السوفيتي وقادته، ثم أنتقل بعد ذلك إلى غينيا التي كانت تحت حكم أحمد سيكوتوري وبقي منفياً هناك.

وفي غانا وبعد الإطاحة بكوامي نكروما، أغلقت المدارس الحزبية وألغيت جميع الإجراءات المتعلقة بالترويج للماركسية اللينينية ورفعت صور قادة الحركة الشيوعية من الشوارع والمؤسسات الرسمية وانتهت التجربة التي كان يعيل عليها الحزب الشيوعي السوفيتي لتحقيق الاشتراكية في قلب أفريقيا.

(٩)

الرئيس الصومالي

محمد سياد بري



ترأس الرئيس الصومالي الجنرال محمد سياد بري المجلس العسكري الذي جاء إلى السلطة في الصومال بانقلاب عام ١٩٦٩ وأعتد الاشتراكية كنهج كما استنسخ التجربة الصينية في الزراعة وتطوير البنى التحتية، كما قام بتأميم جميع المصارف والمصانع الأجنبية العاملة في البلاد. وكان أيضا يرتبط بصداقة متينة مع الاتحاد السوفيتي الذي راح يشجعه على تبني طريق الاشتراكية ويغدق عليه المساعدات.

في ظرف تلك السنوات جاء محمد سياد بري في زيارة إلى الاتحاد السوفيتي بدعوة من الحزب الشيوعي لحضور أحد مؤتمرات الحزب، لكونه رئيسا أفريقيا وصديقا مقربا من القيادة السوفيتية، ويعمل بجدة على تبني طريق الاشتراكية العلمية في الصومال، أيضا كانت الدعوة حرصا من القيادة السوفيتية على تعزيز دور سياد بري في القارة الأفريقية وتطوير القاعدة العسكرية التي بناها السوفييت في الصومال، والتي وافق الرئيس سياد بري على إنشائها دون تحفظ.

عقد مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي في قصر الكرملين، وقد كلفني وكالة

نوفوستي بتغطية المؤتمر وكذلك على ضرورة إجراء مقابلة مع ضيف اللجنة المركزية الرئيس الصومالي والحصول على لقاء صحفي مطول معه، وأعطيت تعليمات من قبل الوكالة أن تكون أسئلة اللقاء تتعلق بالعلاقة مع الاتحاد السوفيتي وأفاق المستقبل لهذه العلاقة ومجالات تطويرها، وعن بناء القاعدة العسكرية السوفيتية وما تعنيه لبلد أفريقي مثل الصومال وأيضا الحديث عن تطور البناء الاشتراكي في الصومال.

كان حضور الصحفيين إلى المؤتمر بروتوكوليا، فالصحفي لا يستطيع الدخول إلى جميع القاعات ومقابلة ما يود مقابلته من الحضور. وكانت لي صداقة مع أحد المشرفين الإداريين على قاعات القصر حيث يعقد المؤتمر والذي نصحني لو أردت مقابلة الرئيس الصومالي أن استغل فترة الاستراحة حيث يتجمع الضيوف وأعضاء المؤتمر في قاعة مجاورة لتناول القهوة والمعجنات. ساعدني المشرف الإداري على دخول تلك القاعة من باب جانبي وكان هناك تجمع كبير للقادة السوفيت وأعضاء المؤتمر، وأيضا ضيوف المؤتمر ومنهم الرئيس الصومالي. لم اترك الوقت ليمر فذهبت إليه مباشرة، حييته فرد التحية وسألني مباشرة من تكون، فأخبرته بأني مندوب وكالة نوفوستي السوفيتية، فقال أعني من أي بلد أنت، فأنت تتحدث العربية جيدا، فأخبرته بأني عراقي وأعمل في الصحافة، عندها سألني عما أريده الآن، فأجبته برغبتي إجراء حديث صحفي لمعرفة رأي سيادته بطبيعة العلاقات مع الاتحاد السوفيتي ومستقبل تلك العلاقة، تلك اللحظة أخذ بيدي قائلا لماذا تأتي إلى الصومال وتشاهد الأحداث بعينيك وعلى أرض الواقع ونتحاور حول المواضيع التي ترغب معرفتها، أذهب إلى سفيرنا في موسكو ليرتب لك تلك السفارة وتكون في ضيافتنا هناك.

تلك اللحظة أعلن عن انتهاء الاستراحة فأخذ الجميع بالانسحاب من القاعة وبدوري وخوفا من اكتشاف أمري من قبل الحراس أسرع بالخروج من ذات الباب الذي دخلت منه، فدخولي ذاك كان يعد خرقا لمكان يحضر فيه دخول غير أعضاء المؤتمر

والضيوف. بعد ذلك عدت خالي الوفاض من مقابلة الرئيس الصومالي ولم أحصل على ما يلبي فضولي الصحفي ورغبة الوكالة بصيد صحفي هام. ومر الكثير من الوقت لم أكن فيه أفكر بالدعوة التي قدمها لي الرئيس الصومالي لزيارة بلده، ولم يخطر على بالي الاتصال بالسفارة الصومالية لترتيب سفرة إلى هناك.

بعد ذهابي إلى اليمن الديمقراطي وعملي مع السيد عبد الفتاح إسماعيل، دائما ما كنت أجلس مع قيادات اليمن الديمقراطي وتدور بيننا أحاديث في شؤون كثيرة. في إحدى الجلسات توضح لي استياء القيادة اليمنية من موقف السوفييت وتعاملهم غير المنصف مع اليمن، وتركيزهم على تطوير العلاقات مع الصومال دونهم، في تلك الأمسية تجدد التفكير بمقابلة الرئيس الصومالي، وجاءت الفكرة من خلال حديثي مع السيد عبد الفتاح إسماعيل عن وقائع ذلك المؤتمر الذي عقد في موسكو وحضره الرئيس الصومالي وكيف تسنى لي مقابلته دون أن أحصل على نتيجة مرضية، فسألني عبد الفتاح عن المانع هذه المرة من ذهابي ومقابلة محمد سياد بري في العاصمة مقاديشو، وبهاجسي الصحفي وجدت أن الفكرة مناسبة ولم لا أقوم بها، فذهبت إلى سفارة الصومال في عدن وقدمت نفسي للسفير وحدثته عن مقابلي السابقة للرئيس، وقتها دهش السفير لهذه الحادثة وتلك العلاقة بيني والرئيس، فوعدني بأن يفتح الرئاسة في الصومال على الفور وحين ورود الإجابة عندها سوف يهاتفني بذلك، فعلا وبعد أسبوع أخبرني السفير بموافقة وترحيب الرئيس بقدمومي إلى الصومال وما علي غير تحديد موعد سفري.

ذهبت بالطائرة من عدن إلى العاصمة مقاديشو حيث استقبلت في المطار من قبل موظف بالرئاسة الجمهورية الذي أخذني إلى أحد الفنادق في العاصمة وهناك أخبرني بوجود موعد مقابلة الرئيس هذا اليوم عند الساعة العاشرة مساءً فاستغربت التوقيت وأبدت هذا المرافقي الذي أجابني بأنه لا يعرف شيئا عن طبيعة اللقاء وإنما طلب مني

فقط أبلغك بذلك.

قبل حلول الموعد قدمت سيارة لتقلني إلى القصر الجمهوري. دخلت القصر وجلست في غرفة سكرتير الرئيس ورحنا نتبادل حديثا عابرا، وكان الوقت يمضي دون أن يظهر ما يدل على قرب لقائي بالرئيس سياد بري، فسألت السكرتير إن كان الرئيس على علم بوجودي جوار غرفته فأجابني بأن الرئيس يعلم ذلك وهو من حدد موعد اللقاء، تجاوزت الساعة الحادية عشر والنصف اقترحت على السكرتير أن اذهب ويكون لقائي بالرئيس في اليوم التالي، فأعذر السكرتير مني وقال بأن الموقف ووظيفته يجعلانه ملتزما التزاما كاملا وحرفيا بأوامر الرئيس.

قبل حلول الساعة الثانية عشر والنصف خرج الرئيس سياد بري من غرفته ورحب بي ترحابا حارا محتضنا أيادي قائلا أنه يتذكرني جيدا ويتذكر لقاءنا في قصر الكرملين، ثم سألني عن وضعي وعملي فأخبرته عن وجودي في اليمن وطبيعة عملي هناك وكوني مستمر في مهنتي الصحفية، وفي ذات الوقت نقلت له تحيات عبد الفتاح إسماعيل وحدثته عن تبني القيادة اليمنية للفكر الماركسي اللينيني، وبدوره أشاد بشخصية عبد الفتاح وقال نحن كذلك نسير بذات النهج ولدينا مدارس حزبية لتدريس الفكر الاشتراكي.

دخلنا الغرفة وبعد أن جلسنا أخبرته بأن لدي أسئلة عديدة وأريد من سيادتكم الإجابة عليها لكي يتعرف الناس على واقع التجربة السياسية في جمهورية الصومال الشعبية، فقال الرئيس دع أسألتك جانبا ألان وسوف أحدثك عن واقع الثورة الشعبية التي قامت في الصومال وتوجهاتنا المستقبلية وسياساتنا، فأخبرته بأن كل هذا سوف يكون ضمن نطاق أسئلتني فقال دع أسألتك جانبا واستمع لحديثي الذي تجد فيه الإجابات الوافية لما يدور في خاطرك من أسئلة، فكررت عليه مرة أخرى أن يسمح لي بتقديم أسئلتني فرفض ثم فجأة راح يتحدث عن الثورة الصومالية ونضال شعب

الصومال ودوره الشخصي في قيادة الثورة، وكيف تم التفاف الشعب حوله وتكلم عن طموحاته ورؤيته وخياراته التي يمكن أن يقدمها لشعبه.

كنت أستمع له دون أن أنطق بكلمة واحدة حين حلت الساعة الثالثة فجراً فطلبت منه أن ينهي اللقاء ليوم غد فأنت بحاجة لشيء من الراحة وأنا كذلك، فرفض قائلاً أنه حريص جداً على هذا اللقاء لإطلاعي مباشرة على مجريات الأمور وأوضاع الصومال، وأخذ بالحديث ثانية وكنت بدوري أسهب بعيداً عن ثرثرته وبدأ التعب يأخذ مني مأخذاً فلاحظ سياد بري عدم اهتمامي وشعوري بالتعب فتوقف وقال ليكن لنا لقاء آخر غداً في الساعة الرابعة عصراً، خرجت من عنده ولم يسألني أو سكرتيره عن وضعي واحتياجاتي في مقاديشو، وحين خرجت سألتني السكرتير عن كيف كان لقائي مع الرئيس فأجبت وأنا غاضب جداً، كان لقاءً تعيساً فأخذ السكرتير وموظف آخر يحاولان تهدئتي. ذهبت إلى الفندق وفي المساء وقبل الساعة الرابعة جاءت سيارة لتقلني إلى القصر الرئاسي، راودني قبل ذلك تفكير ورغبة بعدم الذهاب للقاء الرئيس، ولكنني رأيت أن ذلك لن يكون مناسباً وربما تكون هناك تداعيات غير حميدة لموقفي هذا. قابلت الرئيس فسألني عن لقاء البارحة وهل كان مفيداً لي وهل أجاب على بعض ما كان يدور في بالي من أسئلة، فأجبت بنعم وأن حديثه كان مفيداً جداً. عندها بدأت أسألني مباشرة بتقديمها، طبيعة العلاقة بينهم والاتحاد السوفيتي، فأجابني بكلمات مدح وتمجيد للقيادة السوفيتية ووقوفها بجانب تطلعات الشعب الصومالي، ثم قال بأن السوفييت أغدقوا علينا المساعدات ولذا سمحت لهم ببناء القاعدة البحرية عندنا وأيضاً افتتاح المدارس الحزبية ونحن وهم نتعاضد لإنهاض أفريقيا من سباتها وتصعيد وتعميم الثورة الوطنية بين أوساط شعوبها لبناء الاشتراكية، وأخذ يتحدث عن آفاق العمل الثوري في أفريقيا وكيف تكون الصومال شعلة هادية لكافة الشعوب الأفريقية. فسألته عن طبيعة المساعدات التي يقدمها السوفييت للصومال وهل أن البناء الاشتراكي في الصومال يتعلق بوقوف السوفييت بجانبك وتقديم المساعدات

لكم، وهل يسمح كقائد للثورة الصومالية بتلقي مساعدات أخرى من غير الاتحاد السوفيتي، فأجابني بحديث مسهب عن العلاقة مع السوفييت مكررا المديح للدولة والحزب في الاتحاد السوفيتي، ومع استمرار تلك المساعدات سوف تكون علاقتنا وطيدة، أما ما يتعلق بالمساعدات من بلدان أخرى فقال بأن لهم علاقة هادئة مع جمهورية الصين الشعبية وأيضا يتلقون منهم مساعدات وهم بأمر الحاجة لتلك المساعدات.، وفي أسئلة وددت أن اختبر حقيقة استيعابه للمفهوم الماركسي في بناء الاشتراكية فأجابني بعبارات غائمة بأنهم سائرون على هذا الطريق والنهج الثوري وإن ثورة الشعب الصومالي هدفها الأعظم هو تحقيق الاشتراكية.

لم يطل الحال مع حكم سياد بري للصومال فحدث ضده انقلاب وأطيح بنظامه عام ١٩٩٥ بعد صراع مسلح مع جماعات معارضة لحكمه، هذا الانقلاب غير جميع المعادلات السياسية في الصومال، فقد أغلق الأنقلابيون القاعدة البحرية السوفيتية وطردهم جميع الخبراء السوفييت من البلد وأغلقت المدارس الحزبية وانتهى حكم سياد بري إلى غير رجعة، وتوفي بري في منفاه عام ١٩٩٥ وأعيد جثمانه ليدفن في مسقط رأسه.

(١٠)

فصيل شيوعي صومالي

ذلك الوقت وقبل أن أجري لقائي بالرئيس سياد بري بفترة ليست بالقصيرة وبتكليف من القيادة السوفيتية أخبرني عبد الفتاح إسماعيل عن وجود مجموعة من الشباب الصوماليين يعيشون في أثيوبيا المجاورة للصومال وفي عاصمتها أديس أبابا، وهؤلاء الشباب لا يستطيعون الذهاب إلى الصومال لخلافهم مع حكم الرئيس محمد سياد بري الذي حضر الأحزاب وعلق الدستور ولاحق المعارضين لحكمة. وقد اتصل هؤلاء بالاتحاد السوفيتي وأعلنوا رغبتهم تشكيل حزب شيوعي صومالي. وهم اليوم بحاجة للمساعدة على تشكيل ذلك الحزب. وقد كلفه السوفييت بمهمة مساعدة هؤلاء، لذا يقترح علي بالذات الذهاب إلى أثيوبيا والالتقاء بهم وتقديم المساعدة، فسألته عن طبيعة المهمة ونوع المساعدة التي يرغبونها، فأخبرني أن علي أن اجلس معهم وأعرف منهم بالضبط مطالبهم ومستواهم الفكري وقواهم ثم أساعدهم على وضع برنامج للحزب الشيوعي الصومالي على وفق معرفتي بتلك الحثيات. وأخبرني أيضا بأنهم يطلبون أن يكون برنامج حزبه باللغة العربية. وبعد موافقتي الذهاب إلى هناك سلمني عبد الفتاح إسماعيل رقم هاتف علي الاتصال به حين وصولي أديس أبابا.

ذهبت بالطائرة إلى أديس أبابا واتصلت من الفندق برقم الهاتف فأبلغني الصوت بأنهم سوف يلتقون بي عند الساعة الخامسة عصراً، وطلب مني الوقوف في الموعد عند باب الفندق وهم سوف يأخذوني من هناك. وقفت في الموعد والمكان المحددين فلفت نظري مرور سيارة بسرعة ألثفت جميع ركابها نحوي فحدست أنهم المعنيون بالعلاقة، تعدت الخمس دقائق حين عادت ذات السيارة وترجل منها أحدهم وتقدم نحوي ذاكر اسمي فأجبتة بنعم فذهبت معه وركبنا تلك السيارة التي انطلق إلى بيت بعيد

عن المنطقة. أثناء الطريق حدثني عن وضعهم ومعارضتهم لسلطة سياد بري الذي أنفرد بالسلطة وقام بقمع جميع معارضييه ولذا يرغبون أولاً في تشكيل حزبهم خارج الصومال ثم بعد تطور الموقف سوف ينتقلون إلى الداخل. فحدثتهم عن نوايا سيد بري وخطته لبناء الاشتراكية على وفق نهج الماركسية اللينينية فأجابوني بمجموعهم بأنه يندع الاتحاد السوفيتي وباقي الدول الاشتراكية وهو بعيد كل البعد عن الاشتراكية وهو دكتاتور عدو للديمقراطية وقامع للحريات.

لاحظت من تحركهم شدة حذرهم ومراقبتهم الدقيقة للمنطقة وفي مثل وضعهم المقلق والخطر فأنهم يحتاجون لمثل تلك الاحتياجات والتمويه. دخلنا داراً فسألتهم عن هذا البيت فأخبروني أنه بيت مؤجر، في ذلك البيت عدة غرف في أحدها طابعة يدوية بعد أن جلسنا سألتهم عن الذي يطلبوه مني فأخبروني بأنهم مجموعة من الشيوعيين الصوماليين ونحتاج لوضع برنامج لحزبنا وفق مبادئ الماركسية اللينينية وكذلك نحتاج لنظام داخلي لدعم عملنا وقبل كل هذا نحن بحاجة لبيان تعريف يوجه لأبناء شعبنا في الصومال يتحدث عن خطواتنا هذه ومشاريعنا المستقبلية لضمان الحريات ومصالح الشعب الصومالي.

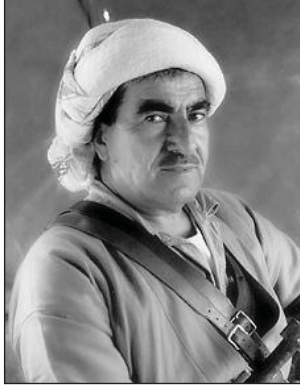
بعد ساعات من شروعي بالكتابة جاء أحدهم وكان يبدو من خلال تصرفاته أنه المسؤول الأول عن هذه المجموعة ليخبرني بأنهم دائماً ما يتوقفون عن العمل عند الساعة الثامنة مساءً وهو وقت العشاء أيضاً، فقلت له بأني أظن بحاجة لوقت طويل لكي أنجز العمل ولذا من المناسب أن أستمّر بالعمل ولكني وجدته مصراً على الذهاب لتناول الطعام وقال أيضاً بأنهم يودون الاحتفاء بمجيئي، وافقته وتوجهنا نحو صالة الطعام فوجدت مجموعة من الرجال وبعض نساء، جلسنا جميعاً حول طاولة الطعام ودار بيننا حديث طويل، طلبت بعدها أعادتي إلى الفندق.

في الفندق جلست أدون المسودات المطلوبة لكي أقوم بطباعتها. وفي اليوم الثاني

جاء أحدهم ليقلني من الفندق إلى نفس الدار عند الساعة العاشرة صباحاً، ومثلما اليوم الأول أخذت بطباعة ما دونته لحين الساعة الثامنة مساءً وتكرر ذلك في اليوم الثالث الذي أنهيت تماماً ما كان مطلوب مني من برنامج ونظام داخلي وبيان تأسيس للحزب الشيوعي الصومالي. وعلى منضدة العشاء طلبت من هؤلاء الشباب أن يأخذوني إلى أرتيريا لمشاهدة معالمها، فرافقني بعضهم بالطائرة إلى مدينة أسمرة ودخلناها كسواح. جذب انتباهي وضع مطار أسمرة فقد شاهدت انتشار بطريات صواريخ أرض جو داخل المطار وهناك أيضاً مدافع رشاشة رباعية الفوهات وبعض مجاميع عسكرية وحين سألت مرافقي عن هذا الوضع المتوتر أخبروني بأن السلطات الأثيوبية المحتلة لأرتيريا تخشى من هجوم المعارضة المسلحة التي تقوم بانتفاضة مسلحة ضد سلطة الحاكم الأثيوبي المحتل منغستو هيلي مريام، واستطاعت أن تنتزع من جيش المحتل العديد من المدن الارترية. بعد زيارة أرتيريا عدنا إلى أثيوبيا حيث رجعت بالطائرة إلى اليمن الديمقراطي دون أن يودعني أحد من هؤلاء الشيوعيين الصوماليين وبرروا ذلك بخوفهم من مراقبة المخابرات الأثيوبية لهم واكتشاف علاقتي بهم.

(١١)

الجنرال الملا مصطفى البرزاني



في نقاشاتي الدائمة عن العراق مع مدير معهد الاستشراق السيد غفوروف تطرقنا في واحدة منها إلى موضوع الملا مصطفى البرزاني، فسألت المدير عن حقيقة رتبة الجنرال التي منحت للملا مصطفى والجهة التي منحته تلك الرتبة العليا، ومتى كان ذلك، وفي أي جيش من الجيوش كان له موقعا. فاجأني السيد غفوروف بالقول عن أي رتبة تتحدث، فالسيد البرزاني جاء إلى الاتحاد السوفيتي مطارداً من الحكومة العراقية، وقصة رتبة الجنرال من ابتداعكم أنتم العرب والأكراد، فالملا لم يدرس في كلية عسكرية، ولذا فهو لا يمتلك رتبة عسكرية على الإطلاق.

قبل أكثر من عشر سنوات صدر كتاب للسيد يفغيني بريماكوف تحدث فيه عن حقيقة رواية رتبة الجنرال للسيد البرزاني، قائلاً بأن البرزاني لا يملك أية رتبة عسكرية، فهو أصلاً لم يدخل مدرسة عسكرية، فكيف حصل على رتبة عسكرية، وجل ما في الحكاية هو الآتي:

- حين جاء الملا مصطفى البرزاني إلى موسكو من أواسط آسيا الوسطى حيث كان يعيش هناك، حل ضيفاً على أحد الأكراد المقيمين في موسكو. في أحد الأيام خرجا للتنزه وارتادا مخزناً للحاجيات العسكرية الواقع قبالة مكتبة لينين، وراحا يتجولان

في ذلك المخزن ثم صعدا إلى الطابق العلوي حيث تعرض الملابس العسكرية لجميع صنوف ورتب الجيش السوفيتي، وبرغبة من السيد البرزاني أبتاع له صديقة بذلة جنرال سوفيتي وخرجا، بعد ذلك ألتقط البرزاني صورة له وهو يرتدي بذلة الجنرال. بعد فترة من الزمن نشرت الصورة مرفقة مع تحقيق حول الحركة الكردية في العراق في صحيفة التريون اللندنية، وأثارت تلك الصورة حيرة المخابرات السوفيتية، وعن الكيفية التي سربت بها الصورة ووصلت إلى بريطانيا. وهذا ما أثار استغرابي ودهشتي فيما حدث. هذا ما قاله بريماكوف في كتابه.

وقد عرضت الكتاب وترجمة المذكرات فيما يخص رواية الرتبة العسكرية للملا مصطفى، على السيد مسعود البرزاني فطالعتها وأخذ الكتاب وورقة الترجمة ورفض التعليق.

(١٢)

فاضل البراك



وصل فاضل البراك إلى موسكو للعمل كمعاون للملحق العسكري في السفارة العراقية، وليكون أيضا مسؤولا حزبيا عن تنظيمات حزب البعث في الاتحاد السوفيتي. في نهاية عام ١٩٧١ وبداية ١٩٧٢ وأثناء عملي في معهد الاستشراق السوفيتي أرسل مدير المعهد السيد بابا جان غفوروف بطلبي لمقابلته، حيث أعلمني بضرورة حضوري في اليوم التالي إلى غرفته، كون هناك شخص اسمه فاضل البراك وهو معاون الملحق العسكري العراقي في سفارة العراق سوف يأتي إلى المعهد كنت قد سمعت بهذا الاسم وسبق لي أن قابلته بشكل عرضي، أيضا حصلت من خلال رفاقنا في الحزب الشيوعي العراقي على معلومات مفصلة عن وظيفته ومهام عمله الحزبي في الاتحاد السوفيتي. أخبرني السيد غفوروف بأن مجيء فاضل البراك إلى المعهد كان بطلبه، وهناك موافقة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، وذلك لتسهيل رغبته ورغبة قيادة حزب البعث في كتابته لأطروحة دكتوراه، يكون معهد الاستشراق بالذات مشرفا على إعدادها، وقال لي السيد غفوروف بأن عليَّ حضور المقابلة من دون التدخل، فقط عليَّ مهمة الاستماع لما يدور بينه وبين فاضل البراك، وكان السيد سعيد كاميلوف وهو باحث علمي في المعهد يترجم الحديث.

حضر فاضل البراك في اليوم الثاني وبالموعد المحدد، وقدمني له رئيس المعهد السيد غفوروف كوني موظفا بالمعهد بدرجة باحث علمي. كانت مقابلي الأولى له متشنجة بعض الشيء، ولكن بعد برهة فاجأني بسؤال: هل سبق أن التقينا فأجبتة بنعم، فقال لي وكان يريد أن يضفي على اللقاء جوا من المزاح، ربما استطيع أن أوجه لك رصاصة تنهي حياتك، وكان يعني في ذلك، بأنه ينفذ حكم الإعدام بحقي، والذي سبق أن صدر ضدي في العراق على عهد عبد الكريم قاسم. فأجبتة، وما يمنعك من تنفيذ تهديدك الآن، فقال لقد رغبت التعبير عما أفكر فيه هذه اللحظة وليس قتلك الآن. واجهته بنظرات سخرية، وبقيت جالسا مكاني أتابع هيأته وطريقة حديثه.

بادره غفوروف بالسؤال عن الموضوع التي اختارها لأطروحته، فأجاب البراك بأنه اختار حركة رشيد عالي الكيلاني كموضوع أساسية للدكتوراه. ففاجأه غفوروف بأن نبهه قائلا على إن هذه الحركة كانت من الحركات القومية في محتواها وتوجهاتها، وحتى قيامها لم يأت في الوقت المناسب. وقد استرسل غفوروف بالشرح لطبيعة ودوافع قيام تلك الحركة، وكان حديثه ينم عن معرفة معمقة وكاملة بحركة رشيد عالي الكيلاني. وبدوري شعرت بأن الرفاق في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي قد نبهوا مسبقا السيد غفوروف على الموضوع، التي اختارها البراك لأطروحة الدكتوراه، لذا بذل غفوروف جهدا ليس بالقليل للاطلاع على معلومات وافية عن تلك الحركة، بعد ذلك قال غفوروف بأن اتجاهات معهد الاستشراق في تناول مثل هذه المواضيع هي اتجاهات علمية، والمعهد يعتمد في بحوثه وتحليلاته على النظرية الماركسية اللينينية، وإذا أردنا دراسة وتحليل حركة الكيلاني، فسوف نأخذها في سياق معاداتها للامبريالية، ونهمل نهجها وتوجهاتها القومية. عندها أجاب فاضل البراك بسرعة ودون تردد، بأنه مستعد للتعاون مع المعهد بأقصى ما يمكن، وأنه سوف يطرح دراسته وما عليكم غير ابداء رأيكم وتشذيب ما ترتؤون تشذيبه أو حجبه، بعد ذلك قال السيد غفوروف للبراك، بأن هناك شخصا قَدَّم دراسة عن ثورة العشرين في العراق

وهو الرفيق كاتالوف، وهذا الرفيق باحث في المعهد مختص بأوضاع العراق، وكتابه هذا مترجم إلى العربية، ويعد من أهم الكتب التي صدرت حول ثورة العشرين، وعلى البراك الأخذ بما جاء في كتابه. بعد هذه المعلومة وجه للبراك سؤال عن معرفته بذلك الكتاب أو مؤلفه، فأجاب البراك بأنه يعتقد بسماعه اسم المؤلف، ولكن لا توجد لديه معلومة عن الكتاب ومؤلفه، عندها أخبره غفوروف بأن مؤلف الكتاب كتلوف هو واحد من الباحثين العاملين في المعهد، وسوف يكون مشرفاً على أطروحته التي ينوي تقديمها، أما المسؤول الثاني عن ذلك فهو الأستاذ خليل عبد العزيز وهو المسؤول الإداري عن جميع ما يتعلق بإعداد أطروحته ولا علاقة لك بمعهد الاستشراق إلا من خلاله، وأي شيء يتعلق بالأطروحة، فعليك مراجعة دكتور خليل عبد العزيز. بعد ذلك اللقاء أعطاني فاضل البراك رقم هاتف الملحقية العسكرية في سفارة جمهورية العراق وبدوري أعطيته رقم هاتف المعهد.

واستكمالاً للإجراءات قمت بالاتصال بالسيد كتلوف وأخبرته بموضوع أطروحة الدكتوراه لفاضل البراك، ولكنه فاجأني بكونه على اطلاع بتلك الإجراءات، بعد أن أخبر من قبل الجهات العليا في الحزب الشيوعي السوفيتي، بأن موضوع الإشراف على الرسالة قد اتفق على أمره بين الحزب الشيوعي السوفيتي وحزب البعث في العراق، وهذا الأخير وحسب معلومات الحزب الشيوعي السوفيتي، له رغبة في إعداد كوادر علمية وثقافية تبرز في إمكاناتها كوادر الحزب الشيوعي العراقي. في ذلك الوقت أخبرني كتلوف رغبته بمقابلة فاضل البراك في بيته وليس في مكتبه داخل المعهد، وبرر ذلك بأنه يحتاج إلى أن يأخذ حريته في الحديث مع فاضل البراك. بدوري طلبت من فاضل البراك الحضور لمرافقتي والذهاب إلى بيت السيد كتلوف. جلسنا في غرفة الضيوف وبدأ السيد كتلوف الحديث مع فاضل البراك بشأن طبيعة ما يسمح تناوله في الأطاريح، التي تقدم من خلال معهد الاستشراق، وضرورة أن تحمل توجهها أمياً اشتراكياً، ولا يسمح على الإطلاق أن تكون الأطاريح والرسائل حاملة لمفاهيم وتوجهات قومية،

وكان كلام كتلوف صريحا واضحا ومباشرا. بدوره كان البراك يصغي لما أترجمه له بكل جدية واهتمام. عند نهاية حديث كتلوف، سألت بدوري فاضل البراك عما أنجزه من أطروحته، فأخبرني بأنه أنجز منها الكثير، وسوف يسلمني الفصل الأول منها بعد أسبوع، دهشت من قوله، فكيف استطاع انجاز الفصل الأول في هذه المدة القصيرة، على أن تتوافق مع ما طرح عليه في معهد الاستشراق، ولم اخف استغرابي من ذلك، لذا أخبرت كتلوف لاحقا بهذا الأمر، فتساءل إن كان البراك وجماعته قد أعدوا ذلك مسبقا. وتوجه لي بالقول يتطلب مني شخصا قراءة الفصل، الذي يقدمه فاضل البراك جيدا، وأن أقدم له خلاصة مفصلة حوله، على أن يقوم هو بعدها بمناقشته مع البراك من دون تدخل مني. بعد مضي شهر من تلك المقابلة اتصل بي فاضل وقدم لي الفصل الأول من أطروحته وكان باللغة العربية، وبعد أن قرأته وجدته وكأنه أعدّ من قبل الجهاز الحزبي البعثي، حيث قدم فيه تصورا عن حركة رشيد عالي الكيلاني، وكأنها حركة قومية لا بل كانت تحمل بذور فكر حزب البعث العربي الاشتراكي، عندها اتصلت بفاضل البراك وناقشته بالأمر وأخبرته بأن ما كتبه يخالف ما اتفق عليه مع مدير المعهد غفوروف والمشرّف السيد كتلوف، وهذا يعد خروجا عن نهج المعهد، الذي يمنح ويصادق على الشهادات، فأجابني فاضل بأن هذا الأمر صحيح، وأنه سبق ومنحنا صلاحية التدخل وتغيير ما نرتّبه ويتوافق ورؤية المعهد ومنهجيته، وأضاف بأن من حقي أن أضيف وأنقح وأغير حسب ما أريد، فأخبرته بأن مثل هذا العمل ليس من اختصاصي ومهامي، ومن يقرر ذلك هو السيد كتلوف، لأنه المسؤول الأول والمشرّف العلمي على الأطروحة.

قدمت الفصل الأول وخلاصته إلى السيد كتلوف وأخبرته بما دار بيني وبين فاضل البراك من حديث. وبعد أن قرأ كتلوف هذا الفصل قرر بأن ما جاء فيه لا يصلح، كونه لا يتوافق والمناهج العلمية التي تسير عليها سياسة المعهد، وهي الأسس الماركسية اللينينية، وأخبرني بأنه لن يدخل تعديلات على هذا النص بغير حضور البراك، في اليوم

التالي جاء البراك، فقدم السيد كتلوف ملاحظاته بدقة متناهية عن جميع المعلومات والحوادث، التي كتبها فاضل البراك، مؤكدا ضرورة أن تتغير الكثير من المعلومات بما يتوافق ومتبنيات معهد الاستشراق وسياسة الحزب الشيوعي السوفياتي، وبين للبراك الكيفية التي يتم فيها الابتعاد عن الحس والنوازع القومية العروبية، وقدم له الملاحظات في الكيفية التي يتم بها اجراء التغييرات على الصفحات، وكان كتلوف قد حددها بالأرقام والأسطر والصفحات، وفاضل البراك كان يسجل تلك الملاحظات، وبدوري كنت أسجلها أيضا. بعد خروجنا من مكتب كتلوف، قال لي البراك معاتبا ألم أخبرك بأنكم تستطيعون تغيير ما ترتئون تغييره، فأكدت له مرة أخرى بأن التدقيق والتغيير ليسا من صلاحياتي، والمشرف هو السيد كتلوف وهو من يقدم الملاحظات ويأمر بالتغيير، وفي النهاية سوف يكون لوحده معرضا للمحاسبة عن مجمل ما تكون عليه أطروحتك للدكتوراه كونه المشرف العلمي عليها.

قمت والسيد كتلوف بإجراء التغييرات على الفصل الأول من الأطروحة واستدعينا فاضل البراك وقام كتلوف بقراءة التغييرات عليه، ومن دون أي اعتراض أو ملاحظة أعلن فاضل البراك موافقته التامة على جميع التغييرات، وكان كتلوف قد أضاف إلى الفصل بعض الاستدلالات والفقرات من خطاب الرفيق بريجنيف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، وكذلك بعض مقررات المؤتمر العشرين، وهذا الأمر كان من الموجبات في أية رسالة أو أطروحة أو دراسة تصدر عن المعهد في ذلك الوقت، وبعد أن استلم فاضل البراك النص المعدل أعاده بعد أيام مطبوعا وقد أجرى عليه جميع التعديلات التي طلبها منه كتلوف.

كنت وكتلوف نناقش بعض الشأن بأطروحة فاضل البراك وموافقته دون شروط على ما نجره من تعديلات في نص الأطروحة وبإضافات واضحة من النهج والفكر الاشتراكي للسوفييت، حينها توافقنا بالرأي، بأن غاية فاضل البراك من التقديم

للدكتوراه، ليس البحث العلمي بقدر ما كان يريد الحصول على السمعة المهنية وبالذات من معهد الاستشراق السوفيتي بأي سبيل كان.

المفاجأة في أطروحة فاضل البراك

لم تمض غير فترة قصيرة حين فاجأني فاضل البراك بتقديمه الجزء الثاني من الأطروحة، فقد جاء إلى المعهد ويده ملف سلمني إياه على أنه الفصل الثاني، استلمت الملف وبعد حديث قصير خرج فاضل من المعهد فجلست في غرفتي أتصفح محتوياته، فجأة عثرت وسط الأوراق على قصاصة ورق صغيرة، كانت القصاصة عبارة عن رسالة قصيرة من منظر حزب البعث وعضو القيادة القومية فيه اللبناني الياس فرح. الرسالة تقول: «الرفيق العزيز فاضل البراك المحترم أرفق لكم الجزء الثاني وسوف اتبعه بالجزء الثالث، راجيا لكم الموفقية مع فائق التحية والتقدير».

لم تكن تلك القصاصة غير رسالة واضحة عن المسعى والرغبة الحقيقية لحزب البعث وقياداته وبأية وسيلة كانت في الحصول على شهادة الدكتوراه لأحدهم من معهد الاستشراق، أخذت الملف وذهبت إلى مدير المعهد السيد بابا جان غفوروف وقدمته له. كان السبب في توجهي إلى السيد غفوروف من دون الذهاب إلى السيد كتلوف وعرضها عليه، خشيتي أن يثير الأمر السيد كتلوف، عندها سوف يرفض الاستمرار بالأشراف على الأطروحة ويقوم بقطع علاقته بمناقشة البراك وتقديمه للدكتوراه، وبعد حديث طويل مع السيد غفوروف طلب مني عدم ذكر أو اطلاع كتلوف على محتوى رسالة الياس فرح كي لا يتخذ اجراء ما بحق فاضل البراك، أيضا قال بأن الرسالة سوف تبقى بحوزته، فطلبت منه صورة مطبوعة عنها، فرفض ذلك قائلا، هذا لن يحصل، وطلب مني وبشكل رسمي ألا أتحدث بشأن الرسالة مع أي شخص، وعندها أصبحت الصورة واضحة أمامنا. قدمت ملف الجزء الثاني إلى السيد كتلوف، وبالطريقة السابقة نفسها، تداولت بالموضوع معه فراح يغير ويقدم الملاحظات ويعدل

في نصوص الجزء الثاني من الأطروحة، وبدوره جاء فاضل البراك وبقناعة تامة ورضا واضح ووافق على جميع التعديلات، وذهب حاملا الملف لإعادة طباعته وإرجاعه، لنا كي نُؤشر ما أجرى عليه من تعديلات. وخلال حديثي مع السيد كتلوف حول أجزاء أطروحة البراك وكذلك نقاشنا معه حول ما كتبه في الجزأين الأول والثاني، كنا قد بتنا على قناعة بأنه غير قادر على كتابة مثل هذا البحث، وتيقنت أنا من ذلك عند العثور على رسالة الياس فرح، وفي الوقت ذاته أصبحنا على يقين بضرورة تثبيت رؤية معهد الاستشراق ومنهجيته في متن الأطروحة وكان هذا هو المهم لدينا.

أكمل فاضل البراك أطروحته، وطلبَ منه أن يعد لها خلاصة باللغة الروسية، فناشدني شخصيا مساعدته في كتابة هذه الخلاصة، فاعتذرت بسبب وضعي الوظيفي في المعهد الذي لا يسمح لي القيام بمثل هذا العمل، فطلب مني أن أتحدث إلى السيد كتلوف لإيجاد شخص ما من خارج المعهد يساعده على كتابة الخلاصة فأخبرته بأن مثل هذا العمل ليس من اختصاص كتلوف أو المعهد فنحن نقوم فقط بالأشراف وتدقيق وتصحيح هذه الخلاصة بعد تقديمها. بعد فترة قدم فاضل البراك الخلاصة باللغة الروسية، ودققتها وناقشتها مع السيد كتلوف. واستكمالا للإجراءات وبعد موافقة كتلوف طبعت الخلاصة في مطابع وزارة الداخلية السوفيتية.

عند اكتمال أطروحة الدكتوراه لفاضل البراك ظهرت إشكالية إدارية أمام مناقشتها. فحسب نظام المعهد وقواعد الدراسة فيه، فإن كان الطالب مسجلا للدراسة في المعهد عبر المراسلة، فلا يحق له مناقشة أطروحته أو بحثه إلا بعد مضي عام كامل على تسجيله للدراسة. وبعد أن عرض الموضوع على إدارة المعهد، أخبرني مدير الإدارة هناك، بأن فاضل البراك لم يكمل هذه المدة، وقدمت الدائرة الإدارية بدورها هذا الاعتراض إلى مدير المعهد السيد بابا جان غفوروف. ناقشت هذه العقبة القانونية مع السيد غفوروف فأخبرني بأن اعتراض الإدارة صحيح وقانوني، ولكن في حالة البراك يمكن التجاوز

عليها، فاستغربت وسألت عن الكيفية والسبب ولم هذا الاستثناء، فأخبرني غفوروف بأن هناك تعليمات صادرة عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي بضرورة المساعدة والإسراع في إعداد الأطروحة للبراك ومن ثم تحديد يوم لمناقشتها. ولم يقتصر الأمر عند ذلك، بل صدرت تعليمات من الجهات السوفيتية العليا بوجوب مساعدته أثناء مناقشته لأطروحته.

قدم فاضل البراك يوم المناقشة بصفة باحث علمي، وبسهولة ومن دون اعتراض أو تقاطع منح درجة النجاح، وكل ذلك جرى في وقت قياسي بالنسبة لباقي الأطاريح التي قدمت من خلال معهد الاستشراق.

في نهاية المناقشة وحصول البراك على درجة النجاح وبعد برتوكولات التهنئة والترحاب خرجنا جميعاً من القاعة، فتوجه البراك نحوي وسألني عن الزمن الذي سوف يحصل فيه على الشهادة، فأخبرته بأن الرسالة سوف تحال على الأكاديمية العلمية، وبدورها تحيلها على وزارة التربية والتعليم العالي، وأن موضوعه التصديق هذه تستغرق وقتاً ليس بالقصير، ربما يستغرق أكثر من شهرين، عندها كرر سؤاله التقليدي عن رغبته بالحصول على مساعدة معهد الاستشراق، واليوم يريد هذا في سرعة إنجاز التصديق على شهادته، فأخبرته بأن الأمر خرج من يد المعهد وأصبح من مسؤولية جهة علمية رسمية أخرى، عند ذلك فاجأني البراك بطرح غريب، بسؤاله عن السبب في منح الدكتور مكرم الطالباني لشهادة الدكتوراه في وقت قصير وقياسي، فأخبرته بأن أطروحة السيد مكرم الطالباني كانت علمية عن الإصلاح الزراعي وطابع وأساليب الحياة الزراعية في العراق منذ العشرينات ولغاية ثورة ١٤ تموز، ونالت الأطروحة أعجاب أساتذة المعهد لما احتوته من معلومات وبيانات إحصائية علمية دقيقة، ووجد فيها المعهد الكثير من المعلومات التي تهمة ويستفاد منها في بحوثه التي يجريها المختصون عن بلدان الشرق العربي وأنها مرت بجميع مراحل التصديق

وحسب القوانين في هذا الشأن، ولكن فاضل البراك وبشيء من الصلف، تساءل عن السبب الحقيقي وراء منح الشهادة لمكرم الطالباني في ذات يوم تخرجه، فأخبرته بخطأ معلوماته عن هذا الأمر، كون المعهد لا يمكن أن يفعل هذا مطلقاً، وقواعد عمله تركز على مناقشة البحوث والأطاريح، لتذهب جميعها بعد ذلك إلى الأكاديمية العلمية ثم يعهد أمرها إلى وزارة التعليم العالي وهي بالذات من يقرر منح الشهادة. عند ذلك قال فاضل البراك بعصبيّة ظاهرة، لن يكون لديّ شارب إن لم أمنع وزارة التعليم العراقية من المصادقة على شهادة مكرم الطالباني، فسألته عن سبب غضبه وقوله هذا فأجابني، إلا يكفي الحزب الشيوعي وأعضاؤه من نيل الشهادات والدرجات العلمية. وفعلاً فقد سألت بعد مضي وقت، عما جرى لتصديق شهادة السيد مكرم الطالباني بعد أن قدمها في العراق، فأخبرت بأن وزارة التعليم العالي تماطل في المصادقة عليها، في الوقت الذي صادقت الوزارة بعد حين على شهادة فاضل البراك خلال فترة قصيرة جداً بعد سفره إلى العراق.

من المفارقات، خلال فترة إعدادة ومناقشته لأطروحة الدكتوراه توطدت علاقته معي وبات من السهل أن يتصل بي ويطلب مساعدتي أو المشورة حتى في شؤونه الشخصية، فبعد المصادقة على شهادة الدكتوراه من قبل وزارة التعليم العالي السوفيتية كان يها تفني في بعض الأمور ومنها طلب مساعدته لشراء شقة وسيارة لصديقه الروسية، فسألته عن طبيعة علاقته بتلك الفتاة وما هي مواصفاتها، فأخبرني بأن اسمها لودا وهو تصغير لاسم لودميلا، وبأنها جميلة وطيبة ومخلصة جداً له، فأجبتة بأن ليس ليّ علاقات شخصية تؤهلني لمساعدتك، وليس مركزي الوظيفي يسمح لي بذلك. بعد ذلك قمت بإخبار غفوروف عن الموضوع، فقال لي غفوروف إن هذا البراك رغم مهامه المخبرية ووضعه وطبيعة عمله الوظيفي، فهو يبدو غيباً جداً، فهذه الفتاة نعرفها وهي تعمل لصالح المخابرات السوفيتية، فاستغربت بدوري هذا الأمر، وسألته غفوروف عن الكيفية التي عرف بها عن هذه الفتاة وعلاقتها بالبراك،

فأجابني بأن موقعه الحزبي والوظيفي يتطلبان معرفة ما يدور حولنا. وحسب ما عرفت بعد ذلك، فإن البراك قد اشترى فعلاً لعشيقته هذه شقة وسيارة، وفي ذات الفترة ذهب أيضاً إلى العراق ليتزوج من امرأة من أهالي بلدة العوجة وقد جلبها معه إلى موسكو وأقام حفلة لزواجه في أحد مطاعم العاصمة ودعاني وغفوروف لهذه الحفلة فاعتذرنا عن حضورها. وسبق له أن حدثني عند نهاية مناقشة أطروحته، عن رغبته بإهدائي سيارة كان يملكها، وذلك لما قدمته له من مساعدة في مراحل إعداده للأطروحة أو أثناء نقاشها، فشكرته على هذا الشيء وأخبرته بشكل جاد ورسمي، بأن ما قمت به وبذلته من مساعدة في ذلك الوقت، لا يعني على الإطلاق وجود علاقة شخصية بيننا أو مع الآخرين في المعهد، ونحن لسنا في العراق لتقبل الهدايا على جهود وظيفية قدمناها، فأنا كنت مكلفاً بتلك المهام، وكل ذلك تم بحضور مدير معهد الاستشراق بابا جان غفوروف.



خلال إعداد أطروحة الدكتوراه من قبل فاضل البراك أجرى الحزب الشيوعي العراقي احتفالاً بذكرى تأسيس الحزب، ووجهت دعوات من ضمنها دعوة إلى حزب البعث العربي الاشتراكي تنظيم الاتحاد السوفيتي، وعند ذلك حضر فاضل البراك ممثلاً عن حزب البعث. قبل بدء الحفل أخبرني خليل الجزائري الذي كان مسؤولاً آنذاك عن تنظيماً الحزب الشيوعي العراقي في الاتحاد السوفيتي، بحضور فاضل

البراك وطلب مني الجلوس بالقرب منه، فسألته عن السبب في طلبه هذا، وما هي الأسباب التي تتطلب مني الجلوس بالقرب من البراك، فأخبرني الجزائري بأن هذا الأمر هو مهمة حزبية أكلف بها، لذا جلست بجوار البراك ورحنا في حديث متشعب جله كان عن أطروحاته، أثناء الحفل عرضت للمزاد صورة للرفيق فهد، فأخبرني البراك بأنه سوف يشارك بالمزاد وأنه سوف يسعى لأجل الاستحواذ على صورة فهد مهما بلغ الثمن، عندها سنحت لي الفرصة لإبلاغ خليل الجزائري بهذا الأمر، وطلبت منه رفع قيمة المزادة. وفعلاً أندفع البراك برفع قيمة المزادة إلى ثمن كبير جداً أوصله في النهاية إلى مبلغ ٢٠٠ روبل في الوقت الذي كان راتب رئيس الوزراء حينذاك يبلغ ٤٠٠ روبل، جيء بالصورة فوضعها البراك جوار المنضدة، ثم نادى على السائق وطلب منه وضعها في حوض السيارة، وبفضول سألت البراك عن سبب رغبته الحصول على صورة الرفيق فهد وما سوف يفعل بها، فقال بأنه سوف يتلفها، فدهشت واستنكرت ما سوف يقوم به، فأجابني وهل تريد مني أن أقوم بدعاية خاصة للرفيق فهد بين أوساط حزب البعث.

من خلال معرفتي بفاضل البراك وجدت أن الكثير من أفعاله تبعث على الريبة، فقد استطاع بناء علاقات ليست بالبسيطة أو العابرة مع بعض رفاقنا في الحزب الشيوعي العراقي، ولوحظ تقربه ولقاءاته الكثيرة بالبعض من هؤلاء، وبالذات خليل الجزائري وحميدة سميسم.

كان فاضل البراك ومنذ بداية قدومه إلى موسكو قد وضع نصب عينيه شخصية خليل الجزائري وكان يكن له حسب ما يدعي كرها شديداً، وقد ألمح لذلك أمامي، وكانت هناك فعلاً محادثات كثيرة بين الشخصين، رغم أن تلك الفترة كانت فترة الجبهة الوطنية بين البعث وحزبنا الشيوعي. بعد فترة ليست بالقصيرة أخبرني بعض الرفاق في المنظمة الحزبية برؤيتهم لفاضل البراك جالسا في أحد مطاعم العاصمة مع

خليل الجزائري، عندها سألت خليل الجزائري عن تلك الجلسة، فأخبرني بأن فاضل البراك قد دعاه على وجبة طعام فلبى دعوته، ودار الحديث بينهما عن طبيعة العلاقة بين الحزبين، والتطورات السياسية في العراق، وسألت فاضل البراك عن تلك الدعوة، فأخبرني بأنه أراد منها أن يكسر جناح خليل الجزائري ونعته بالسافل. بعد تلك الجلسة راح خليل الجزائري يتقرب من البراك ويدخل ويخرج من السفارة العراقية، ثم خرج من تنظيمات الحزب الشيوعي وسافر إلى براغ وهناك عمل مع مجموعة النهج، ثم سافر إلى بغداد وشكل هناك مع خالد السلام وماجد عبد الرضا مجموعة أراد حزب البعث تسويقها، بديلاً عن الحزب الشيوعي، ولكن بعد مقتل فاضل البراك وصف صدام حسين هذه المجموعة من نتائج العلاقة مع فاضل البراك ومن عوائده وخاصته. ومثلما أطاح البراك بخليل الجزائري وجعله عميلاً لحزب البعث، استطاع الوصول إلى حميدة سميسم وضمها إلى خائنه. كانت شخصية حميدة ضعيفة متملقة وصولية، لذا فهي بالذات من بادر بالتعرف والتقرب من فاضل البراك داخل الملحقية العسكرية العراقية في موسكو، وكان من نتائج تلك العلاقة أنها وبعد رجوعها إلى بغداد، فقد عملت مباشرة مديرة لمكتب فاضل البراك، حين أصبح رئيساً لجهاز الأمن العام، واعتقلت حميدة سميسم لفترة بعد أن أقيل البراك ثم أعدم.

أيضاً فإن كتاب فاضل البراك عن شخصية القائد الكردي السيد مصطفى البارزاني قد استقى المعلومات التي جاءت فيه عبر علاقته، التي بناها مع الشخصية الكردية عز الدين رسول، والبراك هو من جعل عز الدين رسول أحد المقربين من أحمد حسن البكر.

بعد حصول فاضل البراك على شهادة الدكتوراه وتصديقها من قبل وزارة التربية والتعليم العراقية، لم يستمر البراك في وظيفته كمعاون للملحق العسكري العراقي في موسكو ونقل بعد ثلاثة أشهر إلى بغداد، ليعين مديراً لجهاز الأمن العام العراقي.

من هو فاضل البراك

ولد فاضل البراك في مدينة بيجي العام ١٩٤٢ وأكمل دراسته الثانوية في تكريت العام ١٩٦٠ ودخل الكلية العسكرية، بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ منح البراك رتبة نقيب وألحق في حماية الرئيس احمد حسن البكر، ثم بعد خلافه مع زوجة البكر، نسبه صدام في حماية مقر الإذاعة والتلفزيون في منطقة الصالحية، بعد فترة تم تعيينه معاوناً للملحق العسكري العراقي في موسكو، ومسؤولاً عن تنظيمات البعث في الاتحاد السوفيتي، في العام ١٩٧٦ عاد البراك إلى بغداد بعد حصوله على الدكتوراه من معهد الاستشراق السوفيتي، وعين مديراً للأمن العام وعضواً في المكتب العسكري لحزب البعث. كان للبراك الدور الكبير في انقلاب وردة حزب البعث عن الجبهة الوطنية، وقيامه بقيادة الهجمة الشرسة على الحزب الشيوعي العراقي، وقتله وتشريده للعديد من أعضاء الحزب. وبعد فترة طويلة من عمله الوظيفي ألقى القبض عليه واقتيد إلى مبنى الحاكمية في شارع ٥٢ ببغداد، ووجهت إليه تهمتان، الأولى بوصفه جاسوساً لألمانيا الشرقية والاتحاد السوفيتي، والتهمة الثانية: إثراؤه غير المشروع، والحصول على عمولات من تجار ورجال أعمال، أمضى البراك عامين في السجن وأصيب بالشلل ومن ثم أعدم نهاية عام ١٩٩٣.

(١٣)

صالح مهدي عماش سفيراً للعراق في موسكو



في أحد أيام عملي في معهد الاستشراق اتصل بيّ مدير المعهد السيد غفوروف وأخبرني بوصول نائب رئيس الجمهورية ووزير داخلية العراق السيد صالح مهدي عماش صباح اليوم إلى موسكو، وقد طلب عماش مباشرة بعد وصوله الحضور إلى معهد الاستشراق، ولذا هاتفتني المدير وطلب حضوري فوراً إلى المعهد لمناقشة أمر السيد صالح مهدي عماش.

حين حضوري سألت مدير المعهد عن سبب الطلب المستعجل والسريع للسيد صالح عماش وبالذات لمقابلتك شخصياً، فأجابني بأنه على علاقة شخصية سابقة بالسيد عماش، ونشأت تلك العلاقة حين زار غفوروف العراق على رأس وفد لجنة التضامن الأفرو آسيوي لمقابلة المسؤولين العراقيين، وكانت للوفد مقابلات ونقاشات كثيرة مع الساسة العراقيين ومنهم السيد عماش، كذلك فغفوروف يعتقد بأن صالح مهدي عماش لديه رسالة يريد تمريرها إلى القيادة السوفيتية عبر المعهد، بعد أن تسربت قبل قليل أنباء عن عزله من مناصبه كنائب لرئيس الجمهورية ووزير للداخلية وتعيينه سفيراً للعراق في موسكو، وسألني السيد غفوروف عن رأيي في هذا الشأن، فأجبت به بأهمية الأمر وضرورة استجلاء الوضع ومعرفة حيثيات ما حدث، لما لها من خطورة

وتأثير في طبيعة الحراك السياسي في العراق.

عندها أخبرني السيد غفوروف بعدم استطاعته استقبال السيد عماش بصفة رسمية كون مرسوم تعيينه كسفير لجمهورية العراق في موسكو لم يصدر بعد بشكل رسمي، في هذه الأثناء طلب مني الخروج من الغرفة كي يتصل بالخارجية وجهاز المخابرات السوفيتي، ليخبرهم باللقاء المرتقب ويستوضح منهم الجوانب الموجب اتخاذها في هذا اللقاء، وكان ذلك الاتصال وبحكم السياسة المتبعة، يتطلب السرية، لذا لا يمكن إجراء بحضوري، بعد ذلك عدت إلى الغرفة فأخبرني غفوروف بأن الجهات العليا وافقت على المقابلة، على أن أخبر السيد عماش بأن المقابلة خارج برتوكولات العمل الرسمي، كونه لم يقدم بعد أوراق اعتماده سفيراً لجمهورية العراق، وكان وصول السيد صالح مهدي عماش إلى موسكو وعلى متن طائرة عراقية خاصة، مفاجئة غير متوقعة لدى الجهات الرسمية السوفيتية.

بعد ذلك طلب مدير المعهد السيد غفوروف من السيد سعيد كاميلوف الاتصال بالسفارة العراقية وأخبار السيد عماش بأن مدير المعهد ينتظر حضوره. ووجه مدير المعهد كلامه لي طالبا مني عدم الخروج من الغرفة لاستقبال السيد عماش حين حضوره، وكذلك عليّ الجلوس والاستماع للحديث من دون تدخل أو تعليق، وكانت تلك عادة اتبعناها حين المقابلات الرسمية، حيث أجلس أنا مستمعاً ثم بعد انتهاء اللقاء نجلس أنا والسيد غفوروف لمناقشة ما دار من حديث وهو دائماً ما كان يطلب رأيي الشخصي في تلك اللقاءات ووقائع ما دار فيها، وقد أسرني السيد غفوروف بأنه يسعى من مقابلة صالح عماش للحصول على معلومات واضحة ودقيقة عن الذي يجري في العراق وبالذات بين صفوف حزب البعث.

جاء صالح مهدي عماش بمشيته العسكرية الموحية بحيوية ونشاط وجسد قوي، دخل الغرفة وصافح غفوروف وكذلك سعيد كاميلوف ومن ثم صافحني، وبدأ

حديثاً ودياً مع السيد غفوروف، بعدها سأله غفوروف عن سبب قدومه إلى موسكو، فراح عماش يروي السبب في مجيئه، شارحاً بالتفصيل ما حدث قائلاً، البارحة مساءً أخبرت بأن هناك دعوة لي على العشاء من قبل النائب صدام حسين في مطعم فاروق في المنصور، فسألت عن المناسبة لمثل هذه الدعوة، فلم أحصل على جواب، بعدها ذهبت إلى هناك بصفتي نائباً لرئيس الجمهورية، فوجدت أمامي السيد عبد الكريم الشيخلي، الذي سبقني بالحضور وأخبرني بأنه مثلي مدعو كضيف على العشاء عند الرفيق صدام حسين، جاء صدام حسين فجلسنا ثلاثتنا نتناول العشاء ودار بيننا حديثاً عاماً حول الأوضاع العامة في العراق، ولم نتطرق طيلة العشاء إلى حديث خارج سياق ذلك، قاربت الساعة الثانية عشرة ليلاً عندها ومن دون مقدمات استدار صدام نحوي قائلاً: رفيق أبو هدى لقد تقرر تعيينك سفيراً للعراق في الاتحاد السوفيتي، أما أنت رفيق عبد الكريم فقد تقرر تعيينك مندوباً للعراق في الأمم المتحدة. سألت الرفيق صدام عن السبب لمثل هذا القرار فلم يجيني سوى بجملة واحدة قائلاً، أمامك للتهيؤ والسفر إلى موسكو ساعة واحدة من الآن، وامتنع عن الرد على تساؤلي وتساؤل الرفيق عبد الكريم الشيخلي، عن نوع وسبب القرار وكيفية صدوره ومتى، وقال وبشكل حاسم بأن عليكم السفر خلال ساعة من الآن. وفجأة نهض وأخبرنا بأن هناك سيارة تنتظرنا سوف تقلنا إلى بيوتنا لتجهيز حقائب السفر ثم تأخذنا إلى المطار، بعد ذلك خرج وتركنا في حيرة من أمرنا ولم نصح من المفاجأة، إلا حين جاء المرافقون ليخبرونا بضرورة التحرك وتنفيذ أمر الرفيق صدام حسين، ذهبنا إلى بيوتنا تحت حراسة مشددة ومن هناك إلى المطار حيث أقلتني الطائرة إلى موسكو مباشرة دون أن أحصل على أي تفسير لأسباب ما جرى. وحين وصلت لم أجد مرسوماً أو كتاباً رسمياً يشير لتعييني سفيراً في موسكو.

بعد ذلك بدا بسيل من السباب والشتائم المقذعة والطعون الشخصية الموجهة لصدام حسين، عندها قاطعه السيد بابا جان غفوروف ليذكره بأنه جزء من السلطة في

العراق وعليه عدم النسيان بأنه سوف يكون ممثلاً للدبلوماسية العراقية بصفتها سفيرا لها، وكل ما ينطق به له حسابات خاصة، والذي يشتمه هو نائب لرئيس الجمهورية العراقية وأنه أي عمّاش ممثل له وكذلك للدولة العراقية. بدا حديث السيد غفوروف وكأنه أثار واستفز السيد صالح عمّاش، لذا قال إن مثل هذا الأمر لا يعني له شيئاً ولا يؤثر فيه، وراح مرة أخرى في موجة جديدة من الشتائم لصدام حسين. بعد ذلك أخبره غفوروف بأن لقاءهما هذا لا يحمل أي صفة رسمية وأن موافقته على اللقاء كانت شخصية، ولكن ما دار من حديث بينهم سوف ينقله بأمانة إلى الجهات الرسمية السوفيتية العليا، فوافقه صالح عمّاش على ذلك. وكان واضحاً إن هذا الأمر هو ما سعى إليه صالح عمّاش وهو إخبار القيادة السوفيتية وإطلاعها على مجريات ووقائع الأحداث في العراق.

في نهاية المقابلة قدمني السيد غفوروف لصالح مهدي عمّاش باسمي وصفتي كموظف في المعهد. عندها طالعني عمّاش بنظرات غاضبة قائلاً أليس أنت المحكوم بالإعدام في العراق بسبب جرائمك. فأجبتة بنعم فقال: لو أننا التقينا في مكان آخر لكان لي معك حديثاً يختلف كلياً عن الآن، فأجبتة بأن ذلك صحيح وسوف يحدث ذلك من جانبي أيضاً. وقبل أن يخرج من مكتب غفوروف طلب مني مرافقته فاعتذرت معللاً ذلك بطبيعة وظيفتي في المعهد التي تمنع الأحاديث الشخصية الخاصة. وبعد هذا اللقاء جلست والسيد غفوروف لمناقشة ما دار فيه، فكنا على اتفاق كامل بأن ما حدث هو إقصاء للسيد عمّاش عن مراكز القيادة وعزله ووضع خارج معادلة السلطة.

بعد مضي أسبوع أنجزت مراسيم تعيين عمّاش سفيرا لجمهورية العراق في موسكو، رن هاتف استعلامات المعهد وطلب السيد صالح مهدي عمّاش مقابلة مدير المعهد السيد غفوروف مرة أخرى. ومثلما المقابلة السابقة تكرر الحديث السابق ولكن عمّاش توعد هذه المرة بأخذ استحقاقه والثأر من صدام حسين شخصياً، عندها حذره

غفوروف من تلك اللعبة الخطرة، فمن الممكن لمجموعة صدام حسين أن ترصده ثم تغتاله. فمثل هذا الكلام والتهديد ربما يصل إلى صدام حسين، عندها سوف يوجه رجاله للعمل على اغتياله، ونحن نعرف جيدا بأن لصدام أيادي كثيرة ومنها داخل سفارة العراق، بالرغم من إن لنا قدرة على منع حدوث مثل هذا في الاتحاد السوفيتي كونك تحت حمايتنا. ولكني كسياسي ومطلع على خفايا السياسة في العراق أنبهك لهذا وأرجو ولمصلحتك أن تحد من تسرعك وشتائمك وتهديداتك، ولكن السيد صالح مهدي عماش كان دائما متهاديا في شتائمه وتهديداته ويعتقد جازما بأنه قادر على تحدي قوة صدام والعودة إلى العراق وأخذ الثأر منه، وكان يردد على ألسنا، بأنه شخصا والرئيس البكر من الجناح العسكري الذي نفذ مهام ثورة ١٧ تموز، واليوم يجد أن صدام يعمل بالضد من هذا الجناح، متناسيا بأن من جاء به إلى السلطة هو هذا الجناح، أي هو والرئيس البكر. وإن من يطيح به ويبعده عن الحكم هو الجناح العسكري هذا وليس غيره، وكان في حديثه يحمل نبرة ثقة كبيرة بانتصار جناحه والبكر في نهاية المطاف، وأن صعود صدام حسين ظاهرة خارج سياقات العمل السياسي والعسكري الرصين.

كان السيد صالح مهدي عماش رجل دولة وعسكريا من الطراز الأول وموظفا شديد المراس، دقيقا ومهنيا، لذا غير كثيرا في أوضاع السفارة العراقية وعمل موظفيها، فكان صعبا في تعامله وأسلوب عمله، وفرض على موظفيه إعداد تقرير شهري عن عمل كل واحد منهم. وكانوا جميعا يخشونه أيما خشية، لذا ينفذون أوامره بحرفية. وكان يشرف بنفسه يوميا على عمل السفارة، إضافة لممارسته الرياضة اليومية.

في إحدى المرات تطرق غفوروف في حديثه عن شخصية مساعد الملحق العسكري في السفارة العراقية فاضل البراك وتساءل عن طبيعة علاقة عماش به، فأجابه صالح عماش بأن علاقتهما متوترة ووصفه بصفات سيئة وشتمه واتهمه بكونه جاسوسا

لصالح صدام حسين ولا عمل له في السفارة، غير جمع المعلومات عن أعضاء السفارة وكتابة التقارير المنيئة عنهم وكذلك ممارسة ذات العمل مع الطلبة العراقيين ومنهم ٢٣٠٠ عسكري يتدربون في المعاهد السوفيتية وينتشرون في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي وخاصة الجمهوريات الجنوبية منه.

نشط صالح عماش بشكل كبير كسفير للعراق وراح في حراك متسارع لعقد الصداقات وتوطيدها مع المسؤولين وكذلك مع أدباء وفنانين سوفيت. وكان دائما ما يوجه لأغلب هؤلاء دعوات عشاء داخل السفارة العراقية، ويكرر ذلك بين فترة وأخرى. وبعد أن تعرف على موسكو ومعالمها ومن بينها المطاعم الفاخرة، أخذ يقيم تلك الولائم في البعض منها. وكانت علاقاته مع المسؤولين السوفيت مهنية وجيدة، وأي خلاف أو إشكال يحدث يتم حله بسهولة ويعود السبب في هذا لارتباطه المباشر بالرئيس العراقي أحمد حسن البكر الذي حرص دائما على تسهيل المهام وحسم المشكلات وخاصة في مجالات التعاملات الاقتصادية والعسكرية، ولم يكن ليولي اهتماما في جلب أسرته إلى موسكو. وفي إحدى المرات، حين سأل عن سبب عزوفه عن ذلك، برر الأمر بأنه يتعلق بترقبه العودة القريبة إلى بغداد، وهذا ما اتفق عليه مع الرئيس أحمد حسن البكر مثلما أسر غفوروف بذلك. وفي مرة من المرات جلب زوجته في زيارة إلى موسكو، ولكنه بدا وكأنه ليس حريصا على بقائها. فلم يكن يحتاج لها في موسكو، فهو زير نساء بامتياز، وكان يذهب يوميا إلى المطاعم كي يجالس الفتيات ويتناول الخمر، ولم يكن ليبخل على النوادل بالنقود ليكسب ودهم ويجعلهم حريصين على تلبية طلباته بتوفير الأماكن البارزة والقريبة من فسحة الرقص. ولم يكن ليبقى في السفارة أو دار السكن بعد نهاية الدوام، ودائما ما شوهد يتجول في العاصمة موسكو وفي الأخير يختار له مطعما يقضي فيه أمسيته

في إحدى زيارته إلى معهد الاستشراق والتي كان يحرص على تكرارها بين فترة

وأخرى، تحدث عماش عن إعجابه الشديد بالعاصمة موسكو ورغبته الكتابة عن جمالها وطبيعتها الخلابة وأبنيتها التاريخية وأنه سوف ينقل في كتاب يعده مشاهداته عن معالم العاصمة. أستحسن غفوروف رغبته تلك ووعدته بالمساعدة بعد أن بادر عماش بالقول بأنه لا يملك مصادر تساعد على إنجاز المطبوع، وهو لا يرغب تضمينه موضوعات سياسية. شجعه غفوروف وحثه على إنجازها بأسرع وقت وإن المعهد يدعم هذا التوجه وبالذات حين يصدر عن دبلوماسيين غير سوفيت، ومن سفير دولة صديقة، والمعهد لديه رغبة في التعرف على مضمون ومحتوى الكتاب والمفاهيم التي ينطلق منها في رؤيته لعاصمتنا عند صدوره.

مضت ثلاثة أشهر جاء بعدها السيد السفير صالح عماش يحمل فصلا من كتابه المنوي طباعته، وقد عرضه على مدير المعهد السيد غفوروف وخلال أيام تم الاطلاع على ما دونه عماش فوجد بأنه يخلو من المعلومات الدقيقة وقد كتب بعيدا عن التقرير الصحفي أو المنجز البحثي، والطريقة الأدبية التي كتب فيها، تحتاج إلى الكثير من التعديلات، يضاف لذلك افتقار بعض الملاحظات للدقة والموضوعية. فحديث عماش عن أحياء وساحات وأبنية ومترو موسكو كان يفتقر للكثير من المعلومة الصحيحة والدقيقة. فقد أخذ الجانب الوصفي للمكان دون البحث في تأريخه وتشكيله المعماري وأهميته. فمحطات مترو موسكو تعد من أجمل وأروع محطات العالم وهي متحف فاخر لما تحويه من تماثيل ورسوم وزخرفة، وكتابة عماش عن هذا المترو افتقرت لمعلومات مهمة عن تأريخ إنشاء هذا المترو والتوسعات التي حدثت فيه والكيفية والمراحل والأعمال التي وفقها تم إنجازها، والعدد اليومي للبشر الذين يستقلونه في تنقلاتهم، ومعلومات عديدة أخرى كان من الموجب إضافتها لو أريد النجاح للكتاب وإظهاره بطابع فني ومهني يليق باستعراض لعاصمة كبرى من عواصم العالم. وملاحظات المعهد وبالذات السيد غفوروف صبت في هذا الجانب وقدمت للسيد عماش بالكامل.

عندها أبدى عماش رغبته بأن يتدخل المعهد في إنجاز الكتاب من خلال الإرشاد حول طريقة الكتابة وتدقيق المعلومة. ولكن السيد غفوروف طلب من صالح عماش القيام بإكمال الكتاب وتقديمه إلى المعهد كاملاً للاطلاع عليه وتدقيقه وتدوين الملاحظات حوله وتنقيحه. وبعد أن أنجز السيد صالح مهدي عماش مسودة كتابه جاء وسلمها إلى السيد غفوروف، الذي بدوره كلفني والسيد سعيد كاميلوف بقراءة المسودة وتنقيحها وتقديم ملاحظاتها حولها. وبدورنا قمنا بذلك ووجدنا فيما كتبه الرجل الكثير من المعلومات غير الدقيقة والناقصة وبالذات التاريخية منها عن الصرح والأبنية، وكذلك حول الشخصيات. وبعد فترة زمنية ليست بالقصيرة أعدنا كتابة بعض الفقرات وتصويب المعلومات. وكانت رغبتنا ودوافعنا في ذلك تصب في محاولة لإخراج الكتاب بشكل جيد وموثق بالمعلومة الدقيقة عن موسكو. ولكون عماش قد أخبرنا بأن الكتاب سوف يطبع في العراق فأردناه أن يظهر بحلة تليق بتلك العاصمة وتظهرها على حقيقتها التاريخية والجمالية أمام القارئ غير السوفيتي. وسبق للسيد عماش أن أبدى رغبته بطباعة كتابه في مطابع وكالة نوفوستي أو إحدى دور النشر السوفيتية فقدمت له معلومة عن كون المعهد لا يشارك في مثل تلك الأعمال، وإنه يختص فقط بطبع البحوث الخاصة بالمعهد دون سواها، وليس لديه الاستعداد للمساعدة في طباعة كتب خاصة بأشخاص من خارج المعهد، والمعهد يتعامل مع أي كتاب فقط من خلال وجوده في مكتبة المعهد.

بعد أكمال التدقيق والإضافات والتعديلات على مسودة الكتاب سلمت للسيد صالح عماش الذي لم يبد أي اعتراض على الذي أجريناه من تغييرات لا بل فرح أيما فرح. وقد عرفنا قبل هذا وبطرقنا الخاصة رغبة السيد عماش الملحة لإصدار هذا الكتاب عن موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي كمحاولة منه التمويه أو أبعاد الشبهات العالقة بشخصه، والتي تدور حول علاقته بالمخابرات المركزية الأمريكية، التي أشيعت، مذ كان ملحقا عسكريا بسفارة العراق في الولايات المتحدة الأمريكية. ودائما

ما كانت الأوساط السياسية السوفيتية تنظر نحو عمّاش برية وتشير لتلك العلاقة المشبوهة، ويظهر أنها كانت تتابع وترصد علاقته بالمخابرات الأمريكية وتمتلك دون شك المعلومة عنه. وفي مثل تلك الحالات لن تسرب المخابرات السوفيتية معلومة أن لم يكن لها جانب كبير من الصحة.

عندما استلم عمّاش المسودة كاملة مع التعديلات فاجأنا بقبوله المباشر على ما أجريناه من تعديلات وقال بأنه سوف يأخذ الكتاب معه في وقت قريب إلى بغداد ويعمل على أنجاز طباعته، فأخبره السيد غفوروف بضرورة أخذ الكتاب وتدقيق ما أحدث فيه من إضافات أقترحها المعهد ومن ثم إعطاء رأيه ولكن عمّاش بدا مصرا على قوله الأول. وبعد فترة زمنية أخذ كتابه وذهب إلى بغداد وقدمه إلى شخص وزير الثقافة آنذاك السيد طارق عزيز الذي وافق على طباعته وتولت وزارة الثقافة الطباعة.

صدر الكتاب بعنوانه الجميل (موسكو عاصمة الثلوج) فكان لظهوره صدا طيبا بين أوساط الإعلاميين والمثقفين وحتى الدبلوماسيين في العراق والعالم العربي، وكذلك بين أوساط الأحزاب الشيوعية العربية التي كانت أدبياتها تفتقر لمثل هذا الكتاب بمعلوماته وصياغة جملة ووصفه لجمال موسكو. ولم تكن هناك إصدارات تماثله سبق وأن قدمتها وكالة نوفوستي التي أصدرت العديد من الكتب والنشرات عن مدينة موسكو ولم تصل في محتوياتها لما جاء في كتاب صالح مهدي عمّاش موسكو عاصمة الثلوج.

وبعد أن صدر الكتاب جاء السيد عمّاش حاملا مجموعة كبيرة من النسخ قدم للمعهد أعداد منها، فقام المعهد بدوره ووزعها على المكتبات العامة. كذلك قام السيد عمّاش بتوزيع العديد من نسخ كتابه على الوزارات والمؤسسات والاتحادات والنقابات وكذلك شمل التوزيع مؤسسة التضامن الأفرو آسيوي واتحاد الكتاب السوفيت والمجلات الأدبية وأرسله أيضا إلى شخصيات ومكتبات في جمهوريات

الاتحاد السوفيتي وخاصة الجنوبية منها. كان الكتاب ونشره وتوزيعه على جميع تلك المؤسسات والشخصيات العامة منفذاً ومتنفساً للسيد عماش ومحاولة للبروز بين أوساط المجتمع السوفيتي. ولكنه لم يكن على دراية بطبيعة التركيبة المجتمعية والتأثير السياسي على تلك المؤسسات والشخصيات، فليس من السهولة في الاتحاد السوفيتي أن ينال أحد رضا المجتمع ويكسب التقدير وينال الشهرة إن لم تقف خلفه مؤسسة أو واحدة من أجهزة السلطة والحزب العليا، ولم يظهر أو يسطع نجم أديب أو فنان أو عالم ويحتل مكانة مرموقة في المجتمع السوفيتي دون أن يحظى بموافقة الأجهزة السلطوية أو الحزبية المتنفذة.

كان السيد عماش سعيداً جداً بظهور كتابه وسماع الانطباعات الحسنة والإطراء حول محتواه وعرضه لجوانب وطبيعة الحياة لمدينة موسكو، وأزداد فرحاً حين علم بأن كتابه قد نفذ من الأسواق ولذا فكر مباشرة بإعادة طباعته، وفعلاً لم يألو جهداً لذلك، وفي أقرب فرصة ذهب إلى بغداد واستطاع إعادة طبع الكتاب مرة ثانية. وبعد أن شعر بلذة النجاح، انفتحت شهيته ففكر بطبع كتابه مرة ثالثة وذهب إلى بغداد لهذا الغرض، ولكنه عاد أدراجه إلى موسكو هذه المرة منزعجاً ومتطيراً ومتوتراً جداً وقد أفصح عن ذلك حين سألناه في زيارته إلى معهد الاستشراق عن نتائج زيارته الأخيرة إلى بغداد، فبدأ بشتم صدام حسين، وقال بأنه قابل طارق عزيز، فأخبره الأخير، بأن صدام حسين قد أرسل بطلبه وسأله عن الذي سمح له بأمر طباعة كتاب صالح مهدي عماش موسكو عاصمة الثلوج ووبخه وأمره بمنع إعادة طبع الكتاب مرة أخرى، وعليه أن يخبره في القادم من الأيام بأي موضوع تتعلق بصالح مهدي عماش. كان هذا الأمر صدمة حقيقية للسيد عماش لم يستطع هضمها بسهولة فراح ينفس عنها أمامنا بموجة عارمة من سباب مقذع وشتائم ووعيد لصدام حسين.

في أحد المرات وبعد أن توطدت العلاقة بيننا وأصبحت زيارته إلى معهد الاستشراق

شبه روتينية أخبرني السيد صالح مهدي عماش بأنه وجد صلة شخصية بأحد أعضاء لجنة التضامن الأفرو آسيوي وهو السيد أناتولي سفرونوف الذي كان يرأس تحرير مجلة أكنيوك وهو شخصية إعلامية مشهورة على مستوى الاتحاد السوفيتي، وقد تحدث معه حول كتابه عن موسكو وتداول معه في بعض شؤون الأدب ومنها الشعر، الذي كان السيد عماش يعد نفسه واحدا من شعراء العراق المهمين ويشير في بعض الجلسات واللقاءات الأدبية إلى مديح وإطراء وإشادة بشعره صدر عن الشاعر محمد مهدي الجواهري. وفي ذلك اللقاء والمحادثة مع السيد أناتولي سفرونوف عرض عماش بعض قصائده الشعرية وهي قصائد محاورها مجالات حياتية مختلفة، اتصل السيد سفرونوف بمدير معهد الاستشراق السيد بابا جان غفوروب مستفسرا عن شخصية السيد صالح عماش الأدبية، وطلب رأيه فيما يكتب من شعر. كان رأي السيد غفوروب ايجابيا وأشار على رئيس تحرير مجلة أكنيوك بضرورة نشر بعض القصائد الشعرية التي يكتبها صالح مهدي عماش ملحق مجلة أكنيوك. عند ذلك استدعى رئيس التحرير السيد سفرونوف مجموعة من المترجمين، عملوا على ترجمة بعض أعمال السيد عماش الشعرية، ونشرت في الملحق الشهري لمجلة أكنيوك. كانت تلك المجلة تصدر بأربع ملايين نسخة ويصدر عنها ملحقا شهريا يطبع بما يقارب المائة ألف نسخة، ومثلما جرى مع محمود درويش، فقد صدر الملحق الشهري حاويا أشعار السيد عماش. حينذاك ارتفعت معنويات السيد عماش ووصلت إلى الذروة وشعر بالفخر ووضع نفسه بمصاف شعراء العرب الكبار.

(١٤)

آما آتا المحطة الأولى لمهرجان الفارابي

في حقيقة الأمر فإن السيد صالح مهدي عماش كان قد قدم نفسه إلى المجتمع الروسي كونه أديبا أكثر مما هو دبلوماسيا وسفيرا لبلاده، فكان يجذب دائما الاختلاط بجمهرة الأدباء السوفييت ويدخل معهم في نقاشات كثيرة حول الأدب والشعر. وعندما بدأنا الإعداد لمهرجان الفارابي، نشط عماش وكان فاعلا وإيجابيا، ويذهب بعيدا في نقاشاته وأسئلته ويحاول معرفة المعلومة الدقيقة عن المهرجان، إن كان ذلك أثناء علاقة التحضير للمهرجان مع معهد الاستشراق في بادئ الأمر، أو مع أكاديمية العلوم السوفيتية التي تبنت لاحقا وبشكل كامل التحضير والإعداد للمهرجان. وقاد السيد عماش الوفد العراقي الذي حضر المهرجان الذي جرى في آما آتا عاصمة جمهورية كازاخستان السوفيتية.

ففي أحد الأيام اتصل صالح مهدي عماش بمعهد الاستشراق طالبا لقاءً مستعجلا مع مدير المعهد السيد غفوروف، وحين جاء دخل غرفة المدير وتحدث بعجالة وقوة مشيرا إلى كون شاه إيران يسعى لإقامة مهرجان بالذكرى الألفية للعالم والفيلسوف الفارابي، ويطلق عليه تسمية العالم الفارسي، وهذا لن نرتضيه ولن نوافق عليه فنحن أحق من غيرنا بهذا الرجل العالم وهو عالم عربي في كل الأحوال، لكون بحوثه باللغة العربية وليس غيرها. ولن ندع شاه إيران يختطفه منا، ولذا أطلب من الجهات السوفيتية العمل على منع الشاه القيام بذلك وتبني موقف الجمهورية العراقية ومساعدتها على إقامة المهرجان الذي استعدت له وزارة الثقافة العراقية. وعرض عماش على غفوروف تسهيلات كثيرة في حالة تقديم السوفييت المساعدة على إقامة المهرجان، وقدم عدة مقترحات منها توفير خط طيران خاص لنقل أي وفد سوفيتي وأجنبي يرغب المشاركة

في المهرجان، وأية تسهيلات ومطالب أخرى يرغب بها أو يقدمها الجانب السوفيتي، بشرط أن يقام المهرجان في بغداد وباسم العراق وبمشاركة واسعة للاتحاد السوفيتي. وقدم اقتراح بأن من المناسب أن يعقد المهرجان وبنفس التوقيت في بغداد وأيضا في موسكو دون غيرهما. ولكن غفوروف استغل طبيعة طرح صالح عماش فأضاف على المقترح شرط آخر بقوله بأن المهرجان سوف يعقد في بغداد وموسكو وألماتا عاصمة كازاخستان وتحت اسم الفارابي فيلسوف الشرق. وأضاف بأن المسألة تحتاج لموافقة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. وجاءت الموافقة بعد ذلك بما أملاه السيد غفوروف.

آلما آتا عاصمة كازاخستان

لم تكن هناك أية لقاءات بمعنى مفاوضات بين الجانب العراقي والسوفيتي الذي مثلته حين ذهبت إلى بغداد، وحين عدت إلى موسكو، ومن ثم عند قدوم الوفد العراقي إلى آلما آتا، فالوفد العراقي الذي ترأسه صالح مهدي عماش وعضوية الشاعر محمد جميل شلش والروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي، كان قد وجد كل شيء جاهزا ومعدا من قبل السوفييت، لذا قدم موافقته كاملة على جميع ما عرض عليه، وهذا ما أخبرني به السيد محمد جميل شلش وأعتبر إن حضوره وباقي الوفد ليس سوى تنفيذ لبروتوكولات رسمية ليس إلا.

ترأس الوفد العراقي السفير السيد صالح مهدي عماش وقد أستقبل بشكل رسمي في المطار من قبل الدبلوماسيين الكازاخستانيين ونقل الوفد إلى الفندق حسب البروتوكولات المعدة. ولم يمض على وجود الوفد في الفندق سوى وقت قصير حين جاء من يخبرني بأن السيد صالح مهدي عماش يبحث عني، فدهشت لذلك، وذهبت حيث غرفته فوجدته وسط الممر مرتبكا متوترا، وفاجأني بسؤال غريب، خليل من أكون أنا، فأجبتته بأنك رئيس الوفد العراقي لمهرجان الفارابي فقال، حسنا تعال معي

حيث الغرفة، فذهبنا سوية ودخلنا الغرفة، عندها قال بعتاب ظاهر هل من المعقول ذلك، أنا رئيس وفد العراق يضعوني في هذه الغرفة الضيقة، أيعقل هذا. كانت الغرفة عادية في كل شيء مثل باقي غرف الفندق، لذا قلت له لا أعتقد أن الغرفة ذات أهمية، فنحن لن نبقى في الفندق سوى ثلاثة أيام، فقال بعصبيته المعهودة، أنا رئيس وفد وسوف استقبل رؤساء وأعضاء وفود فكيف يتسنى لي استقبالهم في مثل هذه الغرفة. وأصر عماش على منحه غرفة خاصة تليق برئاسته لوفد العراق. شعرت بالإحراج والحيرة من أمري ولم أجد حلاً لهذا سوى الذهاب إلى استعلامات الفندق والحديث معهم في محاولة لاستبدال الغرفة بأخرى أوسع. ولكن استعلامات الفندق أخبروني بشكل جازم بأن أمر توزيع الضيوف على غرف الفندق لم يكن من اختصاص موظفي الفندق وإدارته، فهناك لجنة خاصة أشرفت على ذلك التوزيع. فسألتهم عن اللجنة وكيفية الوصول لها ومقابلتها فأنكروا معرفتهم باللجنة وطبيعة عملها. ذهبت أبحث عن السيد غفوروف لاستشارته ولعله يساعدني في حل هذا الإشكال. فوجدته قد ذهب لمقابلة رئيس جمهورية كازاخستان. فعدت أدراجي إلى غرفة صالح عماش فوجدته في حالة حق وضجر وأصر على عدم بقاءه في هذه الغرفة وقال بأنه سوف يهبط إلى صالة الفندق ويجلس هناك حتى الصباح. ومع ما وجدته من إصرار قررت أن أخذه إلى غرفتي وأمنحه إياها، وبحماس وسرعة رفع حقيته وجاء معي ليدخل غرفتي ويحتلها، وكانت الغرفة واسعة قدمت لي كوني عضواً في اللجنة التحضيرية للمهرجان. وبدوري انتقلت إلى غرفته راضياً بالذي فعلته.

صباح اليوم التالي وعند وقت الفطور جلست عند إحدى الطاولات أتناول فطوري وإذا بأحد الرجال يطلب مني المجيء معه، فأخبرته بأني على استعداد لذلك، ولكن بعد إنهاء فطوري، ولكنه وبشكل أمر أخبرني بوجود الذهاب معه الآن دون أبطاء، عندها سألته من يكون وعن الجهة التي ينتمي لها فقال بلغة جافة، بأنه سوف يخبرني بذلك لو ذهبت معه الآن ودون تأخير لكون الأمر مهم جداً. ذهبت معه ودخلنا غرفة

مجاورة لاستعلامات الفندق وكان هناك رجل يجلس خلف منضدة عريضة وجه لي كلامه بصيغة رفيق وطلب مني الجلوس. ثم بادرنى بالكلام. رفيق هل أنت مخول بإبدال غرفة صالح مهدي عماش بغرفة منحت لك؟، فأجبت أنه اعتقد ذلك فأنا حتما مخول بالغرفة التي منحت لي، فأجابني، كلا يا رفيق فنحن فقط المخولون فيما يجري ويحدث في الفندق ومنها التصرف بالغرف. وأنت لا تملك أي حق بمنح غرفتك إلى رئيس الوفد العراقي. فأجبت أنه بأي عضو الوفد السوفيتي وكذلك لجنة التحضير للمهرجان وأعتقد بان ما قمت به لا يؤثر في طبيعة عمل اللجنة أو أعمال المهرجان. فقال الرجل كلا رفيقي وعليك أن تعلم بأن ما فعلته كان فيه الشيء الكثير من الإشكال لنا، وقد فاجأنا، وأنت في هذا قد ارتكبت خطأ كبيرا، نرجو أن لا يتكرر مثله مستقبلا. وضع في بالك بأننا وحدنا من يشرف على ويدير مثل هذه الأمور في الفندق وأيضا في قاعة المهرجان. عندها سألته من أنتم فقال لي نحن دائرة الأمن، عندها قدمت اعتذاري عن الذي سببته وأضفت بأن تصرفي كان عاديا وأني مقتنع بأن ما فعلته لا يضر أحدا وكان تصرفا عاديا، فشكرني مبتسما.

خرجت من الغرفة منزعا ومتوترا وبالصدفة الغربية قابلت السيد غفوروف في الممر الجانبي فبادرنى دون مقدمات بالسؤال عن الذي جعلني أفعل مثل هذا الأمر. شعرت بأنه على علم بحديثات الحدث، فأجبت أنه لم أفعل سوى ما ارتأيته مناسبا فصالح عماش رئيس وفد وسفير العراق واعتقد من المناسب معاملته بما يليق به وأن يحصل على غرفة تليق بمنصبه لذا تصرفت بما وجدته مناسبا ولم أفعل سوى منحه غرفتي ولم يكن هناك أمرا سيئا. فأخبرني غفوروف بأن ما فعلته كان خاطئا فرجال الأمن يضعون أجهزة تنصت وإرسال في غرف من يريدون مراقبتهم والتنصت عليهم وما فعلته أنت أفشل خططهم. ويأتي ذلك محاولة لمراقبة صالح عماش بسبب ما يقال عنه، فأخبرته بأن لا أعلم لي بكل هذا، فأجابني بأن لا أقلق، فرجال الأمن سيفعلون ذات الشيء في غرفة عماش الجديدة أثناء انشغال الجميع بوقائع وأعمال المهرجان.

في نهاية اليوم الثاني من أعمال المهرجان قررت أكاديمية العلوم في جمهورية كازاخستان إقامة دعوة عشاء تكريماً لرؤساء الوفود المشاركة وهم قادمون من أغلبية الدول العربية وإيران ومنظمة اليونسكو، وكنت أنا ضمن المدعوين كوني عضواً في اللجنة التحضيرية ولوجود وفود عربية أيضاً. ومن غرائب الصدف أن يكون مقعد السيد صالح مهدي عمّاش جوار مقعد رئيسة الوفد الإيراني، وهي امرأة جميلة وقورة ووظيفتها الرسمية مديرة لمكتبة قصر شاه إيران، والمعروف عنها في الاتحاد السوفيتي بأنها تأتي إلى موسكو سنوياً وتحمل معها مبالغ مالية كبيرة لغرض شراء ما يناسب من إصدارات في موسكو وأيضاً في جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية ودائماً ما كانت تلتقي بمدير معهد الاستشراق. وكانت تلك السيدة تتمتع بنباهة عالية وثقافة واسعة ومهنية ظاهرة وحين تحدثت في مجال السياسة لا تتعرض بالسوء لأي شخصية أو بلد وإنما تصوغ جملتها بإتقان وحكمة وحنكة دبلوماسية.

في ذلك الحفل التكريمي جلست هذه المرأة جوار صالح مهدي عمّاش وجلس خلفها سيدة أخرى وهي المترجمة. مع الطعام قدم الشراب لجميع الحضور ولكن رئيسة الوفد الإيراني امتنعت وأعلنت بأنها لا تتعاطى الكحول وسوف تكتفي بكأس عصير. مضت ساعات وكان الضيوف في نقاشات وارتياح ظاهر، حين بدأت المترجمة خلف عمّاش تلوح لنا نحن أعضاء اللجنة وكأنها تستنجد بنا، وبعد برهة بدأت رئيسة الوفد الإيراني بالبكاء ثم وقفت وغادرت القاعة بعجالة ودون عودة، وعندما سألت المترجمة عن الذي حدث، أخبرتني بأن رئيسة الوفد الإيراني كانت تريد المغادرة لتذهب إلى المرافق الصحية ولكن رئيس الوفد العراقي كان يجبرها على البقاء، وبشكل غريب يلح عليها بأن تبقى جواره، ولم يكن يستمع لأعذارها وتوسلاتها وطلبها المغادرة ولو لوقت قصير، لحين شعرت المرأة بتعرضها لضغط هائل من قبل عمّاش لذا بكت مما كانت تتعرض له. وكنت أرقب عمّاش فلاحظت التغير الذي طرأ على سحنة وجهه حين غادرت السيدة مكانها. فقد بدا الضجر والنرفزة واضحين على تصرفاته. فقد كان

مستمعا بمجالسة المرأة وربما أعتقد بأن الحديث الطويل الذي دار بينهما سوف يكون بابا لاستدراجها وجعلها صيدا دسما ذلك المساء.

في اليوم التالي ذهبت إلى السيدة الإيرانية وقدمت لها اعتذارا باسم اللجنة التحضيرية للمهرجان وبينت لها إن ما حدث كان سلوكا شخيصيا لا علاقة له بمجمل الأحداث الأخرى ولم يكن متعمدا وضع مقاعد الوفدين جوار بعض. وكانت تلك واحدة من نزوات مهدي صالح عماش.

(١٥)

مفتاح سحري ينعش آمالي برؤية الوطن

كان ذلك يوماً غير عادياً، حين دخل السفير صالح مهدي عمّاش غرفة رئيس معهد الأستشراق السيد غفوروف وتحدث عن مشروع إقامة مهرجان الفارابي، لم يكن ليخطر في بالي أن تكون موضوعة المهرجان مفتاحاً لعودتي لوطني ورؤيتي لأهلي بعد كل تلك السنين. فبعد حديث طويل للسفير العراقي عن رغبة العراق بإقامة مهرجان للفيلسوف الفارابي ومناقشة هذا الأمر مع السيد غفوروف وتوصلهما إلى نتائج ايجابية عن طبيعة وأماكن المهرجان وعند نهاية ذلك اللقاء وبعد خروج عمّاش من الغرفة بادرني السيد غفوروف قائلاً:

— خلاص. رتب أمرك.

استغربت جملته، وسألته أن يفصح عما يفكر فيه. قال بأنك سوف تكون رئيساً للوفد السوفيتي الذي سوف يتوجه إلى بغداد لترتيب الأمور والتحضير للمهرجان. دهشت وأنا اسمع هذا القول، فكيف يتسنى لي زيارة بغداد وأنا المحكوم بالإعدام. فأجابني بثقة مفرطة لا عليك دع الأمر لي. في اليوم الثاني طلب مني السيد غفوروف الاتصال بصالح مهدي عمّاش والطلب منه المجيء إلى المعهد. وعند حضور عمّاش استقبلته واصطحبته إلى غرفة المدير. وقبل دخولنا الغرفة سألني عمّاش، إن كان استجد شيء في الأمر، فأخبرته بعدم معرفتي. وأني كلفت فقط الاتصال وطلب حضوره. في لقاء عمّاش بالسيد غفوروف أخبره الأخير بموافقة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي على إقامة المهرجان في ثلاث مدن هي بغداد وموسكو وألماتا وباسم الفارابي فيلسوف الشرق، وإبعاده عن إيران. والمهرجان يحتاج لبحث جدي ومحادثات لتحديد طبيعته وإعداد الترتيبات الخاصة لإقامته، لذا سوف نرسل وفداً سوفيتياً رسمياً لمقابلة القيادة

العراقية لبحث الإجراءات وطبيعة الترتيبات الموجب اتخاذها لعقد المهرجان، على أن يقابل وفدنا في بداية الأمر الرئيس أحمد حسن البكر، كون فكرة ومبادرة عقد المهرجان قد قدمت من قبله مباشرة. ظهرت الفرحة على أسارير صالح عماش وقال بحماس، نعم ونحن مستعدون لتوفير أي شيء يتطلبه عمل الوفد، وأيضا نتحمل جميع تكاليف سفر وتنقلات الوفد السوفيتي، ونقدم له جميع التسهيلات، وما عليكم غير تزويدنا بأسماء الوفد وممسكاتهم الرسمية وصورهم كي يتسنى لنا إجراء اللازم الذي يسهل عليهم مهمتهم. مع ابتسامة مكررة قال السيد غفوروف، نعم لقد أصبح الأمر واضحا لدينا ولدى القيادة السوفيتية لذا كلفنا الدكتور خليل عبد العزيز القيام بالمهمة وتزويدنا وفدنا للتباحث مع القيادة العراقية. انتابت عماش حالة من الذهول عقدت لسانه بداية الأمر. وكان حينها يتلع لعابه بصعوبة، ثم وبجهد ظاهر قال: كيف يتم ذلك، فالدكتور خليل محكوم بالإعدام، لذا من الصعوبة أن يترأس الوفد ويسافر إلى بغداد. فأجابه غفوروف بسرعة ووضوح، بأن الأمر أصبح من مهامكم وضمن مسؤوليتكم وهو قضية الحكومة العراقية وليس قضيتنا أو ضمن حدود مسؤولياتنا. فهو مازال مواطنا عراقيا وفي نفس الوقت ليس مواطنا سوفيتيا ولا يملك جوازا سوفيتيا، وعليك أن تعرف بأن هذا القرار صادر عن الجهات الرسمية العليا. عند ذلك طلب عماش الكلام لتوضيح وجهة نظره فتوجه لي بحديثه قائلا: أخ خليل أنا أتوجه إليك بنصيحة وأرجو منك الأخذ بها وتقدير الظروف وطبيعة المهمة، لذا أرجو أن تنسحب من هذا التكليف لتبعد عنك وعنا وأيضا السوفييت التعقيد السياسي ومشاكل جهة يمكن أن تعيق عملنا. فأجبت مباشرة ودون تردد، كيف يتسنى لي الانسحاب من المهمة والتكليف وأنا موظف رسمي في معهد الاستشراق، ودائما كنت مخلصا في عملي ومنفذا للمهام وما يترتب علي من مسؤوليات، واليوم كلفني المعهد بهذه المهمة فكيف تراني أستطيع الرفض، العمل الرسمي والمهنة لا علاقة لها بعواطف وصدقات. أجباني وبشيء من الحدة بأنهم مستعدون لدفع جميع مستحقات وظيفتي وما أطلبه وبما يضمن

توفير جميع احتياجاتي المادية طيلة حياتي وإقامتي في الاتحاد السوفيتي. فأجبتة بجواب كان حاضرا عندي، وهو الرفض التام لطلبه، فطلب مقابلي للحديث في الأمر بعد انتهاء اللقاء مع مدير المعهد، فقلت له بأني أعطيته جوابي القاطع ولا حاجة للنقاش حوله بعد الآن. كان سعيد كاميلوف يترجم حديثنا لمدير المعهد السيد غفوروف، لذا التفت غفوروف إلى صالح عماش وقال إذا كانت لديكم رغبة حقيقية بإقامة مهرجان الفارابي في بغداد فعليكم أن تحلوا الإشكال المتعلق بالدكتور خليل عبد العزيز فهو من صلب مهامكم. عند ذلك قال عماش بأن عليه الاتصال بالرئيس البكر وعرض الأمر عليه.

في اليوم التالي أتصل بي عماش وطلب لقاء مدير المعهد في الساعة العاشرة صباحا فأخبرته مباشرة باستطاعته القدوم إلى المعهد في تلك الساعة بالرغم من عدم معرفتي بارتباطات السيد غفوروف ذلك النهار. وما دفعني لاتخاذ ذلك القرار دون الرجوع إلى السيد غفوروف كانت قناعتي بان في جعبة عماش قرار ما ينطوي على حالتين تتعلقان بي شخصيا، فإما رفض استقبالي في بغداد أو العكس القبول بذلك، وكنت متلهفا لسماع النتيجة بشكل سريع ومع هذا الهاجس المتوتر المترقب قررت الاتصال بمدير المعهد السيد غفوروف في بيته وأخبرته بالذي حدث، فقال هل أنك أخذت برأيي مسبقا، فأجبتة بنعم لآني أعرف بالضبط ما يدور في ذهنك وما تصبو إليه، عندها وافقني غفوروف وقال بأنه سوف يكون في المعهد عند الساعة العاشرة.

في تمام الساعة العاشرة كان صالح مهدي عماش وسط المعهد وقابلته ودخلنا سوية ودون حديث إلى غرفة المدير. وبعد أن قدم التحية قال مباشرة بأنه تحدث مع الرئيس أحمد حسن البكر وينقل لكم تحياته ويشكركم على تعاونكم وموافقتكم على إقامة مهرجان الفارابي، وإن الرئيس أخبره بأنه أمر باتخاذ الإجراءات المناسبة استعدادا للاحتفال وكذلك حصلت منه على موافقة بأن يترأس وفد الاتحاد السوفيتي الدكتور

خليل عبد العزيز، وبعد ساعتين من الآن سوف يصدر القرار الرسمي بإلغاء أحكام الإعدام الصادرة بحقه ورفاقه وأيضا الموافقة على منحه جواز السفر ويستطيع السفر إلى العراق خلال يومين من الآن وعلى متن الطائرة العراقية. عند ذلك سأله غفوروف عن المطلوب من الدكتور خليل فقال عماش ما عليه سوى جلب صور فوتوغرافية ليتم إصدار جواز السفر والموافقة على الزيارة لباقي أعضاء الوفد فأخبره غفوروف وابتسامة ظاهرة ترسم على شفتيه، بان الدكتور خليل عبد العزيز هو رئيس الوفد وهو أيضا يمثل باقي أعضاء الوفد. وسوف يصطحب معه زوجته وطفلته، وهو لحد الآن لا يستطيع دخول السفارة العراقية قبل أن يصدر قرار إلغاء حكم الإعدام بحقه، فقال عماش بأنه يضمن بالكامل سلامة الدكتور خليل ولكن السيد غفوروف أخبره بأن علينا الانتظار لحين صدور القرار في جريدة الوقائع العراقية. وفعلا وبعد ساعات وحسب السفارة السوفيتية في بغداد، صدر القرار ونشر في الجريدة الرسمية وشمل العفو جميع رفاقنا الذين وجهت لهم التهم في أحداث الموصل وحكموا بالإعدام حينها.

(١٦)

السفر إلى بغداد ومقابلة الرئيس البكر

استعدادا للذهاب إلى بغداد أخبرني السيد غفوروف بضرورة التقيد بالتعليمات بشكل حرجي، وأولها ألا أبادر بالطلب لمقابلة المسؤولين العراقيين إن لم يبادروا هم بدعوتي. وبدوري كنت قلقا من موضوعة سفري إلى العراق لذا سألت السيد غفوروف عن الضمانات التي تحفظ حياتي وحياة عائلتي خاصة بما هو معروف عن سلطة حزب البعث وكيف تتعامل مع خصومها وافتقارها للالتزام الأخلاقي في التعامل حتى مع إعلانها الالتزام بالأعراف الدبلوماسية، فأجابني بأن سفارة الاتحاد السوفيتي في العراق لديها المعلومة الكاملة عن سفري إلى هناك وطاقمها سوف يتابع تحركاتي ويقوم بمراقبة الوضع وسوف يتدخلوا مباشرة إن أحسوا بأن هناك شيء غير طبيعي أتعرض له. وإن شعرت أنت بمثل هذا الأمر فما عليك غير الاتصال مباشرة بالسفارة، ولكن لا تقوم بهذا إلا في الحالات القصوى. ومع كل تلك الضمانات التي تكلم عنها السيد غفوروف فقد كنت قلقا. وعند صعودي وزوجتي وطفلي إلى الطائرة لاحظت بأن العديد من الركاب وطاقم الضيافة يتوجهون بأنظارهم نحونا. جلسنا في الدرجة الأولى، عندها سألتني زوجتي إن كنت أشعر ببعض الخوف فأجبتها بنعم، وبدورها أبدت تخوفها وتساءلت إن كان لهم قدرة على اغتيالنا ونحن وفد سوفيتي فأخبرتها بأن ذلك وارد ولكن فقط بالنسبة لي لأنك سوفيتية وليست عراقية ولذا فهم يحذرون من ذلك شديد الحذر.

هبطت الطائرة في مطار بغداد عندها طلبت المضيفة منا النزول أولا حيث هناك من يستقبلنا في الأسفل، كان هناك شخص قدم نفسه على أنه من تشريفات القصر الجمهوري ومباشرة أخبرني بأن لي غدا موعد مع رئيس الجمهورية، ثم توجهنا إلى

قاعة الاستقبال الرسمية في المطار وفجأة جاء مصور حاول التقاط بعض الصور فمنعته من ذلك، وسألته عن غايته، فأخبرني بأنه مراسل صحفي من وكالة الأنباء العراقية ومكلف بأجراء مقابلة مع الوفد السوفيتي مع التقاط بعض الصور. ثم سألتني أن كان يستطيع الحصول على كلمة بسيطة مني حول شعوري وما رأيته في بغداد بعد عودتي إلى وطني بعد غياب استمر كل تلك السنين، فأجبت، متى رأيته شأهت وطني العراق حتى تسألني هذا السؤال، فمن باب الطائرة إلى هذه القاعة فأين العراق من هذا؟ وقلت له بأني عراقي وليس وفدا سوفيتيا ومنعته من التقاط أية صورة. بعد ذلك ركبنا بسيارة أقلتنا خارج المطار ووصلنا إلى فندق وسط العاصمة بغداد يقع قرب نصب الجندي المجهول السابق. وكان هذا الفندق مخصصا لاستقبال الضيوف الرسميين ولذا يخضع لحراسة مشددة.

كانت زوجتي قلقة جدا لذا أخبرتني بأن علي أن لا أطمئن لما نحن فيه، فربما يفاجئونا بفعل خارج الحسابات قبل أن نستطيع تداركه وأخبار سفارة الاتحاد السوفيتي بذلك. ولم أكن أقل منها قلقا، وفي ذات الوقت كنت مستعدا لمواجهة جميع الاحتمالات ولذا نمنا ونحن نحمل قلقنا وتخوفاتنا. في الصباح بعد الفطور أخبرت بان هناك سيارة ومرافقين ينتظروني لمصاحبتي إلى القصر الجمهوري لمقابلة الرئيس أحمد حسن البكر.

ذهبت وحدي تاركا زوجتي وطفلي في الفندق وعند وصولي القصر الجمهوري استقبلني طارق حمد العبد الله المرافق الأقدم وسكرتير الرئيس العراقي وطلب مني الجلوس لتناول الشاي حين انتهاء الرئيس من توقيع بعض الأوراق الرسمية، فقلت له من الأفضل تناول الشاي مع الرئيس البكر. لم تنتظر طويلا حين قال لي طارق العبد الله بأن البكر طلب مقابلي فدهشت كيف عرف ذلك فأجابني مؤشرا على قرص كهربائي موضوع على المنضدة يومض باللون الأحمر، وهذا يمثل إشارة من الرئيس، تعني تفرغه واستدعاه للضيوف. دخلت غرفة الرئيس البكر، كان واقفا وسط الغرفة

يرتدي نظارة طبية كبيرة بإطار أسود ومنكبا على بعض الأوراق كانت بيده يراجعها أو يوقع عليها، اقتربت منه فبدا وكأنه لم يشعر بدخولي ولكنه التفت فجأة نحوي فسلمت عليه. ودون أن تصدر عني أية كلمة، فاجأني بالقول.

هل أنت دكتور خليل عبد العزيز؟! فأجبتة بنعم أنا هو فقال:

— كنت أظن أني سوف أجد رجلا عجوزا يتكئ على عصا تعينه على السير. أنتم من قتل ٣٢٠ من جماعتنا في الموصل أليس كذلك؟

ذهلت من هذه المقدمة التي تنم عن عدااء مبين ووجدت فيها بداية لا تخرجنا نحو فضاء ايجابي. وكنت بدوري مستفزا لذا أجبتة دون تردد.

— كلا لم نقتل هذا العدد بل أنتم من قتل منا بمقدار هذا العدد ونحن لم نقتل سوى ٣٢ رجلا ردا على هجومكم واعتداءاتهم.

— ومن يؤكد هذا؟

— السيد الرئيس.. أنتم من وثق هذا قانونيا وليس نحن، فقد أصدرتم قرارا رسميا تم نشره في جريدة الوقائع العراقية نص على منح التقاعد لعدد يبلغ ٣٢ فردا اعتبرتموهم ضحايا الأحداث، ومثلهم عشرة آلاف آخر، ولم ينشر أي اسم لهؤلاء العشرة آلاف ولم يصدر بعد ذلك أي قرار آخر بأشخاص إضافيين وهذا مثبت في وثائقكم، ولم يجد من قتل من جماعتنا أي تعويض.

— أبني... كان للأعلام دورا كبيرا في هذا. يا ترى من استفاد في تلك المرحلة.

هذا ما قاله الرئيس البكر وهو يتجه نحو كرسيه خلف المنضدة التي تتوسط الغرفة الواسعة.

وكان ردي محاولة لإنهاء الحديث في هذا الأمر.

— أنها الرجعية سيادة الرئيس.

فقال:

— الله يرحم أبوك.... وتابع القول. هل ترغب بالحديث عن مهرجان الفارابي.

بعدها سألته إن كانت هناك لجنة مشكلة ممكن الالتقاء بها للأعداد والتحضير للمهرجان فأخبرني الرئيس البكر بأنه كلف وزير الثقافة طارق عزيز بهذا الأمر وترتيب ما يستحقه المهرجان مع شخصكم، ولذا فسوف يكون لكم لقاءً معه. ثم أردف بأنه يستطيع مناقشتي حول التحضير للمهرجان وما هي طبيعة الأمور الموجب عرضها. عندها أخبرته بأني غير مستعد الآن لمناقشة التحضيرات لمهرجان الفارابي معه، فتفاجأ وسألني السبب في ذلك. عندها أخبرته بأني أحمل العديد من الأسئلة التي طلبت مني إدارة معهد الاستشراق أن أسألك عنها وأحاورك فيها وحولها، فهل يوجد لديك مانع في ذلك؟ وهل لديك استعداد للإجابة عليها؟ فقال مباشرة وبثقة بائلة، نعم ولم لا هات ما عندك. شعرت بأن اللحظة تلك كانت فرصة مناسبة للذهاب إلى أبعد حد ممكن أستدرج بها الرئيس البكر ليفصح لي عن تركيبة الحكم في العراق، وهذه كانت من صلب طلبات السيد غفوروف وفي الوقت ذاته نزعة ذاتية وشغف شعرت بها للتعرف ليس فقط على بعض وقائع ما يدور في أروقة السلطة وإنما أيضا شخصية هذا الرجل العسكري القادم من إحدى قرى تكريت. كان سؤال الأول جافا وصادما واستفزازيا ولكني وحسب توجيهات غفوروف دفعت به نحو الرئيس البكر دون حذر.

— يقال إن الرئيس البكر لا يملك من السلطة شيئا، وأن سلطته لا تتجاوز حدود هذه الغرفة والمنضدة التي يجلس خلفها، والحاكم الفعلي ومن يملك زمام الأمور هو السيد صدام حسين.

وقف وكان متماسكا وقطب حاجبيه وهو ينظر لي واستدار وهو يقول.

— من قال هذا؟

— هذا الأمر متداول بين الأوساط البحثية والمعلوماتية في الاتحاد السوفيتي.

كان الغرض من جوابي هذا إعطاء حديثي الصبغة الرسمية وتعليقه على شماعة السوفييت، ولأجل فرض الأحكام ووضع النقاش في طبيعة العلاقة بين طرفين رسميين، وليس بين شخصين عراقيين يتباحثان لغرض تهيئة الظروف لمهرجان ثقافي.

عندها توجه الرئيس البكر نحو النافذة وسحب من هناك ثلاثة ملفات حمراء اللون كانت موضوعة مع ملفات أخرى، وجاء بها وعرضها أمامي قائلاً.

— شوف أبني، هذا ملف الأمن الداخلي وهو يحتوي كل ما حدث في العراق خلال ٢٤ ساعة، ويومياً يقدم لي صباحاً لأطالع وأعطي فيه أوامري، وهذا الملف عن الأمن والعلاقات الخارجية والثالث حول الإعلام، وأنا حين أطلع على هذه الملفات يعني أن كل شيء يوضع أمامي يومياً ويكون بعلمي ولكن يا أبني أنا رجل كبير السن وعلى أن أنام يومياً في الساعة العاشرة مساءً. أما صدام حسين فهو شاب نشط، يسهر أحياناً حتى الصباح وهو يعمل طيلة ذلك الوقت. أيضاً هناك من يعمل معه من الخبراء والمستشارين بعدد ربما يبلغ ١٤٠٠ فرداً ومنهم العديد من جماعتكم (ويقصد الشيوعيين). وصدام في عمله هذا يخضع لنظام التسلسل الوظيفي أي يعمل تحت أمركي. أيضاً يجب أن تعلم بأننا من عشيرة واحدة والعشائر في بلدنا تحكمها تقاليد وعادات لا يمكن تجاوزها.

كانت لدي معلومات كثيرة عن مؤامرة ناظم كزار ولكنني وددت أن أثير هذا مع الرئيس البكر وأسمع منه الحقيقة، أو الأخرى الإطلاع على رؤيته، ولذا كان سؤالني للرئيس حولها استفزازياً، وبغية معرفة دوره الحقيقي في قيادة البلد. قال البكر سوف أخبرك بحادث مؤامرة ناظم كزار وكيف كنت مبادراً لقمعها بعد أن استلمت زمام القيادة، ومن خلال ذلك سوف تعرف طبيعة دوري في إدارة دفة الحكم. راح البكر

يكيل المديح والشكر للقائد تيودور جيفكوف أمين عام الحزب الشيوعي والرئيس البلغاري، ثم قال، هو من أنقذ حياتي فقد ألح بأن أزور الساحل الذهبي (مصيف فارنا) الذي يقع على ساحل البحر الأسود، محبباً لي تلك الزيارة وبوصف مشوق وبإلحاح غريب أقنعني الذهاب إلى هناك قبل التوجه إلى بغداد، فذهبت إلى المصيف، وكان المكان رائعاً بحق، جهزت لنا فيه وباستقبال جيد مأدبة طعام، بعدها عدت بالطائرة إلى بغداد. حين وصلت مطار بغداد لاحظت شيئاً غير عادي، فلم يكن هناك باستقبالي أي من الوزراء وأقتصر الحضور على شخص صدام حسين الذي طلب مني بشكل عجول التوجه إلى السيارة للخروج بسرعة من المكان، وقد خرجت السيارة فعلاً من غير مكان الخروج الاعتيادي في المطار. سألت صدام عن الذي حدث والسبب في مثل هذا الوضع فأجابني ببركة وقلق ظاهر وبعد فترة ليست بالقصيرة، بأن هناك مؤامرة كانت معدة لاغتيالي وكان القناصة ينتشرون على سطوح البنايات في المطار وكان المرتقب أن يتم بواسطتهم اغتيالك واغتيالي ومن يتواجد معنا من الوزراء ولكن المؤامرة كشفت وفشلت وهرب ناظم كزار باتجاه الحدود الإيرانية بعد أن أحتجز واختطف بعض الأشخاص والوزراء منهم وزير الدفاع الفريق سعدون غيدان والفريق حماد شهاب وزير الداخلية. طلبت من صدام أن يزودني بكافة المعلومات وكامل الموقف العسكري وطلبت منه أيضاً أن يسحب نفسه من المسألة، بعدها قمت بإدارة العملية لملاحقة ناظم كزار ومن معه وطلبت من سلاح الجو وبعض القطاعات العسكرية المشاركة في معركة التعقب وتم بعدها إنهاء المطاردة والقبض على ناظم كزار والتعامل مع نتائج مؤامراته. وقد أعقب البكر ذلك بالقول بأني أعرض لك ذلك لكي تعرف جيداً من يقود السلطة في العراق ومرة أخرى أقدم شكري وامتناني للرئيس تيودور جيفكوف، فلولاه والتأخير الذي حصل بسبب زيارتي الساحل الذهبي لحدث ما حدث.

عند تلك النقطة سألت الرئيس البكر عن الكيفية التي يجمع فيها حزب البعث العلماني حسب ما تشير وثائقه الصادرة مع مفاهيم وتقاليده العشرية. فراح يشرح

لي طبيعة التركيبة الرسمية للدولة العراقية التي تركز في الأساس على تقاليد ثابتة وأعراف قبلية تمارس في أغلب الأوقات في الحياة العامة وتتقدم فوق المسائل الحزبية ومن المناسب أن يكون لهذه الأعراف دور فاعل داخل الحزب وأن يعمل الحزب على جعل هذه التوليفة سائدة.

— وماذا سوف تفعل أن تحرك صدام ضدك؟

فتغيرت سحتته وبدا وكأنه شعر بوطأة السؤال. وبدوري شعرت بأن هذا السؤال ومن خلال حركات الرجل وطبيعة رده، بأنه سبق أن راوده وفكر فيه مليا.

— ألسنت أنت بعراقي؟ ألم تطلع على طبيعة مجتمعك.. نحن أبناء عشائر وأنا من عشائر تكريت من البيجات وإذا أراد صدام التحرك ضدي فسوف يواجه غضب عشيرتنا ويضرب على رأسه بما لا يتوقعه.

— ومن يجرأ على ضربه؟ هكذا سألت الرئيس البكر ليرد عليّ

— أبناء عشيرتنا فأنا أولا كبير العشيرة ومن ضباط الجيش الكبار والعشيرة تفتخر بي وتلتزم بكلامي ولذا ضع في بالك بأن صدام لا ولن يستطيع التجاوز على صلاحياتي أو القفز من فوق.

وعند ذلك قال لي الرئيس البكر بأن عليّ مقابلة صدام حسين. وبدوري كنت أود مثل هذا لكثرة ما يتردد عن شخصية صدام، ولكن تعليمات القيادة السوفيتية التي حصلت عليها عبر رئيس معهد الاستشراق السيد غفوروف كانت تمنع عليّ مقابلته، وتساءلت في حينها عن السبب في ذلك فقليل لي بأن الرجل الأول في العراق في الوقت الراهن هو الرئيس أحمد حسن البكر ويجب الحصول من خلاله دون غيره على المعلومات عن الوضع في العراق، مع وجود معلومات لدى القيادة السوفيتية بما يشي بإمكانية إزاحة صدام حسين عن مكانه في فرصة قريبة، وكان مثل هذا الرأي بعيدا

جدا عن الحقيقة ليصبح صدام بعد فترة الرأس الأول في سلطة الدولة العراقية. وحين طلب مني الرئيس البكر مقابلة صدام امتنعت عن الإجابة المباشرة وأظهرت ميلا للاستغناء عن مثل تلك المقابلة. عندها نبهني الرئيس البكر إلى إن حديثي عن صدام يوضح أنني غير مبال لصدام وتوجد لدي ملاحظات عن شخصيته، ومع هذا أخبرني بأنه رتب لي لقاء مع صدام الذي ينتظرنني في نفس اليوم في المجلس الوطني حيث يقع مكتبه الخاص. فلم يكن مني غير الاعتذار عن تلك المقابلة لوجود توجيهاً فرضت علي حصر اللقاءات مع شخصكم ومن يكون مسؤولاً عن ملف مهرجان الفارابي. فقال لي الرئيس بأنك سوف تتعرف على أغلب أعضاء القيادة العراقية فلماذا تمتنع عن مقابلة صدام حسين. وكررت عدم رغبتني بذلك اللقاء وكنت في هذه الحالة أنفذ حرفياً وملتزماً بتعليمات السيد غفوروف ولم أرغب في وضع نفسي في تعارض مع ما أملي علي من تعليمات.

كنت وقبل مقابلتي الرئيس البكر قد قابلت الرفيق ثابت حبيب العاني عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في بهو الفندق والذي جاء إلى الفندق في الساعات الأولى من وصولي إلى بغداد وجلست معه ودار بيننا حديث طويل عن الأوضاع في العراق والعلاقة مع حزب البعث. وبعد أن أخبرته عن طبيعة مهمتي كلفني بأن أخبر الرئيس البكر بأن الحزب الشيوعي ومنذ ما يقارب الثلاثة أشهر قد قدم طلباً للقاءه ولحد الآن لم يحصل الحزب على جواب لطلبه ذلك.

وقبل نهاية لقائي الأول بالرئيس البكر عرضت عليه هذا الأمر، فبادرنني برد جاف متوتر

— أنهم يكذبون، فلم يعرض عليّ أي طلب سبق وقدم من الحزب الشيوعي.

بدوري أكدت له بأن من حدثني حول هذا الموضوع هو الرفيق ثابت حبيب العاني وهو شخصية موثوقة وصادقة وواثق فيما يطرّحه. ولكن البكر أصر على عدم وجود

مثل هذا الطلب ولهذا نادى على طارق حمد العبد الله وطلب منه تدقيق سجل الطلبات والبحث عن طلب الحزب الشيوعي فجاء طارق حمد العبد الله حاملاً بيده سجلاً وأخبرنا بعدم وجود ما يشير لطلب الحزب الشيوعي فيه. عندها طلب البكر من طارق العبد الله الاتصال بالسيد نعيم حداد عضو ارتباط الجبهة الوطنية وسؤاله عن طلب الحزب الشيوعي، فذهب ثم بعد دقائق عاد ليؤكد نفي نعيم حداد للموضوع، وعند ذلك طلب البكر الاتصال بالقيادة القطرية لحزب البعث وتدقيق السجلات هناك، وتكرر الأمر بنفي القيادة القطرية لوجود مثل هذا الطلب. وبعد كل هذا الأخذ والرد والاتصالات طلبت من الرئيس البكر أن يولي هذه الموضوع اهتمامه ترصينا للعلاقات الجبهوية فوعدني أن يضع في القريب حلاً لها.

وقدمت إلى الرئيس البكر بعض انطباعاتنا الإيجابية عن طبيعة وأفاق الجبهة الوطنية القائمة بين حزب البعث والحزب الشيوعي. ولكن الرئيس البكر فاجأني برأي غريب ومتشنج قائلاً:

— الحزب الشيوعي حين أصبح جزءاً من الجبهة الوطنية يعتقد بأنه بات قادراً على ابتلاع السلطة وتلك رغبة قوية لديه. ولكن هذا ليس بجائز ولن يتحقق له، فنحن الحزب القائد وليس سوانا، وأود أن أسألك عن الجبهة في بلغاريا، فحين دعا ديمتروف إلى الجبهة وروج لها، هل كان بحاجة لمشاركة الأحزاب الأخرى. صحيح أن هناك حاجة لذلك ولكن القيادة فيها لمن، ومن يسير الدولة. لكن الظاهر أن الحزب الشيوعي العراقي لم يكتف بما حصل عليه وإنما يفكر بالاستحواذ على كل شيء، وهذا غير ممكن ولن نسمح بذلك على الإطلاق وعليهم أن يعرفوا بالضبط حدودهم.

فبادرت بسؤاله عن طبيعة الجبهة الوطنية وما فائدتها إن لم يشترك الآخرون بإدارة السلطة، عندها أجابني الرئيس البكر بوضوح تام. عليك أن تسأل ديمتروف عن ذلك وعن فائدة الجبهة. فنحن من سيطر على السلطة وقدمنا توضيحات جسام لأجل ذلك،

ثم تريدنا نقدم للآخرين ما لم يكن لهم دورا فيه، نحن الحزب القائد وعلى الآخرين أن يعترفوا بذلك وقبله عليهم أن يعرفوا حجوماتهم.

وحين عدت إلى الفندق أخبرت الرفيق عزيز محمد والرفيق العاني بالذي دار بيني وبين الرئيس البكر فقال الرفيق العاني أن ذلك لشيء طبيعي وتصرف عادي وليس مستغربا من هؤلاء.

وحول طلب الحزب الشيوعي للقاء بالبكر، فقد روى لي الرفيق عامر عبد الله بشيء من التفاصيل حين التقيته في موسكو أثناء إحدى زيارته الروتينية لها، فحدثني عن الذي جرى بعد ذلك وكيف حلت مسألة طلب الحزب الشيوعي للقاء بالرئيس البكر. فبعد فترة كان الرفيق عامر عبد الله يحضر مع باقي الوزراء مراسيم استقبال رئيس جمهورية غانا. عندها شاهده الرئيس البكر فنادى عليه وسأله إن كان شاهد الدكتور خليل عبد العزيز عند زيارته للعراق فأجابه الرفيق عامر بنعم. فروى الرئيس البكر للرفيق عامر ما نقلته له حول طلب الحزب الشيوعي، مكررا نكرانه وجود مثل ذلك الطلب، عندها أخبره الرفيق عامر بصحة وجود مثل هذا الطلب. فسأله البكر عن كيفية حدوث ذلك دون علمه، فأخبره الرفيق عامر بأنه سبق وأن طلب منه ذلك شخصيا. عندها أنكر الرئيس البكر حدوث مثل هذا الأمر، ولكنه طمأن الرفيق عامر بأنه سوف يأخذ الموضوع على محمل الجد وسوف يلتقي بالحزب الشيوعي خلال فترة أسبوع من الآن.

(١٧)

محاولات اغتيال عبد الحليم خدام

في لقائي مع الرئيس البكر كنت أحمل دفتر ملاحظات أخرجه ورحت أدون بعض الكلمات والجمل في الوقت الذي كان يتحدث معي. فجأة توقف وسألني عن الذي أفعله، فأجبتته بأني أسجل بعض الملاحظات والمعلومات عن حديثنا. فقال أترك ذلك الآن، فأنتك لن تستطيع اللحاق وتدوين كل شيء وعليك أن تفعل هذا حين تعود إلى السكن، ثم طلب مني أن أريه ما دونت، فناولته الدفتر فأبتسم وهو يطالع الحروف والعلامات المسجلة من مثل أ-س، ن غ س، فدهش البكر وبادرني بالسؤال عن معنى حرفي أ س فأخبرته بأن المقصود هو الاتحاد السوفيتي وأن غ يعني غفوروف وهكذا، فقال وهل تستطيع أن تفك رموز كل تلك الحروف، فأجبتته سيدي الرئيس هذه هي مهنتي وأخبرته بأني أحتفظ بتفاصيل الحديث بين السطور والرموز والذاكرة وسوف أقوم بإعادة كتابة كل ذلك حين عودتي إلى موسكو. وقد كتبت تقريراً عن لقاءاتي مع الرئيس البكر وغيره من المسؤولين العراقيين بما يقارب ٣٢٠ ورقة قدمتها إلى رئيس معهد الاستشراق السيد غفوروف، وطلبت منه أعادتها لي بعد اطلاعه عليها ولكنه رفض ذلك قائلاً بأنها أصبحت ملكاً لهم كما امتنع عن تزويدي بصورة مستنسخة منها.

من المواضيع التي كان علي إثارتها مع الرئيس البكر والحصول منه على إجابات شافية عنها حسب طلب السيد غفوروف، هي المحاولات المتكررة لاغتيال عبد الحليم خدام الوزير في الحكومة السورية وعضو القيادة القطرية والقومية للجناح السوري لحزب البعث العربي الاشتراكي، ولم يكن الغرض من ذلك البحث في طبيعة العلاقة بين الطرفين، وكذلك ليس استيضاحاً عن طبيعة تلك المحاولات، بقدر ما كان الغرض من السؤال هو التيقن وإثبات صحة القيام بتلك المحاولات، لذا وجهت له سؤالاً

مباشراً عن أسباب إلحاح القيادة العراقية على اغتيال عضو القيادة السورية عبد الحليم خدام وهو بعثي مثلكم. فأجابني البكر دون تردد بأنهم سوف يستمرون في المحاولات لحين التخلص منه والمرة الثالثة قادمة وستكون فيها نهايته. فعبد الحليم خدام رجل مرتشي ونحن بالذات من قدم له الرشوة وتقبلها بدونية. فأتساءل المفاوضات بيننا مع الوفد السوري بقيادة خدام حول عوائد خط أنابيب النفط عبر الأراضي السورية إلى البحر الأبيض المتوسط، طرح الوفد السوري المفاوضات شروطاً تعجيزية وبالذات في مسألة الرسوم المالية لعبور الخط، وقد قدمنا لهم الكثير من التنازلات ولكنهم كانوا يذهبون بعيداً في طلباتهم الابتزازية، وظهر وكأنهم ساعون للاستحواذ والحصول على مبالغ كبيرة، وكأن النفط المار عبر الأنابيب من حصتهم وهم أصحابه وليس العراق.

وفي وقتها أرسلنا السيد عامر عبد الله وأشخاص آخرين إلى سوريا كوفد في محاولة لتليين موقف الجانب السوري وإقناع عبد الحليم خدام بالتقليل من حدة طروحاتهم وعلو سقف مطالبهم، ولكن الوفد عاد إلى بغداد دون أن يحقق نتيجة. عند ذلك اجتمعنا كقيادة وفكرنا بأن نقدم لعبد الحليم خدام رشوة حين يأتي إلى بغداد في جولة المفاوضات القادمة، وهذا ما حدث فعلاً، حيث وضعنا في غرفته وعلى سرير نومه في الفندق حقيبة مليئة بالدولارات، وحسب ما صورته الكاميرات فقد دخل وشاهد الحقيبة وفتحها ثم أغلقها ووضعها جانباً.

وفي اليوم التالي وعند ذهابه إلى المطار عائداً إلى سوريا كان يحمل بيده الحقيبة ذاتها وصعد إلى الطائرة. هذا الذي يدعي انتماؤه لحزب البعث، ولكنه يقبل الرشوة فهو على استعداد لأن يأخذها من إسرائيل وكذلك القوى الامبريالية. ولهذا قررنا أن يقتل وقمنا بمحاولتين لاغتياله وكانت الأخيرة في بيروت حيث حاولت مجموعتنا اغتياله ولكن القدر أنقذه، فقد كان هناك رجال يقودون دراجات نارية أطلقوا على موكبهم الرصاص بكثافة ولكنه فلت من الموت بأعجوبة.

(١٨)

اللقاء بوزير الثقافة طارق عزيز

التقيت الوزير طارق عزيز للمرة الأولى في موسكو، وكان اللقاء بتكليف من السيد غفوروف مدير معهد الاستشراق، حضر السيد طارق عزيز إلى موسكو بصفة مفاوض باسم القيادة القطرية لحزب البعث والحكومة العراقية، وكان وقتها وزيرا للثقافة. في ذلك اللقاء حملت شيئا محمداً يجب على السيد طارق عزيز سماعه، قبل أن يخوض غمار الحديث حوله مع القيادة السوفيتية. اتصلت بالسفارة العراقية والسفير السيد صالح مهدي عماش وطلبت مقابلة الوزير طارق عزيز، ومن دون إبطاء حصلت من سكرتير الوزير على موعد في الثانية عشرة ظهراً في دار الضيافة الرسمي وهو سكن الضيف العراقي. قبل الموعد كنت جالسا في دار الضيافة الرسمي، وكان هناك بعض أعضاء الوفد المرافق للوزير. كان الجميع مشغولاً بأحاديث جانبية. سمعت أحدهم يتحدث عن رغبة الوزير عزيز بشراء جهاز تلفزيون ملون وهي أجهزة ظهرت حديثاً.

رن جهاز الهاتف، أخبرني السكرتير أثره بأن السيد الوزير سوف يتأخر قليلاً بالمجيء، ثم ظهر نائب الملحق العسكري السيد فاضل البراك ليسألني بعد التحية عن سبب حضوري إلى دار الضيافة، فأخبرته برغبتي بمقابلة الوزير عزيز، بعد ذلك استمعت لحديث دار بين فاضل البراك وسكرتير الوزير حول موضوعة نشرت في إحدى الصحف، ضج جميع الجلوس بالضحك بعد أن سمعوا بمحتوى الموضوعة، عند تلك اللحظة دخل الوزير عزيز فتساءل عن سبب الضحك هذا فأخبره السكرتير بأن هناك أحد الانكليز وضع كرسيًا في ساحة الطرف الأغر وسط لندن ورفع لافتة كتب عليها، لن أغادر هذا المكان إن لم تعلن السيدة تاتشر استقالتها، ضحك الوزير وقال مباشرة، على هذا الرجل أن يأتي إلى بغداد، فضحك الجميع.

كنت انظر للوزير وأراقب حركته وحديثه ثم وجدته يلتفت نحوي حين أخبره السكرتير بوجودي وسبب حضوري والجهة التي أمثلها، عندها دعاني الوزير للدخول معه إلى غرفة جانبية وسألني عن الذي أريد الحديث حوله، فأخبرته بأني أعمل في معهد الاستشراق السوفييتي ومرسل من قبل رئيس المعهد السيد غفوروف وهو يود أخبارك بأن لا حاجة لكم لطرح موضوعه طلب الغواصات على الجانب السوفييتي، فتقدمكم لمثل هذا الطلب سوف يواجه بالرفض القاطع، ذهل الوزير عزيز وقال، لا أريد أن أناقش الأمر معك ولكني لا أعرف ما دوافع السوفييت من ذلك، ففي الوقت الذي يملك الشاه الإيراني غواصتين في الخليج العربي، فإن مثل هذا لا يدخل في حسابات السوفييت عن سباق التسلح والإخلال بالتوازنات ورفع وتيرة التسلح في الخليج، وعندما يطلب العراق غواصات تثار كل تلك المسائل في وجهه، أمريكا وحلفاؤها يزودون إيران بمختلف الأسلحة ومن دون قيود، وأصدقاؤنا السوفييت يتهيبون من سباق التسلح وتصدع الأمن في المنطقة، أي منطق هذا، هل تستطيع أن تجيبني على ذلك. فأخبرته بأني موظف مكلف بنقل المعلومة ولست خبيراً عسكرياً وأيضاً غير قادر أو مخول بمناقشة أية موضوعه، وحسب علمي فإن وزارة الدفاع وليس فقط القيادة السياسية غير موافقة على طلبكم ورغبتكم تلك.

دخل السكرتير وأخبر الوزير بجاهزية مائدة الطعام فدعاني الوزير لتناول الطعام معهم، فذهبنا وجلسنا حول المائدة وجلس معنا فاضل البراك والبعض من الموظفين ودار حديث عام، كان منه عن طبيعة وأعمال معهد الاستشراق والحياة في موسكو، ولم نتطرق لموضوعه الغواصات، بعد أكملنا وجبة الغداء طلبت من الوزير السماح لي بالذهاب فقال لي، قبل أن تذهب يجب أن أقول لك بأني أستغرب جداً من هذه المعلومة التي بلغتني بها، ودهشتي كبيرة أيضاً للسبب الذي جعلهم يكلفونك بالذات أخباري بموقفهم هذا، فأجبت به بأني موظف وجزء من مؤسسة سوفييتية، وأكلف بمهام حالي حال باقي الموظفين، أما لماذا كلفوني شخصياً بهذا فلا علم لي به غير ما أخبرتك عنه.

ولكن وبعد ساعات حصلت على معلومة بأن الوزير عزيز طرح الطلب على القيادة السوفيتية خلال لقاءه بالرفيق بريجنيف بوجود وزير الدفاع كريشكو، وعندها طلب بريجنيف من الوزير كريشكو الحديث مع الوزير طارق بما يخص الطلب ومثلما كان متوقعا، فقد انصب حديث الجانب السوفيتي حول عدم الرغبة في سباق التسلح ومهام الحفاظ على التوازنات وابعاد شبح النزاعات. ولكن مهام تسليح الجيش العراقي بباقي أنواع الأسلحة نال موافقة السوفيت ورضا الجانب العراقي.

أما لقائي الثاني بالسيد طارق عزيز فقد جاء وفق حيثيات ترؤسي الوفد السوفيتي والعلاقة التي بنيت على أسس الحوار والإعداد لمهرجان الفارابي. ففي لقائي مع الرئيس البكر تطرقنا للحديث عن مهرجان الفارابي وهي المهمة التي قادتني إلى بغداد، فأخبرني الرئيس البكر بأنه قد كلف وزير الثقافة طارق عزيز بأن يكون مسؤولا عن ملف المهرجان في الجانب العراقي، لذا من الموجب أن يلتقي الوفد السوفيتي ويعد التحضيرات للمهرجان، ولهذا السبب أخبرني الرئيس البكر بأن عليّ مقابلة الوزير طارق عزيز، ذهبت في اليوم التالي إلى وزارة الثقافة والتقيت الوزير وكان لقاءً متشنجا بعض الشيء، ولم اشعر بالراحة وأنا أتحدث معه، فقد واجهني مباشرة ومن دون مقدمات قائلا: خليل لديّ سؤال لك، وقبلها عليك أن تعرف بأننا والاتحاد السوفيتي على علاقة قوية، وهنالك قنوات دبلوماسية كثيرة إن كانت من قبل وزارتنا أو وزارة الخارجية أو غيرها، ولدينا سفارة هناك ولهم مثلها في بغداد وكل شيء يدار عبر تلك القنوات، من دون شوائب وبأبواب مشرّعة، ولكني للمرة الثانية أستغرب من دوافع السوفيت بتكليفك شخصا لمهام من صلب عمل الدبلوماسية، وأن تكون اليوم ممثلا وحيدا لوفادهم المعني بالإعداد لمهرجان الفارابي وبعيدا عن جميع تلك القنوات الدبلوماسية، وأنا أريد أن اعرف ما هي الصفة الرسمية التي جعلتهم يكلفونك بالمهمة من دون غيرك وتأتي لتحدث وتتفاوض باسمهم مع أعلى السلطات في العراق.

كانت إجابتي مثلما السابق ودائماً تؤكد كوني موظفاً في معهد الاستشراق وهذا المعهد تكفل بأن يأخذ على عاتقه التحضير والإعداد لمهرجان الفارابي، وأنا منسب ومحول من قبل المعهد لأكون مفاوضاً ومنسقاً مع الجهات العراقية لغرض التهيئة والإعداد للمهرجان. ولكن الوزير طارق عزيز قال وبشيء من الحدة، بأنه ينظر للأمر بغير تلك الصيغة، ورأيه من دون مواربة بأني ومن دون ريب عميل للسوفييت ليس إلا، وهو على خلاف تام مع رأي الرئيس البكر حولي وأيضاً في طريقة التعامل معي، ففي اعتقاده بأن الوضعية التي ترتب عليها قدومي إلى بغداد وطبيعة الوفد الذي اختصر بشخصي وأسرتي فقط، وما حملته من أسئلة سياسية أردت منها الحصول على أجوبة ومعلومات لصالح الإدارة السياسية السوفيتية، كل ذلك لا يحتمل غير تأويل واحد وهو ما أخبرتك به.

استمر حديثنا عن التحضيرات لمهرجان الفارابي وطلبت من الوزير أن يكون هناك وفد لجمهورية العراق، ليشارك في الإعداد والتهيئة للمهرجان، على أن يكون حاضراً في موسكو في أقرب فرصة، فأخبرني بأنه سوف يؤلف هذا الوفد ويرسله إلى موسكو، وفعلاً وفي اليوم الثاني عرفت بأنه تم تأليف الوفد، وبعد عودتي ومضي بضعة أيام جاء الوفد إلى موسكو، وكان مؤلفاً من السيد محمد جميل شلش وهو شاعر ومدير عام في وزارة الثقافة والسيد الروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي.

حين لقائي في اليوم التالي الرئيس البكر سألتني إن كنت التقيت الوزير طارق عزيز، فأجبت بنعم وحدثته عن الذي دار بيننا من حديث وشعرت بأن من المناسب أن أثير الأمر مع الرئيس البكر، فسألته عن رأيه بما اتهمني به طارق عزيز، فراح الرئيس يحدثني عن شخصية طارق عزيز وكيف وصل إلى هذا الموقع المهم قائلاً، بأن طارق عزيز وفي بداية أنقلاب ١٧ تموز كان يود وبإلحاح أن يُقبل كمراسل لجريدة الثورة في العاصمة اللبنانية بيروت، ولم يكن هناك إجماع في القيادة على تكليفه بتلك المهمة، في

وقتها كانت بينه وبين صدام حسين علاقة متوترة بل متشنجة دائماً، وكان صدام وحين يذكر طارق عزيز، يطلق عليه تسمية أبو ريشة، وكان هذا تلميحاً لكون عزيز مسيحياً من طائفة الكلدان ومن منطقة تلكيف، وهذا يعني لدى صدام بأن عزيز من بقايا جيش اللفي الذي شكله المستعمر البريطاني وكان هذا الجيش يضع على غطاء الرأس ريشة، وحسب قول الرئيس البكر فإن صدام وفي إحدى المرات وجه لطارق عزيز مباشرة شتيمة مهينة ولم يجد منه رداً، ولكن فجأة تبدل الحال لتصبح بينهم علاقات جيدة وباتوا على توافق تام، ما الذي حدث فلا علم له بذلك.

لم أترك الأمر يمر بسهولة ورغم لف ودوران الرئيس في الإجابة فقد كررت عليه استفساري، عما اهتمني به طارق عزيز بصيغة العمالة للسوفييت، ومثلما المرة السابقة راح في حديث جانبي ولم يجب على سؤال.

محاولة اغتياي

بعد انتهاء لقاءاتي الأربعة مع الرئيس البكر طلب مني أن أتوجه إلى البصرة لزيارة ميناء البكر لمشاهدة الإنجاز الكبير للقيادة العراقية، كذلك أخبرني بأنهم أعدوا لي سفرة إلى شمال العراق، وقال إنك سوف تتمتع وعائلتك بزيارة المناطق السياحية وخاصة مصيف صلاح الدين الجميل، وهناك سوف تلتقي بقائد الوحدات العسكرية التي من مهامها محاربة العصاة يقصد (البشمركة الأكراد)، فأجبت بـ "أن لا رغبة لي بمثل هذا اللقاء ولا أجده ضرورياً". فقال الرئيس البكر، بالعكس إن ذلك مهم لك ويجب أن يكون ضمن ما تخبر به القيادة السوفيتية عن طبيعة الأحداث في العراق.

في اليوم التالي ذهبت بالطائرة إلى مدينة البصرة ونقلت باليخت إلى ميناء البكر. كان يختاً جميلاً فخماً قيل لي بأنه من ممتلكات الملك فيصل الثاني. استقبلت هناك استقبالا بديعاً وطيباً من قبل المسؤولين الإداريين والمهندسين والعمال. أطلعت على أعمال الميناء وكيف تتم عمليات نقل النفط وتحميله، بعدها دعوت إلى جلسة مع كادر العمل

تناولنا فيها الحلويات والمرطبات. كان ميناء البكر وهو لسان بحري يمتد في عمق شمال الخليج مكتمل بمنشآته وكادر العمل فيه يبدو عليهم الإرهاق والتعب ولكنهم كانوا مخلصين وجادين في عملهم. وبسبب بعد الميناء عن المدينة وطبيعة المناخ هناك، فالعاملين فيه كانت لهم مطالب كثيرة دونوها في ورقة، حملوني مسؤولية إيصالها إلى الرئيس البكر كوني ضيفه القادم من الاتحاد السوفيتي، حسب ما سمعوه عني. وكانت مطالبهم تتعلق بظروف حياتهم الاجتماعية وأوضاعهم المعيشية. استغرقت رحلتي لبضعة ساعات عدت بعدها إلى بغداد فوجدت هناك من يخبرني بأن الغد سوف يكون موعد سفرنا إلى شمال العراق.

طلبت من الرئيس البكر أن أزور الموصل لأقابل والدتي، كوني لم ألتقيها منذ حوالي العشرين عاماً، دهش الرئيس من طلبي هذا وقال، كيف يتم لك ذلك، فهو لا يستطيع ضمان سلامتي لو ذهبت هناك، كوني مشارك في أحداث الموصل بعد فشل حركة الشواف. فقلت له كيف تراني أزور بلدي بعد كل تلك السنوات، دون أن أرى والدتي. فقال الرئيس فكر جيداً بالآمر فنحن بلد تحكمه العادات والتقاليد العشائرية وأنا لا أستطيع الوقوف بالضد منها أو الاعتراض عليها، وعندها سوف تتعرض للانتقام من شخصيات تطالب بالثأر لتلك الأحداث، وتسعى لتصفيتك جسدياً. ولكن أستطيع أن أمر بجلب والدتك إلى بغداد لتلتقي بها. ولكنني تمسكت برأيي وطلبت منه أن يلبي طلبي بزيارة مدينتي والالتقاء بوالدتي، فأخبرني بأنه سوف يدرس طلبي هذا ويعطيني غداً جواباً. في اليوم التالي أخبرني بموافقته وقال إنه أتصل بالمسؤولين في الموصل وطلب منهم تأمين الحماية لي ولعائلتي.

في مطار الموصل استقبلني مسؤول منظمة الموصل لحزب البعث مع مجموعة من المسؤولين المحليين، وحال هبوطي من الطائرة تقدم نحوي المسؤول الحزبي وبادرني القول، خليل إلا تذكرني؟ فأجبت أسف جداً لا أتذكر. فقال أنسيت كيف ضربتني

حين كنت معتقلا لديكم في أحداث الموصل. لم أجه وساد بيننا بعدها الصمت قطعه هو قائلاً لننسى ذلك فأنت ضيفنا وضيف رسمي للعراق وللرئيس البكر وهو من وجهنا لتأمين حمايتك وتنظيم لقاء بينك والدتك. بعد ذلك تم نقلي إلى فندق يقع على ساحل نهر دجلة في الضفة اليسرى من مدينة الموصل. ثم أمنوالي تحت حراسة مشددة زيارة لبيت العائلة المتواضع وهناك التقيت والدتي التي كانت مرعوبة ولذا كانت جملتها الأولى والتي أسرتني بها هامة. أبني لا تثق بهؤلاء أنهم مجرمون ويستطيعون الغدر بك. ولم تدم زيارتي إلى مدينة الموصل غير أقل من ٢٤ ساعة سافرت منها إلى اربيل ثم انتقلنا إلى مصيف صلاح الدين، فوصلنا هناك عصراً، وبتنا في الفندق.

صباح اليوم التالي أخبروني بأني مدعو مساءً لوجبة عشاء في مدينة الموصل وبحضور المحافظ ومسؤول المنظمة الحزبية وغيرهم من المسؤولين الحكوميين والحزبيين، وعلينا أن نكون هناك عند الساعة الخامسة. وأبلغوا مرافقي بهذا الموعد وعليه تجهيز السيارة للسفر إلى الموصل. بعد ساعات جاءني المرافق وأخبرني بأنه أستلم سيارة أخرى غير التي تنتقل بها فسألته عن السبب في إعطائه سيارة أخرى، فأخبرني بأنه سوف يكون في هذه السيارة والسيارة الأولى تفرغ لي والعائلة، وانه يلحق بنا بسيارته الجديدة. عند ذلك قالت له طفلي ورجته أن يكون معنا في نفس السيارة فأجابها بأنه مكلف بحمايتنا وفي سيارة سوف تتبعنا.

خرجنا من صلاح الدين باتجاه الموصل وكنت مع زوجتي وطفلي في سيارة بقيادة سائق، وكان مرافقي خلفنا في سيارة أخرى. عند منتصف الطريق نبهنا المرافق من خلال إشارات بضوء المصابيح بأن نتوقف فتوقفنا، فسألته عن الذي حدث فأخبرني بأن مسؤول منظمة الموصل الحزبية والذي من المفترض أن يكون من ضمن الأشخاص الذين سوف يستقبلونا في الموصل، قد شاهده في سيارته وهي متجه نحو صلاح الدين ولا يرى سبباً لذلك. فقلت له هل علينا العودة إلى صلاح الدين فقال المرافق كلا بل

علينا الاستمرار في طريقنا إلى الموصل. بعد مسير ليس بالقليل وعند منعطف حاد وضيق ويطل على وادي عميق أنفجر إطار السيارة الأمامي ثم أعقبه انفجار إطار آخر. كان السائق ذكيا وقويا وحسن الحظ انحدرت السيارة نحو حفرة صغيرة كانت عند حافة الطريق وتوقفت هناك، كان منظر الوادي العميق مفرعا وشعرنا بقرب سقوط السيارة لولا تلك الحفرة التي علقت بها الإطارات وأمسكت هيكل السيارة، ووجدت بأنا كنا على مقربة من موت محقق. كانت مشاعر الخوف والرعب تجتاحني وزوجتي وحتى طفلي التي تمسكت بحضن أمها وتمثل الرعب على وجهها الصغير. جاء مرافقنا وفتح باب السيارة الخلفي لنخرج من خلاله، وعند تلك الدقائق التي مرت برعب وخوف جاءت ثلاث سيارات هبط منها بعض الرجال وهم يرددون الترحاب والتهاني بسلامتنا. دهشت من سرعة وتوقيت مجيء هؤلاء وكيف وصلوا بهذه السرعة، وبعدها أقلونا بسياراتهم إلى الموصل، وتركنا سيارتنا العالقة في الحفرة.

وحين دخلنا الفندق جاء خلفنا مسؤول المنظمة الحزبية ورحب بنا وهنأنا على سلامتنا من الحادث، فتبادلت النظر مع مرافقي واستغربنا طبيعة ما حدث بعد أن كان هذا المسؤول قد اجتازنا عند منتصف الطريق ذاهب نحو صلاح الدين، وكيف عاد أدراجه بتلك السرعة الغربية. بعد تناولنا العشاء وعودتنا إلى الفندق استطعت الاتصال بالسيد غفوروف فدهشت حين استفسر مني مباشرة عن طبيعة الحادث وهل جميعنا بخير، وأخبرني بأن خبر الحادث قد وصل السلطات السوفيتية عن طريق السفارة العراقية، التي روجت بأني وعائلتي قد قتلنا في حادث على طريق أربيل، فأجبت به أننا فعلا نجونا من حادث الكثير مما فيه يبعث على الريبة. بعد ذلك قمت بكتابة رسالة وجهتها إلى الرئيس البكر وصفت فيها الحادث وبينت له الانطباع، بأن ما حدث لم يكن شيئا عابرا ولو كان حصل ما كان يراد لنا، فسوف يتحمل وحده نتائجه أمام السلطات السوفيتية، لسبب وجيه كونه صاحب الدعوة وليس شخص آخر،

وسلمت الرسالة إلى المرافق وطلبت منه إيصالها إلى الرئيس البكر فوعدني بتسليمها إلى طارق حمد الله.

وعند عودتي إلى موسكو أخبرني السيد غفوروف بأن مصدر معلوماتهم عن الحادثة والإدعاء بمقتلنا كان السفارة العراقية، وظهر وكأنهم كانوا على يقين بنجاح المحاولة. وكان هذا دليلاً قاطعاً على أن الحادث كان مدبراً ومن هذا يمكن القول بأنه ليس من المعقول الوثوق بالبعثيين مهما كانت طبيعة العلاقة معهم والتعهدات التي يقدمونها. وكانت لدينا قناعة كاملة بأن هناك عدة كتل وعديد من الرجال في صفوف حزب البعث يعملون بمنهجية وروحية التآمر ضد جميع من يخالفهم الرأي والمعتقد، وهؤلاء يعملون بشكل منظم، للطعن بأية علاقة أو موضوعة يعدونها لا تخدم مصالحهم، وأعتقد بأن ما حدث لنا كان من إعداد وترتيب جماعة جهاز حنين التابع لصدام حسين. وهذا الجهاز كان يمثل عصب القوة في حزب البعث والذي تحول لاحقاً لجهاز المخابرات العامة للدولة العراقية وهذا ما دفعني لطرح سؤال استفزازي على الرئيس البكر.

ماذا سوف تفعل أن تحرك صدام ضدك؟

وقتها تغيرت سحتته الرجل وبدا وكأنه شعر بوطأة السؤال. وبدوري شعرت بأن هذا السؤال كان يشغل ذهن الرجل، ورغم هذا لا يريد البحث فيه لذا قال لي بأن حديثي عن صدام يوضح أنني غير مبال له وربما توجد لدي ملاحظات عن شخصيته، لذا لا أرغب في مقابلته. عندها اعتذرت للبكر بسبب التزامي بتوجيهات فرضت علي حصر اللقاءات مع شخصكم ومن يكون مسؤولاً عن ملف مهرجان الفارابي. وفي محاوله لإثارته أشرت لوجود معلومات عن قدرات صدام تعطيه المقام الأول في إدارة الدولة. فاجابني الرئيس البكر قائلاً:

(يا أبنّي أنا رجل كبير السن وعليّ أن أنام يومياً في الساعة العاشرة مساءً. أما صدام

حسين فهو شاب نشط ويبقى ليسهر أحيانا حتى الصباح وهو يعمل طيلة ذلك الوقت. أيضا هناك من يعمل معه من الخبراء والمستشارين بعدد ربما يبلغ ١٤٠٠ فردا ومنهم العديد من جماعتكم (ويقصد الشيوعيين). وصدام في عمله هذا يخضع لنظام التسلسل الوظيفي أي يعمل تحت أمرتي)

كان لقائي ذاك مع الرئيس أحمد البكر عام ١٩٧٥ وكانت علاقة الحزب الشيوعي في وقتها تتمثل مع حزب البعث بالجبهة الوطنية التقدمية. ولكن ومنذ البداية شاب ذلك التحالف الكثير من التوتر، لا بل كان حزب البعث يجهد على تصعيد هذا التوتر ويتعامل مع الشيوعيين بطرق ملتوية تصل في أغلبها درجة الإيذاء. ولم تكن أفعال قيادة حزب البعث تلك غير ردود لهواجس خوف سببها الشعور لا بل الإدراك بتأثير الحزب الشيوعي وقدراته التي باتت تحرك بشكل كبير قطاعات واسعة من الجماهير. وحرص الشيوعيون من خلالها على تقديم كل ما هو جيد ونافع وحضاري للشعب العراقي، فأصبحت فعالياته وفعاليات التنظيمات الجماهيرية القريبة منه، محط للأنظار، وهذا الأمر ساعد على انتشار قواعد الحزب الشيوعي. وكانت التقارير الحزبية المناطقية لقواعد البعث تشير وتؤكد هذا الأمر ولذا أصبح مصدر رعب لقيادة حزب البعث.

كثيرة كانت الطرق التي اتخذها حزب البعث لمواجهة تلك الجماهيرية وكوادر الحزب الشيوعي فعمل البعث على ابتكار الأساليب في محاولة لمنع الشيوعيين من استغلال وجودهم في الجبهة الوطنية. فقام البعث بالعديد من المحاولات لزعة ثقة الجماهير بالحزب الشيوعي وكوادره، وكذلك عزل تلك الطاقات عن قواعدها وأيضاً عن الجماهير، فعدا حملات الاغتيالات والاختطاف والاعتقال، فقيادة البعث قامت بحملة ممنهجة تم وفقها نقل العديد من الكوادر المتقدمة للحزب الشيوعي من العاملين في الجامعات والمؤسسات والدوائر الحساسة والمؤثرة إلى أماكن ووظائف غير فعالة وأغلبها بعيدة عن اختصاصهم المهني، وتم وضعهم تحت المراقبة اليومية، وكانت

بعض تلك الدوائر تخضع مباشرة لسلطة قيادات حزب البعث وكوادره الأخرى. ومن تلك الدوائر المجلس الزراعي الأعلى الذي ترأسه وقتذاك عزت الدوري.

كان الدكتور كاظم حبيب حينها أستاذا جامعيا وله سمعة طيبة على مستوى أساتذة الجامعة وكادرها الإداري وأيضا بين أوساط الطلبة. وكانت توجهاته العلمية الاشتراكية وعلاقته بالحزب الشيوعي لهما وقع خاص بين طلبته، لذا تعرض مثلما باقي كوادر الحزب الشيوعي إلى مضايقات متعددة وحملة قاسية من الطعون توجت بنقله إلى المجلس الزراعي الأعلى، وبقي لفترة طويلة عضوا متفرغا فيه، يقدم بحوثه ورؤاه عن طبيعة العمل في مجال الزراعة والمياه وصدرت له في ذلك الوقت دراسات قيمة، وكان موظفا حاله حال العديد من أقرانه الذين نقلوا ودفعوا للعمل في المجلس، وضمن مجموعة كبيرة تجاوزت أكثر من ألف وأربعمائة شخص من جميع الاتجاهات السياسية، وكان الكثير من هؤلاء دون انتماء حزبي، وقد تعرض الدكتور كاظم حبيب في تلك الفترة إلى الاعتقال حتى وهو في ذلك المكان الوظيفي.

في مقابلتي للرئيس أحمد حسن البكر وحديثه معي، كانت له رغبة واضحة وألح بشدة لدفعي على الموافقة ومقابلة صدام حسين، لذا ذكر عدد الخبراء والمستشارين وأشار إلى وجود الدكتور كاظم حبيب في المجلس الزراعي الأعلى دون أن يحدد طبيعة عمل ووظيفة الدكتور كاظم حبيب، وكان يعني بقوله ذاك أن الدكتور كاظم حبيب شيوعي ويعمل في مؤسسة يقودها صدام حسين، وأناي شيوعي مثله فلماذا أرفض مقابلة صدام حسين. كان قوله هذا رغبة منه لحثي وترغيبني لمقابلة صدام حسين وقد بينت له عدم رغبتني في تلك المقابلة بسبب محدودية مهمتي واقتصارها على مقابلته ومن سوف يكون مسؤول عن مهرجان الفارابي ولذا قابلت وزير الثقافة طارق عزيز. وكنت في هذا الأمر ملتزما بتوجيه السيد غفوروف مدير معهد الاستشراق السوفيتي.

(١٩)

مقتل صالح مهدي عماش

فجأة ودون مقدمات وبعد عدة سنوات قضاها صالح مهدي عماش سفيراً لبلاده في موسكو صدر أمر نقله إلى باريس عام ١٩٧٤ وعين سفيراً لبلاده هناك، ولكنه لم يكمل العام في فرنسا حين صدر أمر نقله سفيراً لبلاده في فنلندا عام ١٩٧٥. كان عماش في أقصى حالات الانزعاج والعصبية وهو يتلقى هذا الأمر، وكالعادة عله بضغوط صدام حسين على رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر. وقد أفصح عن هذا حين جاء إلى موسكو لبعض الوقت متجهاً عبرها إلى فنلندا والتقى بالسيد غفوروف في زيارة لمعهد الاستشراق حيث قال إنه أتصل بالرئيس البكر فأجابه بضرورة الالتحاق بوظيفته الجديدة حين ما تستجد بعض المسائل. وصل عماش إلى هلسنكي عاصمة فنلندا فلم يجد هناك مقراً للسفارة العراقية، فالعلاقات الدبلوماسية بين البلدين كانت في طور البداية، لذا سكن في أحد الفنادق بشكل مؤقت. بعد فترة استطاع شراء بيت ضخم وبدأ بتجهيزه ليكون مقراً للسفارة العراقية هناك. وقدم طلبات عديدة إلى وزارة الخارجية العراقية لدفع مبالغ تأثيث السفارة ورصد الموظفين لإكمال طاقم العمل.

لم يكن صالح مهدي عماش ليخفي امتعاضه وعداءه لصدام حسين واستمر على ذات المنوال بعد انتقاله إلى فنلندا وتأسيسه لسفارة عراقية في العاصمة هلسنكي. ورغم التحذيرات الكثيرة التي وجهت له من الجانب السوفيتي فإنه كان واثقاً بأن صدام وأجهزته لن تتمكن من اغتياله، وكان حذراً ويتخذ كافة الاحتياطات لتجنب أي محاولة لاغتياله خلال وجوده في موسكو. وفي هذا الجانب فموضوع التخلص منه داخل الاتحاد السوفيتي ربما لم تكن في وارد المخابرات العراقية لحساسية الموضوع المتأني مع عمق العلاقة مع الاتحاد السوفيتي التي تجعل صدام يتجنب اغتيال عماش

هناك، فحدوث مثل هذا الأمر وتحت أعين المخابرات السوفيتية سوف تكون له ردود فعل غير مستحبة ويمكن له أن يوتر بشكل كبير على العلاقة بين الطرفين، لما يمثله من تحد للسلطة السوفيتية وأجهزتها الأمنية. وما كان انتقال عمّاش إلى فنلندا غير محطة جديدة تختلف كلياً في نمط تعاملها مع عمّاش. فللمرة الأولى تفتح سفارة عراقية في هلسنكي وطبيعة العلاقة الجديدة لم تكن تفرض على المخابرات الفنلندية توفير حماية خاصة لصالح عمّاش، وتلك الأجهزة تختلف كلياً عن سابقتها السوفيتية، وهي ليست على دراية بخفايا العلاقات السياسية وطبيعة الحكم في العراق مثلما كان الاتحاد السوفيتي محيطاً بها. ورغم جميع التحذيرات التي سبقت انتقاله فقد كان عمّاش غير مبال بأخذ الاحتياطات اللازمة بل والموجب عليه اتخاذها. فقد كان يمارس عمله في العاصمة الفنلندية بشكل منفتح ودون محاذير، وكانت تحركاته ونشاطه وبرغبة صادقة ومهنية، واسعة وحيوية لأجل بناء هيكل لسفارة بلاده.

في الثلاثين من يناير عام ١٩٨٥ كان عمّاش كعادته ولغرض توطيد العلاقات الدبلوماسية والمهنية فقد أقام مأدبة عشاء لبعض الشخصيات الرسمية في مقر إقامته في العاصمة هلسنكي وكان هذا المقر لا يبعد عن السفارة العراقية سوى عشرات الأمتار. في نهاية الوليمة غادر الضيوف وبقي السفير صالح عمّاش وبعض أصدقائه وعدد من موظفي السفارة يواصلون سهرتهم، فجأة شعر عمّاش بألم حاد في بطنه تم إثرها نقله إلى المستشفى الجامعي في العاصمة هلسنكي. في بداية الأمر وبعد التشخيص الأولي أعتقد الأطباء بأن عمّاش قد تعرض لذبحة صدرية، ولكن بعد ذلك نفى الأطباء حدوث ذلك، وبينوا بأن السبب في سوء حالته الصحية ربما يعود إلى تسمم في معدته. بعد ساعات من الفحوص الطبية، توفي صالح مهدي عمّاش، عند ذلك قرر الأطباء تشريح الجثة ولكن أحد الموظفين في السفارة المدعوطه محمد أخبرهم بأن مثل هذا لا يجوز في الشرع الإسلامي، والسلطات العراقية وحدها سوف تكون مسؤولة عن فعل هذا إن أرادت عائلته ذلك، وبالفعل لم يتم تشريح الجثة في هلسنكي، وتقرر نقل جثمانه إلى بغداد بناء

على طلب من عائلته وإصرارها على دفنه في العراق. تم نقل جثمانه إلى فرانكفورت في ألمانيا أولاً ومن هناك إلى بغداد. كان في استقبال الجثمان في المطار عائلة عمّاش والوزير طارق عزيز ومجموعة من موظفي وزارته. بعدها نقل جثمان عمّاش إلى بيته في منطقة الصليخ في الأعظمية وفي الصباح أقيمت الصلاة على روحه في جامع الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، وبقي طارق عزيز خارج الجامع ولم يدخل للمشاركة في الصلاة، كونه من أتباع الديانة المسيحية وحين نقل الجثمان إلى المقبرة لدفنه فوجئ الجميع بعدم وجود قبر مهياً للدفن، وعلى عجل تم حفر القبر ووري جسد صالح عمّاش فيه. لم تبدي في وقتها حكومة صدام حسين أي اهتمام بما حدث، ولم يتم تشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة، بل إن أجهزة الأمن ورجال صدام لم يكن ليخفوا فرحهم بالتخلص من أحد المناوئين والخصوم الحقيقيين للطاغية صدام حسين، وحسب الكتاب الذي صدر في العاصمة السويدية ستوكهولم بعنوان (بمهمة من بغداد) فإن المدعو طه محمد كان لا يخفي فرحته بالحدث وبإبتهاسه عريضة ظاهرة شارك في توديع الجثمان حين نقل إلى بغداد. وكتاب بمهمة من بغداد الذي صدر في السويد نهاية عام ٢٠١١ من تأليف الباحث ماتس إيكمان، يتحدث عن مؤامرات عملاء صدام وعمليات الاغتيال التي قاموا بها في الدول الاسكندنافية برعاية وإشراف السفير العراقي في ستوكهولم حينذاك محمد سعيد الصحاف، حيث يشير الباحث لوجود أكثر من مائة عميل، وكانت أكثر عمليات الاغتيال التي تتم على أياديهم يستعمل فيها الثاليوم وتقطع جثث الخصوم، ويتطرق الكتاب لعملية الاغتيال التي تعرض لها السفير العراقي في فنلندا السيد صالح مهدي عمّاش ويؤكد على إنه قد تعرض للاغتيال بواسطة دس السم في طعامه. وهكذا انتهت وحسب التقاليد البعثية، حياة أحد أهم رجالهم.

الفصل الثالث

حول بعض سياسات الاتحاد السوفيتي

حررها فرات المحسن

(١)

السياسة السوفيتية والأحزاب الشيوعية العربية

لم يتوقف الاجتهاد في النص ضمن الحركة الشيوعية العالمية منذ وفاة كارل ماركس وفردريك انجلز، بل كانت وفاتها مرحلة جديدة للاجتهاد والتطوير في النظرية بما يتناسب ومستوى المواجهة مع الأحداث والفعل اليومي.

مثلت الثورة البلشفية، ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ بقيادة فلاديمير لينين الخطوة الأكثر فاعلية في تنفيذ أفكار كارل ماركس وتطوير ملهم للقائد لينين، مثلما يشير الكثير من الباحثين والمروجين لأفكار لينين وثورة أكتوبر. وباتت اجتهاداته مرحلة مهمة في الذهاب لتفسير الماركسية وتنفيذ ثورة لإقامة دولة الاشتراكية ومن ثم لاحقا الشيوعية. وعد التنظير اللينيني في كيفية إدارة الدولة، الاجتهاد الأصح في متن النظرية الماركسية. لا بل تنفيذا صارما للماركسية.

كانت الأهداف المعلنة للثورة البلشفية هي المساواة بين فئات الشعب والقضاء على الرأسمالية والإقطاع وتحقيق النموذج الاشتراكي المفضي في النهاية إلى الشيوعية، ولكن طريق تنفيذ العمل ما كان يخلوا من المصاعب والعثرات. فقد واجهت الثورة معضلات ووقائع على الأرض بمستويات متعددة ومتنوعة، كان يحتاج لحلها أو التعامل معها، رؤية واقعية بعيدة في كثير من منهجيتها عن فحوى التنظير والدراسات النظرية، ولا يقتصر التفاعل معها عبر نص مدون بقدر ما يحتاج إلى وعي بطبيعة المشكلة وطرق حلها، مما دفع أصحاب الشأن للبحث عن مخارج تقارب الحدث وتحاول وضع حلول واقعية له. وكان هذا الأمر يوقع الكثيرين في دوامة التناقضات وحتى التعارض مع مفاهيم وردت وترد في النظرية الماركسية، عندها تتضخم بدرجات متفاوتة طرق الاقتراب أو النأي عن النظرية.

فمتطلبات الناس ليس فقط الحريات والمساواة وهي أهداف جميلة بالطبع، ولكن ما يترافق معها هي حاجات البشر الأساسية للمواد والموارد وضرورة إشباع حاجاتهم المادية والروحية التي تزداد باضطراد، وتنشأ مع الوقت الحاجة الماسة لتطوير ورفع قدرة البشر على استخدام وتوظيف الموارد الطبيعية ووسائل الإنتاج لتتوافق مع الحاجات الاقتصادية الاجتماعية للمجتمع.

إذن فأن تحقيق الاشتراكية الذي عمل عليه لينين قد واجه واقعا على الأرض يتطلب اجتهدا خاصا. لذا عمل ومن معه على استنباط أفكار جديدة لقيادة المجتمع ووسموا اجتهداتهم تلك بالماركسية اللينينية.

واستمر ذلك خلال فترات طويلة أثناء الحرب الأهلية والحرب العالمية الأولى ثم الثانية وما تلاها، وجرت تلك الاجتهادات بشخص لينين.

ظهور الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية مثل مرحلة جديدة ومختلفة عما سبقتها، حيث ارتفعت وتيرة الاجتهاد في النص الماركسي وبرزت العديد من الشخصيات التي فككت الحدود النظرية للماركسية وأعطت مفاهيم جديدة عن طبيعة التشكيل الاشتراكي وكذلك مستقبل البناء الشيوعي.

ولأجل استجلاء بعض مما حدث من تغيير أو اجتهاد في النظرية والتطبيق وما شاب ذلك من أحداث داخل الاتحاد السوفيتي وأيضا العلاقة التبادلية مع البلدان النامية. كذلك طبيعة العلاقة مع الأحزاب الشيوعية العربية كان لنا لقاء مع الدكتور خليل عبد العزيز.

في بداية حديثنا ولكون الدكتور خليل عبد العزيز عاش فترة طويلة من الوقت في الاتحاد السوفيتي وخاصة سنوات الستينات والسبعينات من القرن العشرين عاصر فيها أحداث عديدة، لذا طرحت عليه سؤالا حول تركيبة الخطاب السياسي للسلطة السوفيتية في تلك الفترة، وهل هناك من ميزة يتميز بها ذلك الخطاب.

- كانت ميزة الكتمان والسرية تغطي على جميع سياسات السلطة والحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، فيتم التكتّم على جميع الأحداث ولا تظهر للعلن أي من تلك السياسات قبل التدقيق والتمحيص، حيث تدخل في فلترة يجعلها تتواءم وتوجيهات القيادة والسياسة العامة للحزب. كانت هناك صراعات وخصومات كبيرة داخل اللجنة المركزية، وأيضا توجد أفكار وآراء مختلفة ومتضاربة داخل مؤسسات الأبحاث العلمية، ولكنها لا تظهر للعلن، وتلك طبيعة راسخة عند جميع الأحزاب الشمولية. كنت أسمع بأن يفغيني بريماكوف كان يقدم للقيادة السوفيتية صورة سيئة جدا عن طبيعة الأحزاب الشيوعية العربية وعملها، في حين إن رئيس معهد الاستشراق السيد غفوروف يحمل تصور آخر ويتحدث بالضد مما يقدمه بريماكوف وهذا ما كنت أطلع عليه في عملي داخل معهد الاستشراق. ولكن الغريب أن جميع هؤلاء حين يحضرون اجتماعا مشتركا تحتفي النزاعات ونبرة الخلاف لصالح توحيد الخطاب الأيدلوجي لعموم الاتحاد السوفيتي.

— ما كانت طبيعة تعامل الحزب الشيوعي السوفيتي مع الأحزاب الشيوعية العربية؟

— كانت هناك رغبة عارمة تحتاج بعض معاهد الدراسات السوفيتية وأيضا داخل أوساط اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. تلك الرغبات والسياسات تعمل لأجل حل وإنهاء وجود الأحزاب الشيوعية في البلدان النامية وتعزيز الروابط الاقتصادية والسياسية، بالذات مع البلدان التي تسلك الطريق اللا رأسمالي. فلم يكن هناك بين أوساط القيادة السوفيتية تقييما إيجابيا لجميع الأحزاب الشيوعية العربية، وكان يؤشر لحضور أعضاء قياداتها إلى موسكو، فقط لغرض تلقي التعليمات والاستجمام. ودائم ما كانت القيادة السوفيتية تجد ما يصعقها ويثير استغرابها من تصرفات وأفكار غير واقعية يعرضها بعض قادة الأحزاب الشيوعية العربية. وبدورها

فإن تلك الأحزاب كانت تؤله الحزب الشيوعي السوفيتي وتجد فيه المرشد والمعلم والأب الروحي الذي لا غنى عنه، ودائماً ما تجد فيه العصا السحرية لحل مشاكلها حتى الداخلية منها. وبدورهم كان السوفييت يدركون جيداً هذا الأمر ويتعاملون مع تلك الأحزاب بشيء من عدم المبالاة، فتراهم لا يعيرون اهتماماً جدياً للآراء التي تقدمها الأحزاب الشيوعية العربية، وفي الغالب يهملون طلباتها التي لا تتوافق والسياسة العامة للدولة السوفيتية. وفي العديد من المرات، تراهم يجدون في طلبات الأحزاب الشيوعية العربية ما هو غير واقعي لا بل لا يمكن تناوله والنقاش فيه أو حوله. ولطالما كانت تلك الطلبات بعيدة كل البعد عن التفكير المنطقي الذي يستحق التداول أو التنفيذ. وفي الكثير من الأوقات أهمل السوفييت علاقتهم هذه، ولهذا وضعوا موظفين صغاراً أغلبهم يعملون في أجهزة المخابرات وليس لهم مناصباً حزبية مؤثرة ليكونوا وسطاء بين الأحزاب الشيوعية العربية والحزب في الاتحاد السوفيتي. ولم يكن ليمر طلب لمقابلة أو اتصال أو التماس وحتى حاجة بعينها، إلا من خلال هؤلاء. وعلى سبيل المثال فإن أحد هؤلاء كان يدعى (نيجكين) عمل في فترة ما بعد ثورة ١٤ تموز ملحفاً ثقافياً في السفارة السوفيتية في العراق. ثم عين وسيطاً مخابراتياً. نيجكين هذا كان يبتز مسؤولي الحزب الشيوعي العراقي ولا يوافق على إيصال طلباتهم إلى القيادة السوفيتية دون أن تقدم له رشا معينة، دائماً ما كان يحددها هو وليس هم.

في إحدى المرات طلبت قيادة الحزب الشيوعي اللبناني وبإلحاح غريب مقابلة المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي لغرض حل مشكلة كانت مستعصية على الرفاق اللبنانيين وموضوع خلاف واسع بينهم. وبعد جهد جهيد قبل السوفييت حضور الاجتماع، فعرض الرفاق اللبنانيون خلافهم الداخلي، أحتار الرفاق السوفييت في كيفية الإجابة عليه، ووجدوا إن ذلك ليس من مهامهم، ومن غير المعقول أن يطلب منهم حل إشكال بسيط مثل هذا بإمكان اللبنانيين أنفسهم حله. ففي اليوم الأول من اللقاء قالوا بأنهم يوجهون سؤا لهم لقيادة الحزب الشيوعي السوفيتي، هل الإصلاح

الزراعي صالح وقابل للتنفيذ في لبنان أم غير ذلك، كان سؤالاً من غير المنطقي عرضه علينا هكذا أجاوبهم الرفاق السوفييت، فالحزب الشيوعي اللبناني يعرف جيداً وضع بلاده وطبيعة الريف والملكيّات الزراعية هناك، ولا حاجة لتدخلنا، ولكن الرفاق اللبنانيون أصرّوا على تلقي النصيحة من السوفييت فختم السوفييت الاجتماع في اليوم الثاني بنصيحة واحدة فقط أنهم اجتمعوا بها اجتماعهم مع القيادة اللبنانية، بأن من المهم بحث الموضوع داخل تنظيمات الحزب الشيوعي اللبناني.

الحزب الشيوعي الوحيد الذي كانت تحسب له القيادة السوفيتية الحساب، هو الحزب الشيوعي السوداني بقيادة عبد الخالق محجوب. فقد كان لهذا الحزب رأي حر ومستقل ودقيق وثابت وناضج في علاقاته مع السوفييت، ودائماً ما كان الشيوعيون السودانيون يوجهون نقداً حاداً للسياسة الدولية للسوفييت، وهذا الموقف كان يسبب صداماً وحرّاجاً للقيادة السوفيتية، لذا كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وفي بعض الأحيان تمتنع عن دعوة الحزب الشيوعي السوداني لحضور لقاءات الأحزاب الشيوعية العربية. وحين يواجه السودانيون رفاقهم السوفييت ويعاتبونهم على موقفهم ذلك، يقدم الجانب السوفيتي الاعتذار ويرر الأمر بأن ذلك حدث سهواً أو إن ذلك جاء بسبب الموظف المكلف بملف توجيه الدعوات. في الجانب الآخر فقد كان أكثر الأحزاب الشيوعية خنوعاً وذليلاً، هي بعض الأحزاب الشيوعية العربية مثل الشيوعي السوري بقيادة خالد بكداش واللبناني بقيادة نيقولا الشاوي والحزب الشيوعي الأردني بقيادة فؤاد نصار وحزب التقدم والاشتراكية المغربي بقيادة علي يعته. فلم تكن لهؤلاء كلمة أو رأي يعتد به عند السوفييت، وإنما عرف عنهم الخضوع وقبول أي رأي يعرض عليهم، فقد كانوا في حالة موافقة دائمة ورضوخ لجميع ما يمليه عليهم الجانب السوفيتي.

من خلال وثائق الحزب الشيوعي السوفيتي التي تم كشفها بعد انهيار الاتحاد

السوفيتي هناك وثيقة هامة تشير لرسالة موجهة من قبل السيد خالد بكداش سكرتير الحزب الشيوعي السوري إلى زعيم الأهمية الاشتراكية ديمتروف يطلب فيها اعتماده مسؤولاً مباشراً ووحيداً عن جميع الأحزاب الشيوعية العربية وتحصر العلاقة به ومن خلاله في جميع ما يخص تلك الأحزاب وبدوره فقد قام ديمتروف بإحالة رسالة خالد بكداش إلى المكتب السياسي الحزب الشيوعي الذي رفض طلب بكداش رفضاً تاماً.

— يعتقد البعض بأن فرق الثقافات والوضع الاجتماعي كان له تأثير في طبيعة العلاقة بين الجانبين السوفيتي والعربي.

— هذا صحيح جداً. ويمكن أن تؤثر حالة كانت انعكاساتها غير إيجابية على الكثيرين من الشيوعيين القادمين من البلدان النامية، ودائماً ما كانوا يتدمرون منها، كونها ما كانت لتناسب طباع وطبيعة عمل ونضال هؤلاء، ولكن القيادة السوفيتية تجد فيها إنعاشاً وتجديداً لحياة هؤلاء الذين أتوا من أوضاع نفسية ومادية قاهرة. وكانت تلك الرؤية لدى القادة السوفييت تعبيراً دقيقاً عن مشاعر عطف أو بالضبط مشاعر الأبوة التي تنعكس في طرق تعاملهم مع الشخصيات الشيوعية التي تصل إلى الاتحاد السوفيتي. وهذا الأمر يخضع للمزاج العام ومثله للفروق في الثقافة والعادات والتقاليد بين الشعوب، وكان ذلك يلعب دوراً مهماً حتى في التوجهات السياسية. فالظروف السياسية والحياة الاجتماعية للكوادر الشيوعية في البلدان النامية ومنها العربية تختلف كلياً عن حيثيات الحياة اليومية والقيم التي تربت عليها كوادر الحزب الشيوعي السوفيتي وبالذات منهم الروس. فحين يأتي أحد الكوادر الشيوعية إلى موسكو يطلب منه الذهاب إلى المنتجعات ليقضي فترة نقاهة مثلما حدث مع أغلب الرفاق الشيوعيين العراقيين، وهذا الأمر بتقدير القيادة السوفيتية يأتي كضرورة لإبعاد المنغصات عن تفكير الرفيق وتخفيف وطأة المشاكل وما تعرض له من تعذيب أو ملاحقات، وكان هذا الأمر دالة إيجابية كان على شيوعيي البلدان العربية قبولها ليتمتعوا بصفاء الذهن

وتبتعد أرواحهم عن تلك الأوقات العصيبة التي اعترضت حياتهم في بلدانهم..

عند قدومي إلى موسكو قابلت الرفيق سلام عادل فنصحني بأن لا أقبل الذهاب إلى مصح أو منتجع لو عرض علي ذلك، فسألته عن السبب، فأجابني بأن ذلك يمثل شيء من الاستخفاف وعدم الجدية بالنسبة للمناضل العراقي، وروى لي كيف إن القيادة السوفيتية أرسلته إلى الريف خارج العاصمة موسكو، حيث كان هناك وسط غابة كثيفة الأشجار منتجع جميل يطلق عليه تسمية مصح. صباح اليوم الأول وبعد أن تناولت الفطور سألت المشرفين عن البرنامج المعد خصيصاً لي، فأجابوني بأن ليس هناك برنامجاً محدداً بل عليك أن تسير وسط الغابة حتى نهايتها ثم تعود إلى المصح لترتاح. وهناك يتوفر كل شيء من أكل وشراب وراحة تامة وسط سكون الطبيعة ورائحة الحشائش والورود. وقد قطعت الغابة ثم عدت واستمرت حياتي اليومية على هذا المنوال فترة ليست بالقليلة. وحين سألت الرفاق السوفيت عن سبب أو علة وجودي هناك، أخبروني بأن إرسالي جاء وفق معايير أهمها، إيجاد أجواء راحة وأمان تام، بعد أن وجدنا أنك قد تعرضت للاضطهاد والمطاردة في بلدك، لذا تحتاج إلى فترة مناسبة من النقاها والهدوء والابتعاد عن الأجواء المتوترة المشحونة بالقلق والترقب والاختفاء.

صحيح إن السوفيت كانوا بذلك الفعل يرغبون بتأمين أجواء هادئة وبعيدة عن التشنجات لرفاقهم من البلدان النامية، ولكن طبيعة التركيبة النفسية والثقافية والاجتماعية لهؤلاء الرفاق ما كانت تسمح لهم التأقلم مع ما يوده الرفاق السوفيت لهم، ولكن الحاجة وسلطة الأب كانت في الغالب تفرض عليهم المسيرة والقبول.

— هناك الكثير من المؤشرات حول طريقة تعامل السوفيت وتغيير استراتيجياتهم

في التعامل مع الأحزاب الشيوعية العربية. هل من الممكن الحديث عن هذا؟

— تغيير النهج أو طرح رؤية إستراتيجية جديدة للتعامل مع تركيبة تلك الأحزاب

ودورها في عمليات التغيير داخل بلدانها، ظهر بشكل تصاعدي بداية سنوات الستينات من القرن العشرين، حين ظهرت بين أوساط الحزب الشيوعي السوفيتي، وبالذات داخل لجنة العلاقات الخارجية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لعموم الاتحاد السوفيتي التي كان يرأسها وقتذاك الرفيق بوناماريوف، ظهرت آراء جديدة حول العلاقة بالأحزاب الشيوعية في البلدان النامية وهوية العمل من أجل تحقيق الاشتراكية في تلك البلدان.

كان رأي الرفيق بوناماريوف والرفاق المحيطين به حول طبيعة الثورة الاشتراكية وطرق إنضاجها أو القيام بها في البلدان النامية، يحمل الكثير من التشاؤم والتطير، لا بل كان مفرطاً باليأس ويستكثر على الأحزاب الشيوعية في تلك البلدان القدرة على تحريك الجماهير أو قيادتها للقيام بمهام الثورة، وإن التفكير بمثل هذا الأمر يبدو ضرباً من الخيال يستحيل تحقيقه. وكانت هناك أيضاً معاهد دراسات وقيادات حزبية تؤيده في نهجه هذا، بالرغم من إن أغلب هؤلاء لا يتطرقون للأمر سلبياً كان أم إيجاباً. ومثل هذا الموقف يأتي ضمن سياق الهيكلية الحزبية والموقف النظري الأيدلوجي الذي اعتاد على تقديم الحزب الشيوعي السوفيتي ككتلة متجانسة متراسة لا يوجد داخلها خلاف أو اختلاف. وفي ذات الوقت، فالموقف الرسمي كان دائماً ما يحمل بين طياته ازدواجية في المعايير، فيحرص في خطابه السياسي، وضمن سياسة مواجهة الخصوم، على تغيير تركيبة هذا الخطاب بتقديم صورة أخرى تظهر الأحزاب السياسية الحاكمة في البلدان النامية على إنها أحزاب ثورية قادرة على إجراء التغيير الاشتراكي في بلدانها عن طريق الثورة، وكان هذا الموقف الرسمي الذي يعرض أمام الرأي العام وتختفي دونه باقي المواقف.

بعد فترة من الزمن وضمن حملة ممنهجة، ظهر رأي بوناماريوف إلى العلن، وبدأ الترويج له داخل أوساط الحزب الشيوعي السوفيتي. وأخذت حملة التنظير تتسع

بعرض الفكرة القائلة عن إمكانية تحقيق الاشتراكية عبر النضال السلمي وطريق التطور اللارأسمالي، والتخلي عن التفكير بركوب موجة الثورات وضرورة قيادة الأحزاب الشيوعية لعملية تغيير أنظمة الحكم. وأخذت تطفو إلى السطح وبشكل واسع فكرة الضغط على الأحزاب الشيوعية في البلدان النامية للأخذ بهذا التوجه دون سواه، رغم وجود آراء مخالفة لذلك عند العديد من السياسيين والباحثين السوفيت. وعبر موجة من التنظير داخل الأوساط القيادية السوفيتية، طرحت فكرة التعامل الايجابي مع السلطات الحاكمة وأحزابها، التي تتبنى فكر اشتراكية مهما كانت طبيعته، وتستند على بعض قوى الجماهير، والأهم في الأمر أن تكون في مسيرتها بعيدة عن آليات وهياكل الاقتصاد الرأسمالي.

— وكيف نفذت مفاهيم ورؤى الرفيق بونا ماريوف؟

— كان حقل التجارب الأول في مصر بقيادة جمال عبد الناصر. فقد كانت هناك داخل القيادة السوفيتية رؤية خاصة ايجابية عن شخصية الرئيس عبد الناصر، ولقيت خطواته التي اتخذها في طريق بناء مصر واستقلالها تقيماً إيجابياً، وبالذات حين رفع شعار الطريق نحو الاشتراكية العربية والتزامه بالنهج الثوري لتحقيق ذلك. وهذا ما أغرى البعض في القيادة السوفيتية، بالرغم من كون خطوات عبد الناصر في تطبيقه للاشتراكية كانت غامضة لا بل متقلبة بين العروبة والإسلام والطوباوية، وكانت لا تعدو سوى خطوات لا ترقى حتى للمربع الأول في طريق بناء الاشتراكية. وكان واضحاً بأن ليس هناك في وارد تفكير عبد الناصر السير في خط بناء الاشتراكية العلمية على أسس النظرية الماركسية، ولكن لم يكن هذا ليشني البعض في القيادة السوفيتية، ومثلهم في بعض معاهد الدراسات والصحف، التي راحت بجهود استثنائية تكيل المديح وتشيد بسلطة عبد الناصر واعتبرت اتخاذه قرار السير نحو الاشتراكية بداية جيدة ممكن أن تفضي في النهاية لبناء الاشتراكية العلمية، وكان من أكثر المتحمسين

لهذا الرأي الرفيق بونا ماريوف ويشاطره في هذا السيد يفغيني بريماكوف والسيد أيكربيلاييف، وهؤلاء كانوا مقتنعين بشكل ناجز بأن مصر تحت قيادة عبد الناصر تسير في الاتجاه الصحيح، وليس المهم التسميات إن كانت اشتراكية إسلامية أم عربية وإنما المهم هو الابتعاد عن سياسة السوق الرأسمالية وبناء الاشتراكية المفضي إلى ما تعتقد به القيادة السوفيتية.

في ذلك الوقت وجهت إلى جمال عبد الناصر نصائح عديدة لتشكيل حزب يقود مرحلة البناء الاشتراكي إن رغب فعلا في اتخاذ هذا الطريق، وجاءت هذه النصائح من بعض القيادات المصرية ومن الخارج أيضا، وكذلك من شخصيات سوفيتية مرموقة، وكانت جميعها تشير إلى إن التوجه لبناء الاشتراكية لا يمكن له أن يتم فقط بالاعتماد على أجهزة الأمن والجيش. وبدوره فقد أقتنع جمال عبد الناصر بالفكرة وأعلن عن تأسيس الاتحاد الاشتراكي العربي. ففي شهر تموز من عام ١٩٦٢ عقدت اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية في مصر مؤتمرها، وفي هذا المؤتمر أكد جمال عبد الناصر التزامه بالخط الثوري ومسيرة الاشتراكية العربية، وأعلن عن تأسيس الاتحاد الاشتراكي العربي، فصدر عنه قرار تشكيل الأمانة العامة للاتحاد، وكان جل أعضائها من القيادات العسكرية التي شاركت عبد الناصر الإطاحة بالملكية. ونص دستور الاتحاد الاشتراكي على كونه تنظيم سياسي طليعي يمثل رأس المرح في التحول نحو الاشتراكية، وهو الذي يقود الجماهير ويعبر عن إرادتها ويوجه سياسة الدولة والعمل الوطني.

— وما كان موقف الحزب الشيوعي المصري من كل هذا، وما كانت طبيعة علاقته بعبد الناصر؟

ما كان جمال عبد الناصر ليعطي اهتماما أو أية قيمة معنوية للحزب الشيوعي المصري ويهمل وجوده إهمالا كبيرا ومتعمدا. وحين طرح مشروع الاتحاد الاشتراكي

أراد من الشيوعيين أن يتوافقوا كلياً مع رأي وتوجهات السوفييت في البناء السلمي للاشتراكية، ولذا عليهم أن يدخلوا طوعاً ومن ثم الذوبان في الاتحاد الاشتراكي العربي. فقد كان جمال عبد الناصر يحذر حذراً شديداً من وجود الحزب الشيوعي وكذلك من تنظيم الإخوان المسلمين، ويجد في هذين التنظيمين ما يهدد جمهوريته ووجوده الشخصي، وكان ذلك أحد أهم الحوافز التي دفعته لقبول فكرة بناء تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي، ليكون هذا التنظيم في النهاية الإطار الذي يضم بين أروقته جميع المصريين بعد أن يتخلوا عن انتماؤاتهم الأخرى. وبدورهم كان الشيوعيون المصريون لا يميلون لرأي القيادة السوفيتية ويترددون في تأييد جمال عبد الناصر، لا بل إن أغلب قواعد الحزب الشيوعي المصري والكثير من قيادته، يعتقدون بأن حكم عبد الناصر كان حكماً عسكرياً دكتاتورياً، ودليلهم على ذلك تفرد بالقرار وتضييقه المستمر على حزبهم وحملات الاعتقال المستمرة لأعضائهم من قبل أجهزة سلطته.

— كيف تمت موافقة الحزب الشيوعي المصري على الدخول في الاتحاد الاشتراكي العربي؟

— وجهت للحزب الشيوعي المصري ضغوط كبيرة من جهات عديدة على رأسها الرفاق السوفييت للدخول في الاتحاد الاشتراكي العربي تحت قيادة جمال عبد الناصر، وبحجة أن يكون هذا الدخول مقدمة للعمل على تسريع وتيرة التغييرات والتصعيد من أجل بناء خطوات اشتراكية صحيحة. فبعد فترة صعبة واجهت الشيوعيين المصريين، قررت قيادتهم الدخول في الاتحاد الاشتراكي، ولكن طموح ورغبة جمال عبد الناصر ومعه القيادة السوفيتية كان أبعد من ذلك، ولم يتوقف عند هذا الحد بل ذهب بعيداً، حين وجهت ضغوط هائلة على الشيوعيين المصريين لإقناعهم بضرورة حل حزبهم ككيان قائم، وإن لا حاجة لوجوده بعد أن ثبت دخوله الطوعي ووجوده كفصيل داخل الاتحاد الاشتراكي العربي.

لاقى الضغط السوفيتي بادئ الأمر صعوبة كبيرة في أقناع الشيوعيين المصريين بحل حزبهم. فقد كانت أعداد ليست بالقليلة من قواعد وكوادر الحزب تقف بالضد من مثل هذا التوجه. وبدوره كان موقف القيادة السوفيتية يزداد تعنتاً وإلحاحاً، وكان موقفها ذلك يأتي بناء على ما يقدم لها من تقارير وتحقيقات صحفية عن أوضاع مصر وقواها السياسية، وتأتي تلك عبر تقارير يقدمها مراسلو صحيفتي أزفستيا وبرافدا في مصر وهما السيدان يفغيني بريماكوف ويلايف. لذا لم يستطع الحزب الشيوعي المصري الاستمرار في العنت والممانعة، وفي نهاية المطاف فرض عليه حل نفسه والذوبان في الاتحاد الاشتراكي العربي بقيادة عبد الناصر. وقد حدثني عن ذلك الرفيق ميشيل كامل الذي كان قيادياً في الحزب الشيوعي المصري في مرحلة حله، ثم أصبح سكرتيراً للحزب الشيوعي المصري بعد إعادة تشكيله أثر موت جمال عبد الناصر وحل الاتحاد الاشتراكي العربي على عهد الرئيس أنور السادات. وقد عمل السيد ميشيل كامل أثناء الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي العربي في إحدى اللجان كداعية للاشتراكية وعين مديراً لتحرير مجلة الطليعة وبدوره فأن سكرتير الحزب الشيوعي وقتذاك السيد أبو سيف يوسف قد أعطي أيضاً عملاً في مؤسسة الأهرام الإعلامية كترضية له.

— وهل عمم هذا النهج على بلدان أخرى؟

— تبني هذا النهج كان يدفع بعض القادة السوفييت للاعتقاد بأن مثل هذا الاتجاه ممكن له أن يتطور وينجح مستقبلاً لتحقيق الاشتراكية العلمية. لذا بذلت القيادة جهود كبيرة في تطوير هذه الرؤية وذهبت بعيداً لتنفيذها في العديد من البلدان، منها غانا بقيادة كوامي نكروما وغينيا بقيادة أحمد سيكوتوري وأثيوبيا بقيادة منغستو هيلي ميريام والصومال على عهد محمد زياد بري. ففي تلك البلدان أنشأت حكوماتها بمساعدة الحزب الشيوعي السوفيتي مدارس حزبية لأعداد كوادر وطنية وفق النظرية الماركسية اللينينية وكانت تقدم لهذه المدارس مساعدات كبيرة لغرض تطوير الدارسين

فيها وبناء قاعدة واسعة منهم تقود بلدانها مستقبلا نحو الشيوعية.

من الطرائف التي أتذكرها والتي تدل على عقم ذلك التفكير وعدم حكمة النهج الذي تتخذه القيادة السوفيتية في هذا التوجه. ففي عام ١٩٧٦ كنت في زيارة إلى أثيوبيا، وفي إحدى جولاتي في العاصمة أديس أبابا وصلت إلى الساحة الرئيسية فيها حيث وضع هناك تمثالين ضخمين أحدهم لكارل ماركس والآخر للنين. وقفت جوار التمثالين ورحت أطلعتهما، ثم أردت بشيء من الفضول اختبار بعض أبناء الشعب الأثيوبي حول علاقتهم بهذين التمثالين، ومقدار معرفتهم بالشخصين، فسألت فتاة كانت تمر بقربي عن معرفتها بشخصية لينين أو ماركس من بين هذين التمثالين، فحارت الفتاة في الجواب ثم اعتذرت عن عدم قدرتها التمييز بينهما، ثم سألت رجل مر من هناك فحار جوابا أيضا واعتذر. ثم جاء رجل كان يرتدي بذلة طيار عسكري ويحمل حقيبة وبعض كتب، فطلبت منه ذات الأمر فأجاب بشكل صحيح، فسألته كيف تسنى له معرفة ذلك، فأجابني بأنه تعلمه في المدرسة الحزبية وهو الآن في طريقه إليها.

— تطرقت إلى تجربتين الأولى تمثلت بإجبار الحزب الشيوعي المصري على الدخول في الاتحاد الاشتراكي العربي بقيادة عبد الناصر والأخرى بناء أحزاب أو كوادرفق مناهج الماركسية اللينينية في بعض البلدان الأفريقية، ما هي طبيعة التجربة المتعلقة بالعراق والتي حاولت فيها القيادة السوفيتية تطبيق نهج الاحتواء مرة أخرى؟

— نهاية عام ١٩٦٣ أطيح بحكم حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق من قبل حليفهم في انقلاب شباط عام ١٩٦٣ الرئيس عبد السلام محمد عارف، في حركة انقلابية سميت حركة ١٨ تشرين الثاني عام ١٩٦٣ أيضا. كانت ميول عبد السلام عارف عروبية إسلامية وكان صديقا مقربا من عبد الناصر حسب إدعائه. وسبق له أن زار القاهرة ووقع مع جمال عبد الناصر والرئيس السوري اتفاق الوحدة الثلاثية بين هذه البلدان في شهر ابريل من عام ١٩٦٣ الذي احتوى كمشروع وحدوي على عدة

محاور فصلت فيها غاية الاتحاد وتوجهاته السياسية والاقتصادية ومقوماته وتشكيلاته الإدارية. وإثر ذلك الاتفاق وحد شكل العلم للبلدان الثلاثة ووضعت ثلاث نجوم تتوسط ألوانه الخضراء والبيضاء والحمراء. ولكن هذا الاتحاد لم يستمر بل لم تنفذ من بنوده غير ادعاءات عروبية فارغة، وقضي عليه بعد ثلاثة أشهر من التوقيع.

بعد الإطاحة بحكم حزب البعث في العراق قام عبد السلام بزيارة القاهرة في نفس الوقت الذي استقبلت فيه القاهرة السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفيتي السيد نيكيتا خروشوف، استطاع عبد الناصر أن يجمعهما على متن إحدى البواخر المصرية. لذا تمت هناك مقابلة للرئيسين ودار فيها حديث غير ودي وشاب اللقاء بعض التوتر. وحول هذا اللقاء ذكرت صحيفة أركومنت أي فاكت الروسية في عددها المرقم ٤١ الصادر عام ١٩٩٧ وضمن مقال للكاتب ألكسندر موروزوف ما حدث في ذلك اللقاء ومن ثم بعده. يقول الكاتب إن من بين المدعويين بمناسبة انتهاء المرحلة الأولى من بناء السد العالي الزعيم السوفيتي نيكيتا خروشوف والرئيس العراقي عبد السلام عارف والرئيس اليمني عبد الله السلال. أراد الرئيس عبد الناصر أن يجعل لقاء الرئيس السوفيتي خروشوف وعبد السلام تقارباً يزيل الكره والخفوة بينهما ولكن جهوده باءت بالفشل. فالسيد نيكيتا خروشوف لم يكن يحمل غير الكره لشخصية عبد السلام، ويتهمه بأنه رجل سخيّف نزق، لا بل قاتل ويداه ملطختان بدماء أبناء الشعب العراقي وبالذات الشيوعيين منهم. ولعبت المصادفة دورها فجلس الرئيس العراقي عبد السلام عارف جوار السيد أوليغ كفتونوفيش المترجم الخاص للزعيم السوفيتي. ابلغ الرئيس عبد السلام المترجم رغبته في الحديث إلى الزعيم السوفيتي، فتجاهل المترجم تلك الرغبة ولكن الزعيم السوفيتي أئنه لذلك، وقال فجأة للمترجم، أليس هذا هو عارف الذي قتل الكثير من الشيوعيين في العراق؟ فأجابه المترجم أنه هو بعينه، عندها قال خروشوف: إذن أبلغه بأني لست مستعداً للحديث معه فحسب، بل لو وجدت دورة مياه واحدة فسوف لن تجدني أدخلها إن كان عارف قد دخلها قبلي.

قال هذا وراح يتفرس بشماته وفضول في وجه عبد السلام عارف ليرى أثر ما قاله هذا منتظرا ردة فعله. كان ذلك بالنسبة للمترجم موقفا في غاية الإحراج، فلم تكن لديه الجرأة لنقل هذا الحديث المهين لرئيس دولة أخرى، وفي النهاية قرر أن لا يفعل ذلك، وأن يغير الحديث بعبارات من عنده رسمت معها علامات ارتياح ورضا على وجه الرئيس العراقي، عند ذلك أدرك الزعيم السوفيتي خروشوف إن شيئا قد حصل وتغير خلاف كلامه فتوجه بالحديث إلى مترجمة متسائلا: هل نقلت كلامي بالنص؟ فأجابه المترجم، لقد أبلغته بأنك مشغول ولا وقت لديك للحديث معه الآن. عند ذلك عصف الغضب بالزعيم السوفيتي وطرده مترجمة فورا.

ذات الحادثة تناولها الصحفي محمد حسنين هيكل في كتابه المطبوع باللغة الانكليزية (ناصر وثائق القاهرة) ذكر فيه أن خروشوف لم يتوقف عند ذلك الحد بل ألفت إلى جمال عبد الناصر وهم في السيارة قائلا: يا صديقي الرئيس، إلى متى ستحاول فرض هذه المعزة عليّ؟ فسأله ناصر، أي معزة تقصد؟ أجابه خروشوف بصوت مرتفع: عارف. عارف.. عارف ثم تناول صحيفة كانت فيها صورة عبد السلام عارف وقال. ألا يبدو شبيها بالمعزة؟ كذلك رفض الرئيس السوفيتي الدعوة التي وجهت له من قبل عبد السلام لزيارة العراق بحدة و صلف فلاحى وقيل أنه وجه أهانه صريحة للرئيس عبد السلام عارف.

فالرئيس خروشوف كان يغلب على تصرفاته طابع الرجل الريفى، فهو فلاح بطبيعته ودائما ما كان سلوكه ينم عن هذا الطبع، وفي كثير من الأحيان لا يلتزم بالسلوك والأعراف الدبلوماسية. ففي بعض الاحتفالات والاجتماعات الرسمية والجمهورية، كانت من أعراف العمل السياسي السوفيتي أن يعد مسبقا خطاب مكتوب، وعلى الشخص مهما كانت درجته القيادية في الدولة، أن يقرأ النص المكتوب، ولا يسمح له مطلقا الارتجال في تلك المناسبات. ولكن خروشوف دائما ما كان يشذ عن تلك

القاعدة. فهو وبعد أن ينظر إلى المزاج العام في القاعة، تراه يقول وهو يرفع الورقة، هذا هو ما مدون هنا، وأنا سوف أتحدث لكم أيضا دونه.

في إحدى خطبه أشار إلى بناء الاشتراكية في الصين، حيث وجه سؤالاً إلى الحضور (هل رأيتم شعباً لديهم جميعاً لباس داخلي مشترك) ضجت القاعة بالضحك واستمر هو بالإجابة على سؤاله (نعم، في الصين لديهم لباس داخلي واحد يداولونه بينهم) ثم عاد إلى ورقة الخطاب الرسمي ليقراها. وفي إحدى المرات وجه له سؤال عن فعلته في الأمم المتحدة حين خلع حذائه وراح يطرق به الطاولة، فأجاب بأنه فعل ذلك كون الجميع كانوا نياماً، وقد قمت بإيقاظهم. وقد غرم الاتحاد السوفيتي وقتها بعشرة آلاف دولار باعتبار إن خروشوف قد أنتهك حرمة الأمم المتحدة.

— ولكن فيما بعد ظهر لدى القيادة السوفيتية ميل نحو عبد السلام عارف. كيف حدث ذلك؟

- حين طرح عبد السلام عارف فكرة تشكيل الاتحاد الاشتراكي العربي في العراق تقليداً لخطوة جمال عبد الناصر، شعرت القيادة السوفيتية بالكثير من الارتياح وكأنها وجدت في ذلك ما يشفع لها للذهاب بعيداً نحو خيار الطريق اللارأسمالي في بناء الاشتراكية، وعدت القيادة السوفيتية خطوة عبد السلام توجّه سليم ومكسب كبير، ورموا بعيداً ما كان يمثل عبد السلام عارف من طبيعة دموية فاشية بعد مشاركته في قتل الزعيم عبد الكريم قاسم ورفاقه وكذلك إيغاله ومشاركته في اغتيال قادة وأعضاء ومؤازري الحزب الشيوعي العراقي في انقلاب شباط عام ١٩٦٣. وكان رأي مسؤول العلاقات الخارجية في اللجنة المركزية السيد بوناماريوف قد لعب الدور الفاعل في رمي ذلك الانطباع بعيداً عن عبد السلام عارف.

ورغم ظهور المشاكل العديدة في تجربة الاتحاد الاشتراكي العربي في مصر وفشل الشيوعيين المصريين في اخذ زمام المبادرة، وترسخ دكتاتورية جمال عبد الناصر

واستشرائها فإن القيادة السوفيتية كانت تلح بشكل غريب لأجل تكرار التجربة في العراق.

ومع تشكيل الاتحاد الاشتراكي العربي في العراق تصاعدت آمال السوفييت بالقدرة على إعادة تجربة ما حدث في مصر وتكرارها مع الحزب الشيوعي العراقي، لذا أخذوا بالضغط على قيادة الحزب الشيوعي العراقي للتهيو بما يتناسب والاستعداد للدخول في الاتحاد الاشتراكي العربي الذي كان قد أُسس حديثاً. وكانت حجج الجانب السوفيتي تركز على طبيعة الحزب الشيوعي وأعداده الغفيرة التي لو قيض لها الدخول في الاتحاد الاشتراكي العربي فأنها سوف تصبح القوة الرئيسية فيه، وعندها يمكن لها أخذ زمام المبادرة وتحويل مسيرة الاتحاد نحو الوجهة الصحيحة في السير قدماً نحو بناء الاشتراكية. عملت قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي على توجيه ضغط هائل بدأته بين أوساط قيادة الحزب الشيوعي العراقي وكوادره وأعضاءه الموجودين في عموم الاتحاد السوفيتي، ومنهم حسب ما اذكر الرفيق عزيز محمد والرفيق سلام الناصري وغيرهم. وتوجهت حملة ممنهجة وواسعة عبر وسائل عديدة حزبية وإعلامية لدغدغة مشاعر الشيوعيين العراقيين ودفعهم للقبول بالدخول إلى الاتحاد الاشتراكي العربي بقيادة عبد السلام عارف. وكانت هذه اللهجة ومثلها الضغوطات تعرض وتمارس في جميع اللقاءات والحوارات التي تتم بين الجانبين، وتوجهت في أساليبها نحو قيادات وكوادر الحزب الشيوعي العراقي في الداخل وكذلك مع الموجودين في أوروبا وبالذات في براغ.

في هذا الأمر وتلك المرحلة، فإن التاريخ يسجل للحزب الشيوعي العراقي كقيادة وقواعد موقفاً قوياً وذكياً في القدرة على المراوغة وعدم الأخذ بالرأي غير الحكيم للأخ الأكبر. فموضوع الانتماء إلى الاتحاد الاشتراكي لم يتم النظر لها داخل قيادة الحزب كقضية يمكن تداولها على نطاق واسع داخل التنظيمات، ولم تعط توجيهات

حزبية للنقاش في موضوعها، ولذا لم يصدر عن اللجنة المركزية أي قرار لا بالموافقة على الدخول ولا بحل الحزب وفي ذات الوقت امتنع الحزب عن إصدار ما يفند الرغبة بذلك، ولم يكن هناك شيئاً مكتوباً أو مدوناً عن مجمل الموقف من رغبة الحزب الشيوعي السوفيتي ومحاولاته المستميتة لدفع الحزب الشيوعي العراقي للدخول في تنظيمات الاتحاد الاشتراكي العربي. ولا ينكر فإن بعض التوجيهات الشخصية صدرت من بعض الكوادر دعت للدخول إلى الاتحاد الاشتراكي ومن ضمن هؤلاء السيد باقر إبراهيم عضو المكتب السياسي واللجنة المركزية حينذاك، ولكن تلك الدعوات واجهت انتقادات حادة وهجمة شرسة من داخل الحزب، أفشلتها وقضت على رغبة القيادة السوفيتية. كان موقف الحزب الشيوعي العراقي موقفاً ثابتاً ومبدئياً، فرغم عظمة الاتحاد السوفيتي ومكانة الحزب الشيوعي فيه، وقوة الضغط الهائلة التي مورست على الحزب الشيوعي العراقي، ولكنهم لم يستطيعوا تغيير موقف الشيوعيين العراقيين في أحد أهم المفاصل التاريخية في حياته كحزب شيوعي. وتلك كانت نقطة هامة وفعالة أثبتت صحة موقف قيادة الحزب وخياره في طريق إدارة شؤونه التنظيمية والعقائدية وبقائه ككيان مؤسسي له ثقله الفعلي داخل الوطن العراق.

(٢)

الدراسة في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية

عُد قيام ثورة الرابع عشر من تموز، نقلة نوعية كبيرة في مختلف مجالات الحياة للشعب العراقي، وأيضا مرحلة جديدة في علاقة العراق بالعالم الخارجي. ففي الوقت الذي كان فيه العراق حليفا قويا للغرب أثناء حقبة الحرب الباردة، وعضوا أصيلا في الحلف الإقليمي الذي سمي وقتذاك بحلف بغداد والذي شكل عام ١٩٥٥ وشاركت فيه كل من تركيا وإيران وباكستان والعراق إضافة للمملكة المتحدة (بريطانيا). فثورة ١٤ تموز بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم غيرت قواعد اللعبة الإقليمية بشكل حاسم، وأنهت تلك العلاقات والروابط الاستراتيجية بقطيعة مع التحالف الغربي والخروج من حلف بغداد لتنتهي بذلك العصر الذهبي من علاقة متينة كانت للحكومة العراقية الملكية مع حليفتها بريطانيا العظمى.

مثما هو معروف في التاريخ القريب فإن مشروع تشكيل الدولة العراقية عام ١٩٢١ جاء على يد ووفق رغبة الساسة البريطانيين لذا أعطيت لمؤسسات الدولة العراقية طابع تشكيل أولي يتخذ من النموذج المؤسساتي البريطاني مثالا أعلى في بناءه وقواعد عمله. وكان أكثر تأثيرا وملموسية لهذا التوجه يظهر وسط المؤسسات العسكرية والتعليمية. فالمؤسسة العسكرية بنت مناهجها وقواعد السلوك والتدريب فيها وأيضا التسليح على وفق ما أسس له الساسة وجنرالات الجيش البريطاني الذين كان لهم التأثير الفعلي وتربطهم مصالح كثيرة بقيادة الجيش الشريفي الذين أصبحوا لاحقا قاعدة الحكم وركيزته بعد تأسيس الحكومة الوطنية العراقية عام ١٩٢١ وظهر التأثير البريطاني في سياسة المؤسسة التعليمية العراقية أيضا، حيث اعتمدت أصول التدريس والتقييم الانكليزية في اغلب مناهج التعليم.

حول مشاكل التعليم في العراق وإرسال البعثات خارجه في العهد الملكي، وما استجد من متغيرات بعد ثورة ١٤ تموز في طبيعة ونمط أداء المؤسسة التعليمية. ومن ثم الحديث عن النموذج السوفيتي في تدريس الأجانب ومنح الشهادات، وكذلك علاقة وأداء الحزب الشيوعي العراقي بتلك البعثات. حول كل هذا وغيره كان لنا لقاء بالدكتور خليل عبد العزيز الذي وصل الاتحاد السوفيتي عام ١٩٦٢ بعد أن حكم عليه بالإعدام إثر اتهامه المشاركة بقمع مؤامرة الشواف بالموصل، لذا تم تهريبه من العراق ليعيش هناك ويتلقى علومه الدراسية ويحصل على شهادة الدكتوراه بالصحافة ويمارس مهنة باحث علمي ومستشار بالشؤون العربية في معهد الاستشراق السوفيتي.

— في نظرك كيف كانت سياسة المؤسسة التعليمية في العراق الملكي، وبالذات في جانب إرسال الطلبة للدراسة في الخارج، وهل أقتصر ذلك على دول بعينها دون أخرى؟

— كانت سياسة التعليم في الحكومة الملكية العراقية تعتمد وتطبق أصول التدريس كما في المدارس الانكليزية، رغم اختلاف بعض المناهج التعليمية والتربوية، ولكن طرق التدريس والتقييم ومنح الشهادات يشابه بشكل كبير أسس التقييم والتدريس الانكليزية الرصينة. وقد حرصت الحكومات الملكية العراقية على وضع قواعد متينة لإرسال بعثاتها وفق شروط وقواعد مهنية وتعليمية صارمة في الاختيار. فلا يرسل للدراسة ولن يحصل على الزمالة غير المتفوقين دراسيا من أصحاب الدرجات العالية. وكانت أكثر الزمالات العلمية تخصص للدراسة في الجامعات البريطانية والأمريكية. ويعد جميع الذين عادوا من الدراسة في بريطانيا والولايات المتحدة من المتفوقين والمتميزين في اختصاصاتهم إلا ما ندر. وكانت لوزارة التربية والتعليم في العهد الملكي، علاقة مع المؤسسات التعليمية في الجارة تركيا، ولذا كانت الوزارة العراقية تحصل على بعض الزمالات من الجانب التركي فترسل بعض الطلاب للدراسة هناك، ولكن

اغلب هؤلاء كانوا يعودون دون الحصول على تعليم جيد، وفي غير المستوى العلمي الرصين، ويعود السبب في ذلك لاختلاف وعدم موافقة المناهج التعليمية في تركيا مع مناهج التعليم البريطانية وشبهتها في العراق. أيضا كانت هناك عوائل غنية ترغب في حصول أبنائها على شهادات دراسية من خارج العراق، بعد أن كانوا قد حصلوا على درجات غير مناسبة، فكانوا يرسلون أبنائهم للدراسة في الخارج، وبالذات في الجامعة الأمريكية في بيروت والجامعات في تركيا ومصر. ولكن وبشكل واضح فإن أغلب الزمالات العلمية كانت ترسل إلى الجامعات البريطانية وبعدها الأمريكية وألمانيا الاتحادية عبر الترشيح من قبل وزارة التعليم.

— ألم يتم إرسال زمالات إلى الدول الاشتراكية في فترة العهد الملكي؟

— قطعاً لم تكن هناك علاقة للحكومة العراقية مع تلك البلدان وبالذات في مجال التعليم، فقد كانت جميع علاقات العراق في هذا المجال وغيره ترتبط بالعالم الغربي. ولكن المصادفة لعبت دورها وحصل بعض الطلبة العراقيين على مقاعد دراسية في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية ومن دون علم أو رغبة الحكومة ووزارة التعليم العراقية. ففي عام ١٩٥٧ شارك وفد عراقي كبير بمهرجان الشبيبة العالمي في موسكو، وبالرغم من جميع الإجراءات التي اتخذتها الحكومة العراقية لمنع سفر مواطنيها إلى موسكو، إلا أن العشرات من الشبيبة والطلبة استطاعوا بمختلف الوسائل والطرق، الحصول على جوازات السفر وتحقيق آمالهم في مشاركة شباب وطلبة العالم في مهرجاناتهم. وبعد انتهاء فعاليات المهرجان استطاع البعض من الشباب العراقي الحصول على مقاعد دراسية في المعاهد السوفيتية. فقد استطاع محمد علي المشاط ومصطفى الجواهري الحصول على زمالة دراسية في المعاهد السوفيتية وكان قد سبقهم الالتحاق بالدراسة في موسكو مواطنان عراقيان يهوديان استطاعا الهروب من العراق بعد إسقاط الحكومة العراقية الجنسية عن اليهود العراقيين عام ١٩٤٩، وقد

وصلا إلى موسكو عبر إيران، أحدهما وأسمه مسرور، أذكر أنه عمل كمذيع في إذاعة موسكو باللغة العربية، أما الثاني وأسمه الياس البدري فقد تم تعيينه مدرسا لتدريس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية في موسكو بعد إنهائه الدراسة في كلية الحقوق. وكان هناك أيضا مواطن عراقي آخر اسمه صلاح الخزرجي استطاع الوصول إلى موسكو والدراسة هناك بعد هروبه من العراق. وهناك حكاية تتعلق ببعض المحاربين الأكراد الذين غادروا العراق مع الزعيم الكردي الملا مصطفى البارزاني بعد فشل الثورة الكردية وجمهورية كردستان وعاصمتها مهباد، وأقاموا في الاتحاد السوفيتي. فالكثير من هؤلاء حصلوا على زمالات دراسية ودرسوا في عدة مدن سوفيتية وفي اختصاصات متنوعة ونالوا شهادات جامعية، ولذا بقي قسم منهم في البلاد السوفيتية ورفضوا العودة إلى العراق مع الزعيم الكردي الملا مصطفى البارزاني الذي عاد بعد قيام ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨.

— وما الذي حدث للسياسة التعليمية بعد قيام العلاقة مع الدول الاشتراكية بعيد ثورة ١٤ تموز؟

— بعد ثورة ١٤ تموز فتح الباب على مصراعيه أمام العراقيات والعراقيين للاستفادة من الزمالات الدراسية التي تمنحها الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي إلى وزارة التعليم العراقية، خاصة بعد عام ١٩٥٩ حيث وقعت وزارة التعليم العراقية مع الجانب السوفيتي وباقي الدول الاشتراكية اتفاقيات تمنح بموجبها تلك الدول الجمهورية العراقية مقاعد دراسية في معاهدها وجامعاتها، وبموجب هذه الاتفاقيات يحصل الطالب على منحة مالية وسكن من تلك الدولة إضافة للراتب الشهري الذي تخصصه له الحكومة العراقية يستلمه شهريا من سفارة العراق في ذلك البلد. وكان ذلك النموذج هو الشكل الوحيد المعتمد في إرسال الزمالات ويتحدد فيه العدد الذي توافق عليه وترسله الحكومة العراقية عن طريق وزارة التعليم بعد تقييم طبيعة

وشهادات طالب الزمالة.

وكان الحصول على الزمالة الحكومية إن كانت إلى الاتحاد السوفيتي أو دول المنظومة الاشتراكية، تخضع لمعايير تربوية رصينة، أهمها التفوق الدراسي في الثانوية أو الإعدادية أو نوع الاختصاص في الجامعة. وهذه الضوابط وضعتها وزارة التعليم العراقية وفق برتوكولات وقعتها مع تلك الدول، وحددت وفقها النموذج الذي بموجبه ينال الطالب الزمالة. وكانت تلك المواصفات صارمة وعملية جداً، لذا فإن جميع الذين تمتعوا بتلك الزمالات ونالوا شهادات التخرج من تلك البلدان كانوا من المتفوقين في دراستهم.

— وهل استمر الوضع على هذا المنوال؟

— هذا الوضع لم يستمر ولم تعد الزمالات تمنح حصراً للحكومة العراقية. فقد خصصت الأحزاب الشيوعية والمنظمات الجماهيرية في البلدان الاشتراكية، من مثل اتحادات ونقابات الشبيبة والطلبة والعمال والفلاحين ورابطة المرأة وغيرها من المنظمات وكذلك مجلس السلم العالمي ومنظمة التضامن الأفروآسيوي مقاعد دراسية وزمالات إلى الحزب الشيوعي العراقي وتنظيماته الجماهيرية. وبات الحزب الشيوعي العراقي وباقي التنظيمات المرتبطة به يحصلون على العديد من الزمالات الدراسية التي ساعدتهم على إرسال الكثير من كوادرهم وجماهيرهم للدراسة هناك، وكانت جميع هذه المقاعد الدراسية من خارج حصة الحكومة العراقية. ومن كان يحصل على هذه المقاعد، لا علاقة له بالحكومة العراقية من حيث الراتب الشهري أو غيرها من المنح المالية الحكومية. وبسبب ذلك قام الجانب السوفيتي بتخصيص مبلغ ٩٠ روبلا شهرياً لهؤلاء الطلبة في الوقت الذي كان الطالب السوفيتي وفي ذات القسم الدراسي يستلم راتباً شهرياً قدره ٣٠ روبلا. وقد بررت القيادة السوفيتية وقتذاك السبب في هذا التفاوت، كون الطالب السوفيتي لديه أهل يلجأ إليهم وقت الحاجة أما الطالب

الأجنبي فلا يستطيع الحصول على إعانة من أحد، وكانت النتيجة لهذا القرار توفير حياة اجتماعية جيدة ليعيش الطلاب الأجانب برفاهية وبحبوحه مالية. وكانت السلطات السوفيتية تعامل جميع الطلاب العراقيين الدارسين لديها على قدم المساواة ودون تمييز بين المبتعث الحكومي أو المرسل من قبل الحزب الشيوعي والمنظمات الجماهيرية.

— وما الذي حدث بعد أن انهالت على الحزب الشيوعي العراقي والمنظمات الجماهيرية المرتبطة به كل تلك الأعداد من المقاعد الدراسية؟

- في بداية التخصيص ومنح المقاعد الدراسية الذي قامت به التنظيمات الحزبية والجماهيرية في الدول الاشتراكية، لم يتخذ الحزب الشيوعي نهجا مناسباً لاستيعاب هذه الحالة، وكان من المفترض بالحزب تشكيل لجنة تضع ضوابط لدراسة الطلبات على الزمالات الدراسية، وأن تلتزم تلك اللجنة بتدقيق المستوى العلمي لحصول الطالب على الزمالة، وأيضا التفكير الحكيم والعقلاني بحاجة البلد للاختصاصات العلمية والإنسانية وأخيرا الاستمرار بواسطة هذه اللجنة في مراقبة دراسة الطلبة ومتابعة مستواهم العلمي، على أن تقدم المنظمات الحزبية تقريرا بذلك ولكن لم يبادر الحزب بتشكيل مثل هذا اللجنة ولا العمل وفق السياقات المرجوة للضبط والسيطرة على ما يمنح له من زمالات. وفي بداية الأمر لم يكن يتم توزيع هذه المقاعد بطريقة التلاعب والوساطة، وكان الأمر يحصر بيد عدد قليل جدا من القيادة. ولكن مع مرور الوقت أضحت المقاعد الدراسية خاضعة للعلاقات والأمزجة الشخصية، وتم استغلال تلك الزمالات والمنح في غير مجالاتها ووجهتها الحقيقية، وشارك في ذلك ليس فقط الجانب العراقي وإنما شجعه وعمل عليه بعض الموظفين السوفيت. عندها شكلت تلك الزمالات معلما فارقا لسوء الاستخدام والتصرف غير العقلاني والمسيء. فقد باتت آليات توزيع بعض تلك المقاعد خاضعة لنفوذ وقرارات بعض الأشخاص دون غيرهم. وأغلب تلك الزمالات كانت تذهب إلى الأقارب أو المقربين ووفق العلاقات

الشخصية والمحسوبية، ولم يراعى فيها المستوى والرصانة العلمية. وكانت الجهات السوفيتية تمنح أحيانا مقاعد دراسية دون تحديد الاختصاص، لذا كان البعض يستغل ذلك ويحصر الزمالات الممنوحة، فقط في الاختصاصات العلمية دون غيرها. ونتج عن ذلك لاحقا أوضاع سلبية جدا، كون الكثير من هؤلاء الطلبة لم يستطيعوا أكمال شوط الدراسة أو أضعوا الفرص العديدة التي منحت لهم للحصول على الدرجة العلمية، وكان العديد من هؤلاء غير مؤهل أصلا للدراسة العلمية، وكذلك لم يكونوا بالمستوى اللائق من النضوج الفكري.

— وهل عالج الجانب العراقي أو السوفيتي تلك المشكلة؟

— كلا. وإنما أستمر الحال وتطور إلى الأسوأ. فقد خلقت هذه الأوضاع تجارة رائجة للمقاعد الدراسية وظهرت شخصيات من العراقيين، استطاعت توظيف علاقتها مع الجانب السوفيتي وكذلك مع أوساط منظمة التضامن الأفرو آسيوي ومجلس السلم السوفيتي، للحصول على المقاعد الدراسية بصورة غير سليمة، من خلال الرشى وشراء الذمم. فكانت تلك الشخصيات تقدم المغريات المالية للحصول على الزمالات الدراسية من الجانب السوفيتي، ومن ثم تقوم ببيعها لمن يدفع أكثر. وكانت بعض تلك الشخصيات تدير تلك الأعمال بشكل علني، ولكن تحت أنظار ومراقبة ورصد المخابرات السوفيتية وليس بعيدا عن دوائرها. وظهر بين أوساط العراقيين وخلال فترات طويلة شخصيات عديدة كانت تمارس مثل هذا العمل بشكل غير مخفي. كان هناك شخص أشتهر بعلاقته الوطيدة بالأوساط السوفيتية أسمه جبار حاجم، هذا الشخص بني له شبكة من العلاقات المشبوهة مع الكثير من المسؤولين السوفيت. ودائما ما كانت تثار حوله الشكوك ويتهم بالعلاقة بجهاز أمن الدولة السوفيتي (كي جي بي) ويعزو ذلك لقدراته الفذة على الوصول إلى ما يرغب فيه والحصول على مبتغاه عبر شراء الذمم. وكان أيضا يمتنهن تصريف العملة بشكل غير مشروع.

ومن الحوادث الطريفة التي رواها السفير العراقي في موسكو وقتذاك السيد صالح مهدي عماش للدلالة على علاقة جبار حاجم بالمخابرات السوفيتية، هي حادثة وقعت للسفير ذاته. فمن عادة السفير عماش الركوب في مقدمة سيارة السفارة أي جوار مقعد السائق. وكان السفير عائدا من مطار العاصمة موسكو بعد توديع وفد رسمي عراقي، عندما وقع حادث للسيارة، جرح فيه عماش وأيضا سائقه، وقد اضطرت السلطات السوفيتية لنقله إلى المستشفى مع سائقه، وقد طلب السفير عماش من السلطات السوفيتية التكتّم والتغطية على الحادث، لحراجه الموضوع بالنسبة لبلده العراق، ولكي لا يستغل للإثارة من قبل خصومه. وبعد أن رقد السفير في المستشفى، ولم تمض على الحادث غير نصف ساعة تقريبا، دخل عليه جبار حاجم في الغرفة حامل باقة ورد وقدم نفسه للسفير للتهنئة بالنجاة من الحادث. قال السفير عماش، بأنه لم يكن يعرف جبار حاجم ولم يشاهده سابقا، ولذا فهو يعتقد جازما بأن جبار حاجم على ارتباط أكيد بالمخابرات السوفيتية، وتساءل كيف تسنى له معرفة ما وقع لنا وبهذه السرعة إن لم يكن منهم. والمدهش في حياة جبار حاجم، قدرته الغريبة للوصول إلى أي جهاز حكومي سوفيتي، فكانت أية قضية مستعصية للعراقيين عند الجانب السوفيتي، فإن تدخل جبار حاجم يضمن نجاح حلها.

وكمثال على طبيعة تلك السمسة، أذكر حادثة لها دلالة كبيرة عما كان يحصل. فقد كلفني أحد شخصيات الحزب الشيوعي العراقي بالاتصال بجبار حاجم لمعرفة كيفية حصوله على الزمالات وبيعها، بعد أن انتشرت أخبار قيامه بهذا الأمر. وحين اتصلت به أخبرني مباشرة بأنه كان يشتري بعضها من بعض الحزبيين في موسكو وكذلك من بعض الموظفين المتنفذين في المؤسسات السوفيتية. وحدثني أحد الأصدقاء عن عملية شراء كان يقوم بها شخص عراقي آخر محسوب على التقدميين، هو شاكر القيسي. حيث استدان منه مسؤول منظمة الحزب الشيوعي العراقي في الاتحاد السوفيتي وقتذاك خليل الجزائري مبلغا قدره ٣٠٠٠ روبل وكان هذا المبلغ بالنسبة للموظفين

السوفيت ومثلهم الطلبة العراقيين، يعد ثروة كبيرة في ذلك الوقت. وحين استفسر الصديق من السيد شاكر القيسي عن كيفية استرداده للدين من خليل الجزائري، الذي لا يملك ما يوفي فيه هذا المبلغ الكبير، فأجاب القيسي ضاحكا بأنه لا يفكر إطلاقا باسترداد المبلغ وإن هذا الدين يعد من الديون الميتة، ولكنها وعلى المدى القريب سوف تحي أموات. ولتفسير ذلك يستعرض القيسي الحال بالقول، دائما ما تكون هناك زمالات فائضة، وفي تلك الحالة يقوم بالطلب من خليل الجزائري الحصول على عدد من المقاعد الدراسية من خلال معرفته وعلاقة الحزب بالمؤسسات السوفيتية، وكان ذلك يتم مقابل قسم من الدين، ويقوم الجزائري بإبلاغ الجهة المانحة موافقة الحزب على ذلك التخصيص، فيأخذ القيسي من خليل الجزائري المقاعد الممنوحة ومن ثم يبيعها.

— وهل كان لهذا الفساد تأثير على مجمل طلاب البعثات العراقيين؟

— مع كل هذا الفساد والإساءات لم يكن ذلك ليمنع من بروز أعداد ليست بالقليلة من الطلبة العراقيين بشكل جيد، وكان هناك الكثير ممن استطاع بجهود جدية أن ينال درجات علمية رصينة، وأن ينجحوا نجاحا بينا وباهرا في دراستهم، وقد شغل الكثير من خريجي الجامعات السوفيتية ومثلها باقي الدول الاشتراكية العديد من المراكز العلمية المهنية والمهمة داخل العراق وخارجه وحازوا على التقدير والاحترام والتقييم العالي والرضا من المؤسسات العلمية والمهنية التي عملوا فيها. وكان الفضل في ذلك يعود إلى رغبتهم الحقيقية بالدراسة ومثابرتهم وجديتهم وهي الأبواب الأولى لتفوقهم ونجاحهم ولم يكن هناك أي فضل أو منة سياسية في تقدمهم ونجاحهم.

— كيف كان تأثير تلك السلبيات على الدراسة في الاتحاد السوفيتي ومثله على البلدان الصديقة؟

— الرضا والقبول السوفيتي وعدم الاهتمام بالنتائج التي يحصل عليها الطلبة

الأجانب، وأيضا عدم مراعاة الجوانب العلمية والمهنية، أطاح بالعملية التربوية ووسمها بسوء السمعة وانعدام المستوى العلمي لخريجي الاتحاد السوفيتي، وبسبب ذلك بدأت الكثير من الدول الآسيوية والأفريقية تشكك بالشهادة التي تمنحها المؤسسات التعليمية السوفيتية وما عاد البعض منها يعترف بتلك الشهادة أصلا.

في إحدى المرات حضرت لقاءً يوضح ذلك الفشل وعدم الثقة بالشهادات التي تمنحها المعاهد والجامعات السوفيتية. فحين كنت أعمل في وكالة نوفوستي السوفيتية لتوثيق العلاقات الثقافية بين الاتحاد السوفيتي والدول العربية وأكتب عن ذلك في صحف المدار والأخبار وغيرها وباسم يوسف الياس يوسف. كلفت في ذلك الوقت من قبل الوكالة بالذهاب إلى وزارة التعليم العالي السوفيتي حيث يتم هناك استقبال أحد الوزراء الأفارقة. وصلت القاعة وقدمت نفسي كمندوب صحفي عن وكالة نوفوستي. جلست عند مقاعد الصحفيين داخل قاعة الاجتماع، ورحنا نستمع لحوار الوزيرين. الوزير الأفريقي كان وزير التعليم الغاني، وبعد كلمات الشكر والترحاب الحار بالضيوف من قبل الوزير السوفيتي، قام الوزير الغاني بتقديم الشكر والامتنان للدعوة الكريمة ولحسن الضيافة التي تلقاها الوفد، بعد ذلك بدأ الوزير السوفيتي بالقول وبنبرة عتاب، بأننا وجهنا لكم الدعوة هذه لسبب أولي ومهم، وهو موضوع معادلة الشهادات، فنحن نمنحكم الزمالات الدراسية لأجل رفع المستوى العلمي للدارسين القادمين من بلدكم ونعرف أن هذا ينعكس ايجابيا على التطور العلمي والاقتصادي لبلدكم غانا، ونحن في هذا نبذل أقصى الجهود التدريسية ونمنح الدارسين مبالغ نقدية ومن ثم نمنحهم شهادات دراسية عليا، ونظن إن ذلك يعد ثروة وطنية لبلدكم. وبعد كل هذا تصلنا معلومات بأنكم ترفضون الاعتراف بشهادات التخرج من كليتنا ومعاهدنا، فأرجو أن أجد جوابا على هذا.

أجابه الوزير الغاني بأن جميع ما تحدثت عنه سعادة الوزير، هو صحيح، فنحن لا

نعترف بالشهادة التي تمنحها مؤسساتكم التربوية لطلبتنا. عندها استغرب الوزير السوفيتي ذلك وقال معاتبا، هل إن هذا هو من باب رد الجميل لما نقدمه لكم من خدمات؟. فأجابه الوزير الغاني مستعرضا السبب في حدوث مثل هذا الأمر حيث قال بأننا نرسل إلى بريطانيا أو أمريكا مجموعة كبيرة من الطلبة، يمكن القول مثلا مائة طالب لكل بلد، وحسب حاجة بلدنا من اختصاصات، ولكن بعد عام أو عامين يعود ما يقارب ٥٠ أو ٧٠ منهم دون الحصول على مؤهل دراسي، لكون مستواهم العلمي لا يوازي مستوى طلبة الجامعات هناك، أو أنهم أصلا لم يكونوا مؤهلين للدراسة في المعاهد والكليات في بريطانيا أو أمريكا، فيعودون بسبب فشلهم. ولكن حين نرسل مائة طالب إلى الاتحاد السوفيتي، فأن جميع هؤلاء وبعد مضي خمس سنوات يعودون وقد منحوا شهادات عليا باختصاصاتهم، وهذا ما يجعلنا غير موقنين بصحة الموقف الدراسي هؤلاء، وأيضا بصحة طرق التدريس عندهم، لذا نشكك في طبيعة منحهم الشهادة ومستواهم العلمي. عقب الوزير السوفيتي على ذلك بالقول، بأن السياسة التعليمية في الاتحاد السوفيتي تسعى لمساعدة هؤلاء الطلبة على التحصيل الدراسي ولا تضع العراقيل في طريقهم. فنحن نعتبر ما تعلمه هؤلاء عندنا تنعكس فائدته على شعب غانا، وأتمم تحتاجون لمثل هذا التسريع في إعداد الكوادر. فرد الوزير الغاني مؤكدا بأن هذا النوع من التدريس ومنح الشهادات خاطئ وسييء لكم قبل الإساءة لنا، لذا أخبرك سعادة الوزير بأننا لن نسمح لأنفسنا الاعتراف بالشهادات التي تمنحها معاهدكم وجامعاتكم. فنحن لدينا قواعد ومعايير نقوم بموجبها اختبار حامل الشهادة فإن استطاع اجتياز الاختبار عند ذلك نوافق ونصادق على شهادته ولكن وللأسف فأن أغلب من يأتي من طرفكم يفشل في اجتياز الاختبار، لذا اتخذنا القرار بعدم الاعتراف بالشهادة الصادرة عنكم دون تمحيص.

— هل منح الاتحاد السوفيتي مقاعد دراسية لأحزاب عراقية غير الحزب الشيوعي؟

- خلال الفترة التي أعقبت ثورة ١٤ تموز أقتصرت منح الزمالات فقط لوزارة التعليم ومن ثم الحزب الشيوعي العراقي ومنظماته الجماهيرية، وقد صادف أن عرفت بأن أحد أعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني قد حصل على زمالة، ولكنها منحت له من قبل أحد الرفاق في الحزب الشيوعي العراقي. وبعد عام ١٩٦٨ ووصول حزب البعث إلى السلطة في العراق وتطويرا للعلاقة، بدأ الاتحاد السوفيتي ودول المنظومة الاشتراكية بمنح حزب البعث وتنظيماته الجماهيرية مقاعد دراسية في الكثير من الاختصاصات العلمية والأدبية ومثلها في المدارس الحزبية حيث تدرس طرق التنظيم الحزبي والعلاقات العامة أي الجهد المخبراتي. وكان أغلب هؤلاء من جهاز المخابرات العراقية. وكانت تقدم لهم الكثير من التسهيلات المالية والترفيهية، ويعزو السبب في ذلك لتطور العلاقات الدبلوماسية التي رافقتها المصالح الاقتصادية والمغريات المادية التي يقدمها العراق إلى الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي وألمانيا الديمقراطية والتي كانت على شكل استثمارات وأعمال بناء وشراء أسلحة.

وعلى مدى فترات نشأت علاقات غير سليمة بين الكثير من الطلبة والأساتذة في الاتحاد السوفيتي ومثلها في باقي الدول الاشتراكية حيث بدأ الطالب يحوز على شهادته سواء أكان ذلك في مستوى البكالوريوس أو الماجستير وحتى الدكتوراه، من خلال الهدايا العينية والمادية السخية التي يقدمها إلى الأساتذة، والتي كانت الرشاوى فيها تفقاً العين.

(٣)

شعار الصداقة بين الشعوب بين النظرية والمآل .

على ارض بلدان الشرق (آسيا الوسطى) دارت رحى معارك وغزوات عظيمة، وكانت تلك الإمارات والخانات والأقاليم تخضع تارة لهذا الغازي وتارة أخرى لذلك الفاتح.

عام ١٧٢١ قام بطرس الأكبر بإعلان إمبراطوريته الروسية العظمى التي امتدت وشملت أراضي شاسعة. فقد حارب الدولة العثمانية ووقع بعد انتصاراته عليها، معاهدات كسب فيها أراض كانت تحت سيطرة الدولة العثمانية والفارسية، وكان من تلكم الأراضي أقاليم الشرق وخاناتها، وتوسع كذلك في سيبيريا الواقعة في الجزء الشرقي والشمال الشرقي من روسيا. وحارب كذلك الدول الأوروبية وانتصر في العديد من المعارك، وتوسع في بولندا وفنلندا ودول البلطيق وشبه جزيرة القرم التي تقع شمال البحر الأسود في الشرق الروسي. بقيت تلك البلدان والأراضي تابعة لإدارة الإمبراطورية الروسية، حين قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ حين سقطت القيصرية وكان ذلك مقدمة لتغير طابع علاقة تلك البلدان مع روسيا الجديدة.

بلدان الشرق، آسيا الوسطى، قريغيزستان، أوزبكستان، تركمانستان، كازخستان وطاجكستان، والتي تقع جميعها وسط القارة الآسيوية، دائما ما سميت ببلدان آسيا الداخلية أو بلاد ما وراء النهر على عهد الخلافة الإسلامية، وهذه المنطقة التي تبلغ مساحتها ما يقارب ٤ ملايين كم مربع، ليس لها شواطئ بحرية تنفتح معها على بحار العالم، سوى بحر داخلي هو بحر قزوين، ودائما شكل موقعها الجغرافي ممرا حيويا لتجارة الشرق. ويعيش فيها أكثر من ٧٠ مليون من البشر وبمختلف الأعراق، والغالبية فيها من المسلمين. وتشكل بمجموعها عقدة جغرافية لطرق برية تربط شرق آسيا بغربها

وشمالها بجنوبها، باتجاه الخليج العربي. وتمتاز هذه البلدان بتنوع مصادر الثروة فيها وخاصة موارد النفط والمعادن الثمينة والثروة الزراعية.

لم يختلف حال بلدان القفقاس أو ما سمي ببلدان القوقاز وهي المنطقة الجبلية الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود وتقسّمها سلسلة جبال القوقاز وتشارك فيها جمهوريات روسيا الاتحادية، جورجيا وأرمينيا وأذربيجان. وهي بلدان غنية بالموارد الطبيعية مثل النفط والغاز الطبيعي والحديد والنحاس والرصاص. ودائمًا ما كانت هذه البلدان ساحات للصراعات السياسية والدينية والثقافية، ووقعت فيها العديد من العمليات التوسعية. وخضعت بعض أقسام المنطقة خاصة الشمالية منها في نهاية القرن السابع عشر لحكم القيصرية الروسية.

بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ وفي ٢٤ نوفمبر وجه لينين نداءً هاماً لشعوب الشرق المسلمة وكان النداء مفعماً بروح السلام والأمية الحقّه والتأكيد على حق الشعوب بتقرير مصيرها وبناء أوطانها والتمتع بحرياتها المدنية ومعتقداتها الدينية. ومما جاء فيه:

((أيها المسلمون بروسيا وسيبيريا وتركستان والقفقاس... يا أيها الذين هدم القياصرة مساجدهم وعبث الطغاة بمعتقداتهم وعاداتهم. إن معتقداتكم وعاداتكم ومؤسساتكم القومية والثقافية أصبحت اليوم حرة مقدسة. نظموا حياتكم القومية بكامل الحرية وبدون قيد فهي حق لكم. واعلموا أن الثورة العظيمة وسوفيات النواب والعمال والجنود والفلاحين، تحمي حقوقكم وحقوق جميع شعوب روسيا. أيدوا إذن هذه الثورة، وقد تم وضع برنامج ضخم لما يمكن أن يطلق عليه اليوم «التمييز المضاد» (affirmative action)، سُمي بالكورنيزاتسيا، أي إحلال السكان المحليين محل المستوطنين الروس. وقد بدأ بطرد المستعمرين الروس والقوزاق والمتحدثين باسمهم من الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في تلك

المناطق. وتوقفت اللغة الروسية عن الهيمنة، وعادت اللغات المحلية إلى المدارس وإلى الحكومات وإلى المطبوعات. وقد تمت ترقية السكان المحليين ليشغلوا مناصب في الدولة وفي الأحزاب الشيوعية المحلية، وأعطوا أولوية حتى عن الروس في التعيينات. وقد أنشئت جامعات لتدريب جيل جديد من القادة غير الروس. أيضا أُعيدت الآثار والكتب الإسلامية المقدسة التي نهبتها القيصرية إلى المساجد. وقد تم تسليم القرآن الكريم المعروف بقرآن عثمان في احتفال مهيب إلى المجلس الإسلامي في بتروغراد في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٧. وقد أُعلن يوم الجمعة، يوم الاحتفال الديني بالنسبة للمسلمين، يوم الأجازة الرسمية في كل آسيا الوسطى)).

النداء الموجه لشعوب الشرق كان تطبيقا حرفيا لمفهوم لينين عن حرية الأمم في حق تقرير مصيرها، وقدم لشعوب الشرق ورقة سياسية مغرية تدعوهم ليكونوا ضمن دولة جديدة غير تلك القيصرية الروسية، دولة تضمن لهم حرية المعتقد الديني والسياسي وقبله الحق في التحرر والانفصال أي تقرير مصيرهم إن أردوا ذلك.

كان النداء حافزا لجميع المسلمين بروسيا وبلدان آسيا الوسطى وسيبيريا وتركستان والقفقاس لقبول التعاون مع روسيا الاتحادية، وجعل تلك الشعوب تشعر بوجودها القومي في ظل أعراف وقواعد حددها بيان قائد الثورة ومنظرها.

وجدت تلك الشعوب الفقيرة والمتخلفة ضالتها في انتصار ثورة أكتوبر للتخلص من حكم القياصرة، لذا قدمت تأييدها المباشر للثورة على القيصرية بقيادة فلاديمير أيلتش لينين.

بعد وفاة لينين في ٢١ يناير، كانون الثاني عام ١٩٢٤ خلفه في القيادة جوزيف ستالين بعد صراع شرس خاضه داخل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي، استطاع في النهاية حسم الصراع لصالحه، ولم يطل معه الأمر، فخلال فترة قيادته أصدر دستورا جديدا، منح بموجبه نفسه سلطات مطلقة في الحكم. وفي فترة حكمه خرجت الدولة

عن المبادئ التي قامت عليها ثورة أكتوبر، وقام ستالين بالتخلص من المعارضين له داخل الحزب، وتحول الاتحاد على عهده إلى دولة موحدة ذات سلطة مركزية قوية وطابع شمولي، كان الحزب وقوى الأمن هما المركز الذي يتحكم بجميع نشاطات الدولة وإدارات بلدان الاتحاد.

هذا التاريخ الطويل من التغيرات في المشهد العام للعلاقة بين جمهوريات الاتحاد السوفيتي وأيضاً في سياسة السلطة السوفيتية تجاه شعوب الشرق المسلمة المنضوية للاتحاد، ومن ثم الانسلاخ السريع عن الاتحاد إثر تصدع السلطة السوفيتية وانهارها في موسكو.

كل هذه الأحداث التاريخية دفعتنا للحوار مع الدكتور خليل عبد العزيز لاستجلاء رؤيته في شأن العلاقة التي كانت قائمة بين شعوب الاتحاد السوفيتي، ومحاولة لعرض تلك المواقف، وهو الذي عاصرها لزمناً طويلاً وعاش أحداثها لأكثر من عقدين، ونحن هنا ننقل رأيه فيما حدث بحيادية، طالبين منه الإفصاح عما خبره في طبيعة الحراك السياسي والعلاقات بين جمهوريات الشرق المسلمة والسلطة الاتحادية في الاتحاد السوفيتي السابق.

— الدكتور خليل عبد العزيز، هل لك أن تعطينا صورة عن نمط العلاقة التي كانت قائمة بين بلدان جنوب الاتحاد السوفيتي السابق، بلدان أواسط آسيا المسلمة وأيضاً القوقاز، بسلطة الاتحاد السوفيتي.

* كانت بلدان أواسط آسيا المتمثلة بقرغيزيا وأوزبكستان وتركمنستان وكازخستان وطاجيكستان، أقاليم وبلدان تابعة للقيصرية الروسية، وبعد قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، صدر عن قائد الثورة فلاديمير لينين نداءً وجهه لتلك البلدان، وقدم لهم فيه وعوداً لنيل الحقوق الدينية والمدنية، وفي مقدمتها الحق في تقرير المصير. كانت تلك البلدان الفقيرة المتخلفة ترغب بالتخلص من حكم القيصرية الروسية، لذا كان البيان

وما جاء فيه من وعود عاملا مهما ودافعا لانضمامها إلى الاتحاد، وتأييدها للثورة بقيادة لينين. ومنذ عام ١٩٢٤ وهو عام تأسيس الاتحاد السوفيتي حتى عام ١٩٣٦ انضمت للاتحاد أغلب بلدان أواسط آسيا.

خلال تلك الفترة حدثت الكثير من التغيرات، وبدأت تظهر نزعات الأثرة والتفرد والمركزية في الحكم، فالمعروف عن الاتحاد السوفيتي ومنذ تأسيسه، اعتماد قاداته على نظام حكم الحزب الواحد، الذي أُعتبر الممثل الحقيقي والوحيد لإرادة الشعوب الحرة. وعلى عهد ستالين بات الاتحاد السوفيتي دولة موحدة بسلطة مركزية وبطابع شمولي، وابتعدت السلطة عن الأخذ برأي الجمهوريات ذات القوميات غير الروسية، وظهرت عند بعض قيادة الاتحاد بوادر الشك والريبة من طموحات شعوب الجمهوريات الاتحادية، والخوف من تحركها نحو المطالبة بالاستقلال، وعلى هذا الأساس عملت السلطات الاتحادية على تسويق وتسويق الشعارات، للإبقاء على الأوضاع مع بعض التغيرات السطحية الشكلية، وفي الوقت نفسه استمرت جميع إدارات السلطات في تلك البلدان تحت سطوة قيادة مركز الاتحاد، وكان العمل يتم وفق جانبيين أو أسلوبيين في العلاقة، الأول الحفاظ على كيان الاتحاد السوفيتي بوجود جميع الجمهوريات المرتبطة بينها بعرى قوية مثلما يظهر للعيان، وعلى أساس التكامل الاقتصادي بينها، والثاني يتم بإعطاء تلك الشعوب بعض الحقوق التي كانت تمنح لها بالقيراط والأقساط، في الوقت الذي يتم انتهاج أساليب إدارية وسياسية تضيق الخناق وتحد من ظهور طموحات سياسية للاستقلال.

— ما الذي جعل تلك العلاقات تتغير على هذا النحو، هل كان نداء لينين لبلدان آسيا الوسطى المسلمة دون جدوى أو الأخرى خدعة سياسية؟

— كان نداء فلاديمير لينين لشعوب الشرق وبالذات الإسلامية منها حول الحريات وحق تقرير المصير، فكرة صائبة ونبيلة ولم تكن من باب الترف والخداع السياسي،

فالرجل كان ماركسيا يؤمن بتلك الأفكار وجوهرها النبيل في حق الشعوب بنيل الاستقلال والكرامة الإنسانية. ولكن بعد وفاته وتسلم ستالين الحكم، تغيرت اتجاهات واستراتيجيات السلطة، ونحت منحى السيطرة الكاملة على مقدرات تلك الشعوب، وتم اختزال الإدارات والسلطات بيد الأمين العام والمكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي، وبالذات منها إدارة حكومات تلك الجمهوريات، وبات قيادات الحزب الشيوعي المنفذة لتعاليم قيادة مركز الاتحاد بقيادة الأمين العام للحزب الشيوعي السوفيتي، تسيطر بالكامل على مقدرات شعوبها، مقصية في حرب مستمرة ومستعرة، كل ما يتعلق بفكرة حق تقرير المصير.

وكمثال على تلك العقلية الاقصائية، نرى لهذه العنجهية القومية أو ضيق الأفق القومي، امتداد واسع، ليس فقط داخل القيادات العليا للحزب الشيوعي، بل هناك ذات التصورات والقناعات عند الكثير من المواطنين السوفيت، وبالذات الروس منهم، وتتمثل بنظرة تعالي تتهم الشعوب ذات الأصول غير السلافية، ومنها بلدان جنوب الاتحاد السوفيتي والمسلمة منها، بالجهل والتخلف. ونلاحظ أن هذا يمتد حتى وقتنا الحاضر. فالرئيس بوتين أنتقد فكرة حق تقرير المصير التي طرحها لينين. فهو يرى أي بوتين، إن مثل هذا الحق الذي تحدث عنه لينين لا يمثل الحقيقة، وأن تلك الشعوب التي عناها في ندائه، لم تكن شعوبا متحضرة ولا تملك إدارات أو قدرات بناء دولة جديدة، والروس أو الاتحاد السوفيتي هو من بناها كدول، ووضع لها قواعدها الاقتصادية والعلمية والسياسية، ومنح شعوبها حقوقها المدنية وعلمها أعراف الديمقراطية والبناء الحضاري.

— هل لك أن تقدم لنا ما يفصح عن تلك العلاقة الملتبسة أو المشوهة التي كانت تسير عليها مؤسسات الاتحاد؟

— كنت أعمل صحفيا في وكالة نوفوستي للأنباء، وطلب مني إجراء تحقيق أو

ريپورتاجا صحفيا عن مصنع للطائرات موجود في طاشقند عاصمة أوزبكستان. ذهبت إلى هناك. كان مدير المعمل أوزبكيا وقد رحب بي أيما ترحيب، وسألني عن مهمتي ثم أراد معرفة جنسيتي، فأخبرته بأني من العراق، فدهش وبفرح قال بلهجة مفخمة، إذن أنت مسلم، فأجبت بأني شيعي ولا علاقة لي بالدين، ولكنه تجاهل ذلك وراح يتحدث عن الإسلام وموقعه في أوزبكستان، وعلاقته الروحية ومكانته عند هذا الشعب وقال، رغم كوني شيعيا، ولكن لنا نحن الشعب الاوزبيكي تقاليد راسخة وعلاقات حيوية بالدين الإسلامي. أردت تغيير وجهة الحديث، فشرحت له مهمتي وسألته عن مصنع الطائرات فتحاشى أسئلتي، وراح يتحدث من جديد وبنشوة عن الإسلام والمسلمين في العالم ثم العراق. وبعد وقت ليس بالقليل أخبرني بأنه سوف يقدمني لمعاون مدير المصنع، فهو الذي يستطيع تلبية حاجاتي ويحب عن أسئلتي، فهو يعرف كل شيء عن المصنع، كانت جنسية المعاون هي الروسية، وحين قابلته أخبرني بحقيقة صادمة عن مدير المصنع قائلاً، إن المدير واجهة شكلية لسياسة عامة، ولا يملك الكثير من السلطة الإدارية، وغالبا ما تحصر مهامه باستقبال وتقديم الشاي للضيوف والردشة معهم بأحاديث دائما ما تكون بعيدة عن طبيعة العمل.

في جولة طويلة في أنحاء المعمل كان المعاون يقدم لي بالتفصيل معلومات كثيرة وجيدة عن طبيعة العمل والإنتاج، ولكنه توقف مرتين أثناء ذلك ليخبرني بأنه يتلقى إشارات بالسبايكر من المدير، ويعتقد أنه يرغب أن تعود إليه ليكمل معك الحديث السابق. وفعلا بعد أن أكملنا الجولة وعدنا إلى المقر، طلب مني المدير الجلوس لإكمال ما سبق وتحدثنا حوله، فشكرته على كل شيء واعتذرت منه لضيق الوقت، ووعدته بلقاء آخر. مثل هذا النموذج القائم في مصنع الطائرات كان موجودا في جميع المصانع والمؤسسات المنتجة لا بل حتى في دوائر الدولة المهمة وأيضا العادية، أي يوضع مدير عام من نفس سكان الجمهورية الاتحادية، ولكن السلطة الحقيقية تكون بيد المعاون وهو روسي الجنسية ويتمتع بجميع الصلاحيات، وفي النهاية فهو الوحيد صاحب

القرار الناجز، وقد بقيت هذه السياسة متبعة إلى يوم انهيار الاتحاد السوفيتي، وقد تلمستها ووجدتها أينما ذهبت، وفي جميع مؤسسات جمهوريات الاتحاد السوفيتي. فهناك قاعدة إطلاق الصواريخ في كازاخستان جميع العاملين الأساسيين فيها فقط من الروس، ولا يوجد أي شخص يعمل في المراكز الحساسة لهذا المرفق من خارج القومية الروسية. ومثل ذلك مصانع للحاسوب في أرمينيا وغيرها.

يا ترى ما هي الأسباب والدوافع لمثل هذه التركيبة الغريبة للإدارة؟

— في اعتقادي، كان الهدف من كل ذلك، وضع تلك الشعوب تحت سيطرة السلطة المركزية أولاً ثم إبقائهم على ذات الحدود المسموح بها من المعرفة والمهنية والإدارة، وكانت تلك في مجملها سياسة تؤدي لوضعهم دون المستوى الذي يتناسب والشعوب المتحضرة المكتملة البنيان. ورغم التحسن في البنى التحتية والعمران الحديث وارتفاع الدخل القومي وتطور قوى الإنتاج، فقد رافق كل ذلك عقلية روسية تبخس حقوق وتطلعات وطبيعة مواطني تلك الجمهوريات، وتنظر لهم بنظرة فوقية واستخفاف، وتعدّهم دون مستوى التحضر مقارنة بالروس. أصبح مفهوم الصداقة بين الشعوب شعاراً شكلياً على عهد ستالين ومن جاء بعده من قادة الاتحاد، وكانت بين القيادة السوفيتية المركزية وقيادات تلك الشعوب ما يشبه الاتفاق على بناء الروابط، التي تبدأ أولاً بحصول تلك الشعوب على بعض الحقوق القومية والمدنية، على أن توفر تلك القيادات الفرعية، الآلية لمجرى عملية التكامل الاقتصادي والاستفادة القصوى من خيرات تلك البلدان لصالح عموم الاتحاد السوفيتي. ولكن للحقيقة فقد كان هناك هدفٌ مخفيٌّ، يذهب للاستفادة من خيرات تلك الشعوب وفي الوقت ذاته يحد أو يبطئ تكامل البناء الحضاري لها.

فالفروق كانت واضحة في مستوى التقدم العمراني والثقافي ما بين الجمهوريات الاتحادية الشمالية مثل روسيا وروسيا البيضاء وأوكرانيا ودول البلطيق الاتحادية،

مع مثيلاتها الاتحادية من دول آسيا الوسطى والجمهوريات الجنوبية الأخرى مثل جورجيا وأذربيجان وأرمينيا. فالقيادة السوفيتية كانت تتهيب من تطور جمهوريات الاتحاد الجنوبية خوفاً من بروز النزعات القومية ومن ثم تمردها على السلطة المركزية ومطالبتها بالاستقلال وانسلاخها عن الاتحاد.

— ربما ينتبه المرء لتعلق شعوب تلك البلدان بالدين الإسلامي كحالة وجدانية روحية. ما حقيقة هذا الأمر؟

* كمثال على هذا التعلق أذكر لك شخصية درست لمدة خمس سنوات في جامع الأزهر في مصر، ومن ثم أصبح بعدها مفتياً للديار في عموم جمهوريات آسيا الوسطى الاتحادية، وهو ضياء الدين باباخانوف، كان هذا المفتي وفي أغلب زياراتي له يفضل أن نبدأ حديثنا بتناول أقذاح الشراب، فينادي على ابنه شمس الدين الذي أصبح لاحقاً سفيراً لروسيا الاتحادية في الكويت، ويشير عليه بجلب زجاجة كونياك، عندها يأخذ المفتي بتقديم الببالا، وهي قدح تقليدي أوزبكي لشرب الكحول. كان باباخانوف رجلاً شيعياً وملتزماً حزبياً ويتبع تعاليم القيادة السوفيتية بصرامة لا يحيد عنها.

خلال حديثنا أخبرني المفتي عن وجود ما يقارب ٤٠ إلى ٥٠ مليون نسمة من المسلمين يعيشون في جمهوريات آسيا الوسطى، وعن موقف هذه الملايين من الدين الإسلامي، حدثني قائلاً، إن هناك موقف مودة وحب واحترام عظيم للدين الإسلامي لدى هذه الملايين، ولكنهم يخشون بل يخافون من الحزبيين ورجال الأمن والواشين، ورغم هذا الخوف فالغالبية تتمسك بإسلامها. وروى لي كيف أن العديد من المنتمين للحزب الشيوعي يتهيبون الحديث بالسوء عن الاتحاد السوفيتي والحزب، حفاظاً على مواقعهم الحزبية والوظيفية، ولكنهم في البيوت يتحدثون بأقذع الأوصاف والشتائم ضد الدولة السوفيتية والقيادة، وينعتونهم بالكفر والإلحاد، رغم أن غالبية هؤلاء لا يعرفون الكثير عن الإسلام، وليس بينهم من يعرف تلاوة القرآن أو فك رموزه، ولكن

كل ذلك كان يأتي كجزء من العداء لسلطة الحزب الشيوعي وأوامره القسرية

— ما الذي كانت تقدمه تلك الجمهوريات الاتحادية للاتحاد؟

— كان العديد من جمهوريات الاتحاد ومنها الجمهوريات الجنوبية، ترفد الاتحاد بالكثير من المنتجات الزراعية وغيرها من الخيرات الطبيعية مثل النفط والغاز الطبيعي والحديد والنحاس والرصاص. وتشكل منتجات تلك البلدان أكثر روافد اقتصاد الاتحاد السوفيتي. فمثلا أوزبكستان كانت تعد أحد أهم البلدان في إنتاج القطن عالي الجودة، ويسمى الذهب الأبيض لغزارته وما يدره من مبالغ لاقتصاد الاتحاد السوفيتي. وفي عمليات حصاد هذه الغلة توظف جميع الطاقات في طاشقند وتشارك في جني المحصول مؤسسات الدولة وباقي قطاعات العمل والطلاب أيضا، ولكن دائما ما كانت تجري عملية مخادعة وتضليل في حساب المحصول. فالقيادة العليا للحزب الشيوعي السوفيتي، تطلب من قيادة الحزب في طاشقند كمية برقم حسابي محدد، وعند ذلك وبعد عملية جني المحصول، وحين تفشل الجهود في الحصول على ما يقارب الرقم الذي طلبته قيادة الحزب العليا، تقوم قيادة الحزب في طاشقند كمحاولة لإرضاء المسؤولين بتسجيل ذات الرقم المطلوب، لإقناع القيادة بنجاح زراعة القطن ووفرتة. وجميع الجمهوريات الاتحادية تقدم منتجات زراعية وصناعية لترفدها الإنتاج الوطني على مستوى الاتحاد، وتجدها تمارس في جني الإنتاج ذات عملية الغش في الحساب النهائي، وهي عملية غش يترتب عليها حصول البعض على وسام الحزب والدولة لأبطال الإنتاج.

— وما هي الأسباب لمثل هذا العمل غير المهني، والخداع غير العملي والمضر في حساب المنتج؟

— عملية المخادعة ورفع رقم الإنتاج تأتي بسبب ما تقدمه قيادة الحزب العليا من جوائز تكريمية، عرفانا بما قدمته القيادة المحلية للحزب. وكان مثل هذا يحدث في أغلب

الجمهوريات الاتحادية ومع جميع المحاصيل الزراعية واستخراج المعادن أو تصنيعها. بالنسبة لي فقد شاركت في احد المرات بجني محصول القطن، حين كنت في سفرة مع مجموعة طلبة من جامعة موسكو في زيارة لطاشقند، وقد طلبوا منا المساهمة في الحصاد، عندها أعطوني خرجا كبيرا لأجمع فيه المحصول، لم أكن بمهارة أهل طاشقند في الحصاد، ولكن لحسن الحظ كان لي خطوة عند بعض الفتيات، فأخذن بمساعدتي من خلال وضع بعض ما يقطفنه في خر جي، وبعد إتمام الحصاد أقيمت حفلة كبيرة وقدم لي شكر خاص بسبب ما استطعت جمعه وكان حجمه كبيرا.

جميع الجمهوريات الاتحادية كانت تتلاعب بأرقام المحاصيل الزراعية وأيضا إنتاج المواد الأولية لذات السبب أعلاه، والذي يجلب للمنظمة وبعض أعضائها الجوائز السنوية كأبطال للإنتاج.

— وما طبيعة الجوائز التي تقدمها السلطة السوفيتية عند نهاية السنة الإنتاجية؟

— كان تقليد منح الجوائز يخضع أيضا للمساومات والخديعة، ويتساقق وخدعة رفع أرقام الإنتاج، فالجوائز والمكافأة كانت مغرية ويدور حولها تنافس حاد، فالحصول عليها يعطي للشخص امتيازا معنويا وماديا كبيرا. روى لي أحد قيادي الحزب عن حادث وقع في جمهورية أوزبكستان، حيث تقدم أحد المنتجين من الذين نالوا استحسان القيادة وحققوا أرقاما عالية تؤهلهم لنيل وسام لينين كواحد من أبطال الإنتاج، تقدم المزارع نحو سكرتير الحزب شرف رشيدوف ليستلم الجائزة فما كان من الرئيس وقبل عملية تقليد الوسام، أن اخبر المزارع بأن هذا الوسام ليس دون ثمن، وعليك أن تتذكر ذلك جيدا، فهذا التكريم له مقابل. وهذا ما فعله المزارع لاحقا، حيث جمع ما قيمته خمسين الف روبل وقدمها إلى رشيدوف مقابل حصوله على وسام لينين.

وسام لينين كان يعني الكثير ماديا ومعنويا. معنويا يقدم للشخص الاحترام والتقدير في جميع المناسبات، ويتقدم على الآخرين في المواقع، وقيمة الوسام المادية كبيرة أيضا،

فصاحب الوسام يستقل مجانا ومدى الحياة جميع وسائل النقل برا وجوا، ويمنح أيضا أفضلية الحصول على سكن، وقبل كل ذلك يحصل على مبلغ نقدي يتراوح بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ ألف روبل. ومثل ذلك كان يحدث في باقي الجمهوريات ولمختلف المنتجات الزراعية والصناعية والاختراعات.

- هل ظهرت حركات تطالب بحق تقرير المصير أو الانفصال عن الاتحاد في تلك الجمهوريات؟

- لا ينكر حدوث تطور حقيقي في حياة تلك الشعوب، وتحسن في طبيعة الثقافة والمعرفة والعمران، ولكن السلطة الحقيقية كانت بيد الروس، وهؤلاء بدورهم مارسوا شتى أنواع الضغوط ويحاولون جهد الإمكان قمع أي مسعى للمطالبة بسقف حقوق أعلى مما منح لشعوب تلك الجمهوريات، وقد ظهرت حركات عديدة طالبت بحقوق وحريات أكثر، وبعضها ناشد بالاستقلال، وكانت تلك التطلعات والحركات تواجه بالقمع المنظم، وقامت السلطة السوفيتية بإرسال أعداد كبيرة من هؤلاء إلى المنافي وبالذات إلى سيبيريا. ففي القرم ظهرت حركة قومية قوية للتاتار نادت بالحريات والاستقلال فجوبهت بالقمع حيث وجهت لهم سلطة السوفيت جيش عرمرم قضى على تلك الحركة، ثم تم ترحيل الآلاف منهم إلى المنافي. أيضا حدثت حركات تمرد ومطالبات بالحريات وحق تقرير المصير والاستقلال الناجز في بعض الجمهوريات، فجوبهت تلك الحركات كسابقاتها بالقمع. ففي الأربعينات من القرن العشرين تم الترحيل بشكل جماعي للعديد من المنادين بتلك الحقوق، فمن الشيشان الأنغوش رحل ما يقارب ٤٨٠٠٠٠ ومن البلغار والأتراك الجورجيين رحل ما يزيد على ١٢٠٠٠٠ ومن الأكراد والقوقازيين ٢٠٠٠٠٠ وجميع هؤلاء كانوا يرسلون أما إلى منافي سيبيريا أو جمهوريات آسيا الوسطى وقد تعرض الكثير منهم للهلاك أثناء عملية النفي.

خلال الحرب العالمية الثانية واحتلال القوات الهتلرية الفاشية لمساحات واسعة من الاتحاد السوفيتي شاركت مجموعات كبيرة ومسلحة من شعوب أواسط آسيا والقرم وكرانيا القوات الغازية وأخذت تقاتل الجيش السوفيتي وألحقت به خسائر فادحة ودمرت منشآت اقتصادية حيوية بشكل وحشي مما دفع ستالين خلال وبعد انتهاء الحرب إلى إجراء عمليات ترحيل ونفي بحق مئات الآلاف من هؤلاء وتحت ظروف غير إنسانية

— وما كانت ردود فعل شعوب تلك البلدان على هذا القمع والاستعباد؟

— جراء هذا القمع كانت ردود الفعل في بعضها قاسية ولم تخمد جذوتها، وكانت دائما في حالة ترقب للثورة على ذلك الحال من القمع، مثلا أن سكان القرم تحالفوا في الحرب العالمية الثانية مع الغازي النازي ضد الاتحاد السوفيتي، وأنضم العديد منهم إلى الجيش الهتلري وقاتلوا معه، ولا زال قائد الحركة التاتارية مصطفى جميلوف موجودا لحد الآن يعيش في أوكرانيا، ومثلهم فعل البعض من أبناء الشعب الأوكراني، فقد قاد بنديرف حركة ضد الجيش السوفيتي، وأنخرط في الجيش النازي الذين منحه رتبة جنرال وعمل على خدمة الرايخ الهتلري، وفي أوكرانيا يمجد ذلك الجنرال الآن ويعتبر بطلا قوميا ووضع له نصبا تذكاريا وسط العاصمة كييف. وفي بعض جمهوريات الاتحاد على بحر البلطيق يقيم الكثير من المواطنين احتفالا يوم ١٤ تموز من كل عام يتم فيه الرقص وتناول الشراب ولذيذ الطعام وذلك بمناسبة ذكرى دخول الجيش الهتلري وتحررهم من سلطة السوفيت.

— ألم تضع السلطة السوفيتية مناهجا وخططا لمعالجة تلك الطموحات المشروعة، بما يساعد على طمأنة تلك الشعوب وكسب رضاها؟

— على العكس من ذلك كانت القيادة العليا السوفيتية تحاول بشتى الوسائل طمس وقمع أي طموح قومي، وتحاربه بضغوط كبيرة، وسياسات قهر واستعباد، ويظهر

ذلك في سياسات الاصهار القومي وتعميم اللغة الروسية لجعلها اللغة الأم لشعوب الاتحاد السوفيتي جميعها. وخلال فترة حكم ستالين أستوطن الكثير من الروس تلك الجمهوريات، ولم يكن ذلك قد جاء اعتباطاً وإنما كان سياسة ممنهجة، وتنفيذ حربي لأفكار ستالين. فهو من طرح ضرورة تغيير الطبيعة السكانية لتلك الجمهوريات، وليس فقط إدارتها سياسياً. وبالرغم من كون جميع مفاصل السلطة هناك كانت بيد الروس بشكل تام، وإن أهل البلد يأتون بالدرجة الثانية، فقد اصدر ستالين قراراً بجعل اللغة الروسية، اللغة السائدة في التعاملات الرسمية، وكذلك في مناهج التعليم لتتقدم على لغة الأم في مختلف المجالات، واتخذت تلك المحاولة طابع الإخضاع بالتنفيذ، لنزع السمة القومية عن المواطنين، كون اللغة تعتبر الحامل الأساسي للهوية الوطنية. والأدهى من كل ذلك، فالقيادة السوفيتية بنت داخل تلك الجمهوريات أجهزة مخابرات وأمن، ذات سطوة وقسوة بالغتين، والمهم وقبل أي شيء أن تكون تلك الأجهزة بقيادة روسية. فقد حرصت القيادة على إعداد كوادر قيادية محلية لتلك الأجهزة، ومنحتهم سلطات واسعة لإدارة مؤسسات تلك الجمهوريات، فظهر من بين هؤلاء قادة كبار، أصبحوا في النهاية رؤساء لتلك الجمهوريات، منهم عفيف، رشيدوف، شفرنادزه.

في إحدى الجلسات داخل معهد الاستشراق الذي كنت أعمل فيه، أخبرت مدير المعهد السيد بابا جان غفوروف عن معلومة استقيتها من مصدرين، الأول صحيفة النيويورك تايمز والثاني من BBC حيث تقول المعلومة، بأنه أي غفوروف، وأثناء فترة قيادته لسكرتارية الحزب الشيوعي في جمهورية طاجاكستان بقتل ما يقارب ٤٥٠ ألف طاجيكي، عندها تبسم غفوروف وقال هذا الرقم غير صحيح، فالرقم الحقيقي هو أكثر من ٦٠٠ ألف، وبرر ذلك القتل بالقول بأن بناء السلطة السوفيتية هناك، كان يتطلب كل تلك الأضاحي، فلولا ذلك لما وجدت طاجاكستان الاشتراكية السوفيتية، ذلك الحدث كان يفرضه الواقع. وكان غفوروف الرجل الأول الذي حصل على خمسة

أوسمة من القيادة السوفيتية على عهد ستالين.

— ألا ترى أن البحث في هكذا ملفات وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وكل ما جرى بعد ذلك، وكأنه بحث عن مثالب الشيوعية ليس إلا؟

— كلا على الإطلاق، فأنا دائما ما كنت أود عرض حقائق كانت خافية عن الناس، ولم يكن في وارد تفكيري الطعن بالشيوعية والماركسية، فهي نظرية ومذهب وتيار فكري، فتح للعالم طرقا وأبوابا، أنجز من خلالها ما يعد اليوم إرثا ثريا للبشرية. وكونها دليلا علميا فأن في صلب موضوعاتها العدالة الاجتماعية، وهذا هو الموضوع الذي أؤمن به كمخرج حقيقي وسلوك سياسي اجتماعي يفضي لسعادة الشعوب. الغاية التي أسعى لها، هي عرض العيوب الكثيرة والإخفاقات التي رافقت التجربة السوفيتية في محاولة بناء الاشتراكية، والتي أفضت في النهاية لانحيار عام لجميع المنظومة العالمية للاشتراكية، وليس فقط للاتحاد السوفيتي. ومن المهم هنا أيضا أن يعرف الجميع بأن السياسة السوفيتية بقيادة الحزب الشيوعي، كانت تؤكد في فحواها وطريقة تعاملها، على كون الروس يمتازون عن باقي شعوب الاتحاد السوفيتي، وإنهم أصحاب حضارة وإنجازات عظيمة في الثقافة والعلوم والمعارف والعسكرياتية، ووضعوا بصمتهم بجدارة داخل الحياة الثقافية والسياسة للشعوب الأوروبية، وهذه حقائق لا تخفى ولا ينكرها أحد، وكان لها امتدادا تاريخيا في عمق العهد القيصري، ولم يكن وليد لحظة حضور الاشتراكية وثورة أكتوبر. ولا ينكر ولن يخفى أو يطمس ما قدمه النظام السوفيتي من إنجازات عظيمة، ليس فقط للشعب الروسي وإنما أيضا لباقي شعوب الاتحاد السوفيتي وكذلك العالم.

— كونك درست في كلية الصحافة جامعة موسكو، وكان هناك تنوع وتعدد في جنسيات الطلبة في تلك الجامعة، هل كان هناك تفاوت وتمايز في مستويات الطلاب؟

— كانت جامعة موسكو تمتاز بتنوع تشكيلتها الطلابية، فتجد حضورا كثيفا لطلاب

من مختلف جمهوريات الاتحاد السوفيتي وخارجه أيضا، وحين دخلت كلية الصحافة وفي الصف الأول، وجدت معي العديد من طلبة الجمهوريات الاتحادية. الفرق بين هؤلاء الطلبة من روسيا وجمهوريات بحر البلطيق الاتحادية مع باقي طلبة الجمهوريات الاتحادية يبدو ظاهرا. فهؤلاء القادمون من الجمهوريات الجنوبية أو منغوليا كانوا أبناء لقيادات الأحزاب الشيوعية أو من المقربين لهم، والميزة الأخرى هؤلاء، عدم خضوعهم لأهم شرط لدخول الجامعة أو الاختصاص، ألا وهو اجتياز الاختبار العام للحصول على المقعد الدراسي. فهؤلاء كانوا يرشحون مباشرة من قيادة أحزابهم الشيوعية ومؤسسات جمهورياتهم الاتحادية، وبسبب هذا الاختيار والترشح الحزبي وعدم الخضوع للاختبار ثم التقييم، فإن أغلب هؤلاء كانوا من الطلبة الفاشلين في دراستهم، وكان أساتذة الكليات يعانون الكثير جراء المستوى العلمي المتدني هؤلاء.

في بداية دراستي تعرفت على أحد هؤلاء، وهو طالب كان قادما من أرمينيا وأسمه رافك ووالده هو السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الأرميني. رافك هذا كان مثالا للجهل والتخلف والغباء، وقد كتب عميد الكلية إلى وزارة التعليم مباشرة، يخبرهم بعدم قدرة هذا الطالب على الفهم والتطور، ثم فعل العميد ذات الشيء في العام التالي، مبينا للوزارة عدم جدوى استمرار رافك في الدراسة، وضرورة فصله وإبعاده لجهة غير دراسة الصحافة، فحالته في نهاية المطاف سوف تحتسب على الكلية، وهذه سمعة سيئة، وإن عمل في مجال الصحافة فسوف يقدم ما هو أسوء، عندها يشار بالسالب والسوء عن التعليم والدراسة في كلية الصحافة في جامعة موسكو وليس غيرها، وهكذا سيرد السؤال، كيف سمحت الكلية بمنح هذا الطالب شهادة التخرج؟. ولكن وفي كل مرة يطلب عميد الكلية فصل رافك من الدراسة، تتدخل الجهات الحزبية العليا، وتفرض على العميد التريث في إبعاده عن الكلية، لاعتبارات تتعلق بقيادة الحزب الشيوعي في أرمينيا. وفي العام الثالث أراد العميد ولمرات عديدة إيجاد مخرج لهذه الورطة ولكنه وفي الأخير أضطر لاتخاذ قرار بفصل رافك، وبدورها

فالوزارة أوقفت العمل بالقرار لمدة أربعة أشهر، حين دار نقاش بين العميد وبعض المسؤولين هناك، استطاع العميد عندها إقناعهم بضرورة عدم استمرار هذا الطالب في الدراسة بكلية الصحافة.

مثل هذا الأمر كان يحدث في باقي الكليات ويأتي على وفق السياسة التعليمية للدولة السوفيتية، فالقيادة العليا تفضل العمل بناءً على المعايير الحزبية وعلى قاعدة التسريع في إعداد الكوادر العلمية والقيادية لتلك البلدان، وتعتقد القيادة السوفيتية إن مثل هذا التسريع والإعداد، سوف يقدم كوادر نافعة لبلدانها. فنجد أن امتحان القبول لا يشمل طلاب الجمهوريات الاتحادية، ولا ينظر أو يدقق في مستواهم التعليمي. كذلك فسياسة تفضيل أبناء القيادات أو المقربين منهم وزجهم في الدراسة، كان ينتج عنه مساوئ شديدة الخطورة، لها التأثير الفعلي ظهر أثناء وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي. من نتائج تلك السياسة التعليمية غير الحكيمة لا بل المسيئة، ظهور التفاوت في المستويات العلمية والفنية والثقافية بين طلبة الكلية الواحدة لا بل الصف الواحد، ولعب هذا العامل دور كبير في استشرأ نزعة التبخيس وتقليل الشأن بين أوساط الطلبة، وكذلك الأساتذة تجاه طلاب الجمهوريات الاتحادية، وانعكس هذا الأمر على عموم التعامل مع شعوب تلك البلدان، التي دائماً ما كانت تُتهم من قبل الروس بتدني مستوياتها الثقافية والاجتماعية.

— أختلف المؤرخون حول تفسير جملة أطلقها لينين عن ستالين، في خطابه الموجه إلى الأديب مكسيم غوركي قائلاً (تعال إلي لترى القوقازي العجيب يكتب في المسالة القومية). هل كان لينين يقصد بها التقليل من قدرة ستالين الفكرية، على تحليل المشاكل القومية للشعوب، أم تراه كان مادحاً. فستالين أصدر كراساً حول القضايا القومية، وهو لم يكن روسيا بل جورجيا. فيا ترى لماذا حدث كل ذلك التحول في طبيعة حكم ستالين ليصبح دكتاتوراً ويفرض على شعوب الاتحاد السوفيتي تعلم اللغة الروسية

وخضوع المؤسسات جميعها هناك للإدارة الروسية.

— سبق وحدثت عن وجود الفرق بين ثقافة الشعب الروسي وثقافة باقي شعوب الاتحاد خاصة منها الجمهوريات الجنوبية، فالروس لهم ميزة السبق في العلوم والمعرفة والثقافة عن تلك الشعوب، وشعوب الاتحاد الجنوبية، كانت متخلفة في مناحي الحياة العديدة، فثقافتها محلية محدودة، وليس لها علاقة بالكثير من المعارف الحضارية والتقنيات والعلوم الحديثة، ويمكن الإشارة في ذلك إلى جمهوريات وسط آسيا المسلمة، حيث دائما ما مثل الإسلام فيها عامل كبح للتمدن والعلوم والمعرفة، وكان يعمل على إثارة النعرة الدينية والقومية، ويعمل على إبقاء طابع التخلف مسيطرًا على مقدرات الناس، بالرغم من منع ممارسة الشعائر والطقوس الدينية أثناء فترة الحكم السوفيتي، ولكن البعض كان يمارس بالخفاء تلك الشعائر.

انضمام تلك البلدان والأقاليم إلى الاتحاد السوفيتي قدم لها الكثير من الإنجازات التي ساعدتها للدخول في العصر الحديث ورفع من مستوى ثقافة ومعارف شعوبها. ولكن العوامل الذاتية الكابحة كانت تجعلها لا ترتقي لمستويات باقي شعوب الاتحاد وبالذات الشعب الروسي. كانت التقاليد والسياسات الروحية والاجتماعية التي تمارس بالخفاء، تعمق الهوة بدلا من ردمها. وفي المقابل فسياسة القيادة العليا غير الصائبة والقسرية لعبت الدور الأساسي في استئثار وتغذية تلك النزعات.

ستالين كان من أصول جورجية وهي إحدى الجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفيتي، وسبق أن كانت جزءاً من روسيا القيصرية. ويمكن القول إن ستالين كان أكثر من أي قائد روسي تشبهاً بالروسية، ويمجد ويفخر بطبيعة الشعب الروسي ومعارفه، وكان مقتنعا بأن شعوب الاتحاد دون الروس لا يمكنهم بناء الاتحاد السوفيتي والاشتراكية، لذا سعى لزوج الآلاف من الروس داخل أنشطة وحياة تلك الشعوب، وجعل جميع مفاصل الإدارة في جمهوريات الاتحاد خاضعة لسطوة وقرار المركز المتمثل

بقيادته، وكذلك فرض اللغة الروسية لتكون اللغة الأولى للجميع في الاتحاد. هذا التعلق بالروسية يفصح عنه خطابه الموجه للشعب السوفيتي، عندما وصلت القوات الهتلرية الغازية إلى ضواحي موسكو، أي على بعد ٤٠ كيلومترا من العاصمة. في ذلك اليوم وخلال الاحتفال بذكرى ثورة أكتوبر الاشتراكية، ألقى ستالين خطابه الشهير في الساحة الحمراء يستحث فيه الجنود والشعب للدفاع عن الوطن، وهنا ظهر تعلقه بالروسية وأمجاد الشعب الروسي، فكان خطابه موجها بشكل أساسي إلى المقاتلين والشعب الروسي يذكرهم فيه بالأبطال من القادة التاريخيين الروس، وفيه كشف ستالين وبشكل صريح وواضح ميوله تلك، وراح في تمجيد الدور الريادي للروس في مواجهة القوات الهتلرية، فقال بحماس منقطع النظير:

((يارفاق الجيش الأحمر والقوات البحرية والقادة والمسؤولين العسكريين والسياسيين والأنصار والنصيرات. ينظر العالم اجمعه إليكم في هذه الحرب التي تخوضونها، وهي حرب تحرير، حرب العدالة. يجب أن تأخذوا بعين الاعتبار بطولات قادتنا الروس العسكريين السابقين: الكسندر بيفسكوف، دم تري دونسكوي، كوزمين مينا، دم تري بشارسلي، الكسندر سوفروف وميخائيل كوتوزوف. يجب أن تكون راية لينين العظيم المحفز الأساس لكم))

أيضا ولكونه كان قريبا من لينين، ربما أراد أن يضع أمام قائده ما يوحي ببعض أفكاره الماركسية. ولكن علينا أن نعرف بان لغة ستالين الروسية كانت تصاحبها لكنه بائلة، وأيضا لم ينل ستالين حظا جيدا من التعليم، فيقال أنه لا توجد على الإطلاق مدرسة في عموم الاتحاد السوفيتي تقدم ما يثبت تخرج ستالين منها. ويقال أيضا إن تحصيله الدراسي يقتصر على الدراسة في الكنيسة لمدة أربعة أعوام، ولم يكمل تعلم الحروف الروسية بشكل ناجز، وبعد أن بلغ عمره ١١ عاما عمل في صبغ البيوت، وشارك في نضال العمال في جورجيا ومن ثم في روسيا حين انتمائه إلى الحزب الشيوعي

الروسي، ومن هذا يقال بأن كتابه عن المسألة القومية الذي جاء لاحقاً، كان قد استعان في إنجازهِ على بعض الأساتذة والحزبيين الروس.

— مع كل ما تقدم من أحداث، هل تعتقد أنها كانت سبباً في تفكك الاتحاد السوفيتي ومن ثم انهياره؟

— يمكن أن تكون إجابتي بأكثر من نعم، ففي نظرة للإحداث التي سبقت الانهيار ثم ما أعقبت ذلك، نستشف الكثير عن حقيقة العلاقة بين الجمهوريات الاتحادية.

سياسة ستالين ومن جاء بعده من قادة، مثلت إيذاءً متعمداً للشعوب الاتحاد. فسياسته التي اعتمدت محاولة تغيير الطبيعة السكانية واللغوية لشعوب الاتحاد لصالح العنصر الروسي، انعكست سلباً بشكل عام على العلاقات مع تلك الشعوب، وصعدت من حدة التخذيق المذهبي والقومي تجاه الروس. كذلك السيطرة السياسية والإدارية للروس على مفاصل السلطة في جميع الجمهوريات، واستخدام قوى الأمن لقمع أي تحرك أو مطالبة بالحريات أو الحقوق المدنية، سبب الكثير من ردود الفعل القوية، رغم عدم بروزها بشكل ناجز، لأسباب عديدة تتقدمها القسوة والقمع. فبعض تلك الشعوب كانت وفي مختلف المراحل تترقب لحظة الخلاص من سطوة الروس والانفصال النهائي عن الاتحاد السوفيتي. ولذا نجد هذه الشعوب سبابة في الفكك من العلاقة بالاتحاد السوفيتي إثر انهياره.

انهار الاتحاد السوفيتي وتفكك كدولة فدرالية في ٢١ ديسمبر من عام ١٩٩١. ورغم إعلان تشكيل اتحاد كومونولث من بعض الجمهوريات الاتحادية السابقة فانهيار الاتحاد الفدرالي للجمهوريات الاشتراكية السوفيتية كان له الأثر الكبير على مستوى العالم أجمع، وكان وقعه كبيراً لدى شعوب بلدان الاتحاد. فقد بدأت ردود فعل تلك الشعوب قاسية وانتقامية لكل ما يمت بعلاقة للسيطرة الروسية، فكانت هذه البلدان سبابة للتحرر من الإرث السوفيتي، لذا تم في هذا السياق طرد جميع القادة المواليين

لروسيا، وكذلك الكوادر الإدارية الروسية في مؤسسات السلطة، وأيضا المواطنين الروس الذين استوطنوا تلك البلدان وفق سياسة تغيير الطبيعة السكانية التي شرعت على عهد ستالين.

ولو عدنا لما قبل الانهيار، نجد أن التاريخ قدم دروسا يمكن أن نطلع من خلالها على العلاقة الملتبسة لابل المنفرة بين تلك البلدان وروسيا والاتحاد السوفيتي. من الجائز القول إن العلاقة غير السليمة التي كانت تشوب صلات الروس الاتحاديين بباقي بلدان الاتحاد هي أسباب مفجرة لصراع خفي ساعد في صنع عوامل الانهيار للاتحاد السوفيتي بعد أن ساهمت سياسة ستالين ومن جاء بعده من قادة الاتحاد إلى الابتعاد كليا عن المبادئ التي جاءت بها الثورة البلشفية في أكتوبر عام ١٩١٧ ورمي نداء لينين لشعوب الشرق بعيدا فأدى كل ذلك لنخر ونحر مفهوم العلاقة بين الشعوب وحق تقرير المصير ومن ثم سرع في انهيار الاتحاد السوفيتي.

(٤)

الإعلام الشمولي في الاتحاد السوفيتي

تعتبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة وكذلك المقروءة وسيلة حيوية للتأثير الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والبيئي على الفرد والمجتمع، وتساهم في بناء منظومة الأفكار المعرفية لديهما وتنمي القدرات على التفاعل والاستيعاب والتحليل، ومن ثم اتخاذ المواقف وفق فكر وسلوك بعينه، ويكون تأثيرها قويا وقادرا على نشر سلوك ومفاهيم ورؤى لنمط فكري مجتمعي معين، لذا نراها قادرة فعلاً على تغيير سلوك الأفراد والجماعات في الممارسة اليومية.

وبسبب الطاقات الكبيرة المتوفرة لوسائل الإعلام وبسبب تأثيرها المتزايد، تظهر ميول ورغبات تدفع الفرد إلى إشباع حاجاته والحصول على المعلومة بما يتفق وأفكاره وميوله. والإعلام في هذه الحالة يزود الفرد بكل ما هو جديد، ويسهل عليه عرض المعلومة والحصول على المعرفة التي يسعى للحصول عليها، وتصبح تلك الوسائل بالنسبة للفرد حافظةً ومستودعاً يمكن له من خلالها معرفة الكثير مما يثير فضوله.

ويمكن القول بأن وسائل الإعلام لم تكن دائماً إيجابية فيما تقدمه. فهذه الوسائل تم استغلالها من قبل جميع الأنظمة السياسية تقريباً لتصبح آلة خطرة على الناس، ولتخلق صوراً مشوشة ومربكة تجاه قضايا بعينها. وتسعى السلطة لبث رسائل إعلامية لصالح فلسفتها واستراتيجياتها السياسية، يكون الغرض منها حشد الرأي العام لصالح ما تبناه، وإبعاد الناس عن البحث في الحقائق أو معرفة ما يجري على أرض الواقع، وإلهائهم بأحداث ليس لها علاقة بالحقيقة التي يعيشونها، وإلغاء الفعل العقلي النقدي وتدجينه، وجعل المجتمع مجالاً خصباً لبث فلسفتها ورؤاها، وغسل الأدمغة من خلال الترويج للأفكار الشمولية العميقة. إلا إن هناك من الإعلاميين من يرفض

لنفسه أن يلعب دور المشوه للحقائق، فينشر بأساليب وأدوات وطرق كثيرة، ما يساعد على معرفة الحقائق النسبية. وفي هذه المقالة أحاول وضع تجربتي الشخصية مع الإعلام السوفيتي أمام القراء والقارئات.

لقد عشت ما يقارب العقدين من السنين في الاتحاد السوفيتي وعاصرت أحداثاً ووقائع كثيرة، وتوفرت لي فرص نادرة، تعرفت خلالها على عشرات بل المئات من الأشخاص المهمين والفاعلين في الحزب الشيوعي السوفيتي ومؤسسات الاتحاد السوفيتي، ووسط مختلف وسائل الإعلام والإعلاميين. فدراستي في كلية الصحافة في جامعة موسكو، وحصولي على شهادة الدكتوراه منها، أهلتني لأكون قريباً جداً من وسائل الإعلام ومن المسؤولين الحزبيين. وفي فرصة نادرة انتميت للعمل في مؤسسة تعد واحدة من مراكز القرار في الاتحاد السوفيتي، ألا وهو معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، الذي دفع بي رئيسها الأكاديمي باباجان غفوروف نحو عالم رحب من المعلومة السياسية والمعارف الحياتية، والاطلاع على العوالم الخفية للسياسة السوفيتية، وتوجهات قادتها وعلاقاتهم بباقي الأحزاب الشيوعية، وقادة حركات التحرر الوطني، ورؤساء الدول العربية والنامية.

كان عملي المهني في الصحافة السوفيتية قد وفر لي منذ البداية أجواء لقاءات وتعارف وصدقات أصبحت لاحقاً الأساس في تركيبة عملي المهني والإداري وحتى الحزبي. فأنا كنت قد خرجت من العراق محكوماً بالإعدام وفق تهمة المشاركة في قمع مؤامرة الشواف في مدينة الموصل، تلك المؤامرة التي سعت للإطاحة بالجمهورية العراقية الفتية وزعيمها عبد الكريم قاسم، والتي سارع أهل الموصل وشبابها إلى تطويقها وإجهاضها، وكنت حينها أحد قادة الحركة الطلابية هناك. وقد قام الحزب الشيوعي العراقي بتهميني بعد صدور حكم الإعدام بحقي، ووصلت بشكل سري إلى موسكو، واستطعت الانتفاء إلى كلية الصحافة بجامعة موسكو، والتي تعتبر المركز

الرئيسي لإعداد وتخريج الصحفيين والإعلاميين في البلاد السوفيتية. هذه الكلية لم تكن لتقبل كل راغب للدراسة فيها حتى من مواطني الاتحاد السوفيتي. فالنظام السائد فيها يؤكد أن يكون المتقدم للدراسة، قد مارس العمل الصحفي الحقيقي في إحدى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة لمدة سنتين، وعلى أن يكون قد اثبت فيها إمكانيات صحفية.

منذ البداية يجب القول، أن وسائل الإعلام في الاتحاد السوفيتي كانت جميعها حكومية، وكان لجميع التنظيمات السياسية التابعة للحزب الشيوعي الحق في إصدار صحفها ومجلاتها. وفي جميع المدن السوفيتية كانت تصدر صحفا ومجلات خاصة بالجمهوريات وأيضاً بالتنظيمات المهنية، وبناءً على شرط أساسي، هو أن يتجاوز عدد سكان المدينة المليون شخص أولاً، وان يلتزم الإصدار بسياسة الدولة والحزب ثانياً. وبجانب هذه الإصدارات كانت هناك الصحافة المركزية، والممثلة بصحيفة البرافدا الناطقة باسم الحزب الشيوعي السوفيتي، وصحيفة الايزفستيا الناطقة باسم الحكومة السوفيتية. كما أن هناك صحافة لجميع المنظمات الرئيسية، مثل نقابات العمال والشبيبة والمرأة، وكانت تصدر في موسكو وتطبع ليلاً في جميع جمهوريات الاتحاد السوفيتي، مع الالتزام بنشر الأخبار والمعلومات الرسمية لكل جمهورية في الصحف المركزية. شخصياً كنت أحصل على العديد من صحيفة البرافدا الصادرة في عدد من جمهوريات الاتحاد السوفيتي، والتي تنشر أخبار ومواضيع خاصة بما يحدث في تلك الجمهورية، إضافة لما ينشر في الصحيفة المركزية ويعاد طبعها، ولا يجد القارئ مثل هذه الأخبار في طبعة موسكو. وكانت الصحف تصدر يومياً بملايين النسخ. فجريدة البرافدا مثلاً، كانت تطبع بما يقارب عشرة ملايين نسخة يومياً ومثلها باقي الصحف المركزية. ومن الجدير بالذكر، أن كافة العوائل وفي عموم الاتحاد السوفيتي كانت تشترك بحوالي خمسة جرائد ومجلات.

هذه الوسائل الإعلامية كانت المصدر الرئيسي لحصول المواطن السوفيتي على الأخبار ومعرفة وقائع الأحداث الجارية في بلادهم، بينما الأنباء الخارجية كانت شحيحة جداً، وإذا وجدت فإنها تركز على مساعدات الاتحاد السوفيتي للبلدان الاشتراكية والدول النامية، وحول مواقف الاتحاد من الأحداث العالمية وبشكل مختصر وبأقصى حدود الإيجاز.

وكانت الجمهوريات السوفيتية تصدر صحفها بلغاتها القومية رغم معرفة الناس باللغة الروسية كونها تدرس إجبارياً في جميع الجمهوريات. ولم تكن هناك أي إعلانات في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، ولكن بعد عام ١٩٨٥ أخذت تظهر بعض الإعلانات الصغيرة والتي لم تكن لتحتل مساحات واسعة. ومن الأشياء التي كانت الصحافة تهتم بها بشكل خاص، رسائل القراء، وكان قسم من هذه الرسائل يُنشر بشكل مختصر. وفي واقع الحال فإن رسائل القراء كانت الوسيلة الوحيدة لمعرفة توجهات الرأي العام وشكاوى الناس. وكانت هذه الرسائل تطرح الملاحظات عن سياسة المنظمات المحلية فيما يتعلق بتقديم الخدمات وتلبية حاجات الناس الضرورية. وكانت ردود فعل المسؤولين، فورية ويجري اتخاذ الإجراءات الضرورية واللازمة لمعالجتها.

كثيراً ما كانت وسائل الإعلام في الدول الأوروبية وأمريكا الشمالية ومثلها المسؤولون في المنظمات الدولية، تردد وتؤكد على الرقابة الصارمة المفروضة على ما ينشر في وسائل الإعلام السوفيتية، وتعلن بأن هناك رقياً في كل مؤسسة إعلامية سوفيتية، ولا يمكن نشر أو إذاعة أي نبأ دون موافقة الرقيب. بالطبع أن ذلك لم يكن صحيحاً. فكل صحفي يقوم بنفسه بدور الرقيب، كونه يعرف جيداً ما هي المواضيع والرؤى المسموح بنشرها من عدمه، وهو لا يستطيع تجاوز حدود رسمت له مسبقاً. فكان واجب الإعلام الأساسي تنفيذ سياسة الحزب الشيوعي المعلنة وقرارات مؤتمراته

الحزبية، وعليه ألا يتجاوزها.

كانت هناك لجتان مركزيتان واجبهما ممارسة الرقابة على القضايا العسكرية والأمنية، وفي حال وجود أي مادة صحفية تثير الشكوك لدى رئيس التحرير من حيث عدم التزامها بالصارم بالقرارات والقواعد السياسية المتعارف عليها، فإنه يلجأ إلى اللجنتين لأخذ رأيهما النهائي، وحسب معلوماتي ومعرفتي فأن مثل هذا الخرق نادراً ما كان يحدث.

بالطبع كانت تجري عملية تدقيق كبيرة وواسعة لجميع المواد الإعلامية، خاصة الإصدارات الصحفية خارج الاتحاد السوفيتي، والتي تقوم وكالة نوفوستي وغيرها بطبعتها والترويج لها بمختلف لغات العالم، وكانت هناك رقابة ذاتية صارمة يتمتع بها الجميع، تجعلهم يقدمون أفضل المعلومة عن الحزب الشيوعي والنظام الاشتراكي السوفيتي وعلاقاته الدولية. وفي هذا المجال تحضرني حادثة زيارة السيد بهجت التلهوني للاتحاد السوفيتي، وكان في ذلك الوقت رئيساً للديوان الملكي الأردني. حال وصول السيد التلهوني إلى موسكو أعطى تعليمات صارمة للسفارة الأردنية بعدم رغبته بلقاء وسائل الإعلام، وامتناعه عن إجراء أي حديث صحفي. كانت الزيارة هي الأولى لمسؤول رسمي أردني بهذا المستوى. وكالة نوفوستي التي كنت أكتب لها باللغة العربية، طلب مسؤولها مني بذل الجهود للحصول على لقاء مع السيد التلهوني. فعلاً اتصلت والتقيت بالسفير الأردني وعرضت عليه رغبتي بمقابلة السيد بهجت التلهوني، بدوره أخبرني بأن التلهوني يرفض جميع المقابلات الصحفية،

ولكنه وعدني خيراً بأنه سيحاول أقناعه، عند المساء اتصل بي السفير هاتفياً وأخبرني بضرورة الحضور في اليوم التالي إلى فندق أوكراينا حيث يقيم السيد التلهوني، وبالفعل ذهبت وجرى لقائي معه. سألني عن سبب وجودي في موسكو فأخبرته بأنني أدرس الصحافة، ثم دار بيننا حديث عن فترة وجودي في الاتحاد السوفيتي وما هي

صلتي بالعراق، فأخبرته بكوني سياسي لا أستطيع العودة إلى العراق، فقال مباشرة: فهمت.. فهمت. بعد هذا سألته عن طبيعة زيارته وعلاقة المملكة الأردنية بالاتحاد السوفيتي، وجوابا على سؤالني قال، بأن علاقة الأردن دائما مع الدول الغربية، لكن لدينا اليوم رغبة بتطوير علاقاتنا مع السوفييت نحو الأفضل، ليكون هناك نوع من التوازن في علاقاتنا الدولية، وهذا قرار اتخذته جلالة الملك الحسين بن طلال. استمر حديثنا طويلا تطرقنا فيه للأوضاع في الأردن والمنطقة العربية. كنت حين لقائي بالسيد التلهوني أحمل جهاز تسجيل صغير زودت به من قبل الوكالة وأخفيت في حقويتي. لذا وبعد عودتي إلى البيت أفرغت الحديث على الورق. وفي اليوم التالي ذهبت إلى الوكالة وقدمت الحديث المطبوع إلى السيد يورا، وكان هذا يمثل سلطة الرقابة الخاص بالمواد التي ترسل لمطبوعات الوكالة خارج الاتحاد السوفيتي. فورا سألني يورا، من هو هذا التلهوني فأخبرته عن موقع التلهوني في سلطة المملكة الأردنية، فقال، وما هو موقف التلهوني من النظام الاشتراكي؟ وهل تطرق في حديثه للإنجازات العظيمة في الاتحاد السوفيتي، وأشاد بقيادة الحزب والرفيق بريجنيف، فأجبت بأن التلهوني من الشخصيات ذات الميول اليمينية المعادية للاشتراكية، ولكنه جاء بمهمة الغاية منها تطوير العلاقة مع الاتحاد السوفيتي بناءً على رغبة ملكهم. هنا قال يورا، ما نفع هذا اللقاء إن لم يتطرق بالمديح والإطراء لتجربتنا السوفيتية وإنجازاتها العظيمة، وبناءً على ذلك أرفض نشر اللقاء. عند ذلك ذهبت مباشرة إلى رئيس التحرير وأخبرته بما حدث. فأخذني معه وذهبنا إلى يورا، وبادره بالسؤال، هل قرأت ما قدمه لنا يوسف الياس، وكان هذا اسمي المستعار حينذاك، فأجاب يورا بالنفي، عندها اتخذ رئيس التحرير القرار بترجمة كامل الحديث إلى اللغة الروسية. وفي اليوم التالي كان الحديث مطبوعا وموضوعا على مكتب السيد يورا، ومؤشر عليه من قبل رئيس التحرير بكونه يستحق النشر، لوجود إشارات مشجعة عن رغبة الأردن في تطوير العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، عندها تقرر نشر الحديث في مجلة المدار التي تصدر في بيروت وفعلا تم نشره هناك. وحين

وصل ما نشر في المدار لعلم السيد بهجت التلهوني، أنكر أن يكون قد قدم في موسكو حديثاً صحفياً لأحد، وتم استدعاء السفير السوفيتي وطلب منه تكذيب كل ما جاء في الحديث.

أرسل السفير السوفيتي طلب السيد التلهوني إلى موسكو، عندها قامت وكالة نوفوستي بإرسال نسخة من شريط التسجيل ليوصله السفير السوفيتي بنفسه إلى السيد بهجت التلهوني، وبعد سماعه للتسجيل قال التلهوني: أرجو اعتبار الموضوع منتهياً إلى هذا الحد. وقد تم تكريمي وقتذاك من قبل الوكالة على الدور الذي قمت به.

جميع الأحداث التي ترى القيادة السوفيتية والحزب الشيوعي بأنها تسبب ولو بالشيء البسيط من الضرر للنظام، كان يعتمد عليها وتخفى عن الرأي العام الداخلي والخارجي، فمرض أحد القادة أو المسؤولين الكبار أو تنحياتهم أو تجميدهم، ليس بالضرورة أن يظهر خلال وسائل الإعلام وبشكل علني ومباشر، بل أغلب الأحيان يموه عليه، ظناً من القيادة العليا للحزب بأن عرض ذلك سيعطي أعداء النظام والاشتراكية نقطة ضعف، ويستغل الأمر ويروج له بواسطة وسائل الإعلام الغربية.

حين جرت حملة قوية قادتها المنظمات الأوروبية والأمم المتحدة طرح فيها موضوعه تجاهل الإعلام السوفيتي لأحداث دولية مهمة لا يمكن أن يكون فيها أي تعرض وانتقاد للاتحاد السوفيتي، كان رد الفعل السوفيتي قيام التلفزيون العام والإذاعة بعرض بعض الأخبار الدولية، ولكن تعمدت تلك الوسائل في بث الأنباء خلال منتصف الليل، حين يكون سكان البلاد السوفيتية يغطون في نوم عميق، وكانت هذه الأخبار غالباً ما تتعلق بالاحتجاجات والتظاهرات ضد السفارات السوفيتية، وعند زيارات مسؤولين حزبيين وحكوميين إلى الدول الأوروبية.

كان هناك انفصال تام بين الممارسات وبين الشعارات التي تطلق باسم الاشتراكية والبناء الشيوعي، فالشعارات والوعود التي تقدم من خلال وسائل الإعلام وتظهر

وتعرض للعالم الخارجي السعادة الغامرة التي يتمتع بها المواطن السوفيتي، تصطدم بواقع مرير يختلف كلياً عما تصوره وتقبل له وسائل الإعلام الرسمية والحزبية، فالناس يعيشون في ضيق وعوز وتسلب حرياتهم الشخصية وتمنع عنهم أبسط متطلبات الروح الإنسانية. فالمنجز الحضاري والعلمي الرائع يكون الوجه الظاهر للنظام، ولكن الإنسان يبقى فيه مقيد بتعليمات صارمة تسلب حرياته وتخضعه لنمط محدد من التفكير. وأصبح شعار الحريات والمبادئ الاشتراكية الماركسية مهلهلاً، ثم حجم لصالح تكتيك الدفاع عن النظام السوفيتي، وهذا بدوره خلق أعداء في الخارج وبات مرعباً ومشكوك فيه في الداخل.

لقد لعب الإعلام دوراً سلبياً في التغطية على الأخطاء والنواقص، بل كان واجبه الوحيد الإشادة بجميع ما يصدر عن الحزب والحكومة رغم شيوع القناعة بخطأ ذلك. ومنذ سنوات طويلة قبل حصول انهيار الدولة السوفيتية أدركت الجماهير السوفيتية الواسعة، واقع ودور الإعلام السلبي والمزيف ولم تعد تثق به، وكانت تتناقل فيما بينها الأخبار والمعلومات، بما فيها عن الفساد السائد في أجهزة الدولة والحزب والإعلام، التي كانت تصلها شفاهاً عبر وسائل اتصال أخرى قوامها الإنسان نفسه وأوضاعه الحياتية التي يعيشها يومياً، والتي كانت تختلف كلياً عما ينشر في وسائل الإعلام السوفيتية، وهي التي تسببت أيضاً وساهمت في تفاقم عدم الثقة بين الفرد والمجتمع من جهة، ووسائل الإعلام والسلطة أو عموم الدولة السوفيتية من جهة أخرى، وكان أحد المسامير المهمة التي دقت في نعش الدولة السوفيتية.

(٥)

زلزال هز العالم: أسباب انهيار الاتحاد السوفيتي

حاوره فرات المحسن

بعد سنوات دراستك الطويلة في الاتحاد السوفيتي وأيضا عملك في أحد أهم مراكز البحوث هناك، وبعد حياة حافلة بالأحداث السياسية، يا ترى ما هي الحصيلة التي تكونت لديك عن أسباب انهيار الاتحاد السوفيتي ومن ثم المنظومة الاشتراكية؟
- هل تعتقد أن سياسات القيادة السوفيتية وتوجهاتها في إدارة السلطة كانت أحد العوامل في ذلك السقوط المدوي؟

نعم، بالفعل أن تلك السياسات وغيرها الكثير من العوامل الداخلية والخارجية كانت تعمل على تآكل التجربة الاشتراكية، وهناك الكثير من الوقائع أخذت تنخر وتطعن بالقيم الشيوعية الماركسية. فما عاصرتة وشاهدته وأطلعت عليه كان في أغلبه يدفع بالاتحاد السوفيتي نحو الهاوية، وما كان انهياره غير نتيجة طبيعية ومنطقية لتلك السياسات العقيمة.

ورغم أن الحدث كان كبيرا ومأساويا ومؤذيا ليس فقط للدولة السوفيتية وإنما للعديد من شعوب العالم التي كانت تجد في الاتحاد السوفيتي نصيرا لها. فلا ينكر أن الاتحاد السوفيتي كان قوة توازن دولية عظمى ومكانته كانت تفرض جبروتها في المحافل الدولية ويقف بالنند من الخصوم وبالذات أمريكا وحلفائها في العالم الغربي، وكان في الكثير من مواقفه نصيرا للسلم العالمي ولقوى التحرر الوطني.

في رأيي الشخصي، أن السبب الداخلي الرئيسي في ذلك الانهيار وهو المهم، يتمثل

في تغافل القيادات السوفيتية المتعاقبة وفي جميع المراحل، وعدم اهتمامها بالحاجات النفسية للفرد ومطالبه الاجتماعية والاقتصادية، واتجهت القيادة وحرصت على جانب بناء الترسانة العسكرية، وكان الغرض من ذلك، محاولة إثبات أن الاتحاد السوفيتي دولة عظمى وقوة لا تقهر، والعمل على الترويج لمقولة أيولوجية تؤكد على أن هذه العظمة والجبروت جاء كنتاج طبيعي لثورة أكتوبر العظمى وواقع صنعتته وفرضته النظرية الاشتراكية، ودون تلك النظرية لم يكن الاتحاد السوفيتي قادراً على بناء مثل هذه القوة والحصول على هذه المكانة.

كان يترافق مع هذا التنظير الإعلامي واقع حال آخر، فحاجات الناس اليومية كانت بعيدة جداً عن تفكير القيادات فلم يكونوا يلتفتون لما يجري ويحصل من مآسي داخل المجتمع، وهناك الكثير من الأمثلة التي من المكن ذكرها للاستدلال على ما كان يحصل. فمثلاً هناك أساتذة جامعات وضباط في القوات المسلحة وأطباء وغيرهم، يسكنون مع عوائلهم وعوائل أخرى في غرفة واحدة وليس شقة، أي غرفة واحدة لعائلتين، وتسمى تلك الغرف وتلك التجمعات السكنية بالبيوت المشتركة، وبقيت هذه الأوضاع حين انهيار الاتحاد السوفيتي، لا بل إن بعضها باق لحد الآن، ولم تحل هذه الأزمة، ودائمًا ما كان التبرير يعلق على شناعة الحرب الأهلية والحرب العالمية الثانية، حيث دمر الجيش النازي بعد أن اقترب في هجومه من حدود العاصمة موسكو، آلاف المدن والقرى وهجر سكانها، ودائمًا ما كانت تلك الحالة عصية على الحل، فكيف يتسنى للسلطات السوفيتية إعادة أعمار وبناء كل ما تهدم وتوفير السكن لملايين البشر، ومثل هذه المشكلة الحيوية والتي تفرض وضع خطط محكمة لتقدير حاجات البلد لوحدات سكنية، كانت الحلول تواجهها معضلات حقيقية، فهي تتطلب توفير سيولة نقدية أي ميزانية ضخمة للأعمار، في الوقت الذي كانت تعمل القيادة السوفيتية على تخصيص جل ميزانية الدولة للأنفاق العسكري، لذا ترك الناس يعيشون في تلك الأماكن الضيقة وفي ظروف سكن قاسية ووضيعة. ودائمًا ما

كانت المبررات تأتي عبر وسائل الإعلام لتطلب من الناس كبت مشاعرهم ورغباتهم والترويج والهتاف للبناء الاشتراكي والاتحاد السوفيتي، فهذا الشيء يتقدم فوق كل الرغبات الاعتبارية، والبناء الاشتراكي دائما ما كان وسيكون الهدف المباشر للأعداء وبالأذات العدو الأول الولايات المتحدة الأمريكية، لذا على الشعب التوحد تحت راية الحزب في مواجهة الأعداء.

كان سباق التسلح وتخصيص جل ميزانية الدولة للمؤسسة العسكرية وصناعة الأسلحة، أخلا لا فاضحا في مستوى أنجاز باقي قطاعات الاقتصاد، وبدوره فقد أثر هذا اجتماعيا واقتصاديا في سلوك الأفراد والجماعات، ومن ثم انعكس بدوره على نظام وطرق عمل مؤسسات الدولة. وكان من أهم الأسباب في انتشار الفقر بين أوساط الشعب وإشاعة طرق الرشوة وسرقة المال العام، فكان بعض أساتذة الجامعات يتقبلون الرشوة بابتذال ومثلهم أفراد الشرطة والأمن لا بل الكثير من موظفي الدولة، فأحد أساتذة الجامعات يقبل من طالب عراقي أو أجنبي استضافته على وجبة طعام لغرض ما، أو يقدم له قنينة شراب مقابل خدمات دراسية، رغم إن قنينة الشراب أو وجبة الطعام كانت جد رخيصة، ولكن شخصيات تلك المؤسسات كانوا يفتقدون المال الذي يوفر لهم مثل تلك الأشياء، ووصلت بعض الحالات إلى أكثر تعاسة من هذا. فنحن طلاب أجنب تم نحن الدولة السوفيتية راتبا شهريا قدره ٩٠ روبلا والمهندس السوفيتي صاحب التحصيل العلمي العالي يستلم مثلنا ٩٠ روبلا أيضا، والطبيب يستلم بين ٩٠ إلى ١٠٠ روبل وهذا ينطبق على العديد من موظفي الدولة من ذوي الاختصاصات العلمية العالية.

- وما كانت دوافع الاتحاد السوفيتي من تقديم مساعداته السخية للعديد من البلدان؟

في الوقت الذي كان الكثير من أبناء الشعب السوفيتي يعانون من العوز والفاقة،

كان المرء يلاحظ أن الاتحاد السوفيتي يقدم بسخاء مساعدات طائلة للعديد من بلدان العالم، ولكن من السهولة معرفة السبب الجوهري لكل تلك المساعدات، فالغرض منها كان كسباً لمواقف تلك البلدان وضمان وقوفها بجانب الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة وباقي المحافل الدولية وأيضاً وهذا مهم للسياسة السوفيتية، وقوفها بالصد من سياسات الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي واحدة من تلك المهازل نستطيع أن نعود لتاريخ العلاقة بين العراق والاتحاد السوفيتي وبالذات على عهد الزعيم عبد الكريم قاسم، حيث طُلب من الحزب الشيوعي أن يتخذ موقف المساندة الدائم للزعيم والامتناع عن إثارة الخلافات معه، لا بل ضرورة الاصطفاف معه وتأييده في مجمل سياساته، وقد وقفت القيادة السوفيتية موقفاً قامعا لجميع الأصوات داخل الحزب الشيوعي العراقي والتي كانت تندد بسياسة الزعيم عبد الكريم أو تشير لبعض أخطائه. ويعود السبب الرئيس لهذا الموقف، لضمان وقوف الزعيم عبد الكريم والدولة العراقية مع الاتحاد السوفيتي في المحافل الدولية. فلم يكن الاتحاد السوفيتي بحاجة لنفط العراق ولا خيراتة الأخرى، ولكن صوت العراق وموقفه الإيجابي من سياسات الاتحاد السوفيتي، كان السبب الرئيس في المساعدات الكبيرة التي قدمت للعراق. ونفس السياسة كانت تستخدم مع باقي البلدان وبالذات السائرة في طريق التحرر والاستقلال الوطني، ولم يكن هذا الموقف ببعيد عن بلدان المنظومة الاشتراكية التي كان الاتحاد السوفيتي يبذل قصارى جهده لكي تقف على قدميها فيقدم لها العون المادي والمعنوي.

كان السوفييت يقدمون للعديد من البلدان أسلحة بالمجان وبأبخس الأثمان، ويرسل خبرائه ومعداته ويساعد في بناء ورش ومصانع وأبنية، وكان يقدم كل ذلك بأسعار أقل بكثير من أسعارها العالمية، وكان في الكثير من مبيعاته، يتقبل أسعار أعماله وإنجازاته بدفوعات رمزية. وكان الهدف ذاته، خلق مناصرين وضمان تأييدهم في

الساحة الدولية، وكذلك وقوفهم بوجه الولايات المتحدة وحلفائها، وكنت شاهدا على أغلب تلك الأحداث التي وقعت أمامي في العديد من بلدان العالم التي زرتها أو عملت فيها، منها سوريا ومصر والعراق والصومال واليمن، وقد لاحظت أن جميع تلك البلدان ومنها أيضا بلدان المنظومة الاشتراكية، لم تكن لديها القناعة الحقيقية الراسخة ليس فقط بالفكر والنهج الاشتراكي، وإنما بقيادة الاتحاد السوفيتي.

- ألم يكن هناك من يعترض أو يصحح تلك السياسات؟

هذا السؤال حيوي لذا يمكنني القول، لم تكن هناك في الاتحاد السوفيتي ديمقراطية وكان نظام الحكم قمعيا وكابحا للحريات، وكل ذلك يجري تحت شعار دكتاتورية البروليتاريا، ووفق ذات الشعار يصنف أي معترض أو معارض، وحول أية قضية كانت، بأنه معادي للدولة الاشتراكية ومروج للأفكار الرأسمالية. وكانت جميع قوائم الانتخابات داخل الحزب تعد سلفا ولا يقبل أي صوت معارض لها. فمقولة الحزب الأوحده لا تعطي أي مجال للتعبير عن الرأي. ولكن قولي هذا لا يعني خلو الساحة من العقلاء والحكماء والعلماء والمفكرين ولكن جميع هؤلاء لا يجدون مجالا للإفصاح عن آرائهم وبالذات في المسائل الحيوية التي تهم المجتمع والحزب والدولة، ودائما ما تقمع تلك الآراء لصالح سيادة ووحدة الحزب، وخلال الاجتماعات الحزبية لا توجد هناك آراء مخالفة يسمح بمناقشتها، وبشكل حاسم يصوت على التوصيات والقرارات بنعم، ودائما ما تظهر النتائج للعلن وكأن الحزب كتلة متجانسة تحافظ على وحدتها وإيمانها الراسخ بالاشتراكية العلمية، ولكن تلك الوحدة تتصدع لتتغير العبارات خارج الاجتماع وأثناء أوقات الاستراحة، وبشكل سري وهامس يبدأ حديث مخالف كليا لما طرح في الاجتماع وما قاله الحزب وسلطة الطبقة العاملة.

كانت هناك نظرة فلسفية للقيادة وإدارة الدولة والمجتمع، فالدولة تلبى الحاجات العامة للدولة ولكن تهمل بشكل مفرط الحاجات الحياتية للفرد الإنسان. فقد سعى

النظام لبناء البنية التحتية للبلد، ولولا الإيغال في سباق التسلح والبحث عن كسب تأييد بلدان العالم من خلال بذل المساعدات، لاستطاع النظام أن يعيد ويبنى الكثير، وربما أضعاف ما بناه وقدمه، ولكن الوضع أفضل مما هو عليه، فسياسة السلطات كانت تنظر إلى أهمية تقديم وتوفير الحاجات العامة وتأهيل البنية التحتية، لذا بنت وعبدت الشوارع والحدائق ومواقف السيارات وإنارة المدن وشيدت الجامعات والمدارس والمصحات والمسارح ودور العجزة والمستشفيات والطرق الحديثة التي ربطت عموم الاتحاد السوفيتي وغير ذلك الكثير، وقدم النظام جهدا كبيرا شارك فيه خيرة أبناء الوطن لبناء تلك الصروح العظيمة. وكان واحدا من أضخم المشاريع العمرانية، مترو موسكو، هذا المشروع الجبار الذي أنشأ على عهد السكرتير العام للحزب الشيوعي جوزيف ستالين، فكان بحق منجز مبهر للناظر، فجميع محطاته عبارة عن قصور ومتاحف تحت الأرض تدل على عظمة الإنسان السوفيتي وقدره الدولة الاشتراكية على البناء وصنع المعجزات. وكانت جميع أعمال تطوير البنية التحتية تقدم كواجهة لعظمة الاتحاد السوفيتي وقدره الاشتراكية.

ومع كل تلك الإنجازات فأن القصور وعدم تلبية الحاجات الفردية للإنسان كانت ظاهرة للعيان ويعاني منها المواطن السوفيتي، فالشخص الذي بحاجة إلى شقه للسكن كان يقف في طوابير الانتظار ما لا يقل عن عشرة إلى خمسة عشر عاما لكي يصله الدور، وإذا أراد شراء سيارة شخصية فعليه الانتظار أكثر من تلك السنين ليحصل على تلك السيارة، لهذا كان البعض يقوم بتسجيل أبنائهم في هذا الطابور منذ اليوم الأول لولادتهم. لم تكن هذه الحالة نكته يتداولها الناس بقدر ما هي حقيقة وواقع مؤلم يعانيه المواطن السوفيتي. فالمفارقة تكمن بكون أن الخدمات العامة كانت في أحسن حالاتها والسلطات تقدم جل اعتنائها وقدراتها على تطويرها وتحسينها، ولكن يتعد شوطا عن حاجات المواطن النفسية والاجتماعية وكذلك الاقتصادية وجلها كانت شحيحة جدا، وهذا ما جعل المواطن السوفيتي متذمرا شاكيا، وعند انهيار الاتحاد السوفيتي لم

نشاهد من يهب للدفاع عنه، وانهارت بعده قلاع المنظومة الاشتراكية برمتها لذات الأسباب والمشاكل التي ابتلى بها الاتحاد السوفيتي، والتي أسفرت عن العلاقة الواهية التي كانت تربط تلك البلدان بمسمى النهج الاشتراكي.

- وما كان تأثير سباق التسلح على المواطن السوفيتي؟

منذ بداية الحرب الباردة والتي أشعلت سباق التسلح والبحث عن طرق إيذاء الطرف الآخر، عملت السلطة السوفيتية ولغرض المطاولة بذلك الشوط، على تقنين لقمة العيش للمواطن السوفيتي، وحولت أغلب موارد الدولة المالية نحو ذلك السباق الأهوج المحموم. وفي الطرف الآخر أدركت الولايات المتحدة وحلفائها عسر الأوضاع وسوء التخطيط وقلة الحكمة عند السوفييت فراحت تعمل بجهد على تغذية ذلك الهاجس الذي سيطر على القيادة السوفيتية، وراحت تروج عبر الإعلام المؤدلج وممنهج لتصعيد مخاوف السوفييت ودفعهم أكثر وأكثر لبذل الأموال الطائلة على برامج التسلح وإدامة معركة مفتوحة بعيدا عن خطط التنمية الاقتصادية الحقيقية وتقديم ما يناسب من خدمات للشعوب السوفيتية.

وهنا دعني أوثق حديثي هذا فأتوقف عند حديث وزير الدفاع الأمريكي على عهد الرئيس كندي وهو السيد ماكنارا. ففي محاضرة ألقاها أمام أساتذة كلية الدفاع الوطني في واشنطن في ١٤ / ٠٩ / ١٩٦١ قال الوزير «علينا أن نرغم الاتحاد السوفيتي على تغيير أولوياته، فالنظام الشيوعي يعد جماهيره بمجتمع من الرفاهية ينتفي فيه الفقر، ومجتمع للمساواة ينتفي فيه التمايز الطبقي ولتحقيق هذه الأهداف فإن الاتحاد السوفيتي مطالب بأن يضع التنمية كأولوية أولى قبل الأمن. علينا أن نرغمه على أن يرفع أولوية الأمن ويضعها قبل التنمية، وعلينا أن نشده إلى سباق تسلح يقطع أنفاسه ويرهن موارده ويتركه في النهاية ترسانة نووية دون رغيف خبز أو قطعة لحم. كذلك فإن غلبة الأمن على الأولويات في الاتحاد السوفيتي، سوف تنعكس من الخارج إلى

الداخل فيزيد تركيز السلطة في يد المسؤولين في أجهزة الحزب والدولة مما يباعد بينهم وبين عامة الناس ويعزلهم» نجحت الولايات المتحدة في ذلك أيما نجاح وتكلفت جهودها بالسقوط المدوي للاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية. فعلى عهد الرئيس الأمريكي رونالد ريغان روج لما سمي ببرنامج حرب النجوم وكان الأساس من هذا البرنامج هو خداع الاتحاد السوفيتي ودفعه للهرولة في سباق محموم لحرب مقبلة تصبح السماء الفضاء الواسع لمعركة بالأسلحة الليزرية المتطورة التي يمكن لها الوصول وتدمير أية نقطة في العالم وبالذات الاتحاد السوفيتي وحلفاءه. كان هذا البرنامج من إعداد أجهزة المخابرات والجاسوسية العالمية التي تسيطر عليها الولايات المتحدة، ولم يكن له من الواقع شيئاً، بقدر ما كان جزءاً من محاولات دفع السوفييت للهرولة وراء سباق التسلح وهدر المال العام. والغريب إن القيادة السوفيتية قد انطلت عليها الخدعة وراحت تبذل المال والجهود من أجل كشف ذلك البرنامج ووضع معادل له. ولكن من الممكن القول بأن هناك داخل القيادة ذاتها من كان يدفع نحو ذلك السلوك ليس من أجل مصلحة السوفييت بقدر ما كان عملاً تخريبياً منظماً للإطاحة بالنظام السوفيتي لصالح الولايات المتحدة وحلفائها. وكانت هذه الخطة المحكمة هي القشة التي قصمت ظهر الاقتصاد السوفيتي الذي كان مقصوماً من أساسه حيث استنزفت ميزانية الدولة وأفقرت الناس.

- هل الانهيار يقتصر على تلك العوامل التي ذكرتها؟

كلا، فانهيار الاتحاد السوفيتي لا تقتصر أسبابه على ملمح أو جانب واحد، فقد تعددت الأسباب واستشرى الإيذاء ووصل إلى حد، ما عادت الناس معه تطيق تصرفات حتى أبسط رجال السلطة، وبات الشارع يعرف أن قوى القمع الممثلة بالشرطة والشرطة السرية وقوى الأمن هم من يحكم ويدير البلد، وتلك الحالة كانت تعمل آلتها على نخر جسد الدولة بعدة آليات أولها الرشوة والتعديات الفجة على حياة

المواطن دون مسائله، ويأتي كل هذا مع الفقر وقلة الحاجات، لا بل عدم توفر أبسط مستلزمات الحياة الكريمة و يترافق ذلك مع انعدام الحريات وكبح وتكميم الأفواه ودكتاتورية الحزب الواحد. كل ذلك جعل المواطن دائما ما يشعر بالتهديد وقسوة قبضة السلطة وإرهابها. فالشرطي السوفيتي كانت لديه صلاحيات مطلقة ليتحكم بمصائر الناس، فأن أراد تفتيش أو دخول أحد الدور فهو لا يطلب الأذن من أي شخص يعنيه أمر هذا البيت، وكذلك لا يحتاج الحصول على ورقة أذن من السلطات العليا تخوله تفتيش أو دخول ذلك البيت، فهو يدفع الباب بقوة ويدخل عنوة ويقوم بالتفتيش ويستطيع أن يهدد وأيضا يلقي القبض على من يريد، فالقانون يسمح له فعل ذلك، وهو مخول بفعل هذا من أعلى الجهات وبصلاحيات مطلقة، ولذا كنا نعرف عين المعرفة وبالمكشوف والتجربة اليومية، أن من كان يحكم الدولة السوفيتية هي الأجهزة القمعية وليس غيرها. فالمخابرات العامة والشرطة السرية والأمن والشرطة كانت قراراتها وإجراءاتها وسلطتها فوق سلطة الحزب وباقي مؤسسات الدولة. وأنا الآن أتذكر حادثة حصلت لنا نحن رفاق الحزب الشيوعي العراقي في منظمة الاتحاد السوفيتي.

كان هناك طالب شيوعي عراقي محكوما حكما ثقيلا في العراق واستطاع الحزب تهريبه من العراق إلى الاتحاد السوفيتي، وكان يدرس في جامعة كييف في أوكرانيا. في أحد الأيام حصل شجار بينه وبين أستاذه في الجامعة، فقام الطالب العراقي بصفع الأستاذ مما حدى بعمادة الكلية الاتصال بالأمن الذين جاؤوا وألقوا القبض على الطالب وأودعوه الحبس. ثم بعد اقل من ساعتين صدر بحقه قرار فصل من الكلية وتسفيره إلى العراق. بعد أن عرفت منظمة الحزب الشيوعي العراقي بالحادث كلفتني شخصا الاتصال بالسيد نيجكين والطلب منه التدخل لإيقاف الأجراء بحق هذا الطالب كون تسفيره إلى العراق سوف يكون نهاية لحياته هناك، ونيجكين هذا هو عضو الارتباط والمنسق العام بين السلطات السوفيتية ومنظمة حزبنا الشيوعي العراقي.

اتصلت بنيجكين وطلبت منه مقابلة مستعجلة فرفض بادئ الأمر معللاً ذلك بانشغالاته، بعدها استطعت أقناعه فطلب مني الحضور. قابلته وشرحت له حادث الطالب العراقي ورغبة الحزب الخروج من هذه المعضلة ومنع تسفير رفيقنا إلى العراق. تجاوب نيجكين معي قائلاً كيف يحدث هذا، كيف يعاد هذا الطالب إلى العراق، لا عليك سوف أعمل اتصالاتي وأبذل جهدي لحل المشكلة. بعد مرور ساعتين من رجوعي إلى السكن اتصل بي نيجكين ليخبرني بأن لا هو ولا الحزب الشيوعي السوفيتي يمكنهما التدخل في هذا الأمر، فجهاز الأمن هو من قرر فصل الطالب وتسفيره إلى العراق، فسألته أليس الحزب الشيوعي هو السلطة العليا التي بيدها القرار وتعطي التوجيهات، فأخبرني بأن ما يقرره جهاز الأمن هو الأصل والفصل في أغلب الأمور وقراراته تأتي أولاً وتتقدم على جميع القرارات، لذا لا يمكن للحزب التدخل في هذه القضية، ولكنه أكمل بأنه سوف يعمل جانباً وعلى مسؤوليته الشخصية ويبدل ما يستطيع من جهد لأجل عدم تسفير الطالب إلى العراق وإنما إلى بلد آخر وربما سوريا أفضل له.

نجح نيجكين في ذلك وطلب مني أخبار حزبي واستحصال موافقته على تسفير الطالب الشيوعي إلى سوريا، وهذا ما فعلته وأخبرت نيجكين بذلك، عندها رتب لذلك الحل، واتصلت منظمة حزبنا بمنظمة الحزب في سوريا لاستقبال الطالب المسافر. وكانت هذه التجربة أثباتاً واقعياً لسلطة الأجهزة القمعية، ومثل تلك الحادثة تتكرر بالآلاف مع المواطن السوفيتي العادي حين توجه له تهمة ما حتى ولو بسيطة فالحزب والمؤسسات غير الأمنية لا تستطيع التدخل.

- وكيف كان ينظر الإنسان العادي لما يحدث حوله وما الذي يربطه بوطنه؟

كانت مظاهر الولاء للدولة السوفيتية تتخذ شكل الطابع الرسمي العام وليس الشعبي فالمشاعر الشعبية يخاطبها الكثير من الخوف والتوجس والكتمان يضاف لذلك قلة الخدمات وشح السلع الكمالية وشوق الناس ورغباتهم الحصول على المتع الفردية

وتلبية مشاعرهم الإنسانية، ففي إحدى نزهاتي مع زوجتي رأينا قرب المسرح الكبير طابورا طويلا من الناس يحتشدون خارج أحد المخازن، طلبت مني زوجتي الوقوف في الطابور حين ذهابها إلى المقدمة ومعرفة البضاعة التي يبتغي الناس الحصول عليها، ففضلت أنا أن أذهب ولتقف هي بالطابور، ذهبت وسألت عن البضاعة التي يوزعها المخزن فأخبروني بأنه تقويم سنوي صغير يوضع في الجيب، وكان يباع بكوبيكين من العملة السوفيتية، فرجعت إلى زوجتي وأخبرتها بذلك فقالت دعنا نقف لنحصل على عدد منها فسألتها وما حاجتنا لها فقالت لنهدي بعضها إلى معارفنا.

كانت تلك المظاهر تبدو شكلا مألوفا في الحياة السوفيتية فالمواطن يتوقف عند أي طابور يشهده من أجل الحصول على أية بضاعة كانت حتى التافهة منها، وكانت تلك الظاهرة ذات دلالة كبيرة على وجود شح في الكثير من الحاجات التي تلبى رغبات الناس على بساطتها، مع قلة الرواتب. ولكن في الجانب الآخر للسياسة السوفيتية كان الإعلام يجهد لتصوير الحياة في الاتحاد السوفيتي على أنها تتفوق كثيرا على ما موجود هناك في أمريكا والغرب، الواقع تحت سطوة الرأسمالية القاسية المجرمة التي لا تقدم لشعوبها غير القهر والاستلاب والجوع، كانت آلة الإعلام السوفيتي ماكينة جبارة لطحن الخديعة وتزويق الأوضاع عن البناء الاشتراكي والاتحاد السوفيتي.

- ما الذي تغير حين صعود غرباشوف للأمانة العامة للحزب الشيوعي السوفيتي؟

مثل صعود نجم ميخائيل غرباشوف حلقة جديدة في تراجيديا السياسة السوفيتية، فالرجل كان مثقفا تخرج من جامعة موسكو الحكومية عام ١٩٥٥ بشهادة القانون وفي عام ١٩٦٧ تأهل لشهادة الماجستير في الاقتصاد الزراعي في معهد ستافروبول للزراعة، وأنضم إلى الحزب الشيوعي حين كان يدرس في الجامعة ليصبح بعدها فعالا جدا في الحزب ويتدرج في المراكز الحزبية حين وصوله كسكرتير عام للحزب الشيوعي السوفيتي. عملت سياساته المسماة بغلاسنوست وبيريستريكا على محاولة عصنة

الاستراتيجيات السوفيتية وهدفت كذلك إلى إنهاء الحرب الباردة وسباق التسلح. ومن خلال دراسته الجامعية وعمله أيضا في مجال الزراعة في منطقة ستافروبول أطلع على الكثير من الواقع الزراعي وكيف تسير خطط التنفيذ والإصلاح في ذلك القطاع. فقد كانت الزراعة في عموم الاتحاد السوفيتي تتعرض للكثير من المشاكل بسبب الخطط غير الناجحة والسرقات التي تطالها وفوق كل هذا البيئة القاسية التي تفعل فعلها مع المحاصيل، ويضاف لكل ذلك قلة التخصيصات رغم حيوية هذا القطاع لسد حاجات البلد للمحاصيل الزراعية.

حين أستلم غرباشوف رئاسة الدولة والحزب واجهته العديد من المشاكل الاقتصادية والسياسية، ففي المجال الذي كان مطلعاً عليه وهو قطاع الزراعة، شخص غرباشوف العديد من المشاكل والمعوقات وأشار إليها في مؤلفاته وخطبه. فهو يقول بأن السوفخوزات، وهي المزارع الحكومية، لم تكن ذات نفع حقيقي للسوفيت وإنما كانت أحد أكبر الإخفاقات في مجال الزراعة، ولم تقدم شيئا يذكر لمنفعة البلاد وإنما كانت عبئا ثقيلا عليه، فالسلطة تقدم مبالغ ضخمة لهذه المزارع دون أن يكون هناك إنتاج يذكر، وهناك أهدار كبير في المال العام، في نفس الوقت لم يكن هناك من يتحمل المسؤولية عن الذي يحدث كون السوفخوزات تابعة للدولة وبأشراف دوائر الدولة والحزب لذا كانت تجري فيها عمليات تسويق وسرقات منظمة للمواد والمال العام.

حين حضر غرباشوف لمؤتمر عام مدراء السوفخوزات وجه في خطابه سؤالا للحضور قائلا: أود أن أوجه لكم سؤالا، وأجد له جوابا من أحلكم، في أية سنة كان السوفخوز الذي يديره قد ربح شيئا ما، وقدمه واردا للدولة السوفيتية؟ عند ذلك لم يتقدم أحد ليجيب غرباشوف على سؤاله، عندها قال غرباشوف إذن فأن السوفخوزات تعتبر فاشلة ولا نتيجة تترجى منها، ولذا نسأل أنفسنا لماذا هي باقية لحد الآن وبهذا الحال؟

و حين سؤاله عن الكولخوزات وهي المزارع التعاونية للفلاحين، وهل أنها تخسر أيضا فتلقى الجواب بالنفي وإن الكولخوزات دائما ما كانت تريح كون العمال والإداريين فيها يبذلون جهدا كبيرا لتوفير الأرباح ويعرفون جيدا أن الإنتاج الجيد والعالي يعني عوائد جيدة يحصلون عليها. ولكن الغريب وفي ظاهر الحال كانت إدارات السلطة والحزب توجه جل عنايتها نحو السوفخوزات وكان الإعلام يعمل على ذلك أيضا، ويروج لكونها النموذج الاشتراكي الفريد، وكل ذلك بسبب وجود ارتباطات ورشى وسمسرة وسرقات وتبادل منافع شخصية وحزبية.

كان لدى غرباشوف قناعة تامة بضرورة إجراء التغيير والإصلاح ولكن المشكلة التي كانت تواجهه تكمن في الكوادر والقيادات العليا في الحزب والدولة، وفي مقدمتهم أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية الذين ناصبوه العداء. فأغلب هؤلاء كانوا قد تربوا لعقود طويلة على ذات العقلية السوفيتية التي اكتسبت تقاليد حزبية صارمة، تحجرت وباتت تملك آليات وتراثيبات لا يمكن الخروج منها أو القفز من فوقها، لذا تتمسك تلك القيادات بذات النمطية البيروقراطية والتزمت والممانعة في السير نحو التغيير والتجديد الذي يمكن له أن يكسب الدولة والحزب أنماطا جديدة للعمل والنجاح.

كانت غالبية القيادة في المركزين الحزبيين العالين تتهيب كسر النمطية وقواعد العمل القديمة، وتحرص على إبقاء ما هو قديم خوفا على مصالحها التي حرصت على اكتسابها ونيلها طيلة عقود والتي أبقت الصورة الواضحة للعقلية السوفيتية الثابتة رغم تغير الزمن.

و حين يتحدث غرباشوف عن فترة وجوده على رأس الحزب والسلطة في الاتحاد السوفيتي، يقول بأن قيادة الحزب الممثلة بالمكتب السياسي وأيضا اللجنة المركزية قد قلبوا له ظهر المجن ووقفوا ضده بعد أن أعلن عن أفكاره حول طرق الإصلاح

وأصبحت الغالبية منهم مناوئين له ولأفكاره، وقال أنه لاحظ ذلك في اختلاف تقاليد الحزب أيضا، فمن المعارف عليه وحين يدخل سكرتير الحزب إلى قاعة المؤتمرات الحزبية الكبيرة يقف الجميع لاستقباله وتحيته بالتصفيق، ولكن الذي حدث معي كان العكس، فحين دخلت وقفت الأغلبية وهتفوا ضدي وضد سياسة البروسترايكا التي أعلنتها.

- ولكن يقال إن هناك من قيادات الحزب من وقف بجانب غرباشوف.

صحيح لكن الغريب في الأمر أن من وقف بجانب غرباشوف من أعضاء المكتب السياسي أو اللجنة المركزية هم من كان يعرف عنهم انتهازياتهم وعدائهم للنهج الاشتراكي والاتحاد السوفيتي، بالرغم من عدم إعلانهم الصريح عن مواقفهم المعارضة تلك. وقد أيدوا سياسة غرباشوف في الخروج عن سباق التسليح والحرب الباردة وأيضا تهشيم البنى الحزبية القديمة وعصرنتها مثلما قال، وقام بطرح فكرة التغيرات الاقتصادية للخروج من الأزمات المستعصية. وكانت رغبة هؤلاء الوقوف إلى جانبه، محاولة وجدوا فيها فرصة سانحة لتفكيك الاتحاد السوفيتي من خلال منهج الإصلاح الغرباشوفي، ومن صلب هذا التوجه ظهر بوريس يلتسن الذي عمل في البداية مروجاً ومناصرًا لإصلاحات غرباشوف ثم ركب موجة الإصلاحات ليسفر عن الوجه الحقيقي لتلك الجماعات التي كانت تعمل من داخل الحزب الشيوعي السوفيتي للإطاحة بالاشتراكية والاتحاد السوفيتي، وفي الأخير أنقلب على غرباشوف وعمل على إقصائه عن السلطة.

في جميع تلك الأحداث كانت للصهيونية العالمية أدوارا كبيرة اشتغلت بهمة عالية على هدم وإسقاط الاتحاد السوفيتي وإفشال التجربة الاشتراكية من داخل مؤسسات الحزب والدولة. فالصهيونية كانت متغلغلة في مفاصل الدولة السوفيتية والحزب منذ الأيام الأولى لثورة أكتوبر، وكان العديد من القادة والكوادر الحزبية والإدارية

لهم علاقة بشكل وآخر بأوساط الصهيونية العالمية عبر علاقات أسرية أو مصالح عمل أو صداقات شخصية. فالرئيس بورييس يلتسن كان يحيط نفسه بشلة كبيرة من اليهود الذي يقدمون خدماتهم للصهيونية العالمية أولاً ويعملون لغرض تهشيم الدولة السوفيتية وهم من عمل على تفكيك أو اصر الاتحاد، أشرفوا على بيع المصانع والمعامل والورش والسلاح وتفكيك مؤسسات الدولة دون حساب ورقابة ليفرغوا روسيا من الصناعات، وقد تحقق هدفهم بنجاح ظاهر دون إطلاق طلقة واحدة.

ولكن يمكن القول أن السبب الرئيسي في سقوط الاتحاد السوفيتي وفشل التجربة الاشتراكية هو انعدام الديمقراطية وتسلط قوى الأمن والمخابرات، ويضاف لذلك سباق التسلح وعدم شعور القادة بمسؤولياتهم الوطنية، وضعف روح المواطنة عند الفرد بسبب المعاناة والضائقة المالية، وفي النهاية أقول، أنه لم يكن هناك أساس علمي راسخ وقناعة حقيقية بالاشتراكية العلمية التي تمثلها الماركسية، لا داخل القيادات السوفيتية ولا عند قطاعات واسعة من شعوب الاتحاد، ويمكن ترحيل مثل هذا على القيادات وشعوب المنظومة الاشتراكية التي انهارت جميعها مثل أحجار الدومينو بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

ومع كل الذي حدث وبتلك اللوحة السوداء الملتبسة للوقائع والتغيرات، وفي خضم الصراعات، وبوجود كل تلك المساوئ، فلم يثبت لحد الآن أن الماركسية والاشتراكية كمنظومة عمل وجوهر فكري ومنهج استراتيجي علمي للسلطة، كانت فاشلة، وإنما من فشل هو النموذج السوفيتي للاشتراكية بسبب بعده لا بل تخريبه وتعديه على المبادئ الماركسية الحقيقية.

(١)

تضحيات الحزب الشيوعي العراقي لن تذهب هباءً

حوار: محمد الكحط

حاولت مرارا أن أحاور الدكتور خليل عبد العزيز لكنه كان يعتذر، ولكنها اليوم الذكرى الثمانون لميلاد الحزب الشيوعي العراقي، فوافق خصوصاً وهو قد عاصر فترة طويلة من الحياة السياسية العراقية وكان في مراحل عدة، قريباً من مسيرة الحزب الشيوعي العراقي، ولديه معلومات كثيرة لربما تحتاج إلى حوار أطول ولقاءات عدة.

أولاً، لا بدّ من تقديم ولو بسيط عن حياة الدكتور خليل عبد العزيز فهو من أسرة متوسطة الحال، ولد في الموصل وأسهم منذ وجوده بالدراسة الابتدائية مع زملائه وزميلاته في الحركة الطلابية، في موجة الاحتجاجات الجماهيرية ضد النظام الملكي والسلطات الحاكمة.

كيف تعرفت على نشاطات الحزب الشيوعي العراقي، وما تحمله من ذكريات عن تلك الأيام؟

كنا نسير في التظاهرات الحاشدة في وثبة كانون الثاني ١٩٤٨، وتعرضنا للضرب والإهانات من قبل قوات الشرطة، لكن كل ذلك لم يمنعنا من مواصلة العمل الوطني، ومنذ بداية ١٩٥٢ بادرنا مع مجموعة صغيرة من الطلبة بتأسيس «اتحاد الطلبة العراقي العام» في الموصل، كنا ثلاثة فقط (أنا وسعد يحيى ق وحازم جميل)، بدأنا بنشاط واسع في جميع المدارس المتوسطة والإعدادية، وكان هذا العمل لا يتناسب مع إمكانياتنا المتواضعة، ولكن عملنا الإعلامي والدعائي يفوق كل التصورات وبالفعل قمنا

بتنظيم إضرابات وتظاهرات في مدارس الموصل كافة، وفي هذه الأثناء تعرفت على مجموعة صغيرة من الشيوعيين، وأخذنا نعمل معا وندفع بالعمل الطلابي والجهاديين ليشمل أوساطا واسعة.

كانت نقطة تحول كبيرة في حياتي، حيث تم قبولي عضوا في الحزب الشيوعي العراقي أواسط عام ١٩٥٢، ويعود الفضل في ذلك إلى أحد الرفاق من مدينة عانة، كان قد تم إبعاده إلى الموصل، وكنت أتلقى منه بيانات وصحافة الحزب، ومن ثم أخذنا بالتنسيق مع مجموعة صغيرة من الطلبة والكادحين، ونقوم بتوزيع البيانات التي كنا نستنسخها باليد، وكان التوزيع يجري في الصفوف قبل بدء الدوام، كان هذا النشاط يثير السلطات التي كانت تلجأ إلى الاعتقالات والتحقيق، ولكن ورغم كل الإجراءات البوليسية، فإن النشاط الحزبي والطلابي لم يتوقف، بل أخذ بالتوسع وشمل أفضية الموصل، مثل سنجار وعقره ودهوك وزاخو والعمادية وبعض النواحي كالقوش وتلكيف وبرطله وقره قوش.

وكيف كانت تصلكم مطبوعات وأخبار الحزب؟

كانت أفكار الحزب تصل إلينا عن طريق مجموعة صغيرة من الكراريس، وكان لها صدى كبير ودافع لزيادة النعمة على السلطة الحاكمة، وكانت أفكار الحزب تلاقي القبول في الأوساط الشعبية والطلابية، ونشاطه يطغي على نشاطات الأحزاب الأخرى العلنية مثل حزب الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي، إضافة إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية والقومية.

ما هي الذكريات التي تحملها عن تلك الفترة؟

لقد أسهمت في انتفاضة تشرين ١٩٥٢، وخلال تأسيس الجبهة الوطنية الموحدة سنة ١٩٥٤، تم اختياري ممثلا للطلبة في لجنة الجبهة في الموصل، ولأول مرة في تاريخ المدينة تم انتخاب مرشحها جميعا كنواب في المجلس النيابي، وكان لذلك تأثير كبير على مجمل الحركة الوطنية والأوساط الحاكمة مما دفع حكومة نوري السعيد، وبعد

جلسة برلمانية واحدة بأن تحل المجلس النيابي، وقد تعرضت إلى ملاحقات أمنية وفصلت من المدرسة جراء نشاطي في الجبهة الوطنية المتحدة، مما دعا الحزب إلى اتخاذ قرار بنقلي إلى بغداد للعمل في المجال الحزبي الطلابي، وأصبحت عضوا في اللجنة العليا لاتحاد الطلبة وكان سكرتير اللجنة آنذاك مهدي عبد الكريم، لا بد هنا من التأكيد ان نشاط الحزب استطاع تجاوز جميع الحدود الطائفية والقومية، وتمكن من تعبئة ورص الصفوف بين جميع الطوائف والقوميات، فكان الجميع يعملون معا داخل الحزب، ولم أسمع في حياتي إشارات أو كلمات حول طائفة أو قومية من أي شخص، بل كان الجميع يعمل من أجل حرية الوطن وتحرير المجتمع من الأفكار الرجعية.

كانت أفكار ونشاطات الحزب تعتبر العامل الرئيس في زج الجماهير الشعبية بالنضال السياسي والاجتماعي والاقتصادي ومن أجل حقوقها العادلة والإطاحة بالسلطة الحاكمة، وكان الثمن غاليا تمثل في الإعدامات وزج المئات، بل الآلاف في المعتقلات والسجون والإبعاد القسري.

في بغداد وبسبب اعتراف أحد المنهارين تم اعتقالني والحكم عليّ بالسجن لعام واحد في بعقوبة، والإبعاد القسري لسنة أخرى إلى بلدة بدرية بعد انتهاء محكوميّتي.

كان سجن بعقوبة في الواقع مدرسة نضالية وتثقيفية، فبالرغم من الغرف الانفرادية والضرب والتعذيب الجسدي والنفسي، فإن المناضلين كانت تجمعهم أواصر المحبة والتضامن والمساعدة في التغلب على المصاعب ومواجهة الجلادين وأساليبهم لإجبار السجناء على التخلي عن حزبهم وشعبهم عن طريق كتابة البراءات وإعلان الولاء للطغمة الحاكمة، وكان مدير السجن علي زين العابدين يتميز بالقسوة والعنف وضرب المناضلين وإهانتهم بشتى السبل، خلق ذلك جيلا من المكافحين الأشداء وعزز إيمانهم بعدالة قضيتهم، وباعتقادي فإن منتسبي هذا الجيل ما زالوا متمسكين بأفكارهم وعقيدتهم التي وهبوا حياتهم من أجلها.

لقد تعرفت على مجموعة كبيرة من المناضلين الشيوعيين، وتكونت في ما بيننا علاقات رفاقية وصداقة، أذكر منهم نافع يونس، عدنان عبد القادر، كريم أحمد، عزيز الحاج، آرا خاجادور وغيرهم.

وفي بدرة، حيث تم ابعادنا، كان هناك حوالي ١٥٠ مناضلا من مختلف مدن العراق، ومن جميع الطوائف والقوميات، كانت بدرة رغم وقوعها في منطقة صحراوية بالقرب من الحدود الإيرانية عبارة عن مدرسة نضالية ذات أهمية، فإلى جانب علاقات الصداقة والتضامن، كانت هناك نشاطات فنية ورياضية وثقافية، وقد تم إصدار مجلة دورية بخط اليد، وتكوين مكتبة ضمت العشرات من الكتب السياسية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية، وأصبحت رئيس تحرير المجلة التي أسهمت في تحريرها مع مجموعة من الرفاق، لقد تميزت المجلة بالنضوج ومعالجة مواضيع متعددة، كان من ضمن كتابها الصديق الدكتور كاظم حبيب، ومن الجميل انه كتب لي قبل عامين خلال إهدائه أحد مؤلفاته القيمة «لمحات من عراق القرن العشرين»، أول مقال كتبته في حياتي السياسية نشر في مجلة (الإبعاد)، التي كنت تشرف على انجازها تحت عنوان ملاحظات أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، وأود هنا القول بأنني أعتر كثيرا بما كتبه الدكتور كاظم حبيب.

بعد انتهاء فترة الإبعاد، تم تجنيدني في معسكر الشعبية بالقرب من البصرة.

كيف تجد علاقة الحزب الشيوعي مع الحركة الوطنية والحركة النقابية والمنظمات الجماهيرية؟.

هناك جانب مهم في مسيرة الحزب والذي يتعلق بالعلاقة مع مجمل الحركة الوطنية وأحزابها ومنظماتها السياسية، ففي مدينة الموصل كانت هناك قوى وطنية ومنظمات حزبية لها شعاراتها وأهدافها وتوجهاتها، وكان الحزب الشيوعي وانطلاقا من شعاره «قوا تنظيم حزبكم قوا تنظيم الحركة الوطنية» يعمل من أجل دعم الأحزاب الوطنية

بكل الوسائل والطرق، بل وصل الأمر إلى دفع رفاق للانضمام إلى تلك الأحزاب بهدف تعزيز وتقوية مواقفها النضالية، وكان ذلك واضحاً في الموصل. وليس هذا فحسب، بل إن الحزب بذل جهوداً من أجل ترسيخ الحركة النقابية والتنظيمات الشبابية والطلابية ورابطة المرأة العراقية، وبالفعل فقد أحرز الشيوعيون نجاحات ملحوظة في تقوية وإسناد معظم القوى السياسية والجهادية وزجها في النضال الوطني، ويعترف قادة هذه القوى بالدور الريادي الواضح للحزب في مجال الدعم والإسناد والتشجيع.

ما تأثير هذا التوجه للحزب في قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وما حصل خلالها؟

كانت حصيلة ذلك أنه قاد إلى التمهيد لثورة الرابع عشر من تموز وبمؤازرة ودعم فصائل الشعب العراقي، وتمت الإطاحة بالنظام العميل، فكانت الثورة بحق التعبير الواضح لتطلعات الجماهير وأهدافها ومطالبها في الحرية والعدالة.

وكان الشيء الأساسي بنظري هو الاعتراف بحقوق الشعب الكردي واعتبار العرب والأكراد شركاء في الوطن، وهذا ما كان يسعى إليه الوطنيون الحقيقيون والشيوعيون الذين كانوا ومنذ أعوام الأربعينيات ينادون بشعار «الحكم الذاتي لإقليم كردستان العراق». كانت ثورة ١٤ تموز ضربة موجعة للقوى الامبريالية والاستعمارية والقوى الرجعية في المنطقة، وقفت القوى الرجعية وأنصار العهد الملكي ورؤساء العشائر والقبائل وبمؤازرة واضحة من بريطانيا والولايات المتحدة والأنظمة الرجعية في المنطقة والعالم، وقفوا ضد الثورة وانجازاتها الوطنية وزعيمها الوطني عبد الكريم قاسم. كان القوميون والبعثيون من أشد المعادين للثورة، فأخذوا يمحكون المؤامرات، واستطاعوا توجيه ضربة للزعيم، هدفها الاغتيال السياسي، لكن هدفهم لم يتحقق، واستطاع الزعيم عبد الكريم النجاة بعد إصابته بطلقات نارية.

وماذا عملت بعد وصولك إلى موسكو؟

في موسكو قضيت نحو عشرين عاماً، تمكنت من إنهاء دراستي الإعدادية والجامعية

حيث انضمت إلى جامعة موسكو قسم الصحافة، ومن ثم الماجستير وبعدها حصلت على شهادة الدكتوراه سنة ١٩٧١، وتم تعييني باحثاً علمياً في معهد الاستشراق بأكاديمية العلوم السوفيتية بموسكو.

خلال عملي في المعهد، وقبلها أثناء الدراسة أسهمت بنشاط في كتابة المقالات والريورتاجات في المجلات التي كانت تصدرها وكالة أنباء نوفوستي، وكنت من كتاب جريدة أنباء موسكو، و عملت مراسلاً صحفياً لجريدة ١٤ أكتوبر الصادرة في عدن عاصمة جمهورية اليمن الديمقراطية.

ما تود قوله في الذكرى الثمانين لميلاد الحزب الشيوعي العراقي؟

اليوم في خضم الاحتفالات بالذكرى الثمانين لميلاد الحزب الشيوعي، من الأهمية بمكان التأكيد، بأن هذه الاحتفالات تجري في ظروف صعبة، حيث ان القوى الطائفية تسيطر على مقاليد الحكم، وتنتهج سياسة طائفية، متجاهلة بذلك التنوع التاريخي للأديان والطوائف والقوميات الذي كان أحد مميزات حركة ومسيرة العراقيات والعراقيين خلال عشرات ومئات السنين. وفي هذه الظروف العصيبة والصعبة، فإن الشيوعيين العراقيين وأصدقاءهم وأنصارهم يخوضون الكفاح من أجل إعادة المسيرة الطبيعية لحركة الجماهير العراقية والتأكيد على العدالة الاجتماعية، التي يجب أن تعد نبراساً مضيئاً لكل القوى والأحزاب والمنظمات الوطنية في بلادنا.

ان توضيحات الحزب الشيوعي لا يمكن أن تذهب هباء، وان ثمانين عاماً من النضال والدماء والدموع، لا بدّ أن تحقق أهدافها وتطلعاتها، وكل ذلك مع الأخذ بنظر الاعتبار مصالح الجماهير الشعبية.

تحية نضالية لقادة الحزب الشيوعي ومنظماته وأصدقائه وأنصاره.

في ختام الحوار لا يسعنا إلا تقديم الشكر وأجمل الأمنيات بالصحة والسعادة للدكتور خليل عبد العزيز.

(٢)

حركة الشواف وما رافقها من أحداث دموية

حوار: محمد الكحط

أثارت ولا تزال تثار الأسئلة والشكوك بل والتحريف في ما سمي بحركة الشواف التي حصلت أحداثها في الموصل، وللوقوف على الحقائق الموثقة كان هذا اللقاء مع شاهد عيان ومشارك في الأحداث لتتابع الحدث بتفاصيله، علينا التمعن جيدا ومحاسبة الأحداث في زمانها ومكانها وظروف السائدة آنذاك، كي لا نقع في خطأ التقييم، فلكل زمان ومكان أحكامه وظروفه الخاصة التي علينا أخذها بالحسبان، فليس من الصحيح محاكاة الأحداث بعقلية وقوانين هذا الزمان.

وهذا اللقاء مع الدكتور خليل عبد العزيز حول الموضوع، لعلنا نضع نهاية للتأويل ونوثق للحقيقة، كما هي:

الدكتور خليل عبد العزيز

- في البداية نرجو منكم ايضاح طبيعة الأوضاع السياسية السائدة آنذاك في العراق بشكل عام وفي الموصل تحديدا...؟

- بعد انتصار ثورة الجيش والشعب في الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، وتأسيس أول جمهورية في العراق، بدأت على الفور النشاطات والأعمال المعادية، ف بجانب تحركات القوات العسكرية البريطانية والأمريكية التي اتخذت من الاردن ولبنان معسكرات لها، وأطلقت التهديدات بالقضاء على ثورة ١٤ تموز، بدأ حزب البعث العربي الاشتراكي والقوميون وبعض القوى الاسلامية -الأخوان المسلمون- بشن حملات دعائية ضد النظام الجمهوري، وكان الرجل الثاني في قيادة الثورة العقيد عبد

السلام عارف قائدا للنشاط التخريبي للإطاحة بثورة تموز وقائدها الزعيم الركن عبد الكريم قاسم، داعيا للوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة، كما أجرى المعارضون اتصالات رسمية وغير رسمية مع القادة والمسؤولين في كل من القاهرة ودمشق. وتم تنظيم تظاهرات وتحشدات تدعو لإعلان الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، وتخلى البعثيون عن جميع الشعارات الوطنية التي كانت تتبناها (جبهة الاتحاد الوطني)، بالرغم من اشتراكهم رسميا في أول وزارة بعد ثورة ١٤ تموز. وكان لا بدّ من مواجهة هذا النشاط المعادي، ففي الجانب الدولي بادر الاتحاد السوفيتي بإطلاق الإنذارات للولايات المتحدة وبريطانيا والدول الاستعمارية، وهددوا بالتدخل ضد أي هجوم عسكري على الجمهورية الفتية، كما تم بسرعة تنظيم مناورات حربية على الحدود الإيرانية والتركية، وجرى تحريك الأساطيل الى البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط.

وفي العراق نظم الحزب الشيوعي العراقي والأحزاب والقوى الديمقراطية ومنظمات المجتمع المدني تظاهرات واجتماعات جماهيرية، للتنديد بمحاولات التدخلات الخارجية والوقوف ضد نشاط القوى المعادية وبعض شيوخ العشائر.

أدت تلك الأحداث الى توتر الأوضاع السياسية والأمنية في العراق، وبالرغم من التوجه السياسي الذي سارت عليه حكومة الثورة في التصدي لمحاولات التخريب، إلا أن نشاطات القوى المضادة لم تتوقف، وبالطبع فإن ذلك شمل مدينة الموصل ولا بدّ من القول إن أغلبية الضباط العسكريين من أهل المدينة كانوا يقفون الى جانب البعثيين والقوميين والإسلاميين، ويتلقون الإسناد والدعم من قائد أمر موقع الموصل العقيد عبد الوهاب الشواف.

- من هو العقيد عبد الوهاب الشواف...؟

- الشواف هو أمر موقع الموصل، وتم تعيينه من قبل قيادة الثورة، ومنذ تسلمه

المنصب كان الشواف ييدي عدم رضاه من قيادة الثورة، ويدعي بأنهم لم ينفذوا وعودهم بتعيينه بمنصب الحاكم العسكري العام، وإعطائه حقيبة إحدى الوزارات السيادية، وكان لا يخفي موقفه هذا ويشدد التركيز في هجومه على العقيد عبد السلام عارف، والمفارقة ان الشواف وعبد السلام عارف اتخذوا من نجاح الثورة موقفاً متشابهاً ضد النظام الثوري الجديد.

- ما هي خلفية الحدث وكيف بدأت الأحداث، بتسلسلها؟

- لقد تلقت القوى البعثية والقومية والإسلامية وشيوخ العشائر تأييداً ودعماً قوياً من السلطات العسكرية والأمنية في الموصل، ومارست نشاطها المعادي من دون أي خوف أو تحفظات، وإلى جانب ذلك فإن القوى الوطنية من شيوعيين وديمقراطيين والمنظمات الشعبية ونقابات العمال، كانت تعلن بوضوح عن دعمها وتأييدها للجمهورية وقائدها عبد الكريم قاسم، وتندد بشعارات الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة. ان هذه النشاطات والتحركات من قبل المعادين والمؤيدين للثورة، خلقت أوضاعاً معقدة ومتوترة في الموصل والأقضية والنواحي التابعة لها، وأصبح الانقسام واضحاً للجميع وعلى جميع المستويات، وحتى في صفوف القوات المسلحة.

هل كانت هنالك أياد خفية لتأجيج الأوضاع، أو أشخاص معينون؟

لعب مقدم اللواء محمود عزيز دوراً خطيراً في تأجيج الصراع والتنديد بثورة تموز وزعيمها والحقد والكرهية للشيوعيين والديمقراطيين، وكان لولب الاتصالات مع المسؤولين في الجمهورية العربية المتحدة، وأجرى اتصالات مع مسؤوليها وسافر سرّاً إلى دمشق، والتقى وزير الداخلية عبد الحميد السراج، وبحث معه النشاطات التي تمارسها القوى القومية والبعثية في سبيل تحقيق الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة، مؤكداً ان القطعات العسكرية في الموصل وقائدها العقيد عبد الوهاب

الشواف، قد عقد اتفاقات وتحالفات مع ضباط كبار يحيطون بالزعيم عبد الكريم قاسم للقيام بعملية انقلابية تطيح بالجمهورية العراقية والقضاء على الشيوعيين وأنصارهم، وان رئيس الاستخبارات العسكرية رفعت الحاج سري والزعيم ناظم الطبقجلي قائد الفرقة الثانية في كركوك وغيرهما من قادة الجيش العراقي، قد أعلنوا تأييدهم واستعدادهم للمشاركة في العملية الانقلابية.

من جانبه أعلن عبد الحميد السراج تأييد ودعم الجمهورية العربية المتحدة للانقلاب المنتظر، وأبدى موافقته على تزويد الانقلابيين بطلباتهم وهي محطة اذاعة و ٤٠٠ رشاشة بور سعيد وتجهيزات عسكرية مع إرسال أكثر من ٣٠٠ متطوع عسكري للقتال بجانب المتآمرين، لكنه رفض تزويدهم بالطائرات العسكرية في المرحلة الأولى من الانقلاب. وأخذت الاتصالات تتوالى مع قادة الجمهورية العربية المتحدة، وفي هذه الأثناء كان الشيوعيون وأنصارهم يبذلون الجهود الكبيرة لإقناع الضباط وقادة المنظمات المناوئة بإيقاف نشاطاتهم والانضمام الى القوى والأحزاب والمنظمات لتوطيد النظام الجمهوري، وطرح مطالبهم وآرائهم عن طريق ممثلهم في الحكومة، خاصة ان سكرتير حزب البعث آنذاك فؤاد الركابي يشارك في الوزارة، لكن قوى الردة لم تتجاوب، بل واصلوا تأمرهم سرّاً وعلناً للإطاحة بالنظام الجمهوري وضم العراق الى الجمهورية العربية المتحدة، وفي هذه الأجواء تم الاعلان عن عقد مهرجان لأنصار السلام، تشارك فيه منظماتهم من جميع أنحاء العراق في مدينة الموصل.

فكان هذا الحدث كالصاعقة التي هزت القوى المعادية، وسارع أمر موقع الموصل العقيد عبد الوهاب الشواف بالسفر الى بغداد، والتقى الحاكم العسكري العام الزعيم أحمد صالح العبدى والمسؤولين في وزارة الدفاع، وفي لقائه مع الزعيم عبد الكريم قاسم طالب بإلغاء مهرجان السلام، لكن طلبه قوبل بالرفض وطلب الزعيم حماية المهرجان وعدم السماح بالاستفزازات والاعتداءات على المشاركين في المهرجان، وأهدى الزعيم

صورة فوتوغرافية حديثة للشواف، وتم التقاط صورة تجمعهم مع الشواف. عاد أمر الموقع للموصل، وبدأ على الفور استعدادات للعصيان العسكري بعد اتفاه مع عدد من ضباط الجيش الكبار وقادة فرق، بينما بادر وفد يمثل القوى الوطنية في الموصل بقاء الزعيم الركن ناظم الطبقجلي في كركوك، باعتبار ان موقع الموصل يتبع له من الناحية الإدارية، وكنت ضمن هذا الوفد. لقد أكد الطبقجلي بأن الوضع السياسي معقد جداً ليس في الموصل فقط، بل العراق عامة، وأنه غير موافق على سياسة عبد الكريم قاسم، وأنه ضد الأخذ بالمبادئ الديمقراطية وحرية الرأي والكلام والتجمعات والتظاهرات في الوقت الحاضر، وأشار الى انه تحدث مع الشواف وطلب منه السيطرة على الأوضاع في الموصل. وقد فهمنا بشكل واضح ان الطبقجلي يؤيد الشواف.

- كيف كانت التوجيهات، الحزبية، الحكومية والشعبية...؟

في الموصل واصلت القوى الوطنية والديمقراطية استعداداتها لاستقبال الوفود القادمة من أنحاء البلاد للمشاركة في مهرجان السلام المقرر في ٨ آذار ١٩٥٩م، وكان الشيوعيون يؤكدون ويطلبون من الجماهير الشعبية عدم الانجرار وراء الاستفزازات والاعتداءات والحفاظ قدر الإمكان على الهدوء والتزام النظام.

- من بدأ بالعنف إذاً، ومن أي طرف جاءت الأوامر؟

كانت هنالك محاولة لنسف القطار الذي يحمل المشاركين في المهرجان القادم من بغداد، وتم وضع متفجرات وقنابل تحت سكة الحديد، ولكن في اللحظات الأخيرة تم اكتشافها وجرى رفعها من قبل المواطنين والعسكريين الموالين لثورة تموز.

وصل أنصار السلام للموصل وفي السادس من آذار ١٩٥٩، جرت مسيرة حاشدة متجهة الى ملعب الموصل، خلالها تعرضت الى سلسلة من الاعتداءات والضرب وإطلاق هتافات استفزازية، قوبلت بهدوء وضبط النفس.

وتم عقد المهرجان بحضور جماهيري واسع لم تشهد له المدينة مثيلاً من قبل، حيث انطلقت الفعاليات في السادس من مارس (آذار) عام ١٩٥٩، وتطرق الخطباء الى ثورة تموز ومنجزاتها، داعين الى الدفاع عنها، والوقوف بوجه المتآمرين وفضح أساليبهم، والسير تحت قيادة الزعيم قاسم، ولوحظ انه لم يتم التطرق والتهجم على الجمهورية العربية المتحدة وقادتها، لقد انتهى المهرجان بهدوء تام والالتزام بالحدز واليقظة. في اليوم الثاني المصادف السابع من آذار، خرج المتآمرون بتظاهرة تهتف بسقوط الثورة وزعيمها ومؤيديها من الشيوعيين والديمقراطيين، فسارعت القوى الوطنية بالتحشيد وتسيير التظاهرات للتنديد بالخونة أعداء الوطن والشعب في منطقة الساعة وشارعي الفاروق ونينوى، وجرت مواجهات بالحجارة والعصي بين الجانبين، وعلى أثرها تم دحر المتآمرين. وحسب الخطة التي كان قد أعدها قادة المؤامرة نزلت القوات العسكرية الى الساحات والشوارع بكامل أسلحتها، وتم الاعلان من خلال مكبرات الصوت عن حظر التجول لإشعار آخر مع التهديد باطلاق النار على كل من يخالف القرار.

على أثر ذلك بادرت قوات من الجيش والشرطة بتنفيذ أوامر القبض على قادة ونشطاء الحزب الشيوعي العراقي والنقابات العمالية واتحاد الطلبة واتحاد الشبيبة والشخصيات الوطنية والاجتماعية، وذلك حسب قوائم معدة مسبقاً من قبل المتآمرين. تم اعتقاله، وقالوا لي بأن أمر الموقع العقيد الشواف يطلبك مع آخرين للبحث، فيما وصلت الأوضاع من الفوضى والمظاهرات في الشوارع، على أثر وصولي الى موقع الشواف في معسكر الغزلاني كان قد سبقني الى هناك ممثل الحزب الشيوعي عبد الرحمن القصاب وآخرون، بقينا في انتظار المقابلة بالغرفة المجاورة للعقيد الشواف، وفجأة وقبل منتصف الليل سمعنا حركة غير اعتيادية، وشاهدنا من النافذة سيارات عسكرية يجري انزال صناديق السلاح منها وصناديق أخرى، تبين في ما بعد انها كانت لمحطة إذاعة وتجهيزات عسكرية بينها رشاشات بور سعيد، وكان يرافق هذه السيارات

محمود الدرة وسامي باشعالم، وهما من المشاركين الفاعلين في المؤامرة، طال انتظارنا وفي النهاية دعينا الى مقابلة الشواف في غرفته، رأيناه قلقاً ومرتبكاً على غير العادة، وأخذ يصيح بنا ((هذا ما أردتموه.... التظاهرات والفوضى والإخلال بالأمن تسود المدينة...))، فقاطعه عبد الرحمن القصاب قائلاً، ((نحن لسنا مسؤولين بل ان المتآمرين وأعداء الجمهورية يتحملون كل المسؤولية... وأضاف، أسمع أيها العقيد ان مصيرك سيكون السحل في شوارع الموصل، إذا أعلنت رسمياً عن انقلابك ومؤامرتك...))، في هذه الأثناء دخل مقدم اللواء محمود عزيز وتشاور بصوت خافت مع الشواف، على أثرها صرخ فينا ((أخرجوا من هنا، سنلقنكم درساً لن تنسوه مدى الحياة...))، وتم إخراجنا من الغرفة ووضع كل منا في سيارة عسكرية وخلفها سيارة مسلحة، وأخذنا نجتاز شوارع المدينة لا نعرف الى أين...، في النهاية وصلنا الثكنة الحجرية التي فيها مدرسة التعبئة الصغرى العسكرية، وتم زجنا في احدى الغرف تحت حراسة مشددة، وأخذ الباب يفتح بين حينٍ وآخر، ويدخل الينا موقوفون جدد...، لم يكن هناك شخص غريب، فكلنا كنا أصدقاء ومتعارفين، أنهم من الشخصيات الوطنية ونشطاء النقابات العمالية واتحاد الشبيبة واتحاد الطلبة، ولم يقدموا لنا الطعام أو الماء، وسألنا الحراس عماذا جرى ويجري...؟، قالوا ان ثورة قامت في الموصل ضد عبد الكريم قاسم وضد الشيوعيين، كنا في الغرفة الصغيرة حوالي خمسين شخصاً، وفي الطابق الثاني من الثكنة كانت هناك مجموعة أخرى من المعتقلين، وبناء على قرار الشواف وضع العشرات من الضباط والجنود في السجن، أيضاً في الثكنة نفسها.

- كيف كانت تداعيات الوضع، وردة الفعل، وما موقف الجماهير من تدهور الأوضاع...؟

طوال يوم ٨ آذار كنا معزولين عن العالم، لا نعرف شيئاً عما يدور في مدينتنا الموصل، عدا بعض الهمسات من الحرس الذين أكدوا قيام عمل عسكري وظهور

مدنيين مسلحين في الشوارع يساندون قطعات الجيش، وفي التاسع من آذار صباحاً سمعنا أصوات إطلاق نار و انفجار صاروخ، تبين في ما بعد ان طائرات قادمة من بغداد، وان الطائرة التي كان يقودها النقيب الطيار خالد ساره قد قصفت مقر أمر موقع الموصل وأصاب الشواف بجروح، على أثرها هرب الى مقر القوة الجوية لتلقي العلاج في عيادتها الطبية، وقد قوبل من الضباط والجنود بهتافات تشيد بثورة تموز وزعيمها قاسم، وبأدر أحد الجنود بإطلاق النار على الشواف مما أدى الى مصرعه، وفي هذا الوقت غادرت الموصل طائرتان أرسلهما المتآمرون لقصف مرسلات اذاعة بغداد ومقر الزعيم عبد الكريم قاسم، وبالفعل تم قصف المرسلات، وأصيب بعض الحراس، ولم تتمكن الطائرتان من الوصول الى وزارة الدفاع، ورجعتا الى الموصل، وأثناء محاولة هبوطهما شاهدا الضباط والجنود وهم يهتفون ضد المتآمرين، ومن مدرج المطار عاد الملازم الطيار صائب الصافي للطيران باتجاه سوريا، ولكنه لم يستطع الوصول اليها بسبب نفاد الوقود، ونزل على بعد عشرين كيلومترا من الحدود العراقية السورية، وهو جرم من قبل المواطنين، وتم القضاء عليه، بينما قائد الطائرة الثانية الملازم فاضل ناصر استطاع النزول وتم اعتقاله. في خضم هذا القصف الجوي المتبادل ومقتل الشواف، بدأ البث الإذاعي في محطة تمت تسميتها إذاعة الموصل، والذي قام بتشغيلها مهندس سوري وصل مع جهاز الإذاعة الى الموصل، قرأ البيان الأول محمود الدرة، وركز البيان الذي كان بتوقيع الشواف، الهجوم على قاسم متهماً إياه بخيانة ثورة ١٤ تموز والعبث بمبادئها وأهدافها، وهاجم ما أسماه بالجهات الغوغائية، وطالب بتنحي ((الطاغية المجنون وزمرته عن الحكم، والقضاء على السياسة الغوغائية التي أخذت تمارسها فئة ضالة من شعبنا...))، وقال: بعد اتفاقنا مع أخينا الزعيم الركن ناظم الطبقجلي قائد الفرقة الثانية، ومع جميع الضباط ومشاوراتنا مع العناصر السياسية عزمنا على تحرير وطننا))، كانت الإذاعة غير واضحة، لذلك أعيد قراءة البيان مرات عديدة، ثم تولت أذاعتا دمشق والقاهرة قراءته، وأكدوا بكذب واضح، أنهما يذيعان

البيان نقلا عن إذاعة راديو الموصل.

بعد مقتل الشواف هرع مقدم اللواء محمود عزيز الى الثكنة وفي جيبه قرار إعدام المعتقلين بالأسماء من العناصر المدنية والعسكرية، وكانت مجموعة من أنصاره برفقته، وفي مدخل الثكنة لحق به آمر كتيبة الهندسة عبد الله الشاوي، وأخبر محمود عزيز بأن لا فائدة من الاستمرار في العصيان، وان الشواف قد قتل، وعلى الفور بادر الملازم الأول خير الله عسكر الذي كان يرافق محمود عزيز بإطلاق النار على ابن عمه عبد الله الشاوي، مما أدى الى مصرعه.

صعد محمود عزيز الى الطابق الثاني وسأل عن المحامي كامل قزانجي وأطلق النار عليه من الخلف وأرداه قتيلا، ثم نزل الينا في الطابق الأول وفتح الباب وقال وهو يرتجف ومرتبك وعلى وجهه آثار جروح نتيجة قصف موقع الشواف، ((يجب أن تخرجوا واحدا واحدا للانتقام منكم، وليأت خروشوف لإنقاذكم...))، ومن دون اتفاق مسبق قلنا له، ((لن نخرج واحدا واحدا، بل سنبقى في أماكننا وتستطيع قتلنا جميعا...))، في هذه اللحظات أسرع اليه بعض الضباط صارخين ان جنود كتيبة الهندسة ومواطنين يهاجمون الثكنة الحجرية ويطلقون النار، فأغلق باب غرفتنا وهرع للإشراف على مقاومة المهاجمين، لكن الهجوم تواصل بشكل عنيف، في هذه الأثناء بادر المتآمرون بإطلاق النار على باب غرفتنا، ما أدى الى إصابة العديد منا بشظايا وأحجار الجدران، تمكن محمود عزيز الهروب من الثكنة نازعاً رتبته العسكرية، ومعه مجموعة من المتآمرين باتجاه سوريا، وبالفعل وصلها سالماً.

استمر القتال في الثكنة واستطاع جنود كتيبة الهندسة من السيطرة على الموقف، وأخذوا ينادون ((أين أنتم أيها الوطنيون الموقوفون...))، ووصلوا الى الغرف وفتحوا الأبواب مهنئين وطالبيين منا بالخروج فوراً الى الشارع، بعد التزود بالسلاح من المشاجب للمشاركة في قتال المتآمرين، من الضباط والجنود والبعثيين والقوميين،

الذين ارتدوا الملابس العسكرية معهم مجموعات من أسرى بيت كشمولة والأغوات والنجفي (الذين تغير لقبهم بعد ذلك الى النجيفي)، وبقايا الإقطاعيين وأيتام العهد الملكي، بينما فضلت عشائر شمر التي تمّ استدعاؤها من قبل الشواف البقاء على مشارف مدينة الموصل، بانتظار ما ستسفر عنه نتائج القتال.

استمرت المواجهات في الشوارع طيلة الليل وفي صباح العاشر من آذار وصلت مجموعات من العشائر الكردية قادمة من زاخو ودهوك وعقرة، وشاركت في القتال ضد المتآمرين وأنصارهم، ووصل الموصل العقيد حسن عبود آمر الموقع الجديد، وفور وصوله عقد اجتماعا مع المؤيدين لثورة تموز، كما التقى ممثلي الحزب الشيوعي ونقابات العمال ومنظمات الطلبة والشبيبة وأنصار السلام، وأكد أنه يتمتع بصلاحيات واسعة للقضاء على جيوب المقاومة والقاء القبض على المتآمرين...، في هذه الأثناء استطاع ضباط الشواف وبعض أنصاره من الهروب الى سوريا.

استمرت المعارك وكان أبرزها مواجهة المتآمرين المعتصمين في بيت آل كشمولة والأغوات، وبالفعل تمّ إسكات النيران وأعتقال العديد من هؤلاء ووضع قسم منهم في موقف المقاومة الشعبية ومعسكر الغزلاني.

لا بد هنا من توضيح، حول مقتل (حفصة العمري)، التي جعلتها اذاعة صوت العرب والبعثيون والقوميون بطلّة مقاومة وشهيدة، فما حصل عند هروب مجموعات من الضباط والجنود المواليين للشواف التجؤوا الى بيت العمري، وأخذوا يطلقون النار بكثافة على جنود كتيبة الهندسة، واستمر إطلاق النار بالرغم من نداءات للمتآمرين بوقف أعمالهم الطائشة، لكنهم لم يستجيبوا وحاول البعض منهم الفرار وكان من بينهم، حفصة العمري، لكنهم وجهوا بنيران كثيفة واستمر التراشق بالسلاح، وبعد السيطرة على الموقف تمّ العثور على جثث المتآمرين داخل البيت، ومن بينهم حفصة العمري، وجرى إنزال الجثث الى الشارع، وقد حاولت مجموعات من الجنود

والجماهير سحل جثة حفصة العمري، وطلبوا مساعدة من مركز المقاومة، ووصلت الى بيت العمري ورأيت أعدادا غفيرة تحيط بالجثث وتريد الانتقام بسحلها، واستطعنا بعد جهود كبيرة إقناع الناس بإرسال الجثث الى الطب العدلي، وبالفعل حدث ذلك، وانتهى الموضوع، في المساء فوجئنا بإذاعة صوت العرب من القاهرة وعلى لسان مذيعتها (أحمد سعيد)، تمجد شهيدتهم حفصة العمري، مدعين أنها سحلت في الشارع، واتصل بنا الحاكم العسكري الزعيم أحمد صالح العبدى متسائلا عن حقيقة ما حدث... وتم توضيح الموقف له، منذ ذلك الحين وحتى الآن نرى في وسائل إعلام القوى المعادية من البعثيين والقوميين وفي الكتب الصفراء، التي يشرفون على إصدارها مقالات تشيد بالبطلة المزعومة وتوجه الاتهام الى الشيوعيين وأنصارهم بقتل وسحل حفصة، رغم ان ذلك لم يحدث أبدا.

لابد هنا من التوقف، فبعد سقوط نظام الطاغية صدام، ألقى رئيس الوزراء آنذاك إبراهيم الجعفري وهو خريج كلية الطب في الموصل خطاباً، أشاد فيه بحفصة العمري، وهذا ما يثير الاستغراب، فحزب الدعوة وهو أحد قادته كان هدفاً للقتل والإعدامات في زمن الحكم التأمري، فمن غير المفهوم إشادته بحفصة العمري.

- كان الاعلام المعاكس للقوى التي قامت بالتآمر يعكس صوراً مرعبة عما حدث، كيف تفسر ذلك؟

- ان الحاقدين من المتآمرين وأعوانهم سابقاً وحالياً لا يزالون يواصلون أكاذيبهم، ويؤكدون ان الشيوعيين والديمقراطيين قاموا بارتكاب جرائم بحق المتآمرين، وان عدد ضحاياهم وصل الى عدة آلاف، بالطبع فأن هذه الإدعاءات كاذبة وغير صحيحة، صحيح هنالك العشرات من القتلى والجرحى من كلا الجانبين، وكان الشيوعيون يحاولون الابتعاد عن إلحاق الأذى والدمار، ويدعون الجماهير الغاضبة لتسليم الأسرى من المتآمرين الى المقاومة الشعبية وقوات الجيش، وبالفعل تم اعتقال

الكثير من المتآمرين أعداء الجمهورية.

كما حصل حادث خاطئ قام به بعض الشيوعيين في الموصل ومن دون قرار أو تأييد من منظمة الحزب في الموصل، إذ جرى اختيار ١٧ متآمراً من الخطرين، والذين قاموا بأعمال القتل العشوائي ضد الجماهير الشعبية، وتم نقلهم الى منطقة (الدملماجة)، في ضواحي الموصل، وجرى قتلهم، هذه الواقعة أثارت استياء الشيوعيين والمقاومين الشعبيين والمنظمات الجماهيرية، وتم استنكارها والدعوة لمحاسبة القائمين عليها. لقد استغل الأعداء هذا الحادث وما زالوا حتى اليوم يؤكدون واقعة الـ (الدملماجة)، متناسين جرائمهم البشعة بحق الشعب والوطن، وفي الوقت ذاته يتجنبون مواقف قيادة الحزب الشيوعي في استنكار هذه الحادثة وشجبها.

- ألم يكن بالإمكان تجاوز الحدث واللجوء للسلم بدلا من التصعيد؟ - لمن خدمت الأحداث...؟

لم تكن هنالك أمكانية لتجاوز الصدام، فبعد استكمال تصفية جيوب مقاومة المتآمرين من ضباط ومدنيين في المؤامرة، بفضل التعاون بين القوات المسلحة والمقاومة الشعبية، عادت الأمور في الموصل الى حالتها الطبيعية، ولكن الى حين، أن أيتام المتآمرين من أسر آل كشمولة والأغوات والنجفي والأخوان المسلمين والاقطاعيين ورؤساء العشائر نظموا حملة دموية تمثلت بالاغتيالات، التي شملت الشيوعيين والمقاومة الشعبية والمنظمات الديمقراطية والشخصيات الوطنية، وكانت من تقوم بتنفيذ الاغتيالات فرق من هؤلاء، وكانت الاغتيالات تتم بعلم قوات الشرطة التي كان يقودها إسماعيل عباوي مدير شرطة الموصل، وقوات الأمن كانت تتغاضى عما يجري من اغتيالات طالت المئات.

وكان المتآمرون يشنون حملة إعلامية متهمين القوى الوطنية بأنها السبب في ما جرى ويجري، يدعون كذبا ان الشيوعيين قتلوا الآلاف من البعثيين والقوميين وأنصارهم،

بينما واقع الحال والمعطيات الرسمية تؤكد انهم من قاد أعمال القتل في الموصل، أنني هنا أنقل ما جاء في الكتاب الموسوعي للمحامي جرجيس فتح الله في الجزء الثالث ((نظرات في القومية العربية مداً وجزراً حتى ١٩٧٠)) ص ١١٦٣ - ١١٦٤، كتب لي الدكتور خليل عبد العزيز وهو ابن بلدي وواحد من كان ضباط الشواف قد اعتقلهم معنا عشية يوم ٧ آذار ١٩٥٩، وأودعهم القلعة الحجرية يقول: ((أبعث اليك بنص الحديث الذي جرى بين أحمد حسن البكر وبينني في مكتبه الرئاسي بالقصر الجمهوري، وقد زرت العراق بناء على دعوة خاصة منه بوصفي عضو اللجنة التحضيرية السوفيتية للاحتفال بالذكرى الألفية لميلاد الفارابي، كان واقفاً وسط المكتب يقلب بعض الأوراق على أثر اجتماع مجلس قيادة الثورة، رفع رأسه ونظر إليّ وقال: ((أنت الدكتور خليل عبد العزيز، ظننت أنني سألتقي شخصاً عجوزاً يتوكأ على عصا، لكنك تبدو شاباً، في مقبل العمر، كم كان عمرك سألتك بالله عندما قمت مع رفاقك بقتل الآلاف من القوميين والبعثيين في ثورة الشواف؟))، فاجئني بهذا السؤال والاستقبال إلا أنني سألته، سيادة الرئيس أريد ان أسألك، كم قتلتم أنتم أثر مؤامرة الشواف من المواطنين...؟؟، فقاطعني بقوله، ((أنني أكبر منك سنّاً، وأنا الذي سألت أولاً.. قل لي كم قتلتم؟))، أجبت أنه قتلتم بعد مؤامرة الشواف ٣٢٠ مواطناً مسالماً، ونحن قتلنا حوالي ٣٢ شخصاً خلال المؤامرة وأثناء القتال بين الطرفين، لكنكم تتهمونا بقتل أكثر من عشرة آلاف، وما زلتم ترددون ذلك، إذاعة صوت العرب تردد أيضاً، هذا الزعم دائماً، وإعلامكم يعيد هذا باستمرار، وأنا أتحدى ان تأتوا باسم شخص واحد خلافاً لأولائك، الذين قررتم منح ذويهم راتباً تقاعدياً مدى الحياة، ونشرتم قراركم هذا في جريدة الوقائع العراقية، (الجريدة الرسمية للحكومة العراقية)، هذا واقع لا يمكن نكرانه، نحن قتلنا ٣٢ خلال القتال وأنتم قتلتم أكثر من ٣٢٠ بعد المؤامرة وفي فترة السلم، هنا تبدلت لهجة البكر وسألني، ((لمصلحة من كان ذلك...؟))، قلت بالطبع لمصلحة الرجعية.

- ما هي الأسباب الحقيقية وراء ذلك؟

ان البعثيين والقوميين وبعض العناصر الاسلامية كانوا قبل وبعد مؤامرة الشواف يمارسون الكذب وتلفيق الحقائق وتقديم صورة مشوهة للأحداث تخدم أهدافهم وتوجهاتهم في القضاء على كل تحرك وطني ديمقراطي، يخدم مصلحة الوطن والشعب، واستطاعوا إحراز نجاحات في هذا الشأن، ووقفت القوى المعادية في البلدان العربية وكذلك في الدول الغربية الى جانب الحملة ضد الشيوعيين والتقدميين في العراق، ولكن دائماً وأبداً، فإن الكذب لا يستطيع ان يكون المسيطر على الحقيقة والواقع.

- في تقييمك اليوم لما حصل، ماذا تقول اليوم؟

ان مآثرة وبطولة الجماهير الشعبية بقيادة الشيوعيين في قمع مؤامرة الشواف ستبقى علامة مضيئة في مسيرة الشيوعيين العراقيين وإخلاصهم لقضية الوطن والشعب.

وان هذه المؤامرة أكدت خيانة وعمالة القوى المعادية وتنكرها لمصلحة شعبنا العراقي، وأعتقد أنه من الضروري تركيز الأضواء ونشر البحوث والمقالات عن الأحداث التي مرت بها بلادنا، خاصة بعد ثورة الجيش والشعب في الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، لتكون في متناول الأجيال الجديدة، ودروساً في الوطنية وحب الوطن.

هوامش:

١- العقيد الركن عبد الوهاب الشواف: ولد عبد الوهاب الشواف عام ١٩١٦، دخل الكلية العسكرية ببغداد عام ١٩٣٦ - ١٩٣٧، ثم تخرج فيها وتقلد عدة مناصب عسكرية وشارك مع جماعة الضباط الأحرار.

٢- ناظم الطبقجلي: عميد ركن في الجيش العراقي وعضو في تنظيم الضباط الأحرار.

٣- رفعت الحاج سري: رئيس الاستخبارات العسكرية، مؤسس تنظيم الضباط الوطنيين عام ١٩٤٩.

* الدكتور خليل عبد العزيز من مواليد الموصل، عمل بالحركة الوطنية وأسهم في تشكيل اتحاد الطلبة العراقي العام في الموصل، عمل في الجبهة الوطنية في الخمسينات. على اثر صدور قرار بإلقاء القبض عليه انتقل الى بغداد للعمل في المنظمات الحزبية واتحاد الطلبة، اعتقل وحكم بالسجن لعام واحد في سجن بعقوبة. كما امضى عاماً واحداً كمبعد في بدر، بعد ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ عاد للموصل وتقلد مركز رئيس اتحاد الطلبة العام، اعتقل ليلة مؤامرة الشواف وأودع في السكينة الحجرية، أطلق ضباط وجنود كتيبة الهندسة المواليون للجمهورية سراحه مع بقية المعتقلين، أسهم بنشاط في عمليات قمع مؤامرة الشواف، في أعوام الستينات صدرت بحقه عدة أحكام إعدام بتهمة المساهمة في قمع مؤامرة الشواف، غادر الى موسكو وانهى دراسته الاعدادية ثم درس وحصل على الماجستير، ونال بعدها على شهادة الدكتوراه في الإعلام عمل كباحث علمي في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية في موسكو، يعيش حالياً في العاصمة السويدية ستوكهولم.

(٣)

اليمن (السعيد) بين الأمس واليوم

حوار: محمد الكحط

الوضع في اليمن السعيد، يضع العالم أمام مسؤولية أخلاقية وإنسانية، فهذا البلد الفقير اقتصاديا، والمتدني علميا وتكنولوجيا بحاجة الى مد يد العون له في جميع المجالات، لا إرسال الدبابات والطائرات لتدمير ما موجود فيه من بنى تحتية بسيطة وقتل وتشريد أبنائه ولا ندرى ما هي الشرعية والدفاع عنها والتي يتحدث فيها البعض من الذين يسهمون في هذه الحرب المعلنة ضد اليمن، وهم أنفسهم يحاربون الشرعية في سوريا وموغلون في دعم جهات تحارب النظام القائم في سوريا وعلنا يدعمون من يقف ضد الشرعية، ونحن هنا لسنا بصدد الدفاع عن نظام ما بقدر ما نتحدث عن واقع مأساوي تعيشه اليمن وشعبها، ومشكلات اليمن قديمة قدم التاريخ، وكانت في فترة تتصدر أحداثها الوضع السياسي العربي، عندما وقفت بعض الدول العربية يوما لمحاربة هذا البلد، وكثير هي الأحداث المتتالية بعدها، وفي لقاء مع الدكتور خليل عبد العزيز والذي كان يوما ما قريبا من ملف اليمن وأحداثه وقياداته السابقة، لنلقي نظرة سريعة على خلفيات هذا الصراع.

وتوجهنا له بالعديد من الأسئلة منها:

- ما هي ظروف اليمن وطبيعة علاقتكم باليمن سابقا، وكيف تم التعامل مع تلك الأحداث؟

- كيف جرت الأمور وما هي خلفية كل ذلك؟

- بين ظفار وحضرموت أيام وظروف معقدة، يمكن القاء الضوء على ذلك؟

- كيف يمكن ربط الأحداث بين الأمس واليوم؟

- ما المخرج الممكن من الوضع الحالي في اليمن؟

وغيرها من الأسئلة، وكانت حصيلة اجابات الدكتور خليل عبد العزيز كما يلي:

((منذ أيام الدراسة كنا نسمع دائما اسم اليمن السعيد، وللهولة الأولى يسود الاعتقاد بأن السعادة تعم جميع مرافق الحياة في البلاد، وان المواطنين والمواطنات يعيشون في رفاهية وظروف معاشية واقتصادية ممتازة، وعندما تقرر الذهاب الى عدن عاصمة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وكنت ضمن وفد رسمي علمي سوفيتي، ((حيث سافرنا عام ١٩٧١ مع الاكاديمي باباجان غفوروف مدير معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية والدكتور سعيد كاميلوف الباحث العلمي والمختص باللغة العربية))، كنت فرحا للتعرف على هذا البلد السعيد كما كان يوصف في الأدبيات.

منذ اللحظات التي كانت تحلق فيها الطائرة في سماء المدينة أصابتنا الدهشة والمفاجئة، رأينا تلالا سوداء بالقرب من المحيط الهندي، وليس هناك أي أثر للخضرة والحدائق، ماعدا بعض الأشجار القليلة المتناثرة هنا وهناك في تقاطعات الشوارع، فور وصولنا عدن شاهدنا الفقر والبؤس في كل الأماكن التي مررنا بها، قالوا لنا بأن هذه التلال والجبل الأسود قد تكون جراء انفجار بركان كان يقذف بحممه النارية ولغزارتها تكون هذا الجبل الذي هو عبارة عن أكوام ضخمة من المعادن لا تنمو على سفوحه الأشجار والخضرة، ومع ذلك جرت محاولات فردية كثيرة لزراعة بعض المزروعات على سفوحه.

كان الهدف الأساسي للزيارة هو الالتقاء والاستماع لقادة الحزب الحاكم والحكومة وخططهم لبناء اقتصاد وطني، ومشاريعهم في القضاء على الفقر والجهل والتخلف في بلادهم.

تحدث الينا كل من عبد الفتاح اسماعيل الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني وسالم ربيع علي رئيس جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وعلي ناصر رئيس الوزراء وغيرهم من القادة والمسؤولين، وبالمناسبة فأن كل هؤلاء لم تتجاوز أعمارهم الثلاثين عاماً أو أكثر من ذلك بقليل، كان واضحاً بأن البلاد تحيط بها دول معادية بشكل صريح لتطلعات الشعب اليمني في بناء دولة ديمقراطية حقيقية.

كانت السعودية وسلطنة عمان والقسم الشمالي المسمى بـ (الجمهورية العربية اليمنية)، على قلق وخوف دائم من وجود هذه الدولة الجديدة على حدودهم، وعزمها على بناء مجتمع جديد، وكانت اليمن الديمقراطية تتلقى العون والمساعدات العسكرية والاقتصادية من الاتحاد السوفيتي والمانيا الديمقراطية ودول المعسكر الاشتراكي، ولا بدّ من القول ان هذا البلد كان فقيراً ومتخلفاً في جميع المجالات، والأهم من ذلك هو انعدام الكوادر الوطنية والمتعلمة، لذلك بادر السوفييت والدول الاشتراكية على فتح جامعاتهم ومعاهدهم العلمية لأكبر عدد ممكن من الطالبات والطلبة اليمنيين لتلقي التعليم والعلوم ليكونوا كوادر المستقبل في البلاد.

ان التخلف والنعرات العشائرية والطائفية السائدة في البلاد، كانت بشكل واضح وعلمي بين قادة الحزب والدولة من خلال أحاديثهم وعلاقاتهم وتصرفاتهم الرسمية والشخصية، لقد قال لي الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني عبد الفتاح اسماعيل وهو من مواليد اليمن الشمالي ومن الطائفة الزيدية والذي كان يواجه بعداء من قبل زملائه القادة والمسؤولين من المنحدرين من العشائر في اليمن الجنوبي في حديث خاص: ((كن حذراً في أحاديثك وعلاقاتك مع المسؤولين والوزراء عندنا لأنهم جميعاً عنصريون ولا يمكن، إلا ان يكونوا أعداء لك لأنك فقط عراقي، ولون بشرتك يختلف عنهم...)).

هذه الخلافات أدت الى مأس وقات دموي بين قادة الحزب والدولة وكان ضحيتها

في البداية أول رئيس لليمن الديمقراطية قحطان الشعبي الذي زج به في السجن، ثم تبعه الرئيس سالم ربيع علي الذي تم إعدامه رمياً بالرصاص في ساحة أحد القصور الرئاسية في منطقة المعاشيق في عدن، وبحضور زملائه.

وفي صدام دموي آخر تم القضاء على عبد الفتاح اسماعيل الأمين العام للحزب، وعلي عنتر وزير الدفاع والمئات من القادة المدنيين والعسكريين.

كل ذلك كان نتيجة الصراعات على خلفية النعرات العشائرية والطائفية.

كان شعار الوحدة اليمنية طاغياً على عقول وتفكير الجماهير والقادة، كانوا يعتقدون أنها المخرج الوحيد للقضاء على التخلف الاقتصادي والاجتماعي، وبالرغم من المعرفة الدقيقة بأن قادة الجمهورية العربية اليمنية لهم مواقف معادية لكل شعارات الديمقراطية والتقدم والعدالة الاجتماعية ويتمسكون بحزم بالنعرات الطائفية والانتماءات العشائرية، والرئيس السابق علي عبد الله صالح تزوج عدة مرات من نساء عشائر متنفذة، والهدف من ذلك ضمان ولائهم وتأييدهم له.

كانت السعودية ومنذ الاطاحة بالحكم الامامي في اليمن الشمالي وإقامة الجمهورية، تقف بقوة وحزم ضد أي توجه عصري لبناء المجتمع المدني ومحاولة التخلص من العشائرية والطائفية، لذلك ساعدت مجموعات كبيرة من العشائر بالمال والسلاح في مقاومتهم المسلحة للنظام الجمهوري وأول رئيس للجمهورية عبد الله السلال.

وما زال حكام السعودية يقتطعون أجزاء واسعة من الأراضي اليمنية الواقعة على الحدود مع السعودية، ويعدونها أراضي سعودية، وهذه المناطق المحتلة وحسب المعطيات الجيولوجية الموثوقة تمتلك آباراً من النفط والغاز، وباحتياطي كبير لعشرات الأعوام القادمة.

وبسبب الفقر وحاجة السعودية للأيدي العاملة الرخيصة، هاجر ونزح الآلاف

من اليمنيين من شملها وجنوبها الى السعودية.

تمكن التيار الوحدوي من تحقيق انتصار تاريخي كبير بالإعلان عن الوحدة بين جزئي اليمن، وشارك مسؤولون حزيون وقادة من اليمن الجنوبي في الأجهزة القيادية في اليمن الموحد بقيادة علي عبد الله صالح، والذين تم طردهم في السنوات اللاحقة، ومن المؤسف بأن الأغلبية من المسؤولين الحزبيين السابقين في اليمن الجنوبي، يعيشون برعاية دول مثل السعودية وسلطنة عمان ودول الخليج الأخرى، وينفذون ويأتمرون بتوجيهات وأهداف هذه الدول التي كانت وما زالت معادية لمصالح الشعب اليمني.

كان قادة اليمن الشمالي يهدفون بالدرجة الأولى من اتمام الوحدة بين الشطرين الى الاستفادة القصوى من ميناء عدن الدولي واستغلال الطاقة العاملة الرخيصة، ولم يكن في تفكيرهم أو خططهم العمل من أجل رفع مستوى الجماهير الشعبية، ومن ثمّ القضاء على كل الأصوات الداعية لبناء المجتمع الديمقراطي المدني، ولا بدّ هنا من القول بأن القوى الديمقراطية الحقيقية في البلدان العربية كانت ترى في تجربة اليمن الديمقراطية بارقة أمل وتفاؤل للسير في الطريق الديمقراطي، وجعلها مناراً لكل الشعوب العربية، لذلك بادر الحزب الشيوعي العراقي بإرسال الكوادر العلمية والاقتصادية الى عدن بأعداد كبيرة للمشاركة في عملية بناء المجتمع الجديد، ومن جهة أخرى، للحفاظ على هذه الكوادر الكفوءة من مطاردات النظام الدكتاتوري الصدامي، لقد تمّ التعامل مع العراقيين شأنهم شأن الكفاءات اليمنية من حيث المرتبات الشهرية، وتأمين وسائل العيش، لكن للأسف كانت السلطات اليمنية تمارس سياسة غير عادلة، حيث تم حشر كل شخصين أو ثلاثة من حملة الشهادات العليا في غرفة واحدة وفي ظروف غير طبيعية، كان ذلك يجري في الوقت الذي كانت الجهات المسؤولة توفر شققاً سكنية ورواتب كبيرة للقادمين والمتقاعدين من الدول الأخرى، والذين تقل كفاءتهم وقدراتهم كثيراً عن الكوادر العراقية، ولم يتم تقدير هذه الكوادر وتضحياتها التي

قدمتها لهذا البلد الفقير .

ان ما يجري اليوم على الأراضي اليمنية ما هو إلا تنفيذ عملي لقمع كل توجه مشروع لبناء وطن حر تتوفر فيه امكانيات العيش للجميع، إن الأعداء الحقيقيين لليمن هم السعوديون الذين يمارسون الآن ويوماً القتل وهدم المستشفيات والمؤسسات الاقتصادية والتعليمية بكل وحشية وهمجية، ومن المؤسف ان بعض دول الخليج ودولا أخرى تسهم في هذه العمليات، وتقدم الدعم العسكري والمادي للحكام السعوديين في تنفيذ مخططاتهم الاجرامية بحق اليمن.

ومن التحليل الأولي لما يجري من أحداث يشير بوضوح الى بداية النهاية لزوال حكم آل سعود المتخلف والذي يمارس في الوقت نفسه سياسة القمع والإرهاب ليس فقط ضد الشعب السعودي، بل يمارس ويساعد قوى التخلف في العالمين العربي والإسلامي، بل يدعم ويشجع الارهابيين في جميع أنحاء العالم بالسلاح والمال تحت شعارات الدفاع عن الإسلام ونشر مفاهيمه.

إن السعودية لا تستطيع الى ما لا نهاية ممارسة سياستها المعادية للبشرية وحقوق الإنسان بهدف القضاء على الأفكار الوطنية والديمقراطية وتحقيق العدالة الاجتماعية.

للأسف انها استطاعت تحويل اليمن خلال الأشهر الماضية الى أنقاض، وتدمير كل البنية التحتية والاقتصاد الوطني، وأصبح اليمنيون شعباً مشرداً في أراضيه، بسبب صعوبة الهروب للخارج، وكون البلد محاطاً بالدول المعادية. كما ان المنظمات الدولية ولجان حقوق الإنسان تقف عاجزة عن تحقيق أي نجاح لوقف عمليات القتل والتدمير، التي تمارسها الآلة الحربية السعودية ضد اليمن وشعبه.

نستطيع القول بكل ثقة بأن الإجرام السعودي وحربه المدمرة هي البداية الحقيقية لزوال نظام التخلف والطائفية والعشائرية لهذه الدولة التي تسمى المملكة العربية السعودية.

(٤)

تكريم الدكتور خليل عبد العزيز من عمادة كلية الصحافة في جامعة موسكو

لقاء أجراه: محمد الكحط

من الجميل أن يكرم إنسان من بلده، والأجمل أن يكرم من بلد آخر تقديراً لمسيرته، مما يعني أنه كان معطاءً، لذا فتذكير إنسان وتكريم عطائه وهو في الثمانين من آخرين، هو مبعث فرح وسعادة لا للشخص نفسه فحسب، بل لبلده وأصحابه، من هنا كان هذا اللقاء فرصة لتسليط الضوء على الدكتور خليل عبد العزيز من قبل كلية الصحافة في جامعة موسكو.

التقيناه نسأله أولاً عن التكريم وصفته العلمية والاجتماعية ومن أي جهة وما مناسبته؟

قال: منذ بداية دراستي في كلية الصحافة بجامعة موسكو عام ١٩٦٣ حرصت على تلقي كل العلوم التي تخدم شعبي ووطني وحزبي، ومن هذا المنطلق عكفت على الدراسة بشكل جدي وانجاز واجباتي الدراسية اليومية، إضافة الى ذلك تمكنت من تكوين علاقات صداقة وتعاون مع عميد وأساتذة وطالبات وطلاب الكلية، وشاركت في مجال العمل التضامني ومساعدة الطلبة القادمين من شتى بلدان العالم للدراسة.

وقمنا بتأسيس جمعية الصداقة والتعاون منذ بداية دراستنا في الكورس الاول، وتم انتخابي رئيساً لها، وكان يعاد انتخابي سنوياً من قبل الطالبات والطلاب الذين يمثلون أكثر من ثمانين دولة.

خلال الدراسة أسهمت بنشاط في الندوات الفكرية والاجتماعية والسياسية، وتمكنت من تقديم صورة واضحة ومقنعة عن الأوضاع في العراق، خاصة عن الانقلاب الفاشي البعثي عام ١٩٦٣. أنهيت دراسة الماجستير وفوراً تم قبولي للحصول على شهادة الدكتوراه. سافرت الى القاهرة لإعداد رسالة الدكتوراه وهناك وبطلب من وكالة نوفوستي للأنباء السوفيتية أصبحت رئيس تحرير جريدة الشباب السوفيتي.

بعد حصولي على الدكتوراه تمّ تعييني بوظيفة باحث علمي أقدم في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، وعملت مساعداً لمدير المعهد الأكاديمي «باباجان غفوروف» وكنت أرافقه في جولاته العلمية داخل الاتحاد السوفيتي وبلدان الشرق الأوسط، طيلة وجودي في موسكو كنت على ارتباط وثيق مع كلية الصحافة وأسهمت في تشكيل جمعية خريجي دورتنا الدراسية، ولغاية الآن فإني احضر الاجتماعات السنوية والدورية، وأود أن أشير هنا الى أن عددنا كان عام التخرج ١٩٦٣ هو ١٥٦ والآن أصبح العدد ٣٩ فقط، لان الغالبية للأسف غادرت الحياة.

وبمناسبة بلوغي العام الثمانين ومن دون معرفتي مسبقاً، تمّ قبول اقتراح الزميلات والزملاء في كلية الصحافة من قبل عمادة الكلية ورئاسة جامعة موسكو بتقليدي وساماً، تقديراً لدراستي وجهودي في المجال العلمي بكلية الصحافة ومعهد الاستشراق.

- قدمنا التهاني للدكتور خليل عبد العزيز بهذا التكريم وتمنينا له طول العمر ومزيداً من العطاء الجميل.

الفصل الرابع

مقالات وتعليقات وحوارات

(١)

ذكرياتي مع الصحافة الشيوعية في العراق

لعبت الصحافة الشيوعية في العراق دوراً كبيراً في نشر الوعي الوطني والثقافة التقدمية، بالرغم من انها كانت سرية، لكن توزيعها كان واسعاً، وبمختلف الوسائل والأساليب لإيصالها الى مختلف فئات وطبقات الشعب العراقي، ولاقت القبول الاستحسان والإقبال عليها من الأوساط التي كانت تصلهم، وكانت هذه الوسائل الإعلامية الشيوعية السرية تتميز بشكل واضح عن الصحافة العلنية، من حيث تسليط الأضواء على الواقع السياسي العراقي، والمشكلات التي تواجهها الأغلبية الساحقة من بنات وأبناء الشعب، وتقديم الحلول العملية للتصدي والتقليل من معاناة الجماهير، بعكس وسائل الاعلام الرسمية، والتي كان همها الوحيد الاشادة بالنظام السياسي القائم، ومحاولة تلميع السياسات الاقتصادية والاجتماعية، وكان الكذب والتلفيق وتزييف الوقائع والأحداث، هو الصفة البارزة للإعلام الرسمي والأهلي، وذلك لخدع الأغلبية الساحقة من شغيلة العراق.

كانت هناك مصاعب ليست بالقليلة في تهيئة مستلزمات طبع صحيفة الحزب الشيوعي، ومن ضمنها الحصول على أجهزة الطباعة، وأتذكر أننا كنا ثلاثة رفاق نعيش في غرفة في إحدى المناطق بالقرب من شارع الرشيد، وكان لكل واحد منا واجبات ومسؤوليات حزبية، وفجأة تلقينا قراراً حزبياً بإعفاء رفيق معين من مهامه الحزبية، بسبب تكليفه بعمل حزبي معين، لقد حاولنا ومن باب حب الاطلاع معرفة المهمة الجديدة لرفيقنا، ولكن كان يرفض، لكن فجأة سألنا قائلاً هل تريدون معرفة مهمتي الحزبية، أنني أخذ الأوراق البيضاء معي وأعود بأوراق سوداء!، وللتوضيح فإنه كان يذهب الى مطبعة الحزب السرية برزم الأوراق وبعد الطبع يقوم بتوزيعها بين المنظمات

الحزبية، والتي لم تكن عملية سهلة بسبب المراقبة الأمنية من قبل الأجهزة القمعية، ومع ذلك كانت الصحافة الشيوعية تصل الى أوساط واسعة.

لقد تمّ تكليفي بإيصال صحيفة الحزب «كفاح الشعب» الى أحد معلمينا في المدرسة وكنت على علاقة جيدة معه، وهو الشاعر شاذل طاقة، وعندما أعطيته الجريدة أخذها ووضعها بسرعة في جيبه قائلاً: أعرف أنك شيوعي. في اليوم التالي طلب مني تزويده بكل عدد جديد يصدر من الصحيفة، وبالطبع قمت بتنفيذ ذلك.

ان المثقفين والمتعلمين كانوا يقبلون على قراءة صحافة الشيوعيين العراقيين، لأنها كانت في الحقيقة تعبر عن آرائهم ومشاعرهم ومواقفهم من نظام الحكم القائم، لذا استطاعت الصحافة الشيوعية من خلق وتكوين رأي عام تقدمي في البلاد، وانعكس ذلك في ظهور كتاب وأدباء ومثقفين لهم وزنهم في الحياة العامة، من هؤلاء عبد الملك نوري وصلاح خالص ومحمد مهدي الجواهري ومحمد صالح بحر العلوم، والمثقف الكردي كوران وعبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب وعبد الجبار وهبي «أبو سعيد» وكاظم السماوي وعبد الرزاق الشيخ علي ومحمد ملا كريم ومظفر النواب وحسين مردان، والمئات من الذين كان لهم دور في مسيرة الثقافة الوطنية العراقية، كان تأثير الصحافة الشيوعية كبيراً جداً، وظهرت صحف علنية كانت تدعو للفكر التقدمي وسيادة الديمقراطية والاهتمام بمشكلات العراق، وتلبية مطالب الشغيلة وإعطاء المرأة حقوقها، ومن هذه الصحف، «صوت الاحرار» و«الرأي العام» وغيرها.

(٢)

الموصل دماء ودموع

ما يجري في مدينتي العزيزة الموصل من احداث هو في الواقع مأساة دامية والضحية هم بنات وأبناء الموصل وتدمير المدينة بكاملها. ان كل ذلك يعود الى السياسة الرعناء والطائفية التي مارسها رئيس الوزراء السابق نوري المالكي وقيامه بتسليم المدينة والأسلحة التي يقدر ثمنها ب ١٢ مليار دولار الى المنظمة الارهابية داعش. والآن وبعد بدء العمليات لتحرير الموصل من الإرهابيين يبدو الوضع معقداً جداً فهناك أوساط غير قليلة من السكان يؤيدون بهذا الشكل أو ذاك داعش من منطلقات طائفية واستناداً الى ما كان يجري من تصرفات واعتداءات وتجاوزات على أساس طائفي، كما وان القوات العراقية التي تقاتل من أجل تحرير الموصل لا يخلو قسم منها من قناعات طائفية، ومن هنا فان الدمار الواسع وأنهار من الدمار وتشريد ونزوح السكان -ان استطاعوا او توفرت لهم الظروف الآمنة- من مساكنهم وأحيائهم.

ان القتلة من الجانبيين لا يعيرون أي اهتمام لسلامة وأمن المواطنين والمواطنات الأبرياء، ورغم النداءات الداعية لتجنب القتل والتدمير الا ان الأمور تسير حسب أهواء المقاتلين.

لا شك ان تحرير الموصل من الإرهابيين هو الهدف الأساسي للقوات المسلحة العراقية والمليشيات التي تعمل معها وتخضع من الناحية الرسمية لتوجيهات وأوامر القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية، ولكن الأمور لا تسير بالشكل المطلوب. أما الأصوات التي تندد بعمليات التدمير والقتل فان أغليتها صادرة من نفس الجماعات التي ساهمت بتسليم الموصل الى الإرهابيين بدون إطلاق رصاصة واحدة... وهذه الأصوات هي في الواقع وعملياً تدعو الى الكف عن ملاحقة الارهابيين الداعشين

وتصفيتهم، ويلاحظ بان أغلبية هؤلاء الداعين لوقف العمليات العسكرية لتحرير الموصل هم من البعثيين وأنصارهم المتعاطفين مع الارهابيين والذين ليس من مصلحتهم القضاء على داعش وان هدفهم الأساسي تصفية الواقع السياسي الراهن.

الآن الموصل تواجه قضية اعمار واعادة بناء المدينة، وفي لقاء وحديث مع مدير مشاريع الاعمار في الموصل في عاصمة اقليم كردستان العراق اربيل قال، بان عمله يجري في نطاق برنامج التنمية للأمم المتحدة UND، وان المشكلة الرئيسية في عملية الاعمار هي قيام البعض بسرقة ونهب المعدات والأجهزة وعرقلة جهود الامم المتحدة. وقال تصور ان محطة ضخمة لتوليد الكهرباء جرى نصبها في معسكر الغزلاني وفي صباح اليوم التالي تم سرقة المحطة وأشار الى ان عملية السرقة والنقل تحتاج الى رافعات وشاحنات ضخمة لا يمكن ان تتوفر لسراق عاديين بل ان القوات المسلحة هي بإمكانها تنفيذ ذلك. وأكد المسؤول عن عمليات الاعمار بان هناك مشاكل كثيرة تواجه منظمات التنمية للأمم المتحدة وعلى رأسها الرشاوي والسرقات، وقال بان تنفيذ المخططات الحكومية تتميز بمحاولات التلاعب والغش والرشاوي والسرقات.

ان الموصل تعيش وسط بحر من الدماء والدموع... الجميع ينتظر مستقبلاً مظلاً بعد التحرير، فالقوى الطائفية وتدخلات القوى الطائفية وتدخلات -الاشقاء- وتركيا تريد تنفيذ اهدافها واطماعها في الموصل الحذباء وتبذل الجهود في عرقلة التحرير الكامل ومن ثم البناء وتساعد الداعشيين والبعثيين والخونة على تحقيق مخططاتهم الاجرامية.

(٣)

حول العملية الارهابية في ستوكهولم

العمل الإرهابي الجبان في ستوكهولم اثبت من جديد بان الإرهابيين الذين يتسترون بالشعارات الدينية ويسرون تحت رايتهم السوداء الله أكبر ليس لهم أي علاقة بالمفاهيم الإنسانية والحضارية وهم ثمرة الأفكار التي يبثها رجال دين يتلقون الدعم المادي من بعض الدول العربية وغيرها لتحقيق مصالحهم السياسية والعبث والإخلال بكل التوجهات التقدمية والديمقراطية. كما وان رجال دين معروفين أمثال يوسف القرضاوي الذي تتبناه دويلة قطر وانضمت إليها الآن تركيا يبثون المفاهيم والآراء المتخلفة ويحاولون وقف عجلة التاريخ والإبقاء على مظاهر التخلف والانحطاط في الدول العربية والإسلامية. القرضاوي الآن يروج للرئيس التركي اردوغان باعتباره قائداً إسلامياً وأميراً للمؤمنين. إن عملية ستوكهولم تبين خطورة الأفكار والمفاهيم التي تبثها منظمات دينية متطرفة والتي تتخذ من المساجد والمدارس الدينية أماكن لنشر الفكر والتوجه المتخلف ومعاداة التقدم والمبادئ الديمقراطية. وأكدت وسائل الإعلام السويدية أن مدرسة دينية في ستوكهولم تعمل على الفصل بين البنات والبنين حتى في الحافلات التي تنقلهم من وإلى المدرسة. وهذه المدارس والمنظمات تتلقى الدعم المادي الحكومي الذي هو في الأساس مخصص لتربية وإعداد جيل ناشئ مسلحاً بالفكر الديمقراطي والإنساني والعلمي. إن هذه المنظمات الدينية تعمل على « استيراد » بعض علماء المسلمين من الدول الإسلامية لإلقاء محاضرات والدعوة إلى التمسك بالأفكار البالية. لقد قال أحد هؤلاء « المستوردين » إن على الرجل الإسلامي في السويد منع زوجته الخروج من البيت دون موافقته شخصياً ومعرفة أين ستذهب « حرمة » ومرتدية الحجاب الكامل وهذا ينطبق أيضاً على بناته. يذكر أن الكثير من

هؤلاء الذين يتسترون بالإسلام يزاولون الكذب والخداع امام السلطات الحكومية للحصول بدون وجه حق على المعونات الاجتماعية. ان الارهابي القادم من اوزبكستان وصل السويد قادماً من تركيا التي تسمح للمواطنين المسلمين من بعض بلدان آسيا الوسطى بدخول الاراضي التركية بدون الفيزا. ان هذا الارهابي شأنه المئات من هؤلاء وعن طريق التهريب يصلون الى السويد ويتوحدون في منظمات وعصابات تزاول السرقة والاحتيال بأساليب متنوعة ضاربة عرض الحائط الانظمة والقوانين ومستغلة التصرفات والمعالجات الليبرالية من الجانب السويدي ان الارهابي الأوزبكي رحمت عقيلوف كان معروفاً بتعاطيه المخدرات وبعيد كل البعد عن المفاهيم والمعتقدات الاسلامية ويقول احد اصدقائه انه كان لا يعرف مراسيم اداء الصلاة لكنه كان ينشر في صفحته بالفيس بوك اخباراً عن المنظمة الارهابية داعش وصورا عن العملية الارهابية التي نفذها مواطنان من الشيشان في مدينة بوسطن الامريكية. لقد أصبح هذا الارهابي مؤيداً للمنظمات الإرهابية وهو في السويد شأنه الكثير من المسلمين القادمين من البلدان العربية والاسلامية. وقال الارهابي رحمت في التحقيق الاولي بانه نفذ عمله ضد الكفار السويديين ورفض قرار المحكمة بتعيين محامي سويدي للدفاع عنه وطالب بان يكون محاميه مسلماً وسنياً. ان هذا الحادث الارهابي يبين من جديد خطورة الأفكار المتخلفة التي ينادي بها بعض المسلمين المتطرفين في السويد والدول الاوربية والتي جاءوا هرباً من ظلم وقمع حكاهما المسلمين ولكنهم في منفاهم اصبحوا يقلدون سلوك وتصرفات حكامهم.

ان ردود الفعل من قبل جماهير ستوكهولم كان فورياً فقد احتشدوا بمئات الآلاف في الساحة المركزية في المدينة حاملين باقات الورود ووضعوها في الاماكن التي استشهد فيها اربعة اشخاص وجرح خمسة عشر آخرين. كان منظر الجماهير المحتشدة مثيراً وهادئاً وكانت الدموع تسيل على حدود بنات وابناء ستوكهولم المذهولين من هذا العمل الارهابي الجبان وقد شاهدت الكثير من المواطنات والمواطنين العرب وهم

يشاركون في التحشيدات الجماهيرية وكان من بين هؤلاء أحد الشيوعيين العراقيين وكبير السن يسير تحت لوحة مرفوعة عالياً ومرسوم عليها مخطط للقلب ووسطها باللغة السويدية كلمات ستوكهولم في القلب. كما وان الجماهير المحتشدة وضعت باقات الزهور ولوحات الشكر والتقدير للبوليس الذي استطاع وخلال اقل من ثلاث ساعات القبض على الارهابي بعد هروبه من مسرح الجريمة. ان هذا الحادث الارهابي الذي نفذته رحمت عقيلوف بواسطة شاحنة سرقها قبل ذلك بدقائق وقام بسحق وقتل وجرح مواطنات ومواطنين ابرياء كان من بينهم طفلة في الحادية عشر من عمرها عائدة من مدرستها باتجاه الوصول الى بيتها وكذلك امرأة يتجاوز عمرها الثلاث والثمانين سنة لم يكن الاول في ستوكهولم اذ سبقه عمل ارهابي وقي نفس شارع الملكة وبمسافة لا تتعدى عشرات الامتار عن الحادث الثاني والذي جرى عام ٢٠١٠ ونفذه الارهابي العراقي من اصول فلسطينية تيمور عبد الوهاب. ان الضحية الوحيدة في هذا الحادث كان نفسه الارهابي تيمور اذ ان الخوف والقلق والارتباك ادى الى انفجار الحزام الناسف قبل القيام بجريمته.. لقد اختار الارهابيان هذا الشارع بالذات لأنه دائماً يشهد حشوداً من سكان ستوكهولم والسواح وفيه اهم المخازن والمحلات التجارية والسياحية.

(٤)

سر الطائرة السوفيتية

تم مؤخرا في موسكو الكشف عن أحد أخطر مراحل الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٧٣. حيث كانت إسرائيل على وشك توجيه ضربة نووية ضد القاهرة ودمشق في اليوم الثالث من بدء العمليات العسكرية الواسعة للقوات المسلحة المصرية والسورية، ولكن تدخل الاتحاد السوفيتي الحازم والمباشر أفسد المخطط الإسرائيلي. فالمعروف بأن سوريا ومصر قررتا شن الحرب على إسرائيل لتحرير الأراضي العربية التي احتلت خلال الحرب التي سميت بحرب الأيام الستة في أكتوبر عام ١٩٧٣. وقد فوجئت القيادات السياسية والعسكرية الإسرائيلية بتوغل القوات العسكرية المصرية والسورية داخل إسرائيل في صبيحة عيد ديني هام هو (عيد الغفران) الذي تحتفل فيه حكومة وشعب الدولة الإسرائيلية، وفي هذا العيد تتوقف جميع قنوات البث التلفزيوني والإذاعي وتتعطّل كافة المؤسسات والدوائر الحكومية والمواصلات البرية والجوية وتفتح فقط المعابد الدينية أبوابها لاستقبال المحتفلين بالعيد.

تمكنت القوات السورية من التوغل في العمق الإسرائيلي وتم اجتياز خط بارليف العسكري الموجود على ضفة قناة السويس بسرعة مذهلة من قبل القوات المصرية، وأصبحت الدبابات السورية على وشك الوصول إلى القدس بعد تمهيد المعركة بالقصف المدفعي الكثيف. والاهم من كل هذه الانتصارات العسكرية هو انهيار أسطورة الجيش الذي لا يقهر الذي كان يرددها القادة الإسرائيليون عن جيش الدفاع الإسرائيلي، وقد أثارت تلك الانتصارات الخوف والذعر والهلع لدى القادة الإسرائيليين، وظهرت آراء واضحة لدى العديد من الوزراء وباقي المسؤولين تدعو لإعلان الاستسلام والدعوة للمفاوضات مع الجانب العربي لإيقاف إطلاق النار، ولكن رئيسة الوزراء في حينه

غولدا مائير وقفت موقفا صلبا من هذه الدعوات، ودعت مجلس الوزراء للاجتماع، حيث طرحت فكرة استخدام ترسانة إسرائيل النووية التي كانت تحوي حينذاك ١٨ قنبلة نووية، ونادت بضرورة القيام بتوجيه ضربة نووية ضد دمشق والقاهرة.

فوجئ الوزراء بهذا الطرح وساد الصمت والذهول قاعة الاجتماع، وهنا اعتبرت مائير هذا الصمت تأييدا لقرارها. وبالفعل أصدرت التعليمات إلى المؤسسة العسكرية باتخاذ التحضيرات والتجهيزات لتنفيذ قرارها. لقد كان ابرز قادة إسرائيل وهو بن غوريون يتحدث عن غولدا مائير ويقول أنها الرجل الوحيد في الحكومة الإسرائيلية.



وحسب ما تم نشره لاحقا، فإن المخابرات السوفيتية وعن طريق عملائها ووكلائها علمت بالقرار الإسرائيلي الخطير، فبادرت فورا بالطلب من اثنين من علماء الذرة السوفيت وهما الأكاديمي خارتينوف والأكاديمي زيلدوفيج بتوجيه نداء مستعجل للرئيس الأمريكي يشار فيه للقرار الإسرائيلي الخطر، والذي يعني عمليا الانتحار ونشوب حرب نووية عالمية،

وأكد الجانب السوفيتي انطلاقا من علاقات الصداقة والتعاون وتنفيذا للاتفاقات العسكرية مع كل من مصر وسوريا، فإنه سيكون مضطرا للتدخل بكل إمكانياته النووية الهائلة لإحباط مخططات إسرائيل، وقد تباطأت الولايات المتحدة في الرد على النداء السوفيتي مما اضطر السوفيت وحسب تصريح أيجور أنا مانينكو الكاتب والباحث والعقيد في القوات الخاصة والمخابرات السوفيتية، إلى اتخاذ قرار فوري وسريع لردع الخطر الإسرائيلي. عندها تم استدعاء نائب قائد القوات الجوية الهجومية العقيد ميشفيس وتسليمه مطروفا مغلقا يحوي تعليمات خاصة وسرية وطلب منه عدم فتحه حين إقلاع طائرته المقاتلة. كان الأمر ينص على أن يتوجه العقيد بطائرته الحربية

إلى إسرائيل، ويخلق فوق سماء تل أبيب لفترة محددة على أن تتعرف عليه قيادة القوات المسلحة الإسرائيلية. توجه الطيار بطائرة ميغ ٢٥ ب وهي كانت أحدث طائرة في سلاح الجو السوفيتي، إلى هناك وحلق عاليا في سماء إسرائيل.



طائرة ميغ 25

رصدت الدفاعات الجوية الإسرائيلية شيئاً غريباً يلمع في السماء، في البداية أعتقد الإسرائيليون بأن ذلك ممكن أن يكون مقاتلة عربية، ولكن سرعان ما تم التخلي هذه المعلومة بسبب عدم امتلاك العرب لمثل تلك الطائرات التي تستطيع التحليق بمثل هذا الارتفاع الشاهق. انطلقت طائرة ميراج وتبعته طائرة فانتوم لملاحقة الجسم الغريب الذي يتحرك فوق تل أبيب، وأخذتا تطلقان عليه أحدث الصواريخ المتوفرة حينذاك لسلاح الجو الإسرائيلي، ولكن دون جدوى، في حين بقيت الطائرة السوفيتية تتجول في سماء العاصمة الإسرائيلية ومن ثم عادت أدراجها إلى قاعدتها في الاتحاد السوفيتي. عندها أدركت إسرائيل فوراً الرسالة من تحليق الطائرة السوفيتية، والتي تعني بأن الاتحاد السوفيتي لن يقف مكتوف الأيدي تجاه أي هجوم نووي تشنه إسرائيل ضد أصدقائه في مصر وسوريا، وإن خطوة القيادة السوفيتية تلك كانت إنذاراً حقيقياً للقيادة الإسرائيلية وحلفائها، ولردعها عن قرارها العدواني الخطير. عند اكتمال ووضوح ذلك المشهد لدى القيادة الإسرائيلية، بادرت إسرائيل بالطلب من الولايات المتحدة الأمريكية تزويدها بأحدث الطائرات والدبابات والمدركات والأسلحة الثقيلة

لوقف التوغل العسكري السوري والمصري. وفعلا قامت الإدارة الأمريكية بإنشاء جسر جوي قدمت من خلاله لإسرائيل جميع ما طلبته القيادة السياسية والعسكرية.

لقد استطاع الاتحاد السوفيتي إحباط المخطط الإسرائيلي الخطير والذاهب لتوجيه ضربة نووية للعاصمتين العربيتين دمشق والقاهرة.

بعد تلك العملية منح الطيار السوفيتي الذي قاد الطائرة فوق تلك أبيب لقب بطل الاتحاد السوفيتي لشجاعته وقدرته على تنفيذ تلك المهمة الخطيرة والحساسة، والتي كانت لها نتائج ايجابية في إيقاف تهور وعملية خطيرة كانت سوف تؤدي لحرب عالمية جديدة وتدمير كامل للمنطقة.

(٥)

بعد ٦٢ عاماً تتكشف الحقائق

حفلت أحداث الموصل وبالذات حركة العقيد عبد الوهاب الشواف بالكثير من الوقائع غير المحسومة بل المغيبة عمداً، وفي مقدمتها التلفيق والكذب والتدليس الذي شارك في تديججه وإعدادده والترويج له قوى الظلام الكارهة لثورة الرابع عشر من تموز وقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم والقوى الوطنية المدافعة عن الجمهورية وقتذاك. وبمرور الوقت فإن التاريخ لا يعاف تلك الأكاذيب لتكون مثلما أراد لها أعداء الحقيقة والضمير الحي، لتمرر ويتقبلها الناس على علاتها. فنجد الحق والتاريخ ذاته ولو بعد حين، يعيدان ويمرران مجساتهما عليها ليكشفوا عوراتها وخستها ونفاقها ويعري وقائعها وشخصها.

فبعد أكثر من ٦٢ عاماً يتم الآن كشف إحدى حقائق تلك الوقائع أثناء أحداث مؤامرة الشواف وتظهر حادثة الفتاة الموصلية حفصة العمري، التي قتلت على يد الجنود المعارضين لحركة العقيد عبد الوهاب الشواف، وتظهر الحقيقة التي دائماً ما أكدنا وأشرنا إليها حتى في مقابلتنا مع الرئيس أحمد حسن البكر عام (١٩٧٤)، بأن تلك الفتاة لم يجر سحلها في شوارع الموصل وتعليقها على أعمدة الكهرباء مثلما لفق في الإعلام، بل تم دفنها في مقبرة من قبل شخص معروف في المدينة واسمه عبد الحق الكحلة. وكانت القوى المعادية لثورة تموز قد نظمت حملات إعلامية في الإذاعة والتلفزيون ووسائل الأخرى، أكدت فيها كذباً وتصييداً وإثارة للأحقاد والكرامية بأن حفصة العمري قتلت بأيدي المقاومة الشعبية وتم سحلها في شوارع المدينة وتعليقها على عامود للكهرباء. وقد قاد المذيع والمهرج المصري أحمد سعيد في إذاعة صوت العرب من القاهرة حملة شعواء ضد حكومة ثورة الرابع عشر من تموز

والمقاومة الشعبية وقادتها في الموصل مؤكداً «رواية!» قتل حفصة العمري وسحلها وتعليقها.. ورغم النفي المتكرر من جانب القوى الوطنية والمقاومة الشعبية للأكاذيب والتلفيقات، فإن خصومهم تبادوا كذلك وتم نشر صور تبين رجال معلقين على أعمدة النور وسط مدينة الموصل.

ورغم أننا قمنا بنشاطات كثيرة من اجل تكذيب وتفنيد هذا المزاعم والتلفيقات إلا أن القوى المعادية لثورة ١٤ تموز واصلت وتواصل الإصرار على تمرير الكذبة للتأكيد على صحة افتراءاتها. ولكوني أحد قادة المقاومة لحركة الشواف، أورد وأعيد هنا ما كنت قد أكدت عليه في أحاديثي وتصريحاتي الصحفية وفي كتابي الصادر في بغداد عام ٢٠١٨ بعنوان «محطات من حياتي». وأسجل هنا مرة أخرى الوقائع الحقيقة لما حدث. ففي يوم سحق المؤامرة اتصل بقيادتنا شخص من مديرية شرطة الموصل، وتحدث معه عبد الرحمن القصاب، عندها أخبرني القصاب بضرورة الإسراع إلى المنطقة القريبة من سجن الموصل وأهمية منع أية محاولات للتنكيل بجثث المتآمرين. وعند وصولي إلى منطقة الحادث شاهدت جثة حفصة العمري مرمية أمام بيتها.. وقد قال لي بعض المقاومين أنهم عارضوا أخذ الجثة من قبل بعض الرجال. عندها طلبت منهم نقل الجثة إلى المستشفى، وبالفعل تم وضعها في إحدى السيارات وتم نقلتها إلى المستشفى. كما جاءت سيارات إسعاف ونقلت جثث متآمرين آخرين من بينها جثة والد حفصة، علي العمري.

وحقيقة ما حصل وجرى أن ضباطاً وجنوداً من الأمن المواليين للمتآمر العقيد الشواف. وبعد أن تأكدوا من فشل المؤامرة، هربوا من معسكر الغزلاني فلاحقتهم مجموعات من جنود كتبية الهندسة المواليين للجمهورية. عندها قام علي العمري وابنته حفصة بفتح باب قصرهم واستقبلوا الهاربين الذين اخذوا بدورهم وبعد دخولهم الدار باطلاق النار بغزارة على الطرف الآخر من الرافضين لحركة الشواف.. وإثر ذلك

القتال تم قتل المعتصمين في القصر ومن ضمنهم حفصة ووالدها.

مرة أخرى نؤكد بان الصور التي أظهرت بعض أشخاص معلقين على أعمدة الكهرباء باعتبارهم من المتآمرين وأعدائهم، والذين أكد الملفقون بأكاذيبهم ويؤكدون بشكل مستمر كذباً بان هذه الصور التقطت في مدينة الموصل، وهي لأنصار الشواف الذين تم قتلهم خلال تبادل إطلاق الرصاص مع المقاومة الشعبية. ولكن حقيقة هذه الصور، فإن جثث المعلقين على أعمدة الكهرباء لم تكن جثث متآمرين عراقيين من أتباع عبد الوهاب الشواف، بل كانت الصور لأبطال جزائريين قتلوا على أيدي المستعمر الفرنسي ولجأت قوات الاحتلال الفرنسي إلى إقامة المشانق وتعليق جثثهم على وفق ما جاء في الصحافة الفرنسية والعالمية حينذاك، وقد استغلت القوى المتآمرة ووسائل الإعلام المناوئة للجمهورية وبالذات إذاعة صوت العرب من القاهرة هذه الصور لتلصق فعلها برجال المقاومة الذين أبطلوا مؤامرة الشواف وقضوا عليه. وقد بينت ذلك التلفيق والتشويه في الكثير من المرات، ورغم ذلك فإن أنصار ومؤيدي الشواف لا زالوا يصرون على إن هذه الصور التقطت في الموصل.

الأكاذيب والتلفيقات لا بد لها أن تنكشف، فحبل الكذب قصير، ولا بد من أن تظهر الحقائق. وهذا ما حدث وسوف يحدث دائماً. ففي مناسبة مرور ٦٢ عاماً على ذكرى مؤامرة الشواف، نشر المؤرخ الدكتور إبراهيم خليل العلاف وهو أحد المؤرخين لتاريخ الموصل، وعلى موقعه في « الفيس بوك ». ولذا ففي مجال ذكر قصة الفتاة الموصلية حفصة العمري، كشف ولأول مرة مؤكداً أن جثة حفصة العمري لم يجر سحلها بل أن أحد أبناء الموصل واسمه عبد الحق الكحلة قام بدفنها بعد أن أخذ الجثة من المستشفى. وهكذا ورغم محاولات تزوير الحقائق وتشويه وقائع التاريخ وتبرير الأكاذيب، فالحق يظهر ناصعاً ويهزم الباطل الذي ادعى كذباً تعليق جثة حفصة العمري.

(٦)

في ألمانيا الديمقراطية

بعد مغادرتي اليمن قدمت إلى ألمانيا الديمقراطية وكنت أحمل جوازاً يمنياً حصلت عليه من الحكومة اليمنية بعد أن عملت هناك مستشاراً للسيد عبد الفتاح إسماعيل، وبتوصية منه عملت ملحقاً صحفياً في السفارة اليمنية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية وفي نفس الوقت أعمل مراسلاً لصحيفة ١٤ أكتوبر. وأستمر عملي لفترة ليست قصيرة، ولكن بعد انتهاء الصراع اليمني بين الشطر الشمالي والجنوبي واندماجهما بدولة واحدة ليصبح علي عبد الله صالح رئيساً لها. بعد مضي فترة من الزمن استدعاني السفير اليمني ومعي طارق عيسى طه وهو عراقي أيضاً كان يعمل مثلي في السفارة اليمنية، وأخبرنا بفصلنا من العمل بعد ورود أمر رئاسي صادر من رئاسة الجمهورية بتوقيع الرئيس علي عبد الله صالح نفسه مع توصيف السبب لذلك، كوننا من الشيوعيين المعادين لنظام البعث العراقي.

كان سفير اليمن في ألمانيا الديمقراطية، رجلاً طيباً وكرماً لذا قال لنا أن علينا أن نستعجل الأمر لإيجاد مخرج لوضعنا بعد قرار الفصل، وذلك بالحصول على عمل بأسرع وقت ممكن وخلال هذه الفترة نستطيع البقاء في السكن المخصص للسفارة ونستخدم سيارتنا الخاصة التي تحمل علامة سفارة اليمن.

فكرت أن أجد مخرجاً لما وقعنا فيه لذا قررت كتابة رسالة إلى مكتب السيد أريش هونيكر الأمين العام للحزب الاشتراكي الألماني الموحد ورئيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية، أشرح فيها وضعي الحالي وأطلب منحي الإقامة في ألمانيا وبينت الأسباب التي تمنع عودتي لبلدي العراق ومنها كوني محكوم سابقاً بالإعدام، كتبت الرسالة باللغة الألمانية وذهبت حيث مقر الرئاسة. دخلت طالبا الوصول إلى سكرتارية

مكتب السيد إريش هونيكر رئيس الدولة والأمين العام لحزب الوحدة الاشتراكية، فسألوني في الاستعلامات إن كان عندي موعدا لمثل هذا فأجبتهم بنعم، عندها اتصلوا بمكتب السكرتير الذي رد عليهم نافيا وجود مثل هذا الموعد ولكنه سأل عمن يكون هذا الشخص، فأخبره رجل الاستعلامات بأنه شخص يحمل هوية صادرة من وزارة الخارجية الألمانية وهو موظف في سفارة الجمهورية العربية اليمنية، عندها طلب سكرتير السيد هونيكر أحضاري إليه، فرافقني شخص حتى الطابق السابع حيث مكتب السكرتير. أخذ السكرتير يسألني عن سبب طلبي ورغبتني مقابلة السيد هونيكر، ولكنه فاجأني القول عندما ذكر بأنهم يعرفوني جيدا ويعلمون طبيعة عملي سابقا وحاليا وكوني عراقي الجنسية ولست يمينيا، وسبق أن صدر بحقي حكم الإعدام في بلدي، وأني شيوعي معارض لسلطة صدام حسين، وأضاف بأن عليك أن تدرك جيدا بأن جمهورية ألمانيا الديمقراطية على علاقة مميزة بجمهورية العراق، ونحن اليوم في قمة علاقاتنا الاقتصادية وبيننا تجارة واستثمارات تبلغ أكثر من أربعة مليارات ونصف مارك ألماني، لذا لا نستطيع أن نعكر صفو هذه العلاقة من أجلك وغيرك، نحن لسنا ضدك ولدينا معرفة كاملة بتحركاتكم منذ اليوم الأول الذي وصلت فيه ألمانيا، ومعاهدة الصداقة التي عقدناها مع العراق تجعلنا نحذر بشدة أن نتعامل بما يضر تلك المعاهدة، ومع هذا فنحن نمنحك فرصة معقولة أن تجد مخرج لوضعك الحالي وأي شيء ربما يساعدك في الحصول على الإقامة في ألمانيا مثل العمل في إحدى الشركات أو الزواج من امرأة ألمانية. ورغم وقوفي الطويل واستماعي صامتا لمحاضرة السكرتير، لم أتخل عن طلبي فبادرته القول طالبا مقابلة الرئيس هونيكر، فأبتسم وقال بأن لا حاجة لذلك فما شرحت لك يمثل رأيي ورأي الرئيس ورأي الدولة الألمانية ولن يختلف الأمر، وأعتقد بأن عليك الذهاب إلى وزارة الداخلية وبالذات مقابلة مدير عام الشؤون الإدارية في الوزارة وهي امرأة سوف تستقبلك بعد أن أتصل أنا بها، وهي من يقوم بشرح التفاصيل الخاصة بوضعك القانوني وربما تجد هناك ما ينفعك.

ذهبت إلى وزارة الداخلية فوجدت أسمى قد وضع في استعلامات الوزارة لذا توجهت مباشرة لمقابلة المدير العام للشؤون الإدارية. كانت امرأة كبيرة السن، يمكن القول عجوز هرمة، بعينين تقدحان حدة وذكاء. لم تترك للوقت أن يمر فبادرتني بالقول، أتعرف أن العراق وإيران يخوضان حرباً ضروس؟ وإن وطنك يتعرض للإيذاء، فأجبتها نعم أعرف ذلك، فقالت إذا لم لا تذهب للدفاع عن وطنك، وتقاتل أعداءه بدلاً من وجودك هنا، فقلت لها بأني محكوم بالإعدام في بلدي ومعارض للسلطة لهذا لا يمكنني الذهاب إلى هناك، فأجابتنى بنبرة حادة، لو أنك تجعل ولاؤك لصدام حسين وتتطوع للدفاع عن نظامه وأيضاً عن بلدك، فأنا على يقين بأن جميع أمور الممانعة سوف تزول ويتم العفو عنك وتعود مواطناً عراقياً. أيضاً أود أخبارك بأننا مثلما أخبرك سكرتير السيد رئيس الجمهورية أكرر عليك أيضاً بأننا لا نود الإساءة لعلاقتنا مع الجمهورية العراقية، لذا لا نستطيع أن نمنحك الإقامة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. فبادرتها القول ولكنني شيوعي مثلما تتبناه وتمثله سياسة حكومتكم، فقالت بأن لا علاقة لهذا بوضعنا ووضعك الحالي، فأنا موظفة منذ عهد حكومة هتلر وفي هذه الوزارة بالذات، وتدرجت بالوظيفة حتى مركزي الحالي، سقط النظام الهتلري وتعاقب على السلطة العديد من الحكومات والآن أنا أمثل حكومة السيد هونيكر، أنا أخدم النظام أي كان، ومهامي الوظيفية الإدارية تعني بالتحديد خدمتي لبلدي وأي سلطة تديره، ولا علاقة لي بالتغيرات السياسية بقدر علاقتي بالقوانين السارية.

(٧)

الوجهة الجديدة هي السويد

في عملي كمستشار صحفي للسفارة اليمنية أتيحت لي الكثير من الفرص لمقابلة والتعرف على شخصيات ووفود رسمية من مختلف دول العالم، وكنت غالبا ما أحضر الحفلات والفعاليات التي تقيمها الكثير من سفارات العالم الموجودة في برلين عاصمة ألمانيا الديمقراطية. كانت العديد من تلك السفارات تقيم احتفالا شبه دوري يتكرر بين فترة وأخرى حيث تؤجر قاعة كبيرة يجتمع فيها هؤلاء الدبلوماسيون وتسمى الاحتفالية في تلك القاعة بنادي الدبلوماسية. كنت أحرص على حضور تلك اللقاءات والتجمعات، وكان دافعي الأول لذلك، رغبتني الالتقاء بطاقم السفارة السوفيتية ومع من يتكلم اللغة الروسية الذين كانوا يتخذون جانبا من القاعة ويتناولون شراب الفودكا، وفي ذات الوقت يحرصون على التقرب من طواقم السفارات الأفريقية رغبة في الحصول على الكافيار الذي لا يرغب الأفارقة تناوله فيستحوذ عليه أعضاء السفارة السوفيتية ومن معهم، وفي ذلك المكان تحتلط الكثير من الأجناس في احتفالية جميلة بعيدة عن أجواء العمل المتعب.

في أحد المرات ونحن كنا نشكل حلقة وجميعنا يتحدث اللغة الروسية بعيدا عن السياسة وبجو من المرح أقترب منا رجل ودون مقدمات بدأ مشاركتنا الحديث باللغة الروسية وتناول الفودكا، فسألته عن مكان عمله فأخبرني بأنه يعمل في السفارة السويدية في برلين، وسألته عن طبيعة عمله بالسفارة فأجابني بأنه موظف هناك. ولاحظت بأنه عاشق لشراب الفودكا من خلال طريقة تناوله للكأس، ولهذا ما كان يترك تجمعنا خلال إقامة احتفالات النادي الدبلوماسي المتكررة فتراه يدخل وسطنا ويشاركنا الشراب والحديث بلغة روسية جيدة. ولكن لم تكن علاقتنا تتعدى التعارف

السطحي وبالا اسم الأول. الذي لم أعد أتذكره الآن. في أغلب تلك الاحتفالات من النادر الحديث في السياسة وأن تطرقنا لذلك فليس بالشكل الواسع الشامل والمهم، فالحفلة والشراب كان لها طبيعتها المبهجة التي تغلب على غير ذلك.

إثر انتهاء الحرب اليمنية بين الشمال والجنوب وسيطرة الشمال على جزئي اليمن وانتهاء مباحثات الوحدة باندماج الشطرين، وبوجود الرئيس علي عبد الله صالح فقد صدر بحقي وزميلي طارق عيسى طه الذي كان يعمل مترجماً في السفارة اليمنية، قرار فصل من الخدمة الوظيفية في سفارة اليمن وبعد فشل محاولاتي الحصول على مقابلة الرئيس الألماني لغرض نيل الإقامة في ألمانيا. وبعد أن شعرت بأن الأفق أمامي قد أغلق وما عادت لي حيلة غير الخروج من ألمانيا. بادرنى زميلي طارق عيسى بتذكيري بمعرفتي بذلك الموظف السويدي الذي كنت أقابله في الاحتفالات الدبلوماسية، وجدت في ذلك باب من الممكن أن يفضي إلى حل، وعسى ولعل يساعدني في تسهيل سفري إلى السويد وطلب الإقامة هناك.

ذهبت إلى السفارة السويدية ولم أكن أعرف عن الموظف ذاك غير اسمه الأول فسألت عنه الاستعلامات وطلبت مقابلته، فسألوني عن طبيعة علاقتي وكيف تعرفت بهذا الموظف، فأخبرتهم بأنني أعمل مستشاراً صحفياً في السفارة اليمنية في برلين. سألني موظف الاستعلامات عن مدى معرفتي بطبيعة عمل هذا الموظف الذي أطلب مقابلته، فأجبته بجهلي لطبيعة عمله، عند ذلك أتصل رجل الاستعلامات بالهاتف فجاءت امرأة بدينة راحت تهيل علي أسالتها عن كيفية تعرفي بهذا الموظف وفي أي مكان وتأريخ ولماذا تطلب مقابلته، فأخبرتها بأن هذا الموظف هو من وجه لي الدعوة لمقابلته. بعدها أخذتني إلى غرفتها وطلبت مني هويتي وأبقتني جالساً في غرفتها لتذهب ثم تعود بعد دقائق لتأخذني معها، وصلنا إلى غرفة نظرت إلى لوح جور بابها للدلالة وكان مدون عليه باللغة الألمانية (السفير). لم تطرق المرأة الباب وإنما دخلت مباشرة ودخلت

معها. كان يقف وسط الغرفة فرحب بي ترحيباً صديقاً وبابتسامة عريضة وأجلسني جوار المنضدة وجلس أمامي، بقينا لوحدنا فسألني ألم تكن تعرف موقعي الوظيفي، فأجبتته بأنك لم تفصح عن هذا طيلة لقاءاتنا ووجودك بيننا ولم أكن أعرف غير أسمك الأول. جلسنا نشرب القهوة فسألني عن حاجتي وما الذي يستطيع تقديمه لي من مساعدة، فأخبرته عن رغبتني الوصول إلى السويد بعد أن أخبرته بوضعي مع سفارة اليمن وكذلك مع طلبي للحصول على الإقامة في برلين حدثته كثيراً عن طبيعة عملي وعلاقاتي. فأخبرني باستطاعتي كتابة طلب لزيارة السويد وعند وصولك إلى هناك تستطيع الحصول على ما تريد وأردف بعدها بأنه لا يستطيع حسب التعليمات منحي فيزة تسهل سفري لكوني عراقي والفيزة حسب تعليمات الخارجية السويدية تحجب عن هؤلاء وأنت منهم. ولكنه وعدني بأنه سوف يرسل رسالة إلى السلطات السويدية لأخذ الرأي وسوف يخبرني بالجواب غدا وطلب مني رقم هاتف البيت والسفارة اليابانية، وبعدها نهض وودعني. في اليوم التالي أتصل بي وطلب حضوري إلى السفارة السويدية، فذهبت إلى هناك ليخبرني بأن السلطات السويدية قد ردت بشكل سلبي وبحسب اعتقادهم فأن العربي أو العراقي حين يزور السويد يجذب البقاء دون العودة إلى بلده، وفي النهاية قال لي السفير السويدي، أنه لا يعرف كيف يساعدني في حل مشكلتي، ولكن يستطيع تقديم يد المساعدة هناك، إن استطعت أنا بجهدني الشخصي الوصول إلى السويد، شكرته على حسن استقباله وخرجت مكتئباً.

في ذلك الوقت وكان عام ١٩٩١ تذكرت أن لي صديق أسمه أحمد الجبوري كنت قد قدمت له المساعدة حين أراد السفر إلى السويد، وهو فعلاً وصل إلى هناك ونال الإقامة الدائمة. اتصلت هاتفياً بأحمد الجبوري وأخبرته بما حصل وطلبت مساعدتي في الوصول إلى السويد، فطمأنني وبأن علي عدم الاهتمام فهو سوف يرسل لي فيزة وهو يعرف شخصاً سوف يرسله لمقابلتي وإعطائي الفيزة، وفعلاً بعد يومين أتصل بي ذلك الرجل وتقابلنا وأعطانني الفيزة وعلمني كيف ألصقها بجواز سفري وما عليك غير

إيجاد ختم لوضعه عليها وفعلاً وضعت عليها ختم غير واضح ولكنه يفي بالغرض. ذهبت إلى السفارة السويدية وقابلت السفير وعرضت عليه جوازي بالفيزا السويدية، فدهش قائلاً من أين حصلت عليها فهذه فيزا حقيقية وليست مزورة، سألته كيف تستطيع مساعدتي لو وصلت إلى هناك، فسألني عن الطريق الذي أسلكه للسفر إلى السويد فقلت له من المطار وذكرته بأني لازلت أحمل هوية الوظيفة الصحفية الصادرة من سفارة اليمن وأستطيع الخروج بها من ألمانيا، عندها قال السفير حين تصل السويد ما عليك غير إخبار السلطات التي سوف تقابلك للاستجواب بأن عليهم الاتصال بالسفير السويدي في برلين وهو يتحدثكم عني.

مع أحد الأصدقاء اليمانيون استطعنا رصد حركة الطائرات القادمة لمطار برلين والمغادرة إلى ستوكهولم، لكي أجد الخط المناسب للذهاب إلى هناك وحين وصولي علي أن أخبر السلطات السويدية بأني قادم من اليمن، ولذا علينا أن نجد أن هناك فعلاً طائرة برحلة من عدن إلى أديس أبابا ومن ثم برلين حتى ستوكهولم، وكانت الطائرة الأثيوبية تتوقف فعلاً في برلين لليلة كاملة لذا كان علي المبيت ليلة كاملة في المطار.

ذهبت لركوب الطائرة وحين عرضت جوازي على سلطة التفتيش في المطار فبادرني ضابط التفتيش قائلاً من أين حصلت على هذه الفيزا فأخبرته بحصولي عليها من السفارة السويدية، سلمني الجواز وورقة عادية، ابتعدت قليلاً ثم أدركت بأن الرجل لم يسلمني كارت صعود الطائرة فعدت إليه وقلت له لم تعطني كارت صعود الطائرة، في تلك اللحظة ضغط الرجل على نقطة أمامه فحضر ضابط آخر، سألتني عن حاجتي وما حدث فأخبرته بموضوع الكارت، فسألني هل تعرف بأن الفيزا الموجودة في جوازك مزورة فأنكرت ذلك وأني حصلت عليها من السفارة السويدية وبشكل رسمي، فأجابني بأنها مزورة ولا يمكنك ركوب الطائرة، فقلت له لو نفترض أنها مزورة، فسوف أعتقل في السويد حين يكتشفوها وتلك مهمتهم ولذا لا أجد من

سبب هنا المنعي من السفر وأنا ذاهب في مهمة صحفية إلى هناك وليس لشيء آخر. والسويديون هم من يدافع عن أنفسهم وأعتقد أن مهمتكم تتعلق بالجانب الألماني وليس السويدي. بعد دقائق من الصمت طلب الضابط من رجل التفتيش كارت ركوب الطائرة وسلمني إياه.

صعدت الطائرة متوجها إلى ستوكهولم، وبعد دخولي المطار توجهت إلى صالة الانتظار ولم أذهب للتفتيش، جلست لأكثر من ساعتين وتناولت القهوة وأنا أنتظر عودة الطائرة الألمانية وبعد أن عرفت مغادرتها ذهبت لتقديم نفسي إلى السلطات في المطار حيث استقبلتني امرأة سألتني عن الجهة التي قدمت منها وساعة وصولي وعلى أية طائرة، فأخبرتها بأني متعب جدا ومرهق ولا أتذكر أي شيء وقد كنت نائما في صالة الانتظار فطلبت جواز سفري فقدمته لها، وكنت في الطائرة قد مزقت كارت الصعود وابتلعت ورقه، سألتني عن خط الطيران فأخبرتها كوني جئت من عدن إلى ألمانيا ومن ثم إلى هنا، عندها طلبت مني الانتظار في مكاني لبضع دقائق انتظرت لحين جاءني رجل طلب مني مصاحبته، وسألني عن سبب قدومي إلى السويد فأخبرته رغبتني بالإقامة لسوء وضعي في عدن مما اضطرني للمغادرة. بعد أن نظر في جواز سفري قال أن هذه الفيزة مزورة، فأجبت به أنني كنت مضطرا لاتخاذ هذا الإجراء بسبب أوضاعي المربكة، وشرحت له وضعي ووظائفي في أماكن متعددة، وفي أحد المرات كنت في زيارة إلى ألمانيا وهناك تعرفت على سفير السويد وهو يعرفني جيدا وتستطيعون الاتصال به ليخبركم بالتفصيل عني. بعد تلك المقابلة أرسلت إلى معسكر اللجوء في منطقة أوبلاندس فيسبي (كارلسلوند) حيث بت هناك ليلتي، في الصباح الباكر من اليوم التالي أخذوني لأسكن في فندق وسط العاصمة السويدية، فسألت عن السبب في انتقالي إلى هناك، فأخبروني بأنهم اتصلوا بسفير السويد في برلين وقدم بدوره لهم معلومات كاملة عني لذا لا يمكنهم أبقائي في معسكر اللجوء. في الفندق جاءني بعد ساعات رجل ليجري معي التحقيق، فعرضت عليه جميع الأوراق الخاصة بسيرتي

والمتعلقة بالاعتقالات وحكم الإعدام والتي كنت أحتفظ ولا زلت بها وأحملها دائما معي، فأخذها جميعا وذهب ليصورها ثم أعادها لي. في يوم ٢١ يونيو من عام ١٩٩١ دخلت السويد وحصلت على الإقامة في يوم ١٢ يوليو منه.

طلبت من مسؤولي أن يساعدني للحصول على جواز أستطيع به الذهاب إلى ألمانيا فأخبرني بأن لا يحق لي ذلك سوى في حالة أن يرسل لي أحدا ما من معارفي في برلين يعلمني بأن أحد من أقاربي مريض جدا ويحتاج حضوري أو لأي سبب طارئ آخر، كان هذا الرأي تعاوننا ايجابيا جدا من المسؤول، لذا اتصلت بصديقتي للقيام بمهمة إرسال مثل هذه الرسالة، وفعلا أرسلتها لتخبرني فيها بمرض أبتني وضرورة مجيئي إلى برلين، عرضتها على المسؤول وأرفقتها بطلب إلى السلطات فزودوني بعد أسبوع بجواز سفر مؤقت سمح لي الخروج به والسفر إلى برلين.

وصلت برلين وزرت السفارة السويدية وقابلت السفير السويدي هناك وشكرته على ما قام به وبدوره أخبرني أنه أبلغ السلطات السويدية حين اتصلوا به بكل شيء عني وظيفتي وموقعي السياسي وغير ذلك، فشكرته على صنيع ما فعل رغم أنني اختلقت رواية أخرى وقدمتها للسلطات السويدية، ولكن مساعدته وأيضا أوراقتي التي كنت أحملها ساعدت كثيرا على منحي الإقامة.

أيضا كان سبب عودتي إلى برلين يتعلق بوعد حصلت عليه سابقا من معهد الاستشراق في ألمانيا بالعمل عندهم على أن أكون حاصلا على جواز نافذ، اعتقدت أن جوازي السويدي يفي بالغرض لذا قابلت مدير المعهد وعرضت عليه الجواز السويدي ففرح وقال لي أن هذا جيد وسوف يصدر أمر مباشرتي رأسا بعد أخذ الإجراءات الإدارية ولهذا أرسلني إلى مديرية الإدارة في المعهد، وهناك تحدثت معها وقدمت لها جوازي السويدي، نظرت نحوي بدهشة وقالت ولكن هذا ليس جوازا وإنما جواز سفر مؤقت (ريس دكومنت) وهو لا يعني أنك مواطن سويدي، ثم أخذت الجواز

وذهبنا إلى المدير حيث تحدثت معه حول الجواز والفرق بين المؤقت والدائم، عندها
اعتذر مدير المعهد مني لجهله بتلك الإجراءات ووعدني بالحصول على الوظيفة حين
أعود إليهم بعد حصولي على الإقامة الدائمة أو الجنسية في السويد. عدت إلى السويد
لأكمل حياتي فيها وأصبح مواطناً.

الفصل الخامس

شهادات

(١)

عن بعض العراقيين الذين مروا بموسكو



أ.د. ضياء نافع

بدأت بنشر هذه السلسلة من مقالاتي قبيل الذكرى السبعين لإقامة العلاقات العراقية - الروسية (ايلول / سبتمبر ١٩٤٤ - ايلول / سبتمبر ٢٠١٤)، الا انني استلمت الكثير من الرسائل التي أشارت الى ضرورة الاستمرار بهذه السلسلة (بغض النظر عن تلك المناسبة المحددة)، لأنها تؤرخ بشكل عام العلاقات العراقية - الروسية من وجهة نظر مبتكرة وفريدة، ولأن هناك العديد من الاشخاص الآخرين الذين يستحقون ان نكتب عنهم في اطار هذا الموضوع، وأنا ألتفق مع هذه الآراء فعلا، ولهذا فإنني قررت أن أقدم حلقات جديدة من هذه السلسلة، وهذه واحدة منها والتي ستكون مكرّسة للدكتور خليل عبد العزيز.

سبق لي ان ذكرت اسم الدكتور خليل عبد العزيز في حلقة سابقة من هذه السلسلة تحت رقم (٢)، عندما تحدثت عن كتاب سفير العراق الاسبق في موسكو صالح مهدي عماش والذي صدر في بغداد عام ١٩٧٢ بعنوان - (موسكو عاصمة الثلوج)، وأشارت هناك الى انه كان يعمل في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، وأود ان اضيف هنا انه كان اول عراقي عمل في هذا المعهد، وثاني أجنبي بعد الشاعر التركي

الكبير ناظم حكمت، ولا أعرف حتى الآن - حسب علمي المتواضع - عراقيا آخر عمل في هذا المعهد الاكاديمي العتيد.

لقد وصل خليل عبد العزيز الى موسكو في بداية الستينات من القرن الماضي، بعد أن أسهم - وبشكل واسع وفعل - في الاحداث المتشابكة والمعقدة في الموصل عام ١٩٥٩ والمرتبطة بحركة التمرد التي قام بها الشواف، وقد صدر ضده عدة أحكام بالإعدام آنذاك، وقام الحزب الشيوعي العراقي بترتيب اخراجه (او بالأحرى تهريبه) من العراق وارساله الى موسكو لإكمال دراسته الجامعية، وهكذا ظهر فجأة عراقي شاب بيننا في جامعة موسكو في بداية الستينات اسمه يوسف الياس، وكنا نسميه طبعاً (ابو يعقوب)، ولكن الاسرار - مع الاسف - في أوساط العراقيين لا تصمد طويلاً كما هو معروف، وهكذا كان العراقيون في جامعة موسكو - بعد فترة قصيرة - يتهامون فيما بينهم عندما يمر يوسف الياس امامهم قائلين - انه (خليل عبد العزيز) وليس (ابو يعقوب)...

درس (ابو يعقوب) بشكل مثابر وملتزم وجدي وناجح جداً، وحصل على شهادة الدكتوراه في الصحافة بعد دراسة دامت سنوات طويلة، وتم تعيينه عام ١٩٧١ في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، وكان رئيس هذا المعهد آنذاك الاكاديمي السوفيتي المعروف غفوروف، المستعرب الشهير، وأصبح خليل عبد العزيز مساعداً له في ما يخص شؤون الشرق العربي بحكم كونه عراقياً عربياً وحاصلاً على شهادة الدكتوراه من جامعة موسكو، وقد كان يحضر طبعاً كل اللقاءات، التي تحدث بين غفوروف والسفراء العرب والوفود العربية الرفيعة المستوى في المعهد، ومن أبرزها تلك التي حدثت بمناسبة الاحتفالات العالمية لمناسبة الذكرى الالفية للفارابي. لقد اقترحت ايران آنذاك ان تتبنى هذه الاحتفالية تحت عنوان - الفيلسوف الفارسي الفارابي، واقترح العراق ان يتبنى تلك الاحتفالية تحت عنوان - الفيلسوف العربي

الفارابي، أما الاتحاد السوفيتي فقد اقترح ان يكون الاحتفال تحت عنوان - فيلسوف الشرق الفارابي. كان السفير العراقي صالح مهدي عمّاش يتفاوض مع غفوروف باسم الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، وكان الاتحاد السوفيتي يميل الى عقد هذه الاحتفالية في بغداد لأسباب سياسية بالطبع ايام ايران زمن الشاه، وهكذا قرر معهد الاستشراق ان يرسل خليل عبد العزيز الى العراق للتفاوض حول التفاصيل باسم المعهد، اي باسم الاتحاد السوفيتي واقعياً، وقد حاول عمّاش ان يقنع خليل عبد العزيز بعدم الموافقة على قبول هذه المهمة والاعتذار عنها، ولكنه لم يستطع اقناعه بذلك، اذ أصرَّ المعهد على اقتراحه هذا بتنسيق دقيق ومحدد مع الجهات السوفيتية العليا بالطبع، وهكذا اضطر سفير العراق ان يفتح الجهات العراقية برأي الجانب السوفيتي حول ذلك، وقد وصل الموضوع طبعاً الى رئيس الجمهورية احمد حسن البكر، اذ ان الموافقة على ذلك المقترح كان يقتضي اولاً وقبل كل شيء الغاء احكام الاعداء الصادرة في العراق بحق خليل عبد العزيز عام ١٩٦٠، والاعتراف بان هذا المواطن العراقي يمثل الآن الاتحاد السوفيتي، ومن ثمّ يتمتع بجميع حقوق المواطن السوفيتي وحصانته امام المفاوضات العراقية في بغداد نفسها. استجاب العراق لتلك الشروط التي وضعها معهد الاستشراق السوفيتي، وحضر السفير العراقي عمّاش الى المعهد واخبرهم بذلك بصورة رسمية وارسل صورة من القرار الذي نشر في صحيفة الوقائع العراقية للأمر الرئاسي بإلغاء احكام الاعداء على خليل عبد العزيز، وتم اتخاذ جميع الإجراءات اللازمة في سفارة العراق بموسكو بشأن سفره رسمياً الى بغداد باسم الاتحاد السوفيتي، وهكذا عاد المواطن العراقي الدكتور خليل عبد العزيز الى بغداد (الذي تركها عام ١٩٦٠ بعد صدور الحكم بالإعدام ضده نتيجة مشاركته بأحداث الموصل عام ١٩٥٩) ليتفاوض مع رئيس الجمهورية العراقية أحمد حسن البكر باسم الاتحاد السوفيتي، وهو شيء حدث لأول مرة في تاريخ العراق - حسب علمنا المتواضع - والذي لم يتكرر حتى الآن في تاريخ العلاقات العراقية - الروسية. لقد سألت

الدكتور خليل عن ردود فعل احمد حسن البكر عندما استقبله في بغداد، فقال انه أشار في اللقاء الاول الى أحداث الموصل ومساهمتي بها وموقفي المضاد تجاه البعثيين، وقد اضطر الدكتور خليل طبعاً ان يدافع عن موقفه وذكر له بعض الارقام الرسمية حول الضحايا من الجانبين وقد كان الاجتماع متوتراً، اذ ان البكر أشار الى استغرابه (بقيامي بمهمة التفاوض باسم السوفييت وانا العراقي، فقلت له انني موظف في المعهد وأنفذ اوامره)، ولكن البكر لم يكرر هذا الحديث في اللقاءات الاخرى. لقد كانت المهمة محددة للدكتور خليل من قبل الاكاديمي غفوروف وهي - عدم الخوض مع البكر في مواضيع تخص مهرجان الفارابي، وانما طرح أسئلة سياسية تتعلق بمدى صدقية التعاون مع القوى الوطنية العراقية وبالذات مع الشيوعيين والاكرد، أما في ما يخص مهرجان الفارابي، فيجب عليه طرحها تفصيلاً مع وزير الثقافة والاعلام طارق عزيز، وقد تم عقد أربعة اجتماعات مع البكر على مدى اربع ساعات كل يوم، لقد سألت الدكتور خليل عن انطباعاته حول البكر، فقال انه كان صريحاً، وانه لم يكن مخلصاً في التعاون مع الشيوعيين وتلبية الحقوق القومية للأكراد وانه كان يطمح في بسط نفوذ حزب البعث في العالم العربي.

هناك جوانب اخرى كثيرة في حديثي مع الدكتور خليل عبد العزيز (الذي يسكن الان في السويد) حول عمله في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، منها اللقاء مع هيكل - رئيس تحرير جريدة الأهرام المصرية آنذاك، وسفره الى القاهرة واللقاءات مع الشخصيات المصرية الرسمية مثل جمال عبد الناصر وبقية أعضاء القيادة المصرية، ومنها متابعة رسائل الدكتوراه لبعض الشخصيات العربية في موسكو مثل رفعت الاسد ومكرم الطالباني وفاضل البراك وغيرهم وعلاقة ذلك بالسياسة السوفيتية، بشأن اعداد الكوادر الوطنية في العالم العربي.. واتمنى ان تسنح لي الفرصة للحديث عن ذلك لاحقاً...

وسنحت لي الفرصة أن ألتقي الدكتور خليل عبد العزيز الذي كتبت عنه في الحلقة (١٣) من هذه السلسلة. تحدثنا في البداية عن رأيه في ما كتبت عنه في تلك الحلقة، فقال لي ان المقالة كانت جميلة وموضوعية رغم قصرها وعنوانها العام وغير المحدد، قلت له ان المقالات الطويلة مملة في زماننا الصاحب هذا، وقارئ تلك المقالات الطويلة يتابعها (بين سطر و سطر!)، اما حكاية العنوان فقد اسثنت فقط (دميتري عبد الحسين) وأشارت الى سبب ذلك في مقدمة تلك المقالة، اذ اني اكتب هذه السلسلة عن العلاقات العراقية - الروسية بغض النظر عن الاشخاص، بالرغم من أني لاحظت أن بعض الذين أعادوا نشر تلك المقالات (ومنها المقالة عن د. خليل عبد العزيز بالذات) أضافوا الى عناوينها فعلا أسماء أبطالها (انظر مدونة الدكتور ابراهيم العلاف مثلا والذي ذكر اسم د. خليل عبد العزيز في عنوانها فعلا) وهم احرار طبعاً في ما يكتبون ويفعلون بلا شك، وانا لا اعترض على ذلك بتاتا، ولكن الدكتور خليل لم يتفق معي بالنسبة لهذا الموضوع، (ولكن ماذا افعل مع بعض الحلقات من تلك السلسلة والتي تتناول عدة اشخاص في آن واحد يا اخي د. خليل؟؟؟؟).

سألته ان كان يريد ان يصحح او يضيف الى ما سبق لي ان نشرته في مقالاتي ضمن هذه السلسلة حول الاشخاص الذين يعرفهم، فقال انه يتابع بحرص و بدقة كل تلك المقالات، وان فلسفتها ومضمونها بشكل عام صحيح ومحدد وموضوعي ويمتلك اهمية متميزة جدا بالنسبة لموضوع العلاقات العراقية - الروسية وتاريخها الانساني رغم بعض النقاط هنا وهناك والتي لا يتفق معي حولها، وجرّنا الحديث بشأن تلك العلاقات حول اسمين محددين هما صالح مهدي عماش (الحلقة ٢) مؤلف كتاب (موسكو عاصمة الثلوج)، وفاضل البراك وأطروحته، والتي حصل بموجبها على شهادة الدكتوراه من معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية آنذاك.

توقف الدكتور خليل طويلا عند اللقاء الاول لعماش مع الاكاديمي غفوروف -

مدير معهد الاستشراق، والذي استقبله كـ (صديق وليس كسفير) عندما وصل عماش الى موسكو قبل تقديم اوراق اعتماده الى الحكومة السوفيتية، وكيف تكلم عماش عن موقفه المضاد تجاه صدام حسين، وانه (اي عماش) مع رفاقه العسكريين (بما فيهم احمد حسن البكر رئيس الجمهورية) لا يمكن ان يخضعوا له. لقد أخبره غفوروف في ذلك اللقاء أنه الآن سفير العراق في موسكو، و(نصحه!) بعدم الكلام هكذا، وان ذلك خطر عليه، ولكن عماش أجاب انه لا يخاف من صدام حسين ولا يخشاه، وانه سيستمر بإعلان ذلك الموقف ضده. لقد تبين في ما بعد، ان صدام حسين دعا عماش الى حفل عشاء في مطعم خاص ببغداد، وفي نهاية تلك الدعوة أخبره بقرار القيادة بنقله من منصبه (كان عماش نائبا لرئيس الجمهورية عندئذ) الى منصب سفير العراق بموسكو، وانه يجب ان يلتحق بمنصبه الجديد الآن وفورا، وان طائرة خاصة تنتظره غدا ولا اعتراض على ذلك مطلقا، وهذا ما تمّ فعلا.

تحدث د. خليل عن موقف معهد الاستشراق تجاه عماش أثناء عمله سفيراً للعراق في موسكو، وكيف جاء بكتابه - (موسكو عاصمة الثلوج) الى المعهد، وكيف تم تعديله من قبلهم، وكيف عمل هو نفسه (اي د. خليل) في هذا المجال مع الآخرين من موظفي معهد الاستشراق لتعديله، وقال لي إن عماش رجع الى مصادر انكليزية كثيرة واعتمد عليها عندما قام بتأليف الكتاب المذكور، الا ان د. خليل يستطيع ان يقول ان ٩٠ ٪ من ذلك الكتاب قد تم تغييره في نهاية المطاف، وان عماش كان موافقا من اجل ان يظهر الكتاب ليس الا، وان هذا ما حدث فعلا، وان عماش اراد ان يطبعه مرة اخرى عندما كان طارق عزيز وزيرا للإعلام والثقافة، الا أن موقف صدام تجاه الكتاب الذي أعدّه دعاية للاتحاد السوفيتي حال دون ذلك، كما ذكرنا في الحلقة (٢) من سلسلة مقالاتنا تلك.

استطرد د. خليل بحديثه عن عماش وصراعه مع فاضل البراك في السفارة العراقية

بموسكو آنذاك (كان البراك مسؤول حزب البعث في موسكو ومنصبه الرسمي هو معاون الملحق العسكري). لقد اتصل رئيس الجمهورية احمد حسن البكر هاتفيا بعماش مرة وقال له انه صرح بكذا وكيت، وانه ينصحه ان يكون حذرا من تلك الاقاويل. تذكر عماش انه قال تلك الجملة فعلا في مكتبه الشخصي، وبحث (بعد انتهاء الدوام) في كل زوايا مكتبه عن اي دليل للتسجيل او التنصت له، ولم يستطع الوصول الى اي شيء، وتجنب التعاون مع المخابرات العراقية في السفارة طبعا حول هذا الموضوع لأنها ترتبط بالبراك نفسه، وسافر الى المانيا، وهناك اتصل بأحد خبراء التنصت، وجلبه معه الى موسكو، واستطاع هذا الخبير الالماني ان يجد في مكتب عماش سماعة صغيرة جدا جدا مركبة بشكل فني دقيق في اطار صورة رئيس الجمهورية احمد حسن البكر المعلقة في مكتب السفير عماش، وان هذه السماعة كانت تنقل مباشرة الى مكتب البراك كل ما يجري ويقال في مكتب السفير عماش.

حدثني د. خليل بعدئذ عن قناعته التامة في ان موت عماش في هلسنكي (بعد نقله الى هناك) لم يكن طبيعيا ابدا، وانه على الاغلب مات مسموما.

اما بشأن فاضل البراك نفسه، فقال عنه د. خليل بانه حاذق جدا بحياكة خيوط التآمر والدسائس وبسرية عالية وحذر شديد، ويعتبر نفسه جديرا ان يشغل أعلى المناصب في العراق.

سألته عن اطروحة البراك وحصوله على شهادة الدكتوراه من معهد الاستشراق، فقال د. خليل ان احمد حسن البكر طلب من الاتحاد السوفيتي اثناء زيارته له ان يمنحوا للبعثيين امكانية القبول في الدراسات العليا والحصول على شهادات الدكتوراه اسوة بالشيوعيين لان اعداد البعثيين الحاصلين على الدكتوراه قليلة جدا جدا، وذكر اسم البراك من ضمن هؤلاء، وقد وافق الاتحاد السوفيتي آنذاك على مقترح البكر، وهكذا اتصل البراك بمعهد الاستشراق واقترح موضوع اطروحته ووافق المعهد على

ذلك واصبح الاستاذ كوتلوف (مؤلف كتاب ثورة العشرين في العراق) مشرفا علميا، وكان د. خليل يسهم اداريا في الاعداد للأطروحة وتنسيق العلاقة بين البراك ومعهد الاستشراق والمشراف العلمي.. الخ المتطلبات الخاصة بالأطروحة، وهكذا أخبره البراك ان الفصل الاول من الاطروحة كان جاهزا لديه، وبعد فترة قصيرة نسبيا جاء بالفصل الثاني، والذي وجد فيه الدكتور خليل رسالة قصيرة من قبل الدكتور الياس فرح الى البراك يقول فيها، انه يرسل الفصل الثاني له وسيتبعها بالفصول الاخرى، اي انه (الدكتور الياس فرح) هو الذي كان يكتب هذه الاطروحة ويرسلها الى البراك. وهكذا استطاع البراك ان ينهي اطروحته تلك وبهذه الطريقة (العلمية!!!!!!)، ووجد المشراف العلمي ان هذه الاطروحة مكتوبة من وجهة نظر تختلف عن وجهة النظر السوفيتية، فوافق البراك على اي اضافة من قبل المعهد على نص الاطروحة، وقد تمت اضافة الكثير جدا من التعديلات والمصادر السوفيتية على تلك الاطروحة كما يتطلب الوضع الايديولوجي في الاتحاد السوفيتي آنذاك. وهكذا حصل فاضل البراك على شهادة الدكتوراه بفترة قياسية جدا جدا، وكان ممتنا بالطبع للمعهد على ذلك، وللدكتور خليل شخصا لدرجة إنه أراد أن يهدي له سيارة كاديلاك (وكان ذلك بإمكانه طبعا عندئذ)، وقد رفض الدكتور خليل رسميا هذه الهدية وامام مسؤولي المعهد مباشرة. وعندما عاد البراك الى بغداد نشر أطروحته بالعربية هناك وحذف كل تلك الاضافات والتعديلات التي وافق نفسه عليها في حينه، وأشاد الباحثون العرب بهذا الكتاب ومدحوه كثيرا وكتبوا اكثر من اربعين مقالة وبحثا عن تلك الاطروحة (كان البراك يشغل منصبه الامني المعروف)، وقد كان معهد الاستشراق يتابع ذلك طبعا ولكن لم يحاول ان يصحح او حتى ان يعلق بشكل او بآخر على ذلك لحساسية هذا الموضوع عراقيا وعربيا وعالميا.

(٢)

قراءة في كتاب - محطات من حياتي

أ.د. ضياء نافع

هذا كتاب مهم جدا في تاريخ العراق المعاصر، اذ انه ليس فقط (محطات!) في حياة مؤلفه د. خليل عبد العزيز، بل هو (حصيلة!) كل حياته في الواقع، ولهذا فانه كتاب صعب، ولا يمكن للقارئ ان (يلتهمه!!) رأسا، كما يحدث مع بعض الكتب الشيقة الاخرى، اذ ان الاحداث التي يتناولها د. خليل عبد العزيز تقتضي من القارئ ان يتأملها ويستوعبها بهدوء وتفكير عميق، خصوصا وانني لم أجد الفهرس (لا في بداية الكتاب ولا في نهايته) في كتاب يمثل هذا الحجم، اذ انه يقع في (٣٢٤) صفحة من القطع الكبير، ويتناول احداثا مهمة لاكثر من نصف قرن منذ خمسينات القرن العشرين ولحد الان، احداثا ساهم فيها د. خليل شخصيا، وفي هذه النقطة بالذات تكمن اهمية هذا الكتاب وقيمته التاريخية الكبيرة، اذ ان هذه الاحداث غير معروفة باكملها لنا بتاتا، ولكنها تمتلك اهمية في مسيرة تاريخنا المعاصر، او كما كتب الدكتور كاظم حبيب في مقدمته العميقة والدقيقة للكتاب - (ان هذا الكتاب شهادة حيّة وصادقة عن احداث مرّ بها الشعب العراقي وأثرت ايجابا او سلبا على حياته الراهنة ومستقبل اجياله القادمة، انه اغناء للمكتبة العربية.). ولا تهدف القراءة التي نقدمها للقارئ هنا الى تلخيص هذا الكتاب وعرض مضمونه العام، خصوصا وان بعض الباحثين قدّموا هذه الخلاصة، واود ان اشير بالذات الى ذلك العرض الموضوعي المركز والذكي، الذي قدّمه الاستاذ جمال العتاي (انظر مقالته بعنوان (خليل عبد العزيز يبوّح بالمخفي..ولكن) المنشورة في جريدة الصباح الجديد / بغداد بتاريخ ٢٦ / ٦ / ٢٠١٨).

ولهذا، فانني ساكتفي بالتوقف عند نقطتين ليس الا في هذا الكتاب، والتي أعتبرهما

طريفتين و مهمتين وجديديتين، على الرغم من انهما صغيرتين في مسيرة تاريخنا المعاصر .
 النقطة الاولى تتعلق بالاتصالات بين الحزب الشيوعي السوفيتي والاحزاب الشيوعية العربية، فمن كان يتصور مثلاً، ان مسؤول الاتصالات بين الحزب الشيوعي السوفيتي والاحزاب الشيوعية العربية، والذي يسميه د. خليل عبد العزيز بالاسم يتصرف بهذا الاسلوب مع ممثلي الاحزاب الشيوعية العربية في موسكو - قلب الدولة السوفيتية والمعسكر الاشتراكي!!!، ولنقرأ معا هذا المقطع من ص ١٩٢ - ١٩٣ - (..وفي الكثير من الاوقات اهمل السوفييت علاقتهم هذه، ولهذا وضعوا موظفا صغيرا في جهاز مخابراتهم ليس له منصب حزبي مؤثر ليكون وسيطا بين الاحزاب الشيوعية العربية والحزب في الاتحاد السوفيتي، ولم يكن ليمر طلب بمقابلة او اتصال او التماس وحتى حاجة بعينها، الا من خلال هذا الموظف المدعو نيجكين الذي عمل في فترة ما بعد ثورة الرابع عشر من تموز العراقية ملحقا ثقافيا في السفارة السوفيتية في بغداد، وكان هذا الموظف يبتز اعضاء الاحزاب الشيوعية العربية ولا يوافق على ايصال طلباتهم الى القيادة السوفيتية دون ان تقدم له رشاي معينة، دائما ما كان يحددها هو وليس هم.)، ولنتصور انطباع مندوبي الاحزاب الشيوعية العربية وهم يتعاملون بهذه الطريقة مع هذا ال (نيجكين)، كي يقابلوا مسؤولا في الحزب الشيوعي السوفيتي!!، ولكننا لم نقرأ سابقا اي شئ عن هذه الحالة، واننا (اصطدنا) بها في كتاب د. خليل عبد العزيز لاول مرة. والنقطة الثانية التي نريد التوقف عندها هنا تختلف عن روحية هذا الجو السياسي البحث، الا وهي موضوع الدراسة في الاتحاد السوفيتي وتاريخها، والتي لم نستطع لحد الان تقديمها كما يجب. لقد حاولنا تسجيل بعض جوانب هذا الموضوع في سلسلة مقالات بعنوان - (رابطة الطلبة العراقيين في الاتحاد السوفيتي) (٥ حلقات) وسلسلة اخرى بعنوان - (الترجمون العراقيون في الاتحاد السوفيتي) (٤ حلقات)، ثم حاولنا ان نقدم قائمة اولية باسماء المترجمين العراقيين عن الروسية (حلقتان)، وقد أشرنا في تلك القائمة الى اسم الياس البصري ضمن المترجمين العراقيين، واعترض البعض على

ذلك، واعتبروه مترجماً لبنانياً، وقد اجبتهم تحريراً باني اعرف البدرى شخصياً، ولكن بلا جدوى، ووجدت في كتاب خليل عبد العزيز وعلى الصفحة رقم ٢٠٩ ما يؤكد ذلك، ونقدم للقارئ هذا المقطع الصغير والمهم في هذا المجال، وهو - (..استطاع البعض من الشباب العراقي الحصول على مقاعد دراسية في المعاهد السوفيتية، فقد استطاع محمد علي الماشطة ومصطفى الجواهري الحصول على زمالة دراسية في الاتحاد السوفيتي، وكان قد سبقهما الالتحاق بالدراسة في موسكو مواطنان عراقيان يهوديان استطاعا الهروب من العراق بعد اسقاط الحكومة العراقية الجنسية عن اليهود العراقيين عام ١٩٤٩، وقد وصلا الى موسكو عبر ايران، احدهما واسمه مسرور، اذكر انه عمل كمذيع في اذاعة موسكو باللغة العربية، اما الثاني واسمه الياس البدرى فقد تم تعيينه مدرسا لتدريس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية في موسكو بعد انهاء الدراسة في كلية الحقوق)...

ختاماً لهذه القراءة المختصرة جداً (والتي لا يمكن لها ان ترسم حتى ولا صورة تقريبية لاهمية هذا الكتاب وقيمه التاريخية)، اود ان اشير الى ما قاله لي د. خليل عبد العزيز في اللقاء الاخير معه في موسكو، وهو ان السكرتير العام للحزب الشيوعي العراقي الدكتور رائد فهمي اخبره، انه يسمع لأول مرة عن هذه الاحداث في الاتحاد السوفيتي، واقترح عليه ان يقدم كلمة امام اجتماع للشيوخ العراقيين للتحدث عن ذلك، وهو اقتراح علمي وموضوعي وعملي فعلاً من وجهة نظري، اذ ان الاجيال العراقية التي لم تتعايش مع التجربة السوفيتية قد خلقت في خيلتها صورة مرتبكة ومشوشة جداً عن هذه التجربة الانسانية الكبيرة والعظيمة في تاريخ البشرية، صورة بعيدة عن واقعها وترتبط بمستوى الوعي الاجتماعي العراقي وتعكسه وتجسده ليس الا، صورة تصنفها الامثال العراقية

الطريفة بدقة، مثل (لو طخه لو اكسر مخه / لو بسراجين لو بالظلمه / لو هره لو وره

/ عالج المخبل ترس حلكه... الخ). لقد اشار د. كاظم حبيب في مقدمته للكتاب، الى ان (.. من يعرف الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الاخرى يدرك صحة تقديرات المؤلف وصواب استنتاجاته)، وهي ملاحظة دقيقة وصحيحة فعلا.

تحية للدكتور خليل عبد العزيز وذاكرته الفذة على هذه الجهود العلمية الكبيرة، والتي أضافت الى المكتبة العربية هذا المصدر المبتكر والاصيل، وتحية للمبدع فرات المحسن وللدكتور محمد الكحط على مساهماتها المهمة في اعداد و اخراج هذا الكتاب.

(٣)

خمس ساعات في موسكو مع د. خليل عبد العزيز

أ.د. ضياء نافع

سنحت لي فرصة اللقاء مع د. خليل عبد العزيز في موسكو أثناء مشاركته بالذكرى الخمسين لتخرج دفعته من كلية الصحافة بجامعة موسكو، إذ نظمت كلية الصحافة احتفالية طريفة تكريماً لخريجي هذه السنة الدراسية ٢٠١٨ ولخريجي سنة ١٩٦٨، وكان د. خليل من ضمنهم آنذاك، والذي وصل خصيصاً من السويد للمشاركة في هذه الاحتفالية الجميلة، ورغم ضيق وقته جداً ومحدوديته، إلا أننا استطعنا أن نلتقي كي ندردش (ولو قليلاً)، ولكن هذه الدردشة (القليلة!) امتدت خمس ساعات بالتمام والكمال، وتشعبت إلى العديد من المواضيع، ولهذا فإننا كنا ننتقل من موضوع إلى آخر (بسرعة البرق!) كي نكسب الوقت. كان الهدف الأول من هذا اللقاء السريع هو (استلام وتسليم!) كتبنا إلى بعضنا البعض، فهو أراد أن يهديني كتابه (محطات من حياتي) وأنا اردت ان اهديه اصدارات دار نوار للنشر (المعجم الروسي - العربي للامثال الروسية، وأمثال شرقية مترجمة عن الروسية، ودليل بلدان العالم بخمس لغات، ودفاتر الادب الروسي ١، ودفاتر الادب الروسي ٢)، وعن هذه الكتب بدأ (حديثنا السريع هذا!)، اذ قال لي د. خليل ان أحد قراء كتابه أخبره بضرورة ان تكون مقالاتي حول د. خليل (عراقيون مروا بموسكو) في بداية كتابه وليس في نهايته كما جاء في الكتاب، لأنها تشرح للقارئ من هو مؤلف كتاب (محطات في حياتي)،

ولكنني ضحكت وقلت له ان القارئ يجب ان يطلع اولاً على مضمون الكتاب ثم يتعرف بعدئذ على كاتبه. اضاف د. خليل، ان احد القراء كان معجباً بتسميتي له

في مقالتي تلك ب (ابو يعكوب) أذ كان اسمه عندما كنّا ندرس في جامعة موسكو بالسّتينات - (يوسف الياس) وليس (خليل عبد العزيز)، فحكى لي كيف ان السفير العراقي بموسكو آنذاك شاذل طاقة دعاهم مرة الى السفارة وأخبرهم ان الدولة العراقية سمحت بتزويدهم بجوازات سفر، ولكن القنصل العراقي أخبر السفير، انه مدّد قبل اسبوع ليس الا جواز سفر المواطن (يوسف الياس) لصاحب صورة المواطن (خليل عبد العزيز) هذا. احتار السفير (والقنصل ايضا) بهذه المشكلة او (الورطة!)، وقرر السفير عندئذ ان يسحب جواز سفر (يوسف الياس) ويمنحه جواز سفر (خليل عبد العزيز)، فرفض خليل تسليم جوازه السابق، وبعد مناوشات طريفة بينهما (كانا يعرفان بعضهما من ايام الموصل في العهد الملكي، اذ كان شاذل مدرّسا و خليل تلميذا، وكان خليل يزوده بجريدة الحزب الشيوعي، بل اراد مرة حتى ان يكسبه صديقا للحزب، ولكن شاذل رفض ذلك رغم انه كان يستلم منه جريدة الحزب بكل سرور وحماس وقال له ان هذا الطريق لن يؤدي الى نتائج، وعندما التقيا اول مرّة بموسكو قال شاذل لخليل ضاحكا وباللهجة المصلاوية (كي يذكّره بما مضى طبعاً) - أنا الان السفير وانت لا زلت طالبا!)، وهكذا - وبعد التي واللتيا - وصلا الى حل وسط لهذه المشكلة وهو، ان يطلّع السفير على جواز سفر يوسف الياس ثم يعيده له ويسلم له جواز السفر

الجديد باسم (خليل عبد العزيز)، وقد تم ذلك فعلا، فسألته ضاحكا، وماذا قال السفير عندما اطلع على جواز (يوسف الياس)؟ فأجاب خليل - لقد مدح شاذل (طريقة تدبير!) الحزب الشيوعي الدقيقة لهذا الجواز، ثم اوضح خليل لي، ان هذا الجواز كان حقيقيا وباسم ذلك الشخص فعلا، وان الحزب استطاع (الحصول!) على مجموعة من الجوازات الصحيحة ولكنه أبدل صور اصحابها الحقيقيين بصور اعضاء الحزب (وتم وضع ختم دائرة السفر على الصور الجديدة بواسطة قطعة بطاطا تتّقل من الصورة الاصلية الى الصورة الملصقة جديدا!!!) الاعضاء الذين يريد الحزب

تهريبهم وتسفيرهم الى خارج العراق نتيجة لظروفهم السياسية، وكان هو واحدا منهم (اذ كان محكوما بالاعدام)، وهكذا تمكن خليل من السفر بشكل رسمي من مطار بغداد. وقد حكى خليل لي قصة طريفة ترتبط بهذه المسألة، اذ انه قرأ مرة في احدى الصحف البغدادية بيانا من مواطن عراقي اسمه (يوسف الياس) يعلن فيه، ان المقالات السياسية التي كانت تنشرها مجلات وكالة انباء نوفستي السوفيتية باسم (يوسف الياس) لا علاقة له بها لا من قريب ولا من بعيد.

انتقلنا بعدئذ الى الحديث عن مواضيع مهمة وكبيرة بل وخطيرة ايضا، ترتبط بتاريخ العراق المعاصر ومسيرة الاحداث فيه، وهي عديدة ومتشعبة جدا ولا يمكن تلخيصها ببضع كلمات او جمل ليس الا، وتتطلب مقالات خاصة وتفصيلية حولها، منها على سبيل المثال وليس الحصر - كيف اطلق طارق عزيز على خليل تسمية - (عميل سوفيتي) عندما استقبله في مكتبه في وزارة الاعلام ببغداد

للحديث حول مهرجان الفارابي، وماذا كانت ردود فعله تجاه ما قاله طارق عزيز له، او، كيف كان جواب خليل على سؤاله له حول ما ذكره د. سعد العبيدي في روايته الموسومة (حفلة رئاسي) (وهي رواية حول احداث مجزرة قاعة الخلد عام ١٩٧٩) بشأن برقية ارسلها بريجنيف من موسكو الى السفير العراقي مرتضى سعيد الحديثي في مدريد يحذره فيها من العودة الى بغداد ويدعوه للرجوع ضيفا في موسكو، حيث كان سفيرا للعراق، او، لماذا قال زيوغانوف (سكرتير الحزب الشيوعي الروسي حاليا) له، عندما شاهده في مجلس الدوما بموسكو قبل فترة ليست بالبعيدة - لقد كنت يا يوسف شيوعيا في موسكو، فلماذا اصبحت عميلا للامريكان الان؟ و... و... و...

(٤)

غفوروف و خليل عبد العزيز في طاجيكستان

١. د. ضياء نافع

اطلعت على مقال بالروسية عنوانه - (الأكاديمي غفوروف بعيون الصحفي والسياسي العربي خليل عبد العزيز). المقال بقلم تاج الدين ماردوني، وهو حاصل على شهادة دكتوراه علوم في الفيلولوجيا وباحث علمي في قسم الشرق الأوسط والأدنى بمعهد آسيا وأوروبا في جمهورية طاجيكستان (والمجلة العلمية لهذا المعهد هي التي نشرت المقال في نهاية آب / أغسطس ٢٠٢١)، ويمكن القول - وبكل ثقة - أن هذا المقال يعدّ بحثاً علمياً حقيقياً ورسيناً وأصيلاً بكل معنى الكلمة، بحثاً يعتمد بالأساس على قراءة معمّقة وشاملة وذكيّة لكتاب (محطات من حياتي)، الذي أصدره خليل عبد العزيز في بغداد عام ٢٠١٨، مع التركيز على موضوع مهمة جداً (بالنسبة لتاريخ طاجيكستان المعاصر) وهي - موقع ودور غفوروف (تلك الشخصية الطاجيكية السوفيتية المرموقة في عالم السياسة السوفيتية والدراسات العلمية للتاريخ آنذاك)، ومكانته في كتاب خليل عبد العزيز المذكور، والدور الذي لعبه في المسيرة الشخصية لعبد العزيز أثناء عمله في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية آنذاك، عندما كان غفوروف رئيساً للمعهد.

عنوان هذا البحث (أجبرني!) على أن أتوقف عنده، وإن أطلعه بانتباه وبشكل دقيق وعميق، إذ انه يعني (فيما يعنيه)، أن كتاب العراقي خليل عبد العزيز أصبح مادة لكتابة بحوث من قبل باحثين أجانب من خارج العراق والوصول إلى استنتاجات مبتكرة وأصيلة في تاريخ بلدان أجنبية، وهي ظاهرة جديدة (قلبا وقالبا!) بحياتنا الفكرية

في العراق، ظاهرة تثير طبعاً الاعتزاز والفخر عند كل عراقي (وقد شعرت بذلك خصوصاً، عندما قرأت إشارة صريحة جداً في ثنايا ذلك البحث تقول، إن الطاجيك سيعرفون أشياء جديدة لم يسبق لهم الاطلاع عليها عن النشاطات السياسية والعلمية لغفوروف من كتاب خليل عبد العزيز!)، وهذا أولاً، أما ثانياً، فإنها ظاهرة تستحق أن نتوقف عندها - نحن العراقيين - بتأمل وندرسها بشكل واسع وشامل، ونكتب ردود فعلنا حولها، إذ إنها ظاهرة جديرة بهذا الاهتمام، وهو ما نحاوله بإيجاز في مقالتنا هذه.

من الواضح تماماً، أن هدف الباحث د. تاج الدين ماردوني من كتابة بحثه هذا هو دراسة أهمية غفوروف ودوره في مسيرة جمهورية طاجيكستان، إذ أن هذا الشخص (اي غفوروف) كان السكرتير الأول للحزب الشيوعي الطاجيكي الحاكم من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٦ (والسكرتير الأول للحزب الشيوعي يعني الشخص الأول في الدولة آنذاك)، عندما كانت طاجيكستان تدخل ضمن دولة الاتحاد السوفيتي، وكان غفوروف واقعياً الشخص الأول فيها زمن ستالين، ولكن غفوروف وصل إلى هذا المنصب باعتباره شخصية علمية مرموقة أيضاً، إذ كان مؤرخاً كبيراً، وكان اختصاصه - تاريخ شعوب آسيا الوسطى، وهو مؤلف كتاب - (الطاجيك) الخاص بتاريخ الشعب الطاجيكي، ولهذا، وبعد وفاة ستالين عام ١٩٥٣ ومجيء خروشوف (وكل التغرّات الجذرية المعروفة والمرتبطة بهذا الحدث، التي تمت في الاتحاد السوفيتي)، أنيطت لغفوروف مهمة أخرى، وهكذا أصبح رئيساً للمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية باعتباره حاصل على شهادة دكتوراه علوم في التاريخ، وباعتباره عضواً في أكاديمية العلوم السوفيتية، وقد شغل هذا المنصب من عام ١٩٥٦ إلى تاريخ وفاته عام ١٩٧٧، ورئاسة هذا المعهد موقع سياسي مهم جداً سواء في الاتحاد السوفيتي آنذاك، أو في روسيا الاتحادية الآن، وليس من باب الصدفة أبداً، أن جاء بريماكوف رئيساً للمعهد بعد غفوروف، ويعرف القارئ طبعاً، أن بريماكوف

أصبح بعدئذ وزيرا للخارجية الروسية ثم رئيسا للوزراء.

أن مرحلة إدارة غفوروف لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية (الروسية حاليا)، التي امتدت طوال هذه السنين، تعدّ مرحلة تاريخية مهمة في مسيرة المعهد سياسيا وفكريا، إذ إنها رافقت تحولات كبيرة في مسيرة السياسة السوفيتية آنذاك، والباحث الطاجيكي تاج الدين ماردوني استفاد بعمق من كتاب خليل عبد العزيز (محطات من حياتي)، لتسجيل الدور الهائل الذي لعبه غفوروف في سياسة الاتحاد السوفيتي بأكمله تجاه البلدان العربية وإقامة أوثق العلاقات معها (السياسية والثقافية معا) عن طريق نشاطات معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، وكيف استطاع بمهارة عالية توجيه ذلك خدمة لسياسة بلده، هذا الدور (غير المدروس كما يجب) في الأوساط الأكاديمية الطاجيكية، وحتى الأوساط الأكاديمية الروسية أيضا، وحاول الباحث الطاجيكي الاستفادة القصوى من كتاب خليل عبد العزيز لإبراز دور غفوروف وأهمية وقيمة تلك الشخصية الطاجيكية المعاصرة.

تحية إكبار واعتزاز للباحث الطاجيكي د. تاج الدين ماردوني على بحثه العلمي الرائد هذا، وتحية إكبار واعتزاز لمؤلف كتاب (محطات من حياتي) د. خليل عبد العزيز على كتابه التاريخي المهم في مسيرة الحياة السياسية العراقية المعاصرة، مع التمنيات له بانجاز الطبعة الثانية المنقّحة والمزيدة لكتابه المذكور...

(٥)

كتاب نصف قرن

د. ضياء نافع

هذا كتاب غير اعتيادي بكل معنى الكلمة، ابتداء من عنوانه وغلافه، فعنوانه هو - (كتاب نصف قرن)، وغلافه خالٍ من اسم المؤلف، وتوجد هناك إشارة مختصرة لاسم جامعة موسكو الحكومية بالروسية، وصورة بنائها القديمة في مركز موسكو، و فوقها صورة أخرى لخريجي كلية الصحافة، الذين التحقوا فيها عام ١٩٦٣ وتخرجوا منها عام ١٩٦٨، وهذه الصورة مؤطرة بإطار كلاسيكي اعتيادي جداً، وهي صورة تذكارية كنا ولا زلنا نراها معلقة في بيوت كل الخريجين الروس من المدارس أو الكليات، عندما كنا نزورهم في بيوتهم، وهو تقليد جميل جداً يؤرخ مرحلة الدراسة بطلبتها وأساتذتها، وهي فترة سعيدة دائماً في حياة كل إنسان، لأنها ترتبط بمرحلة الشباب الرومانتيكية الجميلة بحد ذاتها رغم كل مصاعبها ومشاكلها ومطباتها. يقع الكتاب في (٢٥٤) صفحة من القطع المتوسط، ونجد على الصفحة الداخلية الأولى توضيحات لطبيعة هذا الكتاب، والتي تشير، إلى أن هذا الكتاب (يوبيلي)، أي يرتبط باليوبيل الذهبي (نصف قرن) والخاص بخريجي عام ١٩٦٨، وإنه صادر من كلية الصحافة في جامعة موسكو الحكومية عام ٢٠١٨، ومن هنا جاءت تسميته - (كتاب نصف قرن)، وهو يضم (٦٩) مقالة متنوعة موزعة على خمسة محاور، شارك بكتابته أكثر من (٦٠) صحافياً من خريجي تلك الدورة بالذات، وكم فرحت، لأني وجدت بين هؤلاء الخريجين عراقياً درس عندئذ في كلية الصحافة بجامعة موسكو، وساهم مع زملائه الآخرين بتحرير هذا الكتاب، وكتب ثلاث مقالات فيه، وهو الزميل الدكتور خليل عبد العزيز، وقد بحثت عن صورته على غلاف الكتاب بين الخريجين ووجدتها

فعلاً، وكان بالطبع شاباً وسيماً وجميلاً، مثل كل الطلبة الآخرين آنذاك من البنين والبنات (وخاصة البنات طبعاً!)، أما صورته المنشورة داخل الكتاب جنب مقالاته هناك، فإنها كانت (بعد اليوبيل الذهبي!) تحمل بصمات السنين الطوال وسماتها، وقد توقفت أولاً وقبل كل شيء عند مقالات د. خليل عبد العزيز طبعاً (انطلاقاً من عراقيتي وتحيزاً لهذه الروح العراقية، وتحيزاً له أيضاً، وهل يمكن لي في هذه المواقف أن أكون محايداً!!!)، حيث تحدث في مقالته الأولى عن مسيرة حياته الصعبة في العراق، وكيف وصل إلى موسكو، ثم إلى كلية الصحافة، ومن الطريف أن نشير هنا، إلى أن اسمه كان عندها (يوسف الياس يوسف) (او يوزف كما كتبوه الروس!)، وقد ذكره بين قوسين بعد اسمه الحقيقي، إذ إنهم جميعاً كانوا يعرفونه عندها بذلك الاسم (انظر مقالتنا بعنوان - خمس ساعات في موسكو مع د. خليل عبد العزيز)، أما المقالة الثانية له في هذا الكتاب فكانت بعنوان - (ايرينا فولودينا. هي دائماً في ذاكرتي)، وهي مقالة في غاية الرشاقة والجمال، وتحدث عن زميلة له في الكلية كانت تساعد في الدراسة لأن لغته الروسية أول الأمر لم تكن بالمستوى المطلوب، وكيف التقى بها صدفة في القاهرة بعد سنين، ويختم د. خليل تلك المقالة بالإشارة إلى إنها (لم تعد الآن بيننا)، وإنها ستبقى دائماً في ذاكرته. لقد توقفت طويلاً - ومتأملاً - عند جملة (لم تعد الآن بيننا)، واستنتجت إن اعتزاز د. خليل بها وتقديره ومحبه لها قد منعاه حتى من استخدام فعل (توفيت أو رحلت)، وأكبرت فيه هذا التصرف الإنساني الرائع والرفيع، أما المقالة الثالثة فكانت بعنوان - (الموصل - دماء ودموع)، وتحدث - كما هو واضح من عنوانها - عن مأساة الموصل المعروفة، وما حل بها من دمار، ود. خليل هو ابن الموصل البار.

مقالات هذا الكتاب متنوعة جداً وممتعة جداً في نفس الوقت، ولا يمكن اختصارها أبداً، لأنها مليئة بالأفكار والحوادث، إذ يتحدث فيها الخريجون بحب كبير عن كليتهم، وكيف أن الأبناء والأحفاد قد درسوا فيها بعدهم لأنهم زرعوا فيهم حب العمل الصحفي الخلاق، ويذكرون أساتذتهم باحترام كبير، ويتحدثون عن عملهم

بعد التخرّج، والصعوبات التي تغلبوا عليها، والنجاحات التي حقّقوها، والميداليات والأوسمة التي حصلوا عليها، ويمكن لقارئ هذا الكتاب أن يكتب تاريخ وسائل الإعلام السوفيتية منذ أواسط ستينيات القرن العشرين وعبر انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١، وصولاً إلى يومنا الحاضر، وطبيعة المشاكل والقضايا المتشابكة في الصحافة والتلفزيون ووسائل الإعلام الروسية الأخرى في تلك الفترة الطويلة والعصيبة في تاريخ روسيا ومسيرتها. لقد وجدت أنا شخصياً في هذا الكتاب عدة مقالات مهمة جداً، وقررت أن أترجمها إلى العربية عندما تسمح ظروفي بذلك، لأنني أرى، إنها يمكن أن تساعد القارئ العربي على تفهّم طبيعة الإعلام الروسي ومشاكله أولاً، ولأن هذه المقالات الصادقة ترسم، ثانياً، تجارب إنسانية عميقة في مجال العمل الإعلامي، وهو مجال مشترك في كل بلدان العالم، بما فيها طبعاً بلداننا العربية.

(٦)

(أ) محطات في حياة الدكتور خليل عبد العزيز

إبراهيم خليل العلاف

بين يدي الآن، وقد وصلني عبر (مكتبة حسام الدين) في شارع الدكتور محمود الجليلي بالمجموعة الثقافية، كتاب بعنوان : (محطات من حياتي) للدكتور خليل عبد العزيز القيادي الطلابي الشيوعي الموصل المحكوم بالإعدام بعد فشل حركة الشواف في الموصل ١٩٥٩ الدكتور خالد عبد العزيز، وكان يعمل رئيساً لاتحاد الطلبة العام في الموصل ١٩٥٩، واتهم بالقتل وحكم بالإعدام بعد أحداث السحل في الموصل، والدكتور خليل عبد العزيز هرب واستقر في موسكو، وحصل على شهادة الدكتوراه في الإعلام، وأبتدأ صفحة جديدة من حياته باحثاً في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية في موسكو ويعيش حالياً في العاصمة السويدية ستوكهولم.

الدكتور خالد عبد العزيز تحدث لي عنه الأخ الأستاذ مثري طه العاني الذي خلفه في رئاسة اتحاد الطلبة العام في الموصل، وقال انه من مواليد الموصل ١٩٣٠، وقد أسهم في الحركة الوطنية ضمن صفوف الحزب الشيوعي منذ سنوات الخمسينات من القرن الماضي وانه من الأكراد الكويان، وانه من الذين أسسوا الاتحاد العام للطلبة العراقي في الموصل وصار رئيساً له.

كما أن خالد عبد العزيز شارك في انتفاضة ١٩٥٢، وفي سنة ١٩٥٤ أصبح ممثلاً للطلبة في لجنة (الجبهة الوطنية) التي كانت قد شكلت آنذاك وخاضت الانتخابات النيابية. وقد شارك في التظاهرات التي قامت ضد نوري السعيد رئيس الوزراء بسبب حله مجلس النواب، وانه أصبح عضواً في اللجنة العليا لاتحاد الطلبة العام كما عمل في

تنظيمات الطلبة التي تعود للحزب الشيوعي العراقي.

وقد اعتقل سنة ١٩٥٦ وصدر قرار المجلس العرفي بالحكم عليه بالحبس لمدة عام قضاها في سجن بعقوبة كما ابعد لمدة سنة إلى مدينة بكرة الحدودية التابعة آنذاك للواء الكوت (محافظة واسط حالياً)، وسيق بعد ذلك مع عدد من الطلاب إلى معسكر ضبط في الشعبية في البصرة لأداء الخدمة العسكرية وفصل من الدراسة واستمر الأمر هكذا حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

وبعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، عاد إلى الموصل وأصبح - كما قلنا - رئيساً لاتحاد الطلبة العام، وعندما قرر العقيد الركن عبد الوهاب الشواف إعلان تمرده على الزعيم عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة (١٩٥٨-١٩٦٣) في ٨ آذار ١٩٥٩ اعتقل العديد من القادة الشيوعيين ومنهم خليل عبد العزيز رئيس اتحاد الطلبة العام وأودع المعتقل في الثكنة الحجرية لكن بعد مقتل الشواف بعد أن قصفت الطائرات الحكومية مقره، فشلت الحركة فقام ضباط وجنود كتيبة الهندسة وكانوا من أنصار الزعيم بإطلاق سراح المعتقلين الشيوعيين واسهم هؤلاء في قمع من كان مع الشواف وقتلهم وسحلهم وتعليق جثثهم على أعمدة الكهرباء وقد شاهدت بنفسي ذلك وكنت تلميذاً في الابتدائية واختل الوضع في الموصل وسادت الفوضى، وتشكلت المحكمة برئاسة عبد الرحمن القصاب مسؤول اللجنة المحلية للحزب الشيوعي في الموصل واعدت عدد كبير من أبناء الموصل وكان خليل عبد العزيز كما تظهر صوره الى جانب عدد من أعضاء هذه المحاكم وهي منشورة ومعروفة وبعد ذلك ارسل الزعيم العقيد الركن حسن عبود ليتولى الأمر بعد العقيد الشواف أمر موقع الموصل وعين صديقه المقدم إسماعيل عباوي مديراً لشرطة الموصل فهدأت الأوضاع واستقرت في الموصل شيئاً فشيئاً.

أتهم خليل عبد العزيز بالمشاركة في القتل وحكم عليه بالإعدام مع عدد من

الشيوعيين، لكنه نجح في الفرار الى خارج العراق وظهر في موسكو وبدأ حياة جيدة كما قلنا وتعلم اللغة الروسية وحصل على الماجستير في كلية الصحافة - جامعة موسكو عن رسالته حول (الحزب الوطني الديمقراطي) بزعامة كامل الجادرجي والمؤسس منذ سنة ١٩٤٦. ثم حصل على الدكتوراه وعمل مع المستشرق السوفيتي غفوروف وساعد عدد كبير من الطلبة العراقيين في انجاز أطروحاتهم ومنهم فاضل البراك الملحق العسكري العراقي في سفارتنا بموسكو والذي كتب عن حركة رشيد عالي الكيلاني ١٩٤١.

نقرأ في كتابه هذا جانبا من ذكرياته التي تحتاج إلى تدقيق، ومقارنة مع غيرها من المصادر، وتحليلها لإثبات مصداقيتها؛ لكن الرجل كتب من وجهة نظره، ووفق قناعاته ما يراه مفيدا له سواء في حياته في الموصل أو بعد وصوله موسكو.

وكما يقول الناشر أن الرجل ما انفك يمسك بتلابيب فكره ويدفعه للبقاء في تلك العوالم فيتذكر جزئياتها ودقائقها وكأنه يعيش لحظاتها بكل تلك الحشيات المكدره منها أو المفرحة وهذا من حقه كإنسان ناضل واجتهد وتعب وتعرض للكبد والمعاناة لكنه دائما ما نجده يحاول أن يقدم تجربته للآخرين بما له فيها وما فيها عليه ربما تفيد الناس وتفيد الشباب وربما يجد فيها المؤرخ ما يساعده على فك الغاز الماضي أو حل طلاسم ما جرى في تلك الأيام الحالكة على الجميع فليس ثمة من انتصر وليس ثمة من هزم فالمعارك وليدة ظروفها والدرس الوحيد الذي يجب أن نستفيده هو أن الصراعات السياسية بين الأخوة : أخوة يوسف لن تجدي نفعا ولن تفيد أحدا.

طبعاً في الكتاب معلومات، وتفاصيل كثيرة عن مساعدة الكاتب المصري الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل له عند تحضيره للدكتوراه ومعرفته لأستاذ الصحافة المصري الدكتور خليل صابات ولقاؤه بعدد من الصحفيين السوفيت منهم ايكر بلايف وكان مندوبا عن جريدة الازفستيا وقد زار الموصل أثناء حركة الشواف وقال

انه التقى به في الموصل بصحبة عبد الرحمن القصاب احد قادة المقاومة الشعبية في الموصل كما يقول عنه في الكتاب.

وكان بلايف يعمل مراسلا لجريدة برافدا السوفيتية ويتحدث عن كتابته المقالات باللغة العربية لوكالة نوفوستي للأنباء وقال انه كتب بحدود ٨٠٠ مقالة لهذه الوكالة لوحدها وقال إن أطروحته للدكتوراه كانت عن (قانون الصحافة في مصر الصادر سنة ١٩٦١) في كلية الصحافة - جامعة موسكو أيضا.

ومن الطريف أن ذلك تم بين ١٩٦٩ - ١٩٧٠ واستضافته الحكومة المصرية على حسابها لإكمال دراسته واحد من ناقشوه في الدكتوراه الأستاذ ميرسكي الباحث في معهد الاقتصاد الدولي والعلاقات الدولية بموسكو.

طبعاً هناك معلومات كثيرة تتعلق بزيارته للعراق ولقاء الرئيس الأسبق أحمد حسن البكر وحديثه عن سوريا حافظ الأسد وعن اليمن الجنوبي وكثير من الأمور التي لا يتسع المجال لتناولها في هكذا حيز، ولا بد لمن يريد أن يطلع على التفاصيل العودة إلى الكتاب فهو قيم مهم وفيه معلومات جمة ومفيدة.

تحياتي للأخ الدكتور خليل عبد العزيز وتمنياتي له بالعافية والعمر المديد

(ب) رد الدكتور خليل عبد العزيز على مقال الأستاذ إبراهيم خليل العلاف

نشر الدكتور إبراهيم خليل العلاف بتاريخ ١٦ / ١٠ / ٢٠١٨ موضوعاً في الحوار المتمدن تحت عنوان محطات في حياة الدكتور خليل عبد العزيز. وكان استعراضاً لكتابي الصادر هذا العام (٢٠١٨) عن دار سطور في بغداد بذات العنوان.

ابتداءً أقدم شكري للأخ الدكتور العلاف لاهتمامه بقراءة واستعراض كتابي، وفي الوقت ذاته لا بد لي من ذكر بعض الملاحظات على ما ورد في مقاله.

أؤكد هنا إن تسمية مؤامرة الشواف جاءت في الوثائق الرسمية للحكومة على الأحداث المأساوية التي جرت عام ١٩٥٩ والتي قادها العقيد عبد الوهاب الشواف. كما أود الإشارة إلى إن الأستاذ ميري طه العاني، الذي حدده الدكتور العلاف «كخليفة» بعدي في رئاسة اتحاد الطلبة العام في الموصل، لم يكن صحيحاً على الإطلاق، إذ أن من تسلم رئاسة الاتحاد من بعدي كان السيد حازم جميل.

إن المعلومات التي قدمها السيد ميري عني كانت جد خاطئة ومجافية للواقع، فأنا من مواليد ١٩٣٤ ووالدي ووالدي من عشيرة هماوند، التي تقطن محافظة السليمانية وليس كما ذكر بأن انتسابي كان لعشيرة الكرد الكويان.

أما ما ذكره عن تشكيل «المحكمة القضاية» برئاسة السيد عبد الرحمن القصاب، وإشارته بأن الأخير كان مسؤولاً عن اللجنة المحلية للحزب الشيوعي في الموصل، فهو ليس خاطئاً فحسب بل ومجافياً للحقيقة تماماً، وتكراراً للتلفيقات والأكاذيب والاختلافات التي رافقت تلك الفترة والتي روج لها حينذاك أحمد سعيد، المذيع المهرج في إذاعة صوت العرب المصرية، التي كانت تبث من القاهرة وتروج الأكاذيب

وتساند مؤامرة الشواف. وللتاريخ والحقيقة أؤكد بأن مثل تلك المحكمة لم تنصب أو يكون لها وجوداً أصلاً، لا في موقع الحدث وطيلة أيامه ولا في أي مكان آخر. وبالتالي، فإن اتهامي والقول بأنني كنت عضواً في تلك المحكمة المزعومة يجافي الحقيقة وبعيد جداً عن الواقع. كما إن عبد الرحمن القصاب لم يكن مسؤولاً عن اللجنة المحلية في الموصل، بل كان عضواً فيها.

وحقيقة الأمر هي، أن عبد الرحمن القصاب وأنا كنا ندير سير المعارك ضد المتآمرين من أعوان الشواف من داخل مركز الشرطة العام في مدينة الموصل، ونعطي توجيهاتنا وكانت في مجملها وبإصرار وتأكيد ضرورة القبض على المتآمرين وعدم قتلهم لئتم بعد ذلك تقديمهم إلى المحكمة العسكرية في بغداد ليكونوا أمام محكمة الشعب التي كان يرأسها الشهيد فاضل عباس المهداوي. ففي هذه المحكمة يمكن أن تتكشف للشعب نوايا المتآمرين وارتباطاتهم الخارجية، العربية منها والدولية.

لقد ثبت بما لا يقبل الشك وبالوثائق الدامغة بأن مؤامرة عبد الوهاب الشواف كانت ممولة بالسلاح والمال ومدعومة إعلامياً بإذاعة موجهة وصلت إلى الموصل عن طريق سوريا وبتدخل مباشر من

الجمهورية العربية المتحدة برئاسة جمال عبد الناصر، وأشرف على العملية وزير الداخلية السوري عبد الحميد السراج.

أعتقد، كان من المناسب للدكتور العلاف، وهو الأستاذ المؤرخ، أن يتوخى الدقة والحذر في مثل هذه الوقائع والبحث عن الدلائل والقرائن بشكل علمي ومحيد ليصل المرء في النهاية إلى الحقائق دون التباس وتشويش، لاسيما وأن أبحاث الدكتور العلاف تقرأ من قبل طلبة وباحثين ومهتمين بالوقائع الفعلية والموثقة.

إن عدم التدقيق في مقال الدكتور العلاف يبرز أيضاً في تسميتي خالد عبد العزيز مرة و خليل عبد العزيز مرة أخرى، إضافة إلى وجود ارتباك في تركيب الجمل، حيث

ظهر وكأنه ينسب الثمانمائة مقال التي كتبتها أنا وقدمتها لوكالة نوفوستي، إلى السيد بلاييف. لذا أشير مرة أخرى لضرورة توخي الدقة في مثل هذه الكتابات كي لا يلتبس الأمر على القارئ والقارئات والقراء الكرام.

أخيراً أقدم شكري وأعبر عن تقديري للدكتور إبراهيم العلاف لاستعراضه كتابي ووصفه بالقيم والمهم والحاوي على معلومات جمة ومفيدة. لذا أقدم له الامتنان والتقدير لاهتمامه ودعوته لكتابي.

(أ) محطات في حياة الدكتور خليل عبد العزيز.... مرة أخرى

د. إبراهيم خليل العلاف

أستاذ التاريخ الحديث المتفرس - جامعة الموصل

في ١٦ / ١٠ / ٢٠١٨، نشرت مقالتي عن كتاب الأخ الدكتور خليل عبد العزيز الموسوم: (سجون... اغتراب... نضال... محطات من حياتي)، والذي صدر عن (دار سطور) ببغداد ٢٠١٨، بمقدمة كتبها الأخ الدكتور كاظم حبيب وقد كنت أمينا في عرض الكتاب، وتوضيح ما جاء فيه قدر ما يتناسب ذلك مع مهمات التعريف بالكتب الجديدة.

ولقد اطلع الأخ المؤلف على ما كتبت في موقعي الفرعي في (الحوار المتمدن)، وأنا سعيد جدا بإطلاعه على ما كتبت حول كتابه، واشكره على مشاعره الطيبة تجاهي عندما علق في يوم ٢٧ / ١٠ / ٢٠١٨ وفي موقعه الفرعي أيضا في الحوار المتمدن.

وأقول: إنني عرفته كيسا ومجبا منذ زمن بعيد من خلال متابعتي له مع العلم أنه وبعد كل هذه السنين الطويلة ما يزال متشبثا ببعض ما كان يعتقد به، ومنذ (٦٠) سنة مع انه يعرف أن الدنيا تغيرت وتتغير وان هناك أفكارا جديدة وآراء جديدة تظهر لنا كل يوم وهو نفسه رأيت ينتقد الحزب الشيوعي السوفيتي، ولا اعرف لماذا لم يراجع نفسه وينتقد تصرفات حزبه الذي انتمى إليه منذ بواكير شبابه.

وهو يعرف أو لا يعرف، بأنني وعمري الآن (٧٢) سنة واحمل مرتبة الأستاذية، وأنا الآن أستاذًا متمرسًا في جامعة الموصل منذ تقاعدي سنة ٢٠١٣ قد أعدت النظر في كثير مما كنت اعتقده وأنا العروبي القومي وبدأت انظر للأمور نظرة أخرى، فأنا أدين

كل الأحزاب التي حكمت العراق أو على الأقل تحكمت بمصيره وأقول أن الأحزاب الشيوعية والقومية والبعثية والإسلامية تتحمل مسؤولية ما حدث في العراق.. كلها أخطأت وكلها تتحمل نصيبها مما حدث على الأقل منذ نجاح ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ حتى كتابة هذه السطور ٣٠ / ١٠ / ٢٠١٨.

واكبر مثال على ذلك إنني كتبت عن ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وكتبت عن حركة الشواف ١٩٥٩ وكتبت وكتبت بنظرة جديدة لا ألوم ولا أهاجم ولا أسمي الأمور إلا بمسمياتها وأقول (حركة الشواف) ولا أقول لا ثورة الشواف ولا ثورة الموصل، ولا مؤامرة الشواف وأعلنت عن ذلك في حلقتي عن حركة الشواف في برنامجي التلفزيوني (موصليات) والذي أقدمه من على قناة (الموصلية) الفضائية. في حين أرى بأن الأخ الدكتور خليل عبد العزيز لا زال مصرا على تسميتها ب(المؤامرة). على كل أنا عبرت عن موقفي ولم اقل ثورة وأنا العروبي القومي وهو الذي لا يزال مصرا على أن ما قام به الشيوعيين في الموصل من مجازر كان مبررا وهو المحكوم بالإعدام وهو الذي فر إلى خارج العراق ووصل موسكو وأكمل الدكتوراه وقدمت له مصر العربية كل إمكانياتها واستضافته وقربه هيكل وأغدق عليه ونفذ له كل ما أراد من طلبات تتعلق بالمصادر وغير المصادر وهو نفسه اعترف بذلك لكنه يهاجم مصر عبد الناصر في رده علي وهذا غير جائز فالاعتراف بالفضل واجب لا بد من نسيانه مهما كلفت الظروف.

الدكتور خليل عبد العزيز، وهو يكتب اليوم مذكراته يعرفه الموصليون والعراقيون معرفة يقينية ولا ينسونه أبدا وصوره منشورة ومنها صورته المنشورة في عدة مجلات ومنها عدد بالك من (مجلة الفكاهة) السنة ١ العدد ٧ الصادر في ٦ نيسان ١٩٦٣ وكيف انه قد واجه حكما بالإعدام من قبل المحاكم العرفية الأولى والثانية ببغداد. وثمة صورة أخرى سوف أرسلها له لعله لم يرها تضمه وتضم مهدي حميد ومحفوظ يونس النقيب وحزمة رجبو وجاسم محمد وعادل سفر وخليل هبد العزيز وقد كتبوا وراء اسمه

(المجرم الهارب).

طبعاً كل هذا جرى في إطار الصراع السياسي الدموي بين القوميين والشيوعيين في الموصل ١٩٥٩ والذي أضر بالجميع والجميع يتحملون المسؤولية عن ما حدث.

ولعلمه انه قد أنجزت في جامعة الموصل رسالة ماجستير عن (ثورة الموصل) كنت أنا رئيس لجنة المناقشة قدمها الدكتور هاشم الطائي، وقد حرصت على أن يحضر المناقشة مجموعة من القوميين والشيوعيين والإسلاميين الذي اشتركوا في الحركة : معها أو ضدها وكانت مناقشة علمية وموضوعية شهد جميع من حضرها بذلك.

فيما يتعلق بالأخ الأستاذ مثري طه العاني، وكان رئيساً للاتحاد العام للطلبة في الموصل ورجل لا ينكر شيوعيته فأقول أن الرجل معروف بدقته وموضوعيته ومعرفته وله جهود ونشاط طلابي وثقافي وكان يعمل مع الدكتور صفاء الحافظ وله كتب عن المسرح عند يحيى قاف الشيخ عبد الواحد وقد أعلمني بأن الأخ الدكتور خليل عبد العزيز كان من عشائر الكويان المعروفين في الموصل بقوتهم وطبيتهم لكن الأخ الدكتور خليل عبد العزيز يقول انه ليس من الكورد الكويان بل من الكورد الهماوند وهذا تصحيح يشكر عليه لكنني وجدت الأستاذ مثري طه العاني يعرف الدكتور خليل عبد العزيز ويعرف أسرته معرفة جيدة وبالأسماء. على كل حال هكذا صحح لنا الأخ الدكتور خليل عبد العزيز المعلومة وأنا اشكره على ذلك.

وفيما يتعلق بالمحكمة القضاية ؛ فهذا مما لا يمكن نكرانه المحكمة كانت موجودة وفاعلة وتنقلت من المركز العام إلى الإعدادية الشرقية وأنا شاهد على ذلك رأيت بأمر عيني السحل والقتل وتعليق الجثث واطلعت على الوثائق وسجلات المجالس العرفية واعترافات من شارك في ذلك، وأنا مؤرخ والشمس لا تغطي بغربال والموصليون لا ينسون ذلك ابد الدهر وبإمكانك التأكد لكنهم يتساحون وأنا كمؤرخ أساعد في عدم نكأ الجراح واحمل المسؤولية للجميع.. الجميع اخطئوا وأنت يجب أن تكون معي في

مهمتي، وان تراجع بعض ما حدث وسوف أرسل لك كتاباتي عن حركة الشواف ولا اسميها ثورة ولا اسميها مؤامرة وسوف تجد، كم أنا متصالح مع نفسي ومدينتي وبلدي. أنا مؤرخ معروف خرجت (١٠٠) من حاملي الماجستير والدكتوراه، ومعروف بموضوعيتي ويمكنك التأكد من ذلك من خلال استعراض ليس كتيبي ال (٥٠) بل على الأقل مقالاتي في الحوار المتمدن ومن يقرأ لي في هذا الموقع فقط يصل إلى أكثر من مليون و ٦٠٠ ألف قارئ ومتابع. وأنا أتوخى الحذر واعلم طلبتي أن يتوخوا الحذر، وان يكونوا موضوعيين وأنا مثل (ليوبولد رانكة) أرى أن مهمة المؤرخ أن يعيد تشكيل الحدث كما وقع.

أنت (خليل عبد العزيز) وليس (خالد عبد العزيز) وما قرأته هفوة لسان لان لي صديق قومي اسمه خالد عبد العزيز وأنت تعرفه جيدا وهو أيضا مناضل مثلك لكنه مناضل قومي عربي وأرجو أن لاتعتبر الهفوة دليلا على عدم التدقيق، وأنا أعرفك منذ سنين طويلة وأشرت إليك عندما كتبت بعض مقالاتي ومنها مقالتي عن الدكتور فاضل البراك وأنا أيضا تحدثت عنك مع الدكتور كوتولوف عندما جاء إلى بغداد وأنا أيضا قرأت جانبا مما كتبه الدكتور ضياء نافع وكنت مساهما معه ليكتب عن أعلام العراق بالروسية وهو يعرف ذلك.

وان كان هناك ارتباك بشأن تركيب الجمل في المقال خاصة بشأن مقالاتك، فسأعيد النظر في المقال لأشير إلى مجهوداتك ومقالاتك التي كتبتها وقدمتها لوكالة نوفوستي حتى لا يلتبس الأمر عليك، ولا على غيرك مع أطيب التحيات والتمنيات بسلامتك وأدعو لك بطول العمر والتوفيق والمجد، ودمت لأخيك من مدينتك الموصل الجريحة التي أخذ الجميع ثأرهم منها بحيث حولوها إلى قاعا صفصفا لكنها كالعنقاء ستنهض وستنهض من جديد فهي الموصل أليست كذلك؟ الموصل رأس العراق كما قال ذلك ووصفها الملك فيصل الأول

(ج) مرة أخرى، عودة إلى محطات في حياة الدكتور خليل عبد العزيز.

الدكتور خليل عبد العزيز

مرة أخرى نشر الدكتور إبراهيم خليل العلاف في موقع الحوار المتمدن بتاريخ ٣١ / ١٠ / ٢٠١٨ رداً على ردي حول استعراضه لكتابي محطات في حياة الدكتور خليل عبد العزيز الصادر هذا العام (٢٠١٨) عن دار نشر سطور في بغداد.

أقول إن الكثير في هذه الدنيا قد تغير فعلاً، ونظرنا إلى الكثير من الأمور والأحداث قد تغيرت أو يمكن أن تتغير، وهو أمر طبيعي لكن إيماني وقناعاتي بالفكر الماركسي باقيتان كما كانتا وتلكم ما نشدته وعملت عليه طيلة الوقت، ولم أكن غير باحث فيهما، أحاول ألا تكونان في موضع الإجحاف والتجديف والسوء لنفسي وللآخرين. ودائماً ما واجهت في مسيرة حياتي من الصعاب والمنغصات وكذلك المفردات التي تعلمت منها إن ليس من السهولة إقناع البشر وإخراجهم مما اعتادوا وتربوا وبنوا قناعاتهم عليه، مهما قدمت لهم حججاً وأدلة عقلية كانت أو نقلية. فقد ترسخ في خاطرهم قناعات ليس من السهولة تغييرها، ولكن هذا لا يمنع من قول الحقيقة أو حججها.

بالفعل لقد انتقدت الحزب الشيوعي السوفيتي ومازلت، لأنني عشت في ظل ذلك النظام لعقدين من الزمن، ووجهت نقدي للكثير من مواقفه وخاصة نظراته الملتبسة والمجحفة في بعضها لباقي الأحزاب الشيوعية ومنها العربية، وكذلك تعامله مع بعض القضايا الدولية والداخلية. ولكن هذا لا يعني وقوفي بالضد من بعض المبادئ الشيوعية التي كان يتبناها ويدافع عنها، فقد كانت هناك أخطاء كثيرة لا بل كبيرة حدثت عند التطبيق والعمل، وما عادت تذكر في الخفاء عند الكثيرين من أمثالي ممن عاش هناك. والإشارة لتلك الأخطاء والعثرات لا يعني نكراني وابتعادي عن مبادئ

وقناعاتي بأهمية الفكر الماركسي الذي قدم النظرية العلمية للسعي من أجل كرامة الإنسان ورفعته. وليس تجديفاً وطعنًا بالمكاسب الكبيرة التي قدمت إلى العالم من قبل الاتحاد السوفيتي.

أنت يا دكتور إبراهيم خليل العلاف، قلت بأنك عروبي قومي وغيرت مواقفك حول العديد من الأحداث التي جرت، وهذا من حقك وأنت مشكور عليه. وهنا أذكر إن تغيير المواقف لا يعني بالضرورة تغيير المبادئ، فأنا ما زلت ثابتاً على مبادئتي التي آمنت بها منذ خمسينيات القرن الماضي، وفي ذات الوقت أواكب الأحداث وبالذات ما يدور ويحدث في بلادنا العزيزة والعالم أيضاً، وأحدد مواقفي وأغيرها وفق مبادئتي وقناعاتي، وهذا ما أعلنه في وسائل الإعلام باستمرار. وسوف أبقى دائماً مناضلاً من أجل العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية.

وهنا أود أن أؤكد بأنني ما زلت مصراً على تسمية حركة الشواف بالمؤامرة، لا لرغبة ذاتية بل لطبيعة الفعل الذي حصل حينذاك. ومهما أراد غيري إن يرفع من شأنها ويعطيها تسمية أخرى، وهي المؤامرة التي أثبتت الوقائع والوثائق طبيعتها وما كانت تسعى إليه. وهنا أود أن أسألك البعض الآخر، ماذا كان يعنيه مشاركة الجمهورية العربية المتحدة بالإعداد والتخطيط لتلك «الحركة» وتكليف وزير الداخلية السوري عبد الحميد السراج بالأشراف على تلك المؤامرة وتنفيذها، وتخصيص إذاعة القاهرة برنامجاً خاصاً لمساندة تلك الحركة؟ ألا يعني كل ذلك بأن تلك «الحركة» كانت مؤامرة مدبرة بالضد من الجمهورية العراقية، ومنفذها كان العقيد عبد الوهاب الشواف وأعوانه. وفي البحث عن إنصاف الجميع من كلا الطرفين، أتساءل وأجيب، من هو البادئ باعتقال الناس، وأنا كنت واحد منهم، وكذلك الهجوم واغتيال المواطنين، وكان أولهم الشهيد كامل القزانجي، أليس هو العقيد الشواف وأعوانه؟

لقد كنت شاهد عيان عندما كنا مجتمعين مع العقيد الشواف في مقره بمعسكر

الغزلاني ليلة المؤامرة، بعد أن طلب الشواف اللقاء بقيادة المظاهرة، ومن ثم دخل مقدم اللواء محمود عزيز وتحدث همسا مع العقيد عبد الوهاب الشواف، عندها تغيرت لهجة الشواف وبدا بنهرنا وزجرنا وثم قام بطردنا، ثم أرسلونا معتقلين إلى الثكنة العسكري (القلعة الحجرية) وكنت قد شاهدت خلال النافذة عند اجتماعنا بالشواف، كيف كان يجري نقل وتفريغ صناديق السلاح والذخيرة وأجهزة الإذاعة الخاصة بالمتآمرين.

وعودة على معلومة الأستاذ مثري طه العاني، أعيد مرة أخرى وأنا أملك ذاكرة حية بالأحداث والوقائع جميعها، بأن الأستاذ مثري العاني لم يأت بعدي ليكون مسؤولاً أو رئيساً لاتحاد الطلبة العام في الموصل، وإنما من حل بعدي برئاسة الاتحاد كان حازم جميل وهو يعيش حالياً في باريس، وحين كنت أنا رئيساً للاتحاد حينذاك، لم تسنح لي فرصة للعلم بوجود الأستاذ مثري بين الطلبة من قادة اتحادنا، لذا أرجو من الدكتور العلاف أن يراجع معلوماته جيداً، فليس كل ما روي ونقل له، كان هو الحقيقة عينها، خاصة وهو كان طفلاً حين وقوع مؤامرة الشواف، على حسب ما يذكر ذلك شخصياً. إن إشارتي إلى أن الأخ العاني لم يأت بعدي إلى رئاسة الاتحاد ليس القصد فيها أية إساءة له أو مأخذاً عليه.

ومرة أخرى وكشاهد عيان ومشارك بوأد المؤامرة، أقول وبكامل الثقة والصدق وبإصرار، بأن لم تكن هناك أية محكمة مثلما يدعي البعض، وقد لفقت وصنعت تلك المحكمة القصبائية في دهاليز إذاعة صوت العرب من القاهرة، وعقول من روج لها، وهي من اختراع المذيع المهرج أحمد سعيد. نعم كان هناك مركزان لقيادة العمل المسلح ضد المتآمرين، أحدهم كان في المركز العام لشرطة مدينة الموصل والثاني كان في الإعدادية المركزية، وكنت أنا مع عبد الرحمن القصاب في مركز الشرطة ثم انتقلنا إلى الإعدادية الشرقية بعد تعيين إسماعيل عباوي مديراً للشرطة، وجاء هذا بعد حديثي التلفوني مع الحاكم العسكري العام أحمد صالح العبدى ومن ثم الزعيم عبد الكريم

قاسم اللذان أخبراني بتعيين العقيد حسن عبود آمرا عسكريا لموقع الموصل وإسماعيل عباوي مديرا للشرطة، وطلبا منا التعاون معهما ومساعدتهما وتسليم أمور المقاومة للقطعات العسكرية والشرطة والانسحاب خارج مركز الشرطة، وهذا ما قمنا به، وحدث ذلك رغم محاولاتنا السابقة لاعتقال إسماعيل عباوي بعد أن أخبرنا بأنه كان من مؤيدي المؤامرة، ولكننا قبلنا بما أمر به الزعيم عبد الكريم قاسم والحاكم العسكري أحمد صالح العبدى.

أعتقد إن تجربتي الحياتية علمتني أن أقف بعيدا جدا عن القول العربي الشرقي (من علمني حرفا ملكني عبدا) فهذا القول أحد أكثر التعاويذ الإشكالية في المفاهيم العربية، فالتعليم يجب أن لا يخضع لهذا الاشتراط القاسي بين أستاذ وتلميذ، أو رئيس سلطة ومواطنيه، ليصل البشر فيه إلى العبودية. فليس نقل المعلومة يحتاج لمثل هذا التضخيم بالفضل والمساعدة، وإذا قيل بأن الأمثال تضرب ولا تقاس، وإن مثل ذلك القول جاء من باب الأمثال التي تضرب دون قياس مناسب، فأنا بعيد عنه.

وهنا أعرج لمقولة الدكتور إبراهيم خليل العلاف عن العلاقة بالرئيس جمال عبد الناصر، وقوله بنكراني لجميل الرئيس ناصر، بعد نقدي لطريقة حكمه، أو طبيعة الحراك السياسي الذي فرضه على أداء السلطة أثناء توليه الحكم. نعم لقد قدم لي الرئيس الراحل جمال عبد الناصر مساعدة كبيرة، فقد أمر باستضافتي على حساب الحكومة المصرية، بعد أن أعتقل السيد محمود أمين العالم الذي قدمت إلى مصر وفق مؤازرته ورأيه الشخصي وتبنيه موقف تقديم المساعدة لي إن حضرت إلى القاهرة. لقد كان حدث اعتقال الأستاذ محمود العالم كبيرا مؤلما، ولفتني جراؤه الحيرة وأخذني القلق، فقد حشرني اعتقاله في زاوية شعرت بأن ليس لي من بعده معين. ولكن مثلما رويت في كتابي استجدت أحداث ووقائع سهلت عليّ الاستمرار في مهمتي، وكان أحدها موافقة الرئيس على تقديم المساعدة لي من قبل الجهات الرسمية، وتسهيل مهمتي في

البحث العلمي، وقد اشترك في هذه المساعدة العديد من الوزراء والإعلاميين. وجاء ذلك وفق ما ذكرت عن العلاقة بين الاتحاد السوفيتي ومصر، وأيضا لطبيعة بحثي الذي يتعلق بشأن الصحافة المصرية وليس شأن آخر.

كل ذلك لم يمنعني من إعداد أطروحة الدكتوراه وفق رؤيتي لوقائع مسيرة السياسة المصرية على عهد الرئيس ناصر. فقد كان هناك قانون للصحافة سمي من قبل رجال الحكم في القاهرة بقانون تنظيم الصحافة، ولكنني وجدت فيه قانونا لتأميم الصحافة وليس غير ذلك، حيث تكون الصحافة من خلاله

تحت إشراف الدولة ورقابتها وناطقة رسميا بسياساتها. وقد انتقدت من خلال بحثي سياسة الدولة المصرية استنادا لوقائع ووثائق مصرية وليس من صناعتي أو تألفي، أيضا تعرضت وهذا المهم لمسألة البناء الاشتراكي في مصر ومتبنيات الرئيس عبد الناصر لطرق بنائها، وقدمت صورة مغايرة لبعض ما كان يعتقد عنها بعض الساسة السوفييت. فالبناء الاشتراكي وفق النظرية الناصرية، لم يكن له علاقة بجوهر البناء الاشتراكي وبالذات الماركسي منه.

انتقادي للسياسة المصرية على عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، تصورها الدكتور إبراهيم العلاف، حاله حال الكثيرين من الذين يتمسكون بإخفاء الأخطاء وتزكية أصحابهم وأحبابهم وأساتذتهم ورؤسائهم، وأنا هنا أقف بعيدا عن كل هؤلاء في موقفني المبدئي، وأعتبر مثل هذا الموقف لا يعدو كونه مبني على أعراف قبلية، وفيه يظهر الاختلاف بين المبدأ وبين التمسك بالعادات والتقاليد. وموقفني ذلك دفع الدكتور العلاف لوضعي في خانة خيانة المعروف ونكران جميل، وكأن انتقاد سياسة الرئيس عبد الناصر كان انتقاصا منه. وهذا الاعتقاد مبني على أساس من قدم لك يد المساعدة عليك أن تغض النظر وتصم الأذان عن أي فعل يرتكبه، حتى وإن كان مؤذيا وغير حكيم. صحيح أن جمال عبد الناصر كان وطنيا مصرية قدم خدمات كثيرة

وكبيرة لشعب مصر، ولكن كانت لديه أخطاؤه وخطاياها حاله حال الكثير من قادة العالم وبالذات منهم من وضع سياسة بلدانهم بين أصابع أيديهم وتحت تصرفهم. أن نقد بعض سياسات عبد الناصر الداخلية والعربية لها أهميتها في المرحلة الراهنة، وليس فيها أي إساءة للرئيس المصري، بل هي ذات فائدة لمستقبل العلاقات بين الدول والشعوب العربية أولاً، وتسمح بتجنب المزالق التي يمكن أن تقع فيها سياسة هذا الحزب أو ذاك وهذه الدولة العربية أو تلك في أخطاء مماثلة، كما يحصل الآن.

كذلك أود القول للدكتور إبراهيم العلاف، بأن السيد محمد حسنين هيكل قدم لي مساعدة كبيرة من خلال توفير مصادر البحث العلمي من صحف ومجلات ووثائق في دار الأهرام في القاهرة وليس شيئاً آخر، وكانت علاقة مصر بالاتحاد السوفيتي لها أهمية خاصة عند جميع رجال السياسة والصحافة المصرية حينذاك، وكنت قد حصلت على توصيات وتسهيلات لإعداد أطروحتي من العديد من رجال الفكر والأعلام والسياسة المصريين، ووفق هذا المنحى فتح لي السيد محمد حسنين هيكل باب مؤسسة الأهرام وسهل لي الاطلاع والحصول على المعلومة عن الصحافة المصرية.

أخيراً أشاطر الدكتور إبراهيم العلاف الرأي بأن مدينتنا العزيزة الجريجة تستحق منا الكثير. وأنا متأكد بأنها سوف تنهض من جديد رغم الدماء والدموع والخراب والدمار الذي طالها، وسوف يقوم مواطنات ومواطنو الموصل بإعادة أعمار المدينة والتخلص من آثار الماضي الأسود الذي خلفها الإرهاب بجميع مسمياته.

أمل أن تكون لي فرصة لقاء مع الدكتور الفاضل إبراهيم العلاف على أرض الموصل الباسلة.



تشرفتُ صباح اليوم الجمعة ١٤ / ١٢ / ٢٠١٨ بزيارة الأخ العزيز والصديق الغالي الأستاذ الدكتور خليل عبد العزيز الكاتب والمؤرخ العراقي المغترب وهو يزور الموصل وكم كنت سعيداً بهذا اللقاء الجميل الذي جمعني به بعد كل هذه الغربة الطويلة وقد تحدثنا في كثير من قضايا التاريخ والسياسة والصحافة والاقتصاد. شكراً أخي على هذه الزيارة وأهلاً بك دوماً.....

ابراهيم العلاف

بعد نقاشات وعرض وجهات النظر من قبل الدكتور إبراهيم وأنا.. اتفقنا على لقاء في مدينتنا العزيزة الجريحة الموصل.. كان لقاءً ودياً وصريحاً.. ومن ناحيتي فان اللقاء مع الدكتور إبراهيم سيكون بداية جيدة لترسيخ صداقتنا التي بنيت على خلاف وبالتالي تلاقي وجهات النظر.. وستثبت الأيام قوة الصداقة الجيدة لخدمة مدينتنا الرائعة التي ستنهض من جديد في كافة مجالات الحياة... تحياتي للدكتور إبراهيم على حسن الاستقبال مع الأمنيات بالصحة واستمرار النشاط الثقافي.

خليل عبد العزيز

خلاف بين خليل و ابراهيم

ثم حوار فونام

أ.د. ضياء نافع

خليل هو الدكتور خليل عبد العزيز، السياسي المعروف ومؤلف كتاب - (محطات من حياتي) الصادر في بغداد العام ٢٠١٨، و ابراهيم هو الاستاذ الدكتور ابراهيم خليل العلاف، المؤرخ العراقي الكبير والاستاذ اللامع في جامعة الموصل، والخلاف الذي حدث بينهما هو خلاف فكري بحث حول موقفهم الشخصي من احداث معينة، جرت في التاريخ الحديث للعراق كانا (كلاهما) شاهدين لها وشاهدين عليها كل من موقعه. ولنبدأ قصة الخلافات (الفكرية!) الطريفة هذه من بدايتها، اذ انها - في رأينا - تستحق المتابعة الدقيقة فعلا (وصولاً الى الاستنتاج المنطقي حول ذلك، وهو الهدف الاساسي لهذه المقالة)، فهي خلافات بين علميين من أعلام المثقفين العراقيين المعاصرين، الذين يسهمون (بحياكة!) التاريخ العراقي الحديث وتدوينه للأجيال العراقية الحالية واللاحقة، وتدوين الاحداث (مهما كانت صغيرة) بدقة وموضوعية ينعكس - بالتأكيد - على مجمل مسيرة التاريخ العراقي ومصيره، وعلى نبض الحياة طبعاً بالنسبة لحاضر بلادنا ول مستقبلها ايضاً، ولتذكر بيت الجواهري، الذي رسم صورة فنية وعميقة لهذه الحالة:

ومن لم يتعظ لغد بامس وان كان الذكي - هو البليد

القصة هذه بدأت عندما كتب العلاف عرضاً جميلاً - كعادته دائماً لأنه مؤرخ يتابع ويسجل ما يجري حوله من أحداث - لكتاب خليل عبد العزيز (محطات من حياتي) باعتباره وثيقة مهمة من وثائق العراق وتاريخه، ونشر العلاف هذا العرض في موقع

الالكتروني معروف وواسع الانتشار، وهذا العرض هو قراءة موضوعية وهادئة وشاملة للكتاب المذكور. في ذلك العرض جاءت نقطة الخلاف الوحيدة واقعيا بين الاثنين، وكانت تدور حول تفاصيل احداث الموصل عام ١٩٥٩ الشهيرة، والمرتبطة بحركة الشواف، التي أسهم بها شخصيا د. خليل عبد العزيز، عندما كان أحد المسؤولين عن التنظيمات الطلابية آنذاك، والتي شاهدها أ.د. ابراهيم العلاف ايضا عندما كان يافعا.

بعد ان نشر د. ابراهيم العلاف تلك القراءة للكتاب، أجاب د. خليل عبد العزيز عليه بمقالة نشرها ايضا، ودافع طبعا عن وجهة نظره، التي جاءت في كتابه المذكور حول تلك الاحداث، وهكذا اصبح الخلاف بينهما علنيا، وقد اضطر العلاف بالطبع ان يجيب بمقالة جديدة يناقش فيها ذلك، وعاد عبد العزيز وكتب جوابا على ذلك الجواب، وهكذا أصبحت لدينا مجموعة مقالات، وهي - عرض للكتاب بقلم العلاف، وجواب على العرض بقلم عبد العزيز، وجواب على الجواب بقلم العلاف، وجواب على جواب الجواب بقلم عبد العزيز، وكنت اتابع هذا النقاش بدقة بين زميلين أعتز جدا بزمالكتهما، وبغض النظر عن رأيي الشخصي الخاص حول ذلك الخلاف، فقد كنت ارى في تلك النقاشات بينهما المستوى الرفيع والعفيف والنبيل للتعبير عن تلك الخلافات، فلا يوجد تشنج ولا عصبية ولا اتهامات ولا أحكام حادة تجاه البعض، وكان كل باحث يعرض بهدوء رأيه الخاص به، مع التأكيد على احترام الرأي الآخر رغم الاختلافات غير البسيطة بين الاثنين، وهذه مسألة كبيرة جدا في زماننا الرديء هذا، حيث نرى النقاشات (البذيئة والوسخة!) مع الاسف الشديد جدا، والتي يعطي منها الاندفاع الذاتي الوقح، والذي ينطلق من المصالح الشخصية البحتة، والمنافع المادية ليس الا، وكل ذلك يجري طبعا (برعاية!) من جهات واضحة المعالم.

ونعود الى قصة هذا الخلاف بين خليل و ابراهيم (التزاما بعنوان مقالتنا طبعا)، فقد انقطعت أخباره عني، بالرغم من أني كنت أتابعه بدقة، واستفسرت عن ذلك، فجاء

الجواب من الزميل الدكتور خليل نفسه، اذ تبين انه زار العراق، ومن الطبيعي انه يجب ان يمرّ حتماً بمدينة الحبيبة الموصل، وطنه الصغير ومسقط رأسه، ولكن هذا المرور كان لمدة يوم واحد فقط لا غير، اذ لم تسمح ظروفه باكثر من ذلك، ومع هذا، فقد اراد ان يلتقي بالدكتور ابراهيم الذي يسكن هناك، ولكن كيف؟ وهكذا قرر ان (يجازف!) ويبحث اليه بخبر عن رغبته تلك بحذر شديد وبوجل طبعاً، واذا بالدكتور ابراهيم يستجيب للمقترح بسرعة وبحماس منقطع النظير، وهكذا تمّ اللقاء في بيت الدكتور ابراهيم نفسه، وفي هذا اللقاء الجميل تحدثا عن تلك المقالات والخلافات، وتمت (تسويتها) بتلك الروحية الانيقة والراقية والنبيلة نفسها، التي تحدث بين المثقفين الحقيقيين، الذين توحدتهم روحية عراقيتهم الاصيلية وعراقة اصالتهم العراقية وجذورهم الوطنية في اعماق الارض العراقية، وهذا هو الاستنتاج الذي اشرت اليه في بداية هذه المقالة، وهذا هو الهدف من كل هذه السطور التي اكتبها، والتي اريد في نهايتها ان احيي الدكتور خليل، الذي كتبت عنه العديد من مقالاتي، ومنها مثلاً - (خمس ساعات في موسكو مع د. خليل عبد العزيز بحلقتين / كتاب نصف قرن بالروسية.. وغيرها)، وكذلك اريد ان احيي الاستاذ الدكتور ابراهيم خليل العلاف، الذي أعرفه منذ سنوات النشر في جريدة الجمهورية البغدادية في سبعينات القرن العشرين، والذي اقترحت مرة عليه (عندما كنت مديراً لمركز الدراسات العراقية - الروسية في جامعة فارونش الروسية بداية القرن الحادي والعشرين هذا) اصدار كتاب بتأليفه عن المركز، يعرف الروس بعدة شخصيات عراقية، وأذكر استجابة د. العلاف السريعة لهذا المقترح، وكيف انه أرسل لي فعلاً المواد الاولية عن هؤلاء الاعلام العراقيين، وكم تأسفت آنذاك لان مركزنا لم يستطع تحقيق ذلك المقترح الرائد، والذي ما زلت حتى الان أحلم بتحقيقه مستقبلاً ضمن خطط دار نوار للنشر.

إيرنبورغ و خليل عبد العزيز في تأبين ناظم حكمت

أ.د. ضياء نافع

التقينا مرات ومرات، د. خليل عبد العزيز وأنا، فهو زميل الدراسة في جامعة موسكو بالسبستينيات، وكتبت عدة مقالات تفصيلية ونشرتها عن أحاديثه السياسية الممتعة وشبه المجهولة بالنسبة للتاريخ السياسي العراقي المعاصر، ورغم إن تلك الأحاديث كانت تدور عن قضايا صغيرة، إلا أنها مهمة للتعلم في مسيرة التاريخ السياسي العراقي الحديث وتحليل وقائعه وإلقاء الضوء على أسراره (انظر مقالاتنا العديدة عنه ومنها على سبيل المثال وليس الحصر - خمس ساعات في موسكو مع د. خليل عبد العزيز)، وأذكر إنني قلت له مرة، انك سياسي قبل كل شيء وبعد كل شيء، فضحك خليل وقال نعم، هذا صحيح، فانا أمارس السياسة منذ عام ١٩٥٢ ولحد الآن. ولكن يجب القول - مع ذلك - إننا تحدثنا في تلك اللقاءات العديدة عن بعض الأحداث الجانبية أيضا، البعيدة نسبيا عن السياسة رغم ارتباطها بالسياسة - بشكل أو بآخر - في نهاية المطاف، ويبدو لي أنها تستحق التسجيل أيضا، إذ أنها ممتعة أولا كما أظن، وثانيا، ربما تضيف تلك الأحاديث شيئا جديدا للقارئ، وها أنا ذا اروي واحدة من تلك الأحاديث الطريفة هنا -

حدث ذلك في موسكو عند وفاة الشاعر التركي الكبير ناظم حكمت في عام ١٩٦٣. كلّف تنظيم الحزب الشيوعي العراقي / فرع الاتحاد السوفيتي خليل عبد العزيز بالذهاب إلى قاعة الأعمدة في مركز موسكو لتمثيل الحزب في تأبين الشاعر، حيث كان جثمان ناظم حكمت مسجّى في تلك القاعة المهيبة بمركز موسكو لوداعه من قبل أهله وأصدقائه، وذلك حسب التقاليد الروسية للدفن. ذهب خليل طبعاً، ووقف

مع الحاضرين، وقام بدوره كمندوب للحزب الشيوعي العراقي. في هذه الأثناء شاهد فجأة الكاتب السوفيتي الشهير ايليا ايرنبورغ، او اهرنبورج كما يكتبه بعض المترجمين العرب. استطاع خليل طبعا التعرف عليه، إذ انه معروف إعلاميا، وأراد أن (يتتهز!) هذه الفرصة النادرة للحديث معه. لم يكن خليل يتصور هذا اللقاء أو يتوقعه، ولم يكن طبعا مستعدا له بتاتا، ولكن ومن اجل عدم تفويت فرصة مثل هذا اللقاء الطريف والتاريخي بالنسبة له، اقترب خليل من ايرنبورغ، ولم يستطع أن يقول السياسي خليل لارنبورغ سوى جملة واحدة تعكس فعلا شخصية خليل السياسي في كل شيء، وتعبّر عن ذلك خير تعبير، والجملة هي - هل أنت ايليا ايرنبورغ، الذي كان ضد ستالين؟ اندهش ايرنبورغ من هذا الشخص الغريب في مأتم ناظم حكمت، ومن طبيعة سؤاله الغريب أيضا، وغير المتلائم بتاتا مع هذا الموقف، واستنتج ايرنبورغ طبعا، أن هذا الشخص، الذي يطرح مثل هذا السؤال عام ١٩٦٣ (أي بعد كل هذه السنوات من وفاة ستالين، وفي تأبين الشاعر التركي ناظم حكمت) لا يمكن أن يكون سوفيتيا بأي حال من الأحوال، فابتسم ايرنبورغ وسأله - من أين أنت؟ فأجاب خليل، أنا من العراق، فقال له ايرنبورغ، وانتم تعرفون في العراق أي كنت ضد ستالين؟ وتركه وهو يبتسم، وذهب للاستمرار بالمشاركة في عملية تنظيم التآبين تلك .

ضحكت أنا، عندما حكى لي د. خليل عبد العزيز هذه الحادثة، وحكى له، باني ساهمت أيضا في ذلك التآبين، إذ كنت مع مجموعة من طلبة كلية الفيلولوجيا بجامعة موسكو (وكانت قريبة من تلك القاعة في مركز موسكو)، وعندما سمعنا بوفاة ناظم حكمت، قررنا الذهاب إلى التآبين والمشاركة فيه تعبيراً عن حبنا واحترامنا لهذا الشاعر الكبير، وشاهدت هناك ايرنبورغ طبعا، الذي كان نشيطاً بالمشاركة في مراسم التآبين، لان ناظم حكمت كان صديقه ورفيق دربه الفكري، ولكنني لم أتجاسر واقترب منه والتكلم معه، بل كنت انظر إلى جثمان ناظم حكمت المسجى بملابسه على سرير وسط القاعة، وكانت زوجته الروسية تجلس جنبه وهي تبكي بصمت وتمسّد وجهه بيدها،

أما زوجته التركية وأم ابنه، فقد كانت تقف على بعد مترين تقريبا وهي تبكي بصمت أيضا وتنظر إليه وإلى زوجته الروسية الجالسة عند رأسه بحزن واضح
أتمنى أن تسنح لي الفرصة لاحقا للحديث عن لقاء د. خليل عبد العزيز مع الموسيقار
السوفيتي الارمني الشهير آرام خاجاتوريان، وماذا قال لخليل عن الموسيقار محمد عبد
الوهاب...

شئ عن الموسيقىار خاتشاتوريان

أ.د. ضياء نافع

ولد الموسيقىار الارمني آرام خاتشاتوريان عام ١٩٠٣ في الامبراطورية الروسية وتوفي عام ١٩٧٨ في الاتحاد السوفيتي، وعندما وصلنا الى موسكو عام ١٩٥٩ لم نكن نعرفه، ولم نكن قد سمعنا باسمه اصلا، ولكن بعد عدة شهور من دراستنا للغة الروسية وبداية تعايشنا مع المجتمع السوفيتي المحيط بنا (اكتشفنا!) هذا الموسيقىار الشهير جدا في الاتحاد السوفيتي آنذاك، واصبحنا جميعا من المعجبين (بل والمندهرشين!) جدا بفنّه الموسيقي، وعشقنا خصوصا مقطوعته الموسيقية الشهيرة بعنوان (رقصة السيوف)، وكنا نتحدث عن انبهارنا بها، لأنها كانت تتناغم وتنسجم جدا مع روحيتنا الشبابية المتأججة وحيويتها.

لم نستطع طبعاً ان نلتقي بخاتشاتوريان، او حتى الاقتراب من تلك الاوساط التي يختلط معها هذا الموسيقىار الشهير، الا ان د. خليل عبد العزيز، الذي بدأ يعمل - بعد حصوله على شهادة الدكتوراه في الصحافة - بمعهد الاستشراف التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، التقاه عدة مرات وتحدث معه، لأن طبيعة عمل د. خليل في المعهد المذكور (ومع رئيس المعهد الاكاديمي غفوروف بالذات) سمحت له اللقاء مع الوفود العربية التي كانت تزور موسكو برئاسة القادة العرب، ومنهم عبد الناصر والملك الاردني الحسين والملك المغربي محمد الخامس... الخ، وهكذا التقى الموسيقىار خاتشاتوريان اثناء زيارة الملك المغربي لموسكو وتحدث معه، وعندما كنت ادرّش مرة مع د. خليل (وما أكثر تلك الدردشات، والتي كتبت عنها عدة مقالات)، قلت له، انت تتحدث دائما حول السياسة والسياسيين، واريد ان اسمع منك حديثا بعيدا عن السياسة، فضحك د. خليل وقال، لأحدثك عن الموسيقىار الارمني

الكبير خاتشوتوريان، فعندما التقيته وعرف اني من العراق، قال لي مبتسماً، عندكم (حرامي بغداد) جديد، ظهر في الموسيقى العربية المعاصرة اسمه محمد عبد الوهاب. اندهشت أنا من كلام خاتشوتوريان هذا، بل امتعضت في الواقع، وقلت لخليل رأساً، ألم تقل له، ان محمد عبد الوهاب هو موسيقار الاجيال العربية، واننا جميعاً نستمتع اليه طوال حياتنا بكل اعجاب وحب ولا نملّ ابداً من اغانيه الجميلة ذات الالحن الرائعة، فأجابني د. خليل، نعم قلت له ذلك، ولكن خاتشوتوريان أوضح لي، ان محمد عبد الوهاب موسيقار ذكي جداً، وانه يعرف كيف يتعامل مع الالحن الاجنبية ويستخدمها في موسيقاه، بل ان خاتشوتوريان قال لي، انه يمتلك مكتبة موسيقية كاملة تبين جذور تلك الظاهرة وتثبتها، فقلت أنا لخليل، أخشى ان هذا الكلام ينطلق من حسد او غيرة ليس الا من شخص ناجح مثل عبد الوهاب، فقال لي د. خليل، ان نجاح وشهرة خاتشوتوريان ليست أقل من نجاح وشهرة عبد الوهاب، بل هي واقعياً أكبر، وحدثني، كيف دعاه الملك محمد الخامس لزيارة المغرب، وكيف ان الموسيقار الارمني قد اعتذر عن تلبية قائلاً للملك، ان اجازته قد شارفت على الانتهاء، وبالتالي ليس لديه وقتاً لتلبية تلك الدعوة، وان الرئيس السوفيتي عندئذ بودغورني كان يستمع الى دعوة الملك واعتذار الموسيقار، وقال لخاتشوتوريان ان يوافق على الدعوة، وانه لا توجد اي مشكلة بشأن تمديد اجازته، وقد زار خاتشوريان المغرب فعلاً، واعتذر هناك عن تلبية الدعوة لتأليف موسيقى النشيد الوطني لهم.

بقيت كلمات خاتشوتوريان عن عبد الوهاب في ذاكرتي طويلاً، اذ اني من المعجبين جداً باغاني هذا الفنان العربي الكبير، ولكن - مع هذا - بدأت بالبحث والاستفسار حول ذلك، اذ ان آراء موسيقار كبير بمستوى خاتشوتوريان لا يمكن ان تكون عبثية، وقد وجدت مرة اغنية يونانية لمطربة اسمها صوفيا فيمبو، والاغنية هذه نسخة طبق الاصل لاغنية عبد الوهاب (يا مسافر وحدك) المعروفة، وقد استمعت فعلاً الى تلك الاغنية اليونانية مع مجموعة من الزملاء، وعلّق أحدهم قائلاً - ربما هذه المغنية هي

التي اقتبست اغنياتها من عبد الوهاب، وضحكنا جميعا، وقلنا، اننا لا نقدر ان نتناقش لا مع خاتشوتوريان، ولا مع هذه المغنية اليونانية، وقال شخص آخر بيننا، ان هذه الاحاديث ليست جديدة ابدا بالنسبة لمحمد عبد الوهاب، ويقال، انه يوجد حتى تقرير تفصيلي لليونسكو حول (١٣) اغنية من أغانيه مقتبسة (ولا اريد استخدام كلمة مسروقة!) من ألحان غربية معروفة، وأشار زميل رابع، الى انه سمع، ان هناك أغان مشهورة لعبد الوهاب مأخوذة من ألحان اجنبية مثل اغنيته المشهورة من كلمات بشاره الخوري - (جفنه علم الغزل)، الا اننا اتفقنا جميعا، اننا لسنا من العارفين (بخفايا!) الموسيقى والموسيقين والملحنين، ولكننا نحب عبد الوهاب ونحترم موهبته ونستمع الى اغانيه ونطرب لها، ونقدّر دوره الكبير في عالم الموسيقى العربية، وبدأ زميل بيننا (كان صامتا اثناء هذه الدردشة) يدندن باغنية وهو يقول، انها الاغنية التي يعشقها طوال حياته، رغم انه سمع ايضا، ان محمد عبد الوهاب (استعارها!) من الآخرين، والاغنية هي -

أحب عيشة الحرية....زي الطيور بين الاغصان

مادام حبايبي حواليه... كل البلاد عندي اوطان

الأكاديمي غفوروف بعيون الصحفي والسياسي العربي خليل عبد العزيز

بقلم تاج الدين ماردوني



في عام ٢٠١٨ ومن دار النشر البغدادية سطور صدرت الطبعة الأولى لكتاب الصحفي والسياسي العراقي المعروف د خليل عبد العزيز محطات من حياتي سجون اغتراب النضال. الواضح من عنوان الكتاب أن الكاتب عاش حياة صعبة تعرض فيها إلى مشقة كبيرة، في النضال من اجل حرية بلاده، وشارك في الكثير من النشاطات السياسية لأجل مستقبل الشعب العراقي، ونيل حقوقه وحرياته. ولد خليل عبد العزيز عام ١٩٣٤ في مدينة الموصل العراقية القديمة. وفي عز شبابه أنغمر في العمل السياسي. في عام ١٩٥٢ استطاع تأسيس اتحاد الطلبة العراقي العام في الموصل، و شارك في نشاطات وأعمال هذه المنظمة، وبالذات في التظاهرات ضد الحكومة آنذاك في الموصل. في سنة ١٩٥٤ أصبح خليل عبد العزيز رئيسا للاتحاد العام للطلبة هناك، وانضم الاتحاد على عهده إلى جبهة الاتحاد الوطني. وقاد و شارك في نشاطات الجبهة لأجل فوز مرشحها لعضوية المجلس النيابي، ولهذا السبب قررت السلطات اعتقاله. لكن رفاقه في النضال سرعان ما أرسلوه إلى بغداد، وهناك انتخب عضوا في اللجنة العليا لاتحاد الطلبة العام العراقي. وفي الوقت نفسه عمل في اللجنة الطلابية التابعة

للحزب الشيوعي العراقي في بغداد. عام ١٩٥٦ اعتقل هذا الشاب النشيط في بغداد وحكم عليه بالسجن لمدة سنة ووضع في سجن بعقوبة، ومن ثم تم إبعاده لمدة سنة إلى مدينة بدرية في لواء الكوت، وبعدها رحل إلى معسكر الشعبية في البصرة جنوب العراق بحجة هروبه من الخدمة العسكرية. عام ١٩٥٨ حدثت في العراق ثورة ١٤ تموز لذا أطلق سراحه بعد فترة ليعود إلى بلده الموصل. ترأس خليل فرع اتحاد الطلبة في هذه المدينة، ونظرا لنشاطاته المكثفة والمعادية للرجعية، ونضاله من اجل الديمقراطية ومن اجل الكادحين، وكذلك مشاركته الفعالة في قمع مؤامرة العقيد الشواف التي حدثت في الموصل، أصدرت المحاكم العراقية بحقه عام ١٩٥٩ حكما بالإعدام.

كان الحزب الشيوعي العراقي في تلك الظروف السائدة، وسطوة الرجعية، يعمل بشكل سري. ولكنه استطاع وبشكل خفي أن يرسل خليل إلى موسكو، وهنا تبدأ محطة جديدة في حياته، حيث درس اللغة الروسية في الكلية التحضيرية التابعة لجامعة موسكو. وأصبح فيما بعد طالبا في كلية الصحافة بجامعة موسكو. عندما كان خليل مشغولا بالدراسة بدأ يتعاون مع الوكالة السوفيتية للطباعة والنشر -وكالة نوفستي- فكتب في مطبوعاتهم مقالات باللغة العربية والتي تم طبعها ونشرها في المجلات التي كانت تصدر باللغة العربية في عدة بلدان عربية. وبعد مناقشة أطروحته للماجستير التي كانت بعنوان - ظهور ونشاطات الحزب الوطني الديمقراطي العراقي لكامل الجادرجي، أراد أن يخصص حياته للعمل في مجال الصحافة الدولية. إلا أن شغفه بالعلم وتحليله للبحوث واهتمامه بالقضايا السياسية والاجتماعية المعاصرة، ودراسته للعمليات السياسية والاجتماعية للدول العربية، أدت إلى أن يقترح المجلس العلمي للكلية عليه ممارسة العمل الصحفي وبنفس الوقت يلتحق بدراسة الدكتوراه في نفس الكلية وبذات الاختصاص ويعمل على إعداد أطروحته الدكتوراه. ووافق خليل بكل سرور على هذا الاقتراح. في الوقت الذي كان فيه منهمكا في العمل الصحفي. وخلال عمله الصحفي أستطاع كسب العديد من الأصدقاء والزملاء، وتعرف على الكثير

من الشخصيات العلمية والسياسية والاجتماعية، وخصوصاً ممثلي ومسؤولي الحزب الشيوعي في الأجهزة السوفيتية. مهنة الصافة الدولية هيأت له مقابلة شخصيات سياسية هامة، وكان بدوره يقوم بمقابلات صحفية معهم، خصوصاً مع العاملين في البعثات الدبلوماسية في موسكو، ومع الكثيرين من الرؤساء والشخصيات القيادية في عواصم بلدان عديدة.

في كتابه - محطات من حياتي - يقول كنت شاهداً على الكثير من الأحداث السياسية الهامة في الاتحاد السوفيتي و بلدان أخرى. ومن ضمن اهتماماته الخاصة وفي مذكراته يركز على ابن الشعب التاجيكي البار باباجان غفوروف الذي لعب دوراً مهماً وحيوياً في حياة ومصير خليل عبد العزيز. أظن أن هذا بالنسبة إلى القاريء الطاجيكي سيكون ممتعاً جداً. حيث يتعارف من خلال مذكرات السيد خليل عبد العزيز على بعض جوانب الحياة الخفية لأعمال الأكاديمي باباجان غفوروف والذي دون من قبل الصحفي العربي العراقي والسياسي المشهور خليل عبد العزيز، الذي يعيش حالياً في السويد.

في مذكراته - محطات من حياتي - من المنطقي بالنسبة إلى الشاب خليل عبد العزيز والذي كان يعيش في موسكو، منذ بضعة سنوات أن سمع وعرف عن العالم السوفيتي البارز باباجان غفوروف رئيس معهد الأستشراق في أكاديمية العلوم السوفيتية، لكن لم تكن لتتاح له الفرصة أن يلتقي به. كونه مشغولاً بإعداد أطروحة الدكتوراه للمناقشة. حينذاك كان ينعقد في يريفان عاصمة جمهورية أرمينيا السوفيتية، مؤتمر دولي للجنة التضامن مع الأدباء والكتاب في دول آسيا وأفريقيا، وفي ذلك الوقت اقترحت كلية الصحافة ومنظمة التضامن على خليل عبد العزيز العمل ضمن هذه اللجنة للإعداد للمؤتمر، وأن يكون مسؤولاً عن وفود الدول العربية. ووافق خليل على هذا الاقتراح وذهب إلى يريفان بكل حماس وجهد. في أحد الأيام الأخيرة للمؤتمر جاء إلى خليل

شخص وقال له بأن أحد قادة المؤتمر، يريد الالتقاء بك في فترة الاستراحة، وعندما سأل خليل من هو هذا القائد، قالوا له انه غفوروف أحد قيادي المؤتمر. في فترة الاستراحة ذهب إليه خليل وسلم عليه بحرارة، وبدوره أخبره القائد بانه باباجان غفوروف رئيس معهد الأستشراق في موسكو ونائب رئيس لجنة التضامن الآسيوي - الأفريقي. وساله غفوروف: من إي جمهورية في الاتحاد السوفيتي أنت؟ فأجاب خليل أنا عراقي من العراق، كان الحوار باللغة الروسية، إلا إن غفوروف تعجب ونظر إلى خليل وقال له ماذا تفعل في المؤتمر؟ من الجائز أن غفوروف أعتقد بان خليل من اوزبكستان لقرب سحته وشبهها بأبناء تلك الجمهورية. وقال له خليل انه عضو إعداد المؤتمر ومهمته مساعدة وفود الدول العربية ومرافقتهم. بعد ذلك بدأ غفوروف يسأل خليل عن أصل عمله ومهنته، وعن الدراسة والدكتوراه، مستوى إعداد أطروحته والمشاكل التي يواجهها في إعداد الأطروحة للمناقشة الى آخره من المواضيع. وانتهاز خليل هذه الفرصة وزوده بتفاصيل المشاكل التي كان يواجهها لمناقشة أطروحته وعلاقته مع بريماكوف الذي كان يعمل آنذاك في معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية، والذي كان على خلاف معه حول موضوعة الأطروحة، لان الخلاف كان نظريا يدور حول الحركة الوطنية في الدول العربية. كان غفوروف مهتما بهذا الخلاف بين خليل و بريماكوف، حينها عبر خليل عن موقفه عندما كان يلتقي مع بريماكوف في مصر، ذلك الوقت الذي كان فيه يجمع المواد لأطروحة الدكتوراه. نصح بريماكوف خليل ان يغير عنوان أطروحته، كونه يتناقض وسياسة او مبادئ الحزب الشيوعي السوفيتي وعلاقته مع الشيوعيون والحركة العمالية في بلدان العالم الثالث. لكن خليل لم يتفق مع ذلك وقال بان رأي بريماكوف لا يعني بالضرورة رأي الحزب والحكومة السوفيتية. وأخبر خليل عبد العزيز غفوروف بان أطروحته أرسلت إلى المعهد الماركسي اللينيني التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، لغرض دراستها والموافقة عليها. حينها عبر غفوروف من جانبه عن الاستعداد للتعاون معه وبذل قصارى جهده،

كي يرسلوا الأطروحة إلى معهد الاستشراق وإلى اللجنة العلمية بغية مناقشتها. بعد انتهاء مؤتمر التضامن الآسيوي الأفريقي للكتاب، رجع خليل إلى موسكو وعلم بأن المعهد الماركسي اللينيني قد ناقشوا أطروحته بشكل إيجابي، بالرغم من وجود وجهات نظر مختلفة عما موجود في الأطروحة والتي لم تتطابق مع سياسات الاتحاد السوفيتي، خصوصاً من الناحية الأيديولوجية، وكان رأي المعهد بأن ليس هناك مشكلة في مضمون الأطروحة، بل هناك رأي قابل للمناقشة، والقرارات التي تصدر ستكون مبنية على الناحية العلمية، والإطار الأكاديمي والمضمون العلمي للأطروحة. وقرر المعهد أن تكون المناقشة سرية، وأن تكون لجنة المناقشة محدودة، ومنع وسائل الإعلام من تغطيتها. صوت ١٥ عالماً من مجموع ١٦ من أعضاء المجلس العلمي بشكل إيجابي، وتمت الموافقة بنجاح، وترحيب من قبل معهد الاستشراق، وفي اليوم التالي استقبل خليل من قبل غفوروف وهنأه الأخير بدوره، واعتبر خليل عبد العزيز بأن هذا اللقاء مع رئيس معهد الاستشراق بمثابة سيرة جديدة في حياته. وكان غفوروف في الماضي يشغل منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعي الطاجيكي، وشارك بشكل فعال لانجاز الكثير من المهام الاشتراكية والثورية في طاجكستان، ولذا حاز على خمسة أوسمة من القيادة السوفيتية في عهد ستالين. ويروي خليل في مذكراته كيف كان يحضر لليوم التالي للقاء غفوروف، ويقول عن معهد الاستشراق لأكاديمية العلوم السوفيتية، الذي كانوا يسمونه قصر العلوم المعرفية - وعن غفوروف: عندما دخلت المبنى ذهبت إلى الاستعلامات وقلت، لدي موعد مع رئيس المعهد، عندها طلب منه الموظف أن يعرف بنفسه، وبعد ذلك بلحظات أوصلني إلى غرفة الرئيس، دخلت الغرفة ونهض غفوروف من مكانه وجاء لصافحني بحرارة، وهتني بمناسبة نجاح أطروحتي وقال - أظن أنك تمكنت أن تجتاز حاجزاً كبيراً، وأظن إنني قمت بواجبي - في هذه اللحظة لم يدر في بالي أي شيء لتفسير ما قاله غفوروف. عندما باشرت بالعمل في المعهد آنذاك أدركت أي دور لعب غفوروف لإبعاد الحواجز والمشاكل التي كانت تواجه مناقشة

أطروحتي. وبعد ذلك سألني غفوروف ماذا أريد أن أعمل بعدما حصلت على شهادة الدكتوراه، وما هي خطط مستقبلي؟ قلت كل هذا يتعلق بموقف الحزب الشيوعي العراقي الذي يرفع شعار التحصيل العلمي والعودة للوطن. وفجأة قال غفوروف عليك العمل معنا في المعهد ما هو رأيك هل أنت موافق؟ ذهلت بهذا الاقتراح وشعرت بسرور. بالرغم من الارتباك الذي كان بداخلي، مع هذا قلت لغفوروف لم استلم الشهادة بعد وكيف اعمل معكم؟ وقال غفوروف: بإمكانك ألا تقلق على هذا، بالنسبة لي لا يهم ولا يعني لي شيئاً -، غدا صباحاً بإمكانك أن تأتي إلى هنا وتباشر بعملك معنا. بعد حوار طويل تعجب خليل كثيراً عندما عينه غفوروف كباحث أقدم، وكان مهنة الباحث العلمي بالنسبة لخليل الذي لم يستلم بعد شهادته، مفاجئة: إن تعيني في هذا المنصب كان يتطلب سنين من الخدمة. وبعد حوارٍ معه تبين لي السبب، كي استلم راتباً مقداره ١٨٠ روبل وليس ١٥٠ وكان ذلك مساعدة منه لي. اللقاء مع غفوروف والحوار معه بالنسبة إلى خليل لم يكن عليه سوى الموافقة على الاقتراح وان يباشر العمل في هذه المنظمة العلمية البحثية الرصينة في الاتحاد السوفيتي. رأى غفوروف في هذا الشاب جهداً علمياً ناضجاً وصاحب كفاءة سياسية، وبذل جهداً كثيراً ليصبح مثالياً وإنساناً علمياً ومتواضعاً وفي الوقت نفسه شخصاً حاسماً وثابتاً والذي يتمتع بخبرة ثورية ضد الاستعمار والرجعية العربية. باشر خليل في العمل واخذ هوية المعهد كباحث أقدم وأتاح له الفرصة الحصول على شقة متواضعة للعيش فيه. وبدأ بالعمل بطاقة أكبر، إلا إن رفاقه في الحزب مازالوا يطلبونه بالعودة إلى العراق بالرغم من أنهم كانوا يعرفون أنه يواجه حكم الإعدام. لكن بعد لقاءه مع قادة الحزب الشيوعي العراقي، ومناقشة الموضوع معهم والتلويح بأن بقاءه في المعهد سيكون من مصلحة الحزب، لم يبقَ شيئاً لدى القيادة إلا أن يوافقوا على رأي خليل والتصالح معه. عمل خليل عبد العزيز بكل إخلاص وغيره ومن خلال عمله وبمرور الزمن أتاحت له الفرصة للتعرف على قيادات كبيرة وكثيرة في الاتحاد السوفيتي ومع

الدبلوماسيين وكبار مسؤولي الحزب. وغالبا ما كان يسافر وبإيفاد إلى بلدان أخرى وأتيحت له الفرص للالتقاء بممثلي السلطات وأعضاء الحكومة في تلك البلدان، ومع الشخصيات الاجتماعية والسياسية الثقافية والفنية ومع رؤساء الوزراء والشخصيات الحكومية. إن معهد الاستشراق هيا جوا مناسبا لخليل وأتاح له الإمكانية للكتابة ونشر مواضيع حول المؤامرات السرية والأحداث التي كانت تجري وراء الكواليس، والمناورات السياسية، وعن اللعبة السياسية في ممرات السلطات في بعض البلدان. كل هذه الأحداث مسجلة في ذاكرته، وكأنها حدثت في الأمس القريب. ولهذا أراد بشكل سريع أن يكتبها على شكل صفحات وبما جرى من أحداث، وكل ما سمع ورأى في حياته، بشرط ان يحكم أصدقاؤه على هذه السطور ويحكم التاريخ عليها أيضا بشكل عادل.

في اليوم الأول في معهد الاستشراق جرى حوار بين خليل عبد العزيز وبابا جان غفوروف حول طبيعة عمله والتزاماته الوظيفية وجدول عمله اليومي. وشرح له غفوروف أصول وطبيعة عمله، وقال له : يجب أن لا تكون لك إي علاقة مع الأقسام الأخرى إلا إذا ما اقترحوا عليك التعاون معهم. بجانب عمله أصبح خليل مساعدا لغفوروف في بعض متطلبات العمل، ولم يوضع له جدول لأوقات العمل مثلما كان مطلوباً من باقي الباحثين والموظفين في المعهد والذي حدد عملهم بالتواجد في العمل ليومين في الأسبوع، لكن كما يقول خليل : كان من المفروض تواجدي يوميا في المعهد، بالإضافة إلى ذلك تنفيذ كل ما يطلب مني غفوروف يجب في أي مكان وأي وقت. في اليوم الثالث طلب غفوروف من خليل أن يعد له تقريراً حول الأوضاع في اليمن الجنوبية وأوضح غفوروف بان الموضوع ضروري للمعهد، كي يكون على علم بما يجري من الاحداث هناك، ومساعي السلطة للتمسك إيديولوجيا الدولة بنهج الاشتراكية العلمية. وبناءً على ذلك تتم إدارة شؤون الدولة. لكن في البداية أعطى غفوروف معلومات إلى خليل عبدالعزيز حول موقف الاتحاد السوفيتي إزاء الأحداث

الجارية في اليمن الجنوبية، وحدد له صفة العلاقات بين البلدين. بعدها سأل غفوروف خليل هل لديه اية معلومات عما يجري في اليمن؟ فأجابه خليل: إن لديه علاقات مع ممثلي الحزب الاشتراكي اليمني في موسكو، وهو مراسل لجريدة يمنية باسم - ١٤ أكتوبر - وجاء ذلك بناءً على طلب طلاب وأعضاء هذا الحزب بأن يكون هو مراسلا. فرح غفوروف عندما سمع هذا من خليل، و طلب منه أن يطور علاقاته معهم بصورة واسعة. بالفعل كان لدى خليل معلومات كثيرة عن الأحداث في اليمن الجنوبية، وذلك بفضل علاقاته مع الطلاب اليمنيين الذين كانوا يدرسون في موسكو، وكان قسم منهم أعضاء في الحزب الاشتراكي، والقسم الآخر من معلوماته كان قد حصل عليها من وسائل الإعلام السوفيتية عندما كان يتابعها.

أول موضوع قدمه خليل كان يتعلق بالنضال السياسي في اليمن، ومعلومات عن قاداته المعروفين وعن الرؤساء السياسيين الذين يترأسون ذلك النضال، وأشار لكون جميع السياسيين كانوا شبابا قليلي الخبرة السياسية و النضالية، وكتب عن ماضيهم السياسي وارتباطاتهم بالحركة القومية العربية. وضع خليل ووضح صورة متكاملة لتطورات هذا النضال، وأشار إلى انه من الممكن أن تنفجر الصراعات فيما بينهم في أي لحظة بسبب النعرة القبلية. وبين في تقريره صعوبة بناء الاشتراكية في هذا البلد الفقير، وفي ظل هذا الظروف خصوصا في ظل القيادات الغير كفوءه ومن الذين يفتقرون الخبرة السياسية، ويتميزون بثقافة واطئة. وضع خليل تقريره هذا على طاولة غفوروف، وبعد ذلك طلب غفوروف من سعيد كاميلوف الذي كان يعرف اللغة العربية جيدا، أن يترجم هذا التقرير إلى اللغة الروسية، وكان سعيد حبيب الله كاميلوف رئيس المركز الثقافي السوفيتي سابقا في المغرب، وهو الآن احد زملاء معهد الاستشراق و باحث علمي وكان يساعده في العمل فتاة روسية تعرف اللغة العربية بشكل ممتاز. وقال غفوروف لخليل بعد انتهاء الترجمة أنا اقرأه وأناقش معك هذا الموضوع. وبعد يومين التقى غفوروف بخليل وقال له قرأت ما كتبته وأنا أتوافق وجميع آراءك واستنتاجاتك،

لكن لا تنسى هناك قادة لمنظمات سوفيتية، ليسوا موافقين مع آراءك واستنتاجاتك. وبعد مرور عدة أشهر على عمل خليل في المعهد تبين له انه توجد صراعات عميقة وتنافس سياسي قوي بين مجموعات داخل المؤسسات وسلطات الدولة السوفيتية خصوصا في صفوف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. لكن كل هذه الصراعات كانت سرية ومخفية عن الشعب خصوصا في مؤتمر أو بلييوم الحزب، كل ذلك كان بعيدا عن أنظار الكادحين والشعب. بعد مدة أخرى سلم غفوروف لخليل اضبارة تحتوي على مواضيع تخص أفغانستان، واقترح على خليل أن يقوم بدراسة تلك المواضيع، التي يعرفها الناس العاديون عن طرق وسائل الإعلام. كانت الإضبارة معدة من قبل أجهزة المخابرات وبالأخص من قبل سفارة الاتحاد السوفيتي، ومن قبل الجرائد والصحفيين حول مواقف الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وغيرها. وكان في هذا الوقت قسم من الجيش السوفيتي متمركزاً في أفغانستان. لذا قال خليل ماذا افعل بكل هذه الاضبارة، خاصة عندما كل محتوياتها تخص هذا البلد؟ قال غفوروف انه لا يريد أن يتكلم كثيرا عن هذا الموضوع، ولا يريد منه الآن أن يعبر عن وجهة نظره أو التكلم عن هذه الأحداث أو يعبر عن رؤيته المستقبلية لهذا الحدث، بل المهم عند غفوروف هو المعلومات التي تؤكد أو تكذب هذه الآراء المتنافرة في فهم أو تفسير المسألة الافغانية، وخصوصا بيننا وبينهم. وطلب من خليل أن يقرأ ويكتب رأيه ويجلس مع كاميلوف كي يترجم الموضوع إلى اللغة الروسية. وفجأة فكر خليل في هذه الجملة - الخلافات بيننا وبينهم - وأحس انه أصبح جزءاً من هذه المجموعة التي يترأسها غفوروف.

تطور الأحداث في مصر واضطراب الحالة إلى أبعد من المنظور، وهذا الوضع المتأزم بات لا يمكن إخفائه عن أنظار الناس، لأنه ظهر في القيادة، خصوصا بعد طرد الأخصائيين الفنيين السوفيت من مصر، وأصبح التقارب المصري - الإسرائيلي واضحا. يقول خليل في هذه الفترة طلب مني غفوروف أن اكتب تصوراتي عن أحداث

مصر، والتي كان كاملوف بدوره يترجمها إلى اللغة الروسية، ومن ثم دمجها مع بقية المواد الأخرى ورفعها باسم معهد الاستشراق إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، لكن بدون ذكر اسم ولقب الكاتب لهذا التقرير، لكن في أحد الأيام طلب مني غفوروف أن أوقع واكتب اسمي في التقرير كأحد المشاركين بإعدادة، أحس خليل بأن شيئاً ما تغير في هذا الموضوع، وتوجه بسؤاله إلى باباجان غفوروف عن سبب هذه التغيرات؟ وأجاب غفوروف بأن المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي، قرروا بأن جميع من يشارك بإعداد هذا التقرير يجب أن توضع أسمائهم وألقابهم. وشعر خليل بداخله بأن هذا القرار جاء فقط بسببه، يتعلق شخصياً به ولا أحد غيره، وكان هذا محاولة جديدة من يفغيني بريماكوف وجماعته اللذين حاولوا بمؤامرة أخرى على أي على خليل – وبعد مرور الزمن شارك خليل في إعداد بعض التقارير، لم يكن كثيراً لا يتجاوز أربعة أو خمسة حتى طلب منه غفوروف أن يلتقي به، وقال له غفوروف أن شخصاً ما مسؤول في العلاقات الخارجية للجنة المركزية للحزب كان مهتماً به، وسأل من هو د خليل عبد العزيز وقلت له أنه شيوعي عراقي محكوم بالإعدام في بلده، وسأل بأي سبب وافقتم على تعيينه في معهد الاستشراق، وقال غفوروف بأن له الحق أن يعينه في العمل كزميل باختياره ومعرفته عنه، وسأل من غفوروف أخذ موافقة وصلاحيّة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي؟ وأجاب غفوروف ليس من الضروري أخذ الموافقة لأن المكتب السياسي هو الذي اعطاني هذه الصلاحيّة. كان زملاء خليل عبد العزيز في معهد الاستشراق التي يرأسه غفوروف ومعهد التاريخ لأكاديمية العلوم السوفيتية مهتمون بأطروحة الدكتوراه لخليل، وفرحوا عندما اطلعوا على محتوى الأطروحة التي كان تخص – قانون تأميم الصحافة – في مصر وعن الظروف السياسية لهذا البلد، وتم إرسال مختصر الأطروحة إلى جميع مراكز العلمية والبحوث. في اليوم الأول عندما باشر خليل بالعمل، سأل غفوروف هل ينوي أن يطبع أطروحته في كتاب؟ بكل سرور وافق خليل عن الطبع وسأل: أي مؤسسة بإمكانها طباعتها؟

اجاب غفوروف : معهدنا يأخذ على عاتقه طبع الأطروحة إلا إننا لا نتمكن طبعه بهذه الصورة والمضمون التي وافق عليها كلية الصحافة في جامعة موسكو، لأنه سيخلق لنا بعض المشاكل وخصوصا مع بعض الجهات، وأنت تعرف هذه الجهات وهؤلاء كانوا في الماضي ضد مناقشة الأطروحة. لذلك نحن نشكل لجنة كي يختصر عدد صفحات الأطروحة من ٤٠٠ إلى اقل من ٢٠٠ دون التأثير على الفكرة الأساسية للموضوع. كان خليل راضيا ومسرورا بذلك، وكان فرحا عندما رأى أطروحته مطبوعة في كتاب وبيع بأيام معدودة، ولم يبق منه إي نسخة على رفوف المكتبات ودور النشر، بالرغم من أن الكتاب كان أكاديميا مخصص للأخصائيين و الباحثين في مجال العلوم، وللسياسيين وليس لعموم القراء.

-تاج الدين ماردوني دكتور في علوم الاداب رئيس الباحثين في قسم الشرق الادنى و الاوسط لمعهد اسيا واوروبا.

مجموعة الصور



مع مجموعة طلبة كلية الصحافة موسكو



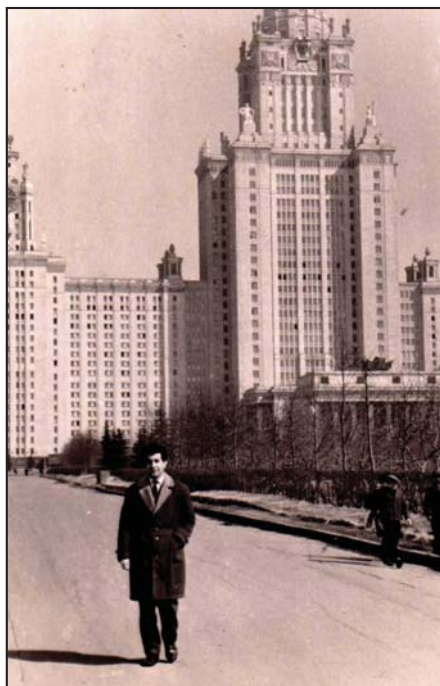
اللجنة الطلابية للاتحاد العام في الموصل



مع ثمينة ناجي زوجة سلام عادل



مع عطشان الأزيرجاوي



أمام جامعة موسكو



في مؤتمر منظمة السلم والتضامن العالمي



في مؤتمر إحياء ذكرى الفارابي



مع الوفد العراقي لمؤتمر إحياء ذكرى الفارابي



غفوروف ومرتضى عبد الباقي وفاضل البراك



مع غفوروف ومرتضى عبد الباقي



مع غفوروف والبراك



مع غفوروف والرئيس اليميني ناصر ربيع



مع مجموعة من قادة ؟؟؟



مع الرئيس ؟؟؟؟؟



مع غفوروف في اليمن الديمقراطي



مع غفوروف في اليمن الديمقراطي



مع الرئيس اليمني علي ناصر وغفوروف



مع الرئيس عبد الفتاح إسماعيل



السيد عزيز شريف في معهد الاستشراق



السيد غفوروف رئيس معهد الاستشراق



مع المترجم؟؟؟



بالقرب من الرئيس جمال عبد الناصر



الرئيس جمال عبد الناصر



الرئيس جمال والرئيس عبد السلام
والرئيس السلال



مع ؟؟؟؟؟



مع الرئيس مسعود البرزاني



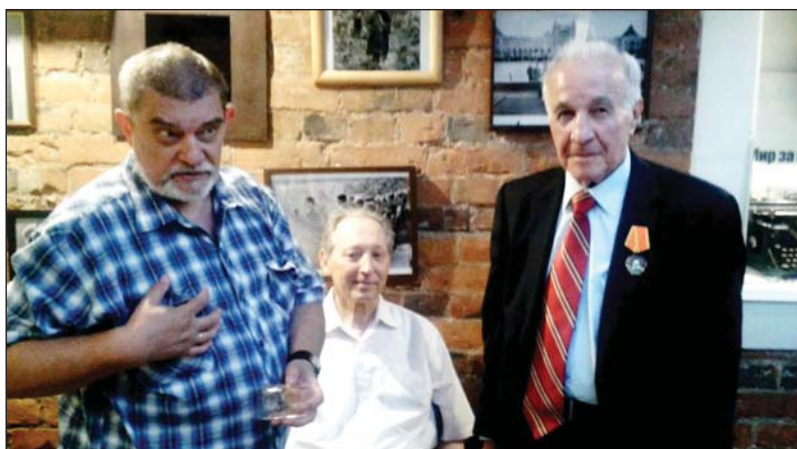
مع ؟؟؟؟



مع ؟؟؟؟



مع ؟؟؟؟



مع ؟؟؟؟



مع ؟؟؟؟



مع ؟؟؟؟



مع ؟؟؟؟



مع ؟؟؟؟

